

مجمع فتاوى

شيخ الإسلام ابن تيمية

بمطبعة دار الكتب
بدمشق

المجلد السابع

مجموع فتاوى

شيخ الإسلام أحمد بن حنبل

قدس الله روحه

١٠

جمع وترتيب الرخوم
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم
بمساعدة ابنه محمد

المجلد السابع

كتاب

الأمم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

قال شيخ الاسلام :

احمد بن تيمية قدس الله روحه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، ونشهد ان محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

اعلم ان « الايمان والاسلام » يجتمع فيهما الدين كله وقد كثر كلام الناس في « حقيقة الايمان والاسلام » ، ونزاعهم ، واضطرابهم ؛ وقد صنفت في ذلك مجلدات ؛ والنزاع في ذلك من حين خرجت الحوارج بين عامة الطوائف .

ونحن نذكر ما يستفاد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، مع ما يستفاد من كلام الله تعالى ، فيصل المؤمن الى ذلك من نفس كلام الله ورسوله ، فان هذا هو المقصود . فلان ذكر اختلاف الناس ابتداء : بل نذكر من ذلك - في ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله ورسوله - ما يبين ان ردموارد النزاع الى الله والى الرسول خير وأحسن تأويلاً ، واحسن عاقبة في الدنيا والآخرة .

فنقول : قد فرق النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام ، بين مسمى « الاسلام » ومسمى « الايمان » ومسمى « الاحسان » . فقال : « الاسلام : أن تشهد ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلاً » . وقال : « الايمان : ان تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

و « الفرق » مذكور في حديث عمر الذي انفرد به مسلم ، وفي حديث ابي هريرة الذي اتفق البخاري ومسلم عليه ، وكلاهما فيه : ان جبرائيل جاءه في صورة انسان اعرابي فسأله . وفي حديث عمر : انه جاءه في صورة أعرابي .

وكذلك فسر « الاسلام » في حديث ابن عمر المشهور ، قال : « نبي الاسلام على خمس : شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمداً عبده ورسوله ، واقام الصلاة وابتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » .

وحديث جبرائيل يبين ان « الاسلام المبني على خمس » هو الاسلام نفسه

ليس المبني غير المبني عليه ؛ بل جعل النبي صلى الله عليه وسلم الدين ثلاث درجات :
اعلاها « الاحسان » واوسطها « الايمان » وبلية « الاسلام » ، فكل محسن
مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مؤمن محسناً ، ولا كل مسلم مؤمناً ، كما
سيأتي بيانه - ان شاء الله - في سائر الأحاديث ، كالحديث الذي رواه حماد
ابن زيد ، عن ايوب عن ابي قلابة ، عن رجل من اهل الشام ، عن ابيه عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال له : « أسلم تسلم . قال : وما الاسلام ؟ قال : ان تسلم قلبك
لله ، وان يسلم المسامون من لسانك ويدك . قال : فأى الاسلام افضل ؟ قال :
الايمان . قال : وما الايمان ؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسوله ،
وبالبعث بعد الموت . قال : فأى الايمان افضل ؟ قال : الهجرة . قال : وما
الهجرة ؟ قال : ان تهجر السوء . قال : فأى الهجرة افضل ؟ قال : الجهاد .
قال : وما الجهاد ؟ قال : ان تجاهد ، او تقاتل الكفار اذا لقيتهم ،
ولا تغفل ، ولا تجبن » . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عملان هما
افضل الأعمال ، الامن عمل بمثلهما - قالها ثلاثا - حجة مبرورة ، او عمرة »
رواه احمد ، ومحمد بن نصر المروزي .

ولهذا يذكر هذه « المراتب الأربعة » فيقول : المسلم من سلم المسامون من
لسانه ويده ، والمؤمن من امنه الناس على دماهم واموالهم ، والمهاجر من هجر
السيئات ، والمجاهد من جاهد نفسه لله . وهذا مروى عن النبي صلى الله عليه
وسلم من حديث عبد الله بن عمرو ، وفضالة بن عبيد وغيرها باسناد جيد ، وهو
في « السنن » وبعضه في « الصحيحين » .

وقد ثبت عنه من غير وجه انه قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من امنه الناس على دماءهم واموالهم » . ومعلوم ان من كان مأموناً على الدماء والأموال ؛ كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ، ولو لا سلامتهم منه لما اتتموه . وكذلك في حديث عبيد بن عمير ، عن عمرو ابن عبسة .

وفي حديث عبد الله بن عبيد بن عمير ايضاً ، عن ابيه عن جده ، انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الاسلام ؟ قال : اطعام الطعام ، وطيب الكلام . قيل : فما الايمان ؟ قال : السماحة والصبر . قيل : فمن افضل المسلمين اسلاماً ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده . قيل : فمن افضل المؤمنين ايماناً ؟ قال : احسنهم خلقاً . قيل فما افضل الهجرة ؟ قال : من هجر ما حرم الله عليه . قال : اي الصلاة افضل ؟ قال : طول القنوت . قال : اي الصدقة افضل ؟ قال : جهد مقل . قال : اي الجهاد افضل ؟ قال : ان تجاهد بمالك ونفسك ؛ فيعقر جوادك ، ويراق دمك . قال اي الساعات افضل ؟ قال : جوف الليل الغابر » .

ومعلوم ان هذا كله مراتب بعضها فوق بعض ؛ والا فالهاجر لا بد ان يكون مؤمناً ، وكذلك المجاهد ، ولهذا قال : « الايمان : السماحة والصبر » . وقال في الاسلام : « اطعام الطعام ، وطيب الكلام » . والأول مستلزم للثاني ؛ فان من كان خلقه السماحة ، فعل هذا بخلاف الأول ؛ فان الانسان قد يفعل ذلك تخلفاً ، ولا يكون في خلقه سماحة وصبر . وكذلك قال : « افضل المسلمين

من سلم المسلمون من لسانه ويده . وقال : « افضل المؤمنين إيماناً احسنهم خلقاً » . ومعلوم ان هذا يتضمن الأول ؛ فمن كان حسن الخلق فعل ذلك .

قيل للحسن البصري : ما حسن الخلق ؟ قال : بذل الندى ، وكف الأذى وطلاقة الوجه . فكف الأذى جزء من حسن الخلق .

وستأتى الأحاديث الصحيحة بأنه جعل الأعمال الظاهرة من الإيمان كقوله : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا إله الا الله ، وادناها إمطة الأذى عن الطريق » . وقوله لوفد عبد القيس : « أمركم بالله وحده ، اتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة ان لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وان تؤدوا خمس ما غنمتم » .

ومعلوم انه لم يرد ان هذه الاعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب ؛ لما قد اخبر في غير موضع انه لا بد من إيمان القلب ، فعلم ان هذه مع إيمان القلب هو الإيمان ، وفي « المسند » عن انس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الاسلام علانية ، والإيمان في القلب » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ، الا وهي القلب » . فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً ، بخلاف العكس .

وقال سفيان بن عيينة : كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم الى بعض بهؤلاء الكلمات : من اصلح سريره ؛ اصلح الله علانيته . ومن اصلح ما بينه

وبين الله ؛ اصلح الله ما بينه وبين الناس . ومن عمل لآخرته ؛ كفاه الله امر دنياه . رواه ابن ابي الدنيا في « كتاب الاخلاص » .

فعلم ان القلب إذا صلح بالايان ؛ صلح الجسد بالاسلام ، وهو من الايمان ؛ يدل على ذلك انه قال في حديث جبرائيل : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » . فجعل « الدين » هو الاسلام ، والايان ، والاحسان . فبين ان ديننا يجمع الثلاثة ، لكن هو درجات ثلاث : « مسلم » ثم « مؤمن » ثم « محسن » كما قال تعالى : (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة ، بخلاف الظالم لنفسه . وهكذا من أتى بالاسلام الظاهر مع تصديق القلب ؛ لكن لم يقم بما يجب عليه من الايمان الباطن ؛ فانه معرض للوعيد ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

واما « الاحسان » فهو أعم من جهة نفسه ، واخص من جهة اصحابه من الايمان . « والايان » اعم من جهة نفسه ، واخص من جهة اصحابه من الاسلام . فالاحسان يدخل فيه الايمان ، والايان يدخل فيه الاسلام ؛ والمحسنون اخص من المؤمنين ؛ والمؤمنون اخص من المسلمين ؛ وهذا كما يقال : في « الرسالة » ، والنبوة « فالنبوة داخلة في الرسالة ، والرسالة اعم من جهة نفسها ، واخص من جهة أهلها ؛ فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ؛ فالأنبياء اعم ، والنبوة نفسها جزء من الرسالة ، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة ؛ فانها لا تتناول الرسالة .

والنبي صلى الله عليه وسلم فسر «الاسلام والايمن» بما اجاب به؛ كما يجاب عن المحدود بالحد ، إذا قيل ما كذا؟ قيل : كذا ، وكذا . كما في الحديث الصحيح ، لما قيل : ما الغيبة؟ قال : «ذكرك اخاك بما يكره» . وفي الحديث الآخر : «الكبر بظن الحق وغمط الناس» . وبظن الحق : جحده ودفعه وغمط الناس : احتقارهم وازدرائهم .

وسنذكر — ان شاء الله تعالى — سبب تنوع أجوبته ، وانها كلها حق .

ولكن (المقصود) ان قوله : « بنى الاسلام على خمس» ؛ كقوله : «الاسلام هو الخمس» كما ذكر في حديث جبرائيل ؛ فان الأمر مركب من اجزاء ، تكون الهيئة الاجتماعية فيه مبنية على تلك الأجزاء ومركبة منها ؛ فالاسلام مبنى على هذه الأركان — وسنبين إن شاء الله — اختصاص هذه الخمس بكونها هي الاسلام ، وعليها بنى الاسلام ، ولم خصت بذلك دون غيرها من الواجبات ؟

وقد فسر «الايمن» في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الاسلام هنا ، لكنه لم يذكر فيه الحجج ، وهو متفق عليه فقال : «أمركم بالايمن بالله وحده ، هل تدرون ما الايمان بالله وحده؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة ان لا إله إلا الله ، وان محمداً رسول الله ، وقيام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وإن تؤدوا خمس ما غنمتم ، او خمساً من المنعم» .

وقد روى في بعض طرقه : «الايمن بالله ، وشهادة ان لا إله إلا الله» .

لكن الأول اشهر . وفي رواية أبي سعيد : « أمركم بأربع ، وانهاكم عن أربع :
اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . وقد فسر — في حديث شعب اليمان —
اليمان بهذا وبغيره ، فقال : « اليمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة ،
افضلها قول لا اله الا الله ، وادناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة
من اليمان » .

وثبت عنه من وجوه متعددة انه قال : « الحياء شعبة من اليمان » من
حديث ابن عمر ، وابن مسعود ، وعمران بن حصين . وقال ايضاً : « لا يؤمن
احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » . وقال : لا يؤمن
أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وقال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ،
والله لا يؤمن . قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه » .
وقال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع
فبقلبه ، وذلك اضعف اليمان » . وقال : « ما بعث الله من نبي الا كان في أمته
قوم يهتدون بهديه ، ويستنون بسنته . ثم انه يخلف من بعدهم خلوف يقولون
مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ؛ فمن جاهدكم بيهدهم فهو مؤمن ، ومن
جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك
من اليمان حبة خردل » وهذا من افراد مسلم .

وكذلك في افراد مسلم قوله : « والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى
تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، او لا ادلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ :

افشوا السلام بينكم» وقال في الحديث المتفق عليه من رواية ابي هريرة، ورواه البخاري من حديث ابن عباس، قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن. ولا ينتهب النهبة يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن » .

فيقال « اسم الايمان » تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الاسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرها، وتارة يذكر مقروناً؛ اما بالاسلام كقوله في حديث جبرائيل: « ما الاسلام وما الايمان »؟ وكقوله تعالى: (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات). وقوله عز وجل: (قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) . وقوله تعالى: (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) .

وكذلك ذكر الايمان مع العمل الصالح؛ وذلك في مواضع من القرآن، كقوله تعالى: (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . واما مقروناً بالذين اتوا العلم، كقوله تعالى: (وقال الذين اتوا العلم والايمن) وقوله: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اتوا العلم درجات) . وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين اتوا العلم؛ فانهم خيارهم، قال تعالى: (والراسخون في العلم يقولون آمنا به، كل من عند ربنا) . وقال: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك، وما انزل من قبلك) .

ويذكر أيضاً لفظ المؤمنين مقروناً بالذين هادوا والنصارى والصابئين ،
ثم يقول : (من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند
ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فالمؤمنون في ابتداء الخطاب غير الثلاثة ،
والإيمان الآخر عنهم ؛ كما عنهم في قوله : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،
اولئك هم خير البرية) . وسنبيسط هذا ان شاء الله تعالى .

(فالقصد هنا) العموم والخصوص بالنسبة الى ما في الباطن والظاهر من
الإيمان . واما العموم بالنسبة الى الملل ؛ فتلك « مسألة اخرى » . فلما ذكر
الإيمان مع الاسلام ؛ جعل الاسلام هو الاعمال الظاهرة : الشهاداتان ، والصلاة
والزكاة ، والصيام ، والحج . وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله ،
وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر . وهكذا في الحديث الذي رواه
احمد ، عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الاسلام علانية ، والإيمان
في القلب » .

واذا ذكر اسم الإيمان مجرداً ؛ دخل فيه الاسلام والأعمال الصالحة ، كقوله
في حديث الشعب : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا إله إلا الله
وأدناها امانة الاذى عن الطريق » . وكذلك سائر الاحاديث التي يجعل فيها
اعمال البر من الإيمان .

ثم ان نفي « الإيمان » عند عدمها ؛ دل على أنها واجبة ، وان ذكر فضل
إيمان صاحبها - ولم ينف إيمانه - دل على أنها مستحبة ؛ فان الله ورسوله

لا ينفي اسم مسمى امر - امر الله به ، ورسوله - إلا إذا ترك بعض واجباته كقوله : « لا صلاة إلا بأمر القرآن » . وقوله : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ونحو ذلك .

فأما إذا كان الفعل مستحباً في « العبادة » لم ينفي لانتفاء المستحب ، فإن هذا لو جاز ؛ لجاز ان ينفي عن جمهور المؤمنين اسم الايمان والصلاة والزكاة والحج ؛ لأنه ما من عمل إلا وغيره افضل منه ، وليس احد يفعل افعال البر مثل ما فعلها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بل ولا ابو بكر ولا عمر . فلو كان من لم يأت بكاملها المستحب يجوز نفيها عنه ؛ لجاز ان ينفي عن جمهور المسلمين من الاولين والآخرين ، وهذا لا يقوله عاقل .

فمن قال : ان المنفي هو الكمال ، فان أراد انه نفي « الكمال الواجب » الذي يذم تاركه ، ويتعرض للعقوبة ؛ فقد صدق . وان أراد انه نفي « الكمال المستحب » فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ، ولا يجوز ان يقع ، فان من فعل الواجب كما وجب عليه ، ولم ينتقص من واجبه شيئاً ؛ لم يجز ان يقال : ما فعله لا حقيقة ولا مجازاً . فاذا قال للأعرابي المسيء في صلاته : « ارجع فصل فانك لم تصل » . وقال لمن صلى خلف الصف - وقد امره بالاعادة : « لا صلاة لغيرك خلف الصف » كان لترك واجب . وكذلك قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، اولئك هم الصادقون) يبين أن الجهاد واجب وترك الارتباب واجب .

والجهاد - وان كان فرضاً على الكفاية - فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداءً فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه ، والعزم على فعله اذا تعين ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بغزو ؛ مات على شعبة نفاق » رواه مسلم . فأخبر أنه من لم يهجم به ؛ كان على شعبة نفاق .

« وايضاً » فالجهاد جنس تحته انواع متعددة ، ولا بد ان يجب على المؤمن نوع من انواعه . وكذلك قوله : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا نزلت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا) . هذا كله واجب ؛ فان التوكل على الله واجب من اعظم الواجبات ، كما ان الاخلاص لله واجب ، وحب الله ورسوله واجب . وقد امر الله بالتوكل في غير آية اعظم مما امر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله ، قال تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) . وقال تعالى : (الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . وقال تعالى : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فخذلكم من الله فليتوكل المؤمنون) . وقال تعالى : (وقال تعالى : (وقال موسى : يا قوم ان كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) .

وأما قوله : (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا نزلت عليهم آياته زادتهم إيماناً) . فيقال : من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه ، بحيث اذا كان الانسان مؤمناً ؛ لزم ذلك بغير قصد منه ولا تمعده له

وإذا لم يوجد ؛ دل على ان الايمان الواجب لم يحصل في القلب ، وهذا كبقوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم ، اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) . فأخبر انك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فان نفس الايمان ينافي موادته كما ينفي احد الضدين الآخر ، فاذا وجد الايمان انتفى ضده ، وهو موالاته اعداء الله ، فاذا كان الرجل يوالي اعداء الله بقلبه ؛ كان ذلك دليلاً على ان قلبه ليس فيه الايمان الواجب .

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) . فذكر « جملة شرطية » تقتضي انه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف « لو » التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط ، فقال : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء) . فدل على ان الايمان المذكور ينفي اتخاذهم اولياء وبيضاده ، ولا يجتمع الايمان واتخاذهم أولياء في القلب . ودل ذلك على ان من اتخذهم اولياء ؛ ما فعل الايمان الواجب من الايمان بالله والنبي ، وما انزل اليه .

ومثله قوله تعالى : (لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ، بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منهم فانه منهم) . فانه اخبر في تلك الآيات ان متولهم لا يكون

مؤمناً . واخبر هنا ان متوليتهم هو منهم ؛ فالقرآن يصدق بعضه بعضاً . قال الله تعالى : (الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) الآية . وكذلك قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ؛ وإذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه) : دليل على ان الذهاب المذكور بدون استئذانه لا يجوز وانه يجب ان لا يذهب حتى يستأذن ، فمن ذهب ولم يستأذن كان قد ترك بعض ما يجب عليه من الايمان ؛ فلهذا نفى عنه الايمان ، فان حرف «انما» تدل على اثبات المذكور ونفي غيره .

ومن الأصوليين من يقول : ان «إن» للاثبات و«ما» للنفي ، فاذا جمع بينهما دلت على النفي والاثبات ، وليس كذلك عند اهل العربية ، ومن يتكلم في ذلك بعلم ، فان «ما» هذه هي الكافة التي تدخل على ان وأخواتها فتكفيها عن العمل ؛ لأنها انما تعمل اذا اختصت بالجمال الاسمية ، فلما كفت بطل عملها واختصاصها ، فصار يليها الجمل الفعلية والاسمية ؛ فتغير معناها وعملها جميعاً بالضم « ما » اليها وكذلك كأنما وغيرها .

وكذلك قوله تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما اولئك بالمؤمنين . واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين ، أفي قلوبهم مرض ام ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله ، بل اولئك هم الظالمون ، انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان

يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون) . فان قيل : اذا كان المؤمن حقاً هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات ؛ فقد قال : (أولئك هم المؤمنون حقاً) ولم يذكر الا خمسة أشياء . وكذلك قال في الآية الأخرى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) . وكذلك قوله : (ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) .

قيل عن هذا جوابان :

(أحدهما) : ان يكون ما ذكر مستلزماً لما ترك ؛ فانه ذكر وجل قلوبهم اذا ذكر الله . وزيادة ايمانهم اذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه ، واقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً ، وكذلك الانفاق من المال والمنافع ؛ فكان هذا مستلزماً للباقي ؛ فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه . وقد فسروا (وجلت) بفرقت . وفي قراءة ابن مسعود : (اذا ذكر الله فرقت قلوبهم) . وهذا صحيح ؛ فان « الوجل في اللغة » هو الخوف ، يقال : حمرة الحجل وصفرة الوجل . ومنه قوله تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون) قالت عائشة : « يارسول الله ! هو الرجل يزني ويسرق ويخاف ان يعاقب ؟ قال : لا ياابنة الصديق ! هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف ان لا يقبل منه » .

وقال السدي في قوله تعالى : (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) : هو

الرجل يريد ان يظلم او يهيم بمعصية فينزع عنه . وهذا كقوله تعالى : (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) وقوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . قال مجاهد وغيره من المفسرين : هو الرجل يهيم بالمعصية ، فيذكر مقامه بين يدي الله ؛ فيتركها خوفاً من الله .

وإذا كان «وجل القلب من ذكره» يتضمن خشيته ومخافته ؛ فذلك يدعو صاحبه الى فعل المأمور ، وترك المحذور . قال سهل بن عبدالله : ليس بين العبد وبين الله حجاب اغلظ من الدعوى ، ولا طريق اليه اقرب من الافتقار ، واصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله ؛ ويدل على ذلك قوله تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) . فأخبر ان الهدى والرحمة للذين يرهبون الله .

قال مجاهد وابراهيم : هو الرجل يريد ان يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب . رواه ابن ابى الدنيا ، عن ابن الجعد ، عن شعبة ، عن منصور ، عنهما ، فى قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . وهؤلاء هم اهل الفلاح المذكورون فى قوله تعالى : (اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) . وهم «المؤمنون» وهم «المتقون» المذكورون فى قوله تعالى : (آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) كما قال فى آية البر : (اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) . وهؤلاء هم المتبعون للكتاب ، كما فى قوله تعالى : (من اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) . واذا لم يضل فهو متبع مهتد ،

وإذا لم يشق فهو مرحوم . وهؤلاء هم اهل الصراط المستقيم الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين . فان اهل الرحمة ليسوا مغضوباً عليهم . واهل الهدى ليسوا ضالين . فتبين ان اهل رهبة الله يكونون متقين لله ، مستحقين لجنته بلا عذاب . وهؤلاء هم الذين أتوا بالايمان الواجب .

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) والمعنى انه لا يخشاه الا عالم ؛ فقد اخبر الله ان كل من خشي الله فهو عالم . كما قال في الآية الأخرى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . والحشية أبداً متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطاً ؛ كما ان الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان امناً ؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم اهل العلم الذين مدحهم الله . وقد روي عن ابي حيان التيمي انه قال : « العلماء ثلاثة » : فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله . فالعالم بالله هو الذي يخافه ، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم امره ونهيه ، وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « والله اني لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده » .

وإذا كان اهل الحشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة ، لم يكونوا مستحقين للذم ، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ، ويدل عليه قوله تعالى :

(فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكتنكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) . وقوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف ، وذلك إنما يكون لأنهم ادوا الواجب فدل على ان الخوف يستلزم فعل الواجب ؛ ولهذا يقال للفاجر : لا يخاف الله . ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) .

قال ابو العالية : سألت اصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، وكذلك قال سائر المفسرين . قال مجاهد : كل عاص فهو جاهل حين معصيته . وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدي وغيرهم : إنما سموا جهالاً لمعاصيهم ، لا أنهم غير مميزين . وقال الزجاج : ليس معنى الآية أنهم يجهلون انه سوء ؛ لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءاً ؛ وإنما يحتمل امرين .

(احدهما) : أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه . والثاني : أنهم اقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة ، وآثروا العاجل على الآجل ؛ فسموا جهالاً لا يثارهم القليل على الراحة الكثيرة ، والعافية الدائمة . فقد جعل الزجاج «الجهل» إما عدم العلم بعاقبة الفعل ، وإما فساد الارادة ؛ وقد يقال : هما متلازمان ، وهذا مبسوط في الكلام مع الجهمية .

والمقصود هنا ان كل عاص لله فهو جاهل ، وكل خائف منه فهو عالم

مطيع لله ؛ وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله ، إذ لو تم خوفه من الله لم
يعص . ومنه قول ابن مسعود ، رضي الله عنه : كفى بنخشية الله علماً ، وكفى
بالاغترار بالله جهلاً . وذلك لأن تصور الخوف يوجب الهرب منه ، وتصور
المحجوب يوجب طلبه ، فإذا لم يهرب من هذا ، ولم يطلب هذا ؛ دل على انه لم
يتصوره تصوراً تاماً ؛ ولكن قد يتصور الخبر عنه ، وتصور الخبر وتصديقه
وحفظ حروفه غير تصور الخبر عنه . وكذلك اذا لم يكن المتصور محجوباً له ولا
مكروهاً ؛ فان الانسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحجوب لغيره ، ولا
يورثه ذلك هرباً ولا طلباً . وكذلك اذا اخبر بما هو محجوب له ومكروه ، ولم
يكذب الخبر بل عرف صدقه ؛ لكن قلبه مشغول بأمر اخرى عن تصور
ما أخبر به ؛ فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب .

وفي الكلام المعروف عن الحسن البصرى ، ويروى مرسلًا عن النبي صلى
الله عليه وسلم : « العلم علما » فعلم في القلب ، وعلم على اللسان . فعلم القلب هو
العلم النافع ؛ وعلم اللسان حجة الله على عباده .

وقد أخرج جاري « الصحيحين » عن ابي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ، طعمها طيب وريحها
طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة ، طعمها طيب ولا ریح
لها . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ،
ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الخنظلة ، طعمها مر ولا ریح لها .
وهذا المنافق الذي يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه ، وقد يصدق انه

كلام الله وان الرسول حق ، ولا يكون مؤمناً . كما ان اليهود يعرفونه كما يعرفون ابناهم وليسوا مؤمنين ، وكذلك ابليس وفرعون وغيرها . لكن من كان كذلك ؛ لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة ، فان ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة ؛ ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه : انه جاهل كما تقدم .

وكذلك لفظ « العقل » — وان كان هو في الأصل : مصدر عقل يعقل عقلاً ، وكثير من النظائر جعله من جنس العلوم — فلا بد ان يعتبر مع ذلك انه علم يعمل بموجبه ، فلا يسمى « عاقلاً » الا من عرف الخير فطلبه ، والشر فتركه ؛ ولهذا قال اصحاب النار : (لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير) . وقال عن المنافقين : (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . ومن فعل ما يعلم انه يضره ؛ فمثل هذا ما له عقل . فكما ان الخوف من الله يستلزم العلم به ؛ فالعلم به يستلزم خشيته ، وخشيته تستلزم طاعته . فالخائف من الله ممثل لأوامره محتجب لنواهيه ، وهذا هو الذي قصدنا بيانه اولاً . ويدل على ذلك ايضاً قوله تعالى : (فذكر ان نفعت الذكرى ؛ سيدكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى) .

فأخبر ان من يخشاه يتذكر ، والتذكر هنا مستلزم لعبادته ، قال الله تعالى : (هو الذي يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر الا من ينيب) . وقال : (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) . ولهذا قالوا في قوله

(سيد كر من يخشى) : سيتعظ بالقرآن من يخشى الله . وفي قوله (وما يتذكر إلا من ينيب) : انما يتعظ من يرجع الى الطاعة . وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثير بما تذكره : فان تذكر محبوباً طلبه ، وان تذكر مرهوباً هرب منه . ومنه قوله تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) . وقال سبحانه : (انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب) . فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله : (سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) . فأثبت لهم الانذار من وجه ، ونفاد عنهم من وجه : فان الانذار هو الاعلام بالخوف . فالانذار مثل التعليم والتخويف ، فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه ، وآخر يقول : علمته فلم يتعلم . وكذلك من خوفته فحاف فهذا هو الذي تم تخويفه . واما من خوف فما خاف : فلم يتم تخويفه . وكذلك من هديته فاهتدى : تم هداه ، ومنه قوله تعالى : (هدى للمتقين) . ومن هديته فلم يهتد — كما قال : (واما تمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى) — فلم يتم هداه ، كما تقول : قطعتة فانقطع وقطعتة فما انقطع .

فاللؤثر التام يستلزم اثره : فحتى لم يحصل اثره لم يكن تاماً ، والفعل اذا صادف محلاً قابلاً تم ، والا لم يتم . والعلم بالمحجوب يورث طلبه ، والعلم بالمكروه يورث تركه ؛ ولهذا يسمى هذا العلم : الداعي ، ويقال : الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور ، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد ، وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها ، واما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيد فلا يجد له لذة بل يؤله ، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة و « الفساد

يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً، كالممرور الذي يجد العسل مرّاً؛ فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته وكذلك من فسد باطنه، قال تعالى: (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون).

وقال تعالى: (فما زاغوا وازاغ الله قلوبهم). وقال: (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم). وقال في الآية الأخرى: (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم). و«الغلف»: جمع اغلف وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثل الاقلف، كأنهم جعلوا المانع خلقة، أي خلقت القلوب وعليها اغطية. فقال الله تعالى: (بل لعنهم الله بكفرهم) وطبع الله عليها بكفرهم (فلا يؤمنون إلا قليلاً). وقال تعالى: (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم: ماذا قال آنفاً، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم).

وكذلك قالوا: (ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول) قال: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أي لأفهمهم ما سمعوه. ثم قال: (ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها، لتولوا وهم معرضون) فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا، ولو فهموا لم يعملوا، فنفي عنهم صحة القوة العلمية، وصحة القوة العملية، وقال: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالانعام بل هم اضل

سيلاً). وقال: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون). وقال: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقال عن المنافقين: (صم بكم عمى فهم لا يرجعون).

ومن الناس من يقول: لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق؛ جعلوا صماً بكاً عملياً، أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق، صاروا كالصم العمى البكم، وليس كذلك؛ بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت، كما قال الله تعالى: (فإنها لا تعى الأبصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور) «والقلب» هو الملك، والأعضاء جنوده، وإذا صلح سائر الجسد، وإذا فسد فسد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم، والمعنى: لا يفقهه، وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقهاً تاماً، فإن الفقه التام يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب، وبغض المكروه؛ فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلًا فجاز نفيه. لأن ما لم يتم ينفي، كقوله للذي أساء في صلاته: «صل فانك لم تصل». فنفي الايمان حيث نفي من هذا الباب.

وقد جمع الله بين وصفهم بوجع القلب إذا ذكر، وزيادة الايمان إذا سمعوا آياته. قال الضحاك: زادتهم يقيناً. وقال الربيع بن أنس: خشية. وعن ابن عباس تصديقاً. وهكذا قد ذكر الله هذين الأصلين في مواضع، قال تعالى: (الم

يَأْنُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَكَفَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

و « الخشوع » يتضمن معنيين : (أحدهما) : التواضع والذل . (والثاني) : السكون والطمأنينة ، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة ؛ فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأننته ايضاً ، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا ، وهذا : التواضع ، والسكون . وعن ابن عباس في قوله : (الذين هم في صلاتهم خاشعون) . قال : مخبتون اذلاء . وعن الحسن وقتادة : خائفون . وعن مقاتل : متواضعون . وعن علي : الخشوع في القلب ، وان تلين للمرء المسلم كنفك ، ولا تلتفت يمينا ولا شمالاً : وقال مجاهد : غض البصر وخفض الجناح ، وكان الرجل من العلماء إذ قام إلى الصلاة يهاب الرحمن ان يشد بصره ، او ان يحدث نفسه بشيء من امر الدنيا .

وعن عمرو بن دينار : ليس الخشوع الركوع والسجود ؛ ولكنه السكون وحب حسن الهيئة في الصلاة . وعن ابن سيرين وغيره : كان النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه يرفعون ابصارهم في الصلاة إلى السماء ، وينظرون يمينا وشمالاً حتى نزلت هذه : (قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) الآية . فجعلوا بعد ذلك ابصارهم حيث يسجدون ، وما رؤي احد منهم بعد ذلك ينظر إلا إلى الارض . وعن عطاء : هو ان لا تعبت بشيء من جسدك وانت في الصلاة ، وابصر النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبت بلحيته في الصلاة فقال : « لو خشع

قلب هذا لحشعت جوارحه . ولفظ « الخشوع » - ان شاء الله يبسط - في موضع آخر .

و « خشموع الجسد » تبع لحشوع القلب ، اذا لم يكن الرجل مرانياً يظهر ما ليس في قلبه كما روى : « تعوذوا بالله من خشوع النفاق » وهو ان يري الجسد خاشعاً والقلب خالياً لاهياً . فهو سبحانه استبطاً للمؤمنين بقوله : (ألم بأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) فدعاهم الي خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه . ونهاهم ان يكونوا كالذين طال عليهم الامد فقست قلوبهم ، وهؤلاء هم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً .

وكذلك قال في الآية الاخرى : (الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) . والذين يخشون ربهم ؛ هم الذين اذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم .

فان قيل : فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب . قيل : نعم لكن الناس فيه على قسمين : «مقصد» «وسابق» فالسابقون يختصون بالمستحبات والمقصدون الابرار : هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة ، ومن لم يكن من هؤلاء ، ولا هؤلاء ؛ فهو ظالم لنفسه . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع . ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع » .

وقد ذم الله « قسوة القلوب » المنافية للخشوع في غير موضع، فقال تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) . قال الزجاج: قست في اللغة : غلظت وبست وعسيت . فقسوة القلب، ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه . والقاسي والعاسي : الشديد الصلابة . وقال ابن قتيبة : قست وعست وعتت . أى يبست . وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة ، فإنه ينبغي ان يكون قوياً من غير عنف ، وليناً من غير ضعف . وفي الأثر: «القلوب آنية الله في أرضه ، فأحبها الى الله أصلبها وأرقها وأصفها» . وهذا كاليد فإنها قوية لينة ، بخلاف ما يقسو من العقب فإنه يابس لا لين فيه ، وان كان فيه قوة . وهو سبحانه ذكر وجل القلب من ذكره ، ثم ذكر زيادة الايمان عند تلاوة كتابه علماً وعملاً .

ثم لا بد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه ، ومن طاعته فيما يقدر عليه ، واصل ذلك « الصلاة » و « الزكاة » . فمن قام بهذه الخمس كما امر ، لزم ان يأتي بسائر الواجبات .

بل « الصلاة نفسها » إذا فعلها كما امر ، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ كما روي عن ابن مسعود ، وابن عباس : ان في الصلاة منتهى ومزدجرأ عن معاصي الله ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً . وقوله : « لم يزدد إلا بعداً » ، اذا كان ما ترك من الواجب منها اعظم مما فعله . بعده ترك الواجب الأكثر من الله أكثر مما قر به فعل الواجب الأقل ، وهذا

كما في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني شيطان ، قام فنقر اربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا » . وقد قال تعالى : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا) .

وفي السنن عن عمار ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها الا نصفها ، الا ثلثها ، حتى قال : إلا عشرها » وعن ابن عباس قال : ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها . وهذا وان لم يؤمر بعادة الصلاة عند أكثر العلماء ، لكن يؤمر بأن يأتي من التطوعات بما يجبر نقص فرضه . ومعلوم ان من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن ، واعمالها الظاهرة ، وكان يخشى الله الخشية التي امره بها ؛ فانه يأتي بالواجبات ؛ ولا يأتي كبيرة . ومن آتى الكبائر — مثل الزنا ، او السرقة ، او شرب الخمر ؛ وغير ذلك — فلا بد ان يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور ؛ وان بقي اصل التصديق في قلبه . وهذا من « الايمان » الذي ينزع منه عند فعل الكبيرة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

فان « المتقين » كما وصفهم الله بقوله : (ان الذين اتقوا إذ مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فاذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان

تذكروا ، فيبصرون . قال سعيد بن جبير : هو الرجل يغضب الغضبة ، فيذكر الله ؛ فيكظم الغيظ . وقال ليث عن مجاهد : هو الرجل يهيم بالذنب ، فيذكر الله ، فيدعه . والشهوة والغضب مبدأ السيئات ، فاذا ابصر رجوع ثم قال : (وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) . اي : واخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ، ثم لا يقصرون . قال ابن عباس : لا الانس تقصر عن السيئات . ولا الشياطين تمسك عنهم . فاذا لم يبصر بقي قلبه في غي والشيطان يمدّه في غيه . وإن كان التصديق في قلبه لم يكذب . فذلك النور والابصار . وتلك الخشية والخوف ، يخرج من قلبه . وهذا : كما ان الانسان يغمض عينيه فلا يرى شيئاً ، وان لم يكن أعمى ؛ فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق . وان لم يكن أعمى كعمى الكافر .

وهكذا جاء في الآثار : قال احمد بن حنبل في كتاب (الايمان) : حدثنا يحيى ، عن اشعث ، عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ينزع منه الايمان ؛ فان تاب اعيد اليه » . وقال : حدثنا يحيى ، عن عوف قال : قال الحسن : « يجانبه الايمان ما دام كذلك ، فان راجع راجعه الايمان » . وقال احمد : حدثنا معاوية عن أبي اسحاق ، عن الأوزاعي ، قال : وقد قلت للزهري حين ذكر هذا الحديث — « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فانهم يقولون : فان لم يكن مؤمناً فما هو ؟ قال : فأبكر ذلك . وكره مسألتى عنه .

وقال احمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان عن ابراهيم بن

مهاجر ، عن مجاهد عن ابن عباس انه قال لغلمانه : من اراد منكم الباءة زوجته
لا يزني منكم زان الا نزع الله منه نور الايمان ، فان شاء ان يرده رده ، وان
شاء ان يمنع منه . وقال ابو داود السجستاني : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة
حدثنا بقة بن الوليد ، حدثنا صفوان بن عمرو ، عن عبد الله بن ربيعة الحضرمي
انه اخبره عن ابي هريرة انه كان يقول : « إنما الايمان كثوب احدكم يلبسه حره
ويقلعه اخرى » وكذلك رواه باسناده عن عمر ، وروي عن الحسن عن النبي
صلى الله عليه وسلم مرسلًا . وفي حديث عن ابي هريرة مرفوع الى النبي
صلى الله عليه وسلم : « اذا زنى الزانى خرج منه الايمان فكان كالظلمة ، فاذا
انقطع رجع إليه الايمان » . وهذا (ان شاء الله) يبسط في موضع آخر .

فصل

وقد جاءت احاديث تنازع الناس في صحتها ، مثل قوله : « لا صلاة إلا بوضوء ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » فأما الأول : فهو كقوله : « لا صلاة الا بطهور » وهذا متفق عليه بين المسلمين ؛ فان الطهور واجب في الصلاة ، فانما نفى الصلاة لاتقاء واجب فيها ، وأما ذكر اسم الله تعالى على الوضوء ؛ ففي وجوبه نزاع معروف ، واكثر العلماء لا يوجبونه ، وهو مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي وهو احدى الروايتين عن احمد ، اختارها الحرقى وابو محمد وغيرهما . والثاني : يجب وهو قول طائفة من اهل العلم ، وهو الرواية الأخرى عن احمد ، اختارها ابو بكر عبد العزيز ، والقاضي ابو يعلى وأصحابه . وكذلك قوله : « لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد » رواه الدارقطنى ، فمن الناس من يضعفه حرفوعاً ويقول : هو من كلام علي رضي الله عنه ، ومنهم من يثبته كعبد الحق .

وكذلك قوله : « لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل » قد رواه أهل السنن ، وقيل : ان رفعه لم يصح ، وإنما يصح موقوفاً على ابن عمر او حفصة ، فليس لأحد أن يثبت لفظاً عن الرسول مع انه أريد به نفي الكمال المستحب

فان صحت هذه الالفاظ دلت قطعاً على وجوب هذه الأمور ؛ فان لم تصح فلا ينقض بها أصل مستقر من الكتاب والسنة ، وليس لأحد أن يحمل كلام الله ورسوله على وفق مذهبه ، ان لم يتبين من كلام الله ورسوله ما يدل على مراد الله ورسوله ؛ والا فآقوال العلماء تابعة لقول الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ليس قول الله ورسوله تابعاً لأقوالهم .

فاذا كان في وجوب شيء نزاع بين العلماء ، ولفظ الشارع قد اطردي في معنى ؛ لم يجوز ان ينقض الاصل المعروف من كلام الله ورسوله بقول فيه نزاع بين العلماء . ولكن من الناس من لا يعرف مذاهب أهل العلم ، وقد نشأ على قول لا يعرف غيره فيظنه إجماعاً كمن يظن انه اذا ترك الانسان الجماعة وصلى وحده برئت ذمته إجماعاً ؛ وليس الأمر كذلك ؛ بل للعلماء قولان معروفان في أجزاء هذه الصلاة ، وفي مذهب احمد فيها قولان ؛ فطائفة من قدماء اصحابه - حكاه عنهم القاضي ابو يعلى في شرح المذهب ، ومن متأخريهم كأبن عقيل وغيره - يقولون : من صلى المكتوبة وحده من غير عذر يسوغ له ذلك فهو كمن صلى الظهر يوم الجمعة ، فان أمكنه ان يؤديها في جماعة بعد ذلك فعليه ذلك ، والا بآء بآئمه كما يبوء تارك الجمعة بآئمه ، والتوبة معروضة . وهذا قول غير واحد من أهل العلم ، واكثر الآثار المروية عن السلف من الصحابة والتابعين تدل على هذا .

وقد احتجوا بما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « من سمع النداء

ثم لم يجب من غير عذر ؛ فلا صلاة له » واجابوا عن حديث التفضيل بأنه في المعذور الذي تباح له الصلاة وحده ، كما ثبت عنه انه قال : « صلاة الرجل قاعداً على النصف من صلاة القائم ، وصلاة المضطجع على النصف من صلاة القاعد » والمراد به المعذور ، كما في الحديث انه خرج وقد اصابهم وعك وهم يصلون قعوداً ، فقال ذلك .

ولم يجوز احد من السلف صلاة التطوع مضطجعاً من غير عذر ، ولا يعرف ان احداً من السلف فعل ذلك ، وجوازه وجه في مذهب الشافعي ، واحمد ، ولا يعرف لصاحبه سلف صدق ، مع ان هذه المسألة مما تعم بها البلوى ؛ فلو كان يجوز لكل مسلم ان يصلي التطوع على جنبه ، وهو صحيح لا مرض به ، كما يجوز ان يصلي التطوع قاعداً وعلى الراحة ؛ لكان هذا مما قد بينه الرسول صلى الله عليه وسلم لأئمة ، وكان الصحابة تعلم ذلك ثم مع قوة الداعي الى الخير لا بد ان يفعل ذلك بعضهم ، فلما لم يفعله احد منهم ، دل على أنه لم يكن مشروعاً عندهم ، وهذا مبسوط في موضعه .

والمقصود هنا انه ينبغي للمسلم ان يقدر قدر كلام الله ورسوله ؛ بل ليس لأحد ان يحمل كلام احد من الناس الا على ما عرف انه اراده ، لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل احد ، فان كثيراً من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله ؛ يسلك مسلك من يجعل « التأويل » كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ ، وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص وهذا خطأ ؛ بل جميع ما قاله الله ورسوله

يجب الايمان به ، فليس لنا ان نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، وليس الاعتاء بمراده في احد النصين دون الآخر بأولى من العكس ، فاذا كان النص الذي وافقه يعتقد انه اتبع فيه مراد الرسول ؛ فكذلك النص الآخر الذي تأوله ، فيكون أصل مقصوده معرفة ما اراده الرسول بكلامه ؛ وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل عند من يكون اصطلاحه تغاير معناها . واما من يجعلهما بمعنى واحد ، كما هو الغالب على اصطلاح المفسرين ؛ فالتأويل عندهم هو التفسير . واما « التأويل » في كلام الله ورسوله ؛ فله معنى ثالث غير معناه في اصطلاح المفسرين ، وغير معناه في اصطلاح متأخري الفقهاء والأصوليين ؛ كما بسط في موضعه .

والمقصود هنا ان كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى اسماء الأمور الواجبة كاسم الايمان ، والاسلام والدين ، والصلاة والصيام ، والطهارة والحج وغير ذلك ؛ فانما يكون لترك واجب من ذلك المسمى ، ومن هذا قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويساموا تسليماً) فلما نفى الايمان حتى توجد هذه الغاية ، دل على ان هذه الغاية فرض على الناس ؛ فمن تركها كان من اهل الوعيد ، لم يكن قد اتى بالايمان الواجب الذي وعد اهله بدخول الجنة بلا عذاب ، فان الله اتما وعد بذلك من فعل ما امر به ، واما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها ؛ فهو معرض للوعيد .

ومعلوم باتفاق المسلمين انه يجب « تحكيم الرسول » في كل ما شجر بين

الناس في امر دينهم ودنياهم في اصول دينهم وفروعه ، وعليهم كلهم اذا حكم بشيء ان لا يجذوا في انفسهم حرجاً مما حكم ويسلموا تسليماً . قال تعالى : (ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ، ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالاً بعيداً . واذا قيل لهم : تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول ؛ رايت المنافقين يصدون عنك صدوداً) . وقوله : (الى ما انزل الله) وقد انزل الله الكتاب والحكمة وهي السنة ، قال تعالى : (واذ كروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) . وقال تعالى : (وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً) . والدعاء الى ما انزل يستلزم الدعاء الى الرسول ، والدعاء الى الرسول يستلزم الدعاء الى ما انزله الله ، وهذا مثل طاعة الله والرسول ؛ فانهما متلازمان ، فمن يطع الرسول فقد اطاع الله ، ومن اطاع الله فقد اطاع الرسول .

وكذلك قوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين) . فانهما متلازمان ؛ فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى . فان كان يظن انه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطيء ؛ فهو بمنزلة من ظن انه متبع للرسول وهو مخطيء .

وهذه « الآية » تدل على ان اجماع المؤمنين حجة من جهة ان مخالفتهم

مستلزمة لمخالفة الرسول ، وان كل ما اجمعوا عليه فلا بد ان يكون فيه نص عن الرسول ؛ فكل مسألة يقطع فيها بالاجماع وابتغاء المنازع من المؤمنين ؛ فانها مما بين الله فيه الهدى ، ومخالف مثل هذا الاجماع يكفر ، كما يكفر مخالف النص البين . واما إذا كان يظن الاجماع ولا يقطع به ، فهنا قد لا يقطع ايضاً بأنها مما تبين فيه الهدى من جهة الرسول ، ومخالف مثل هذا الاجماع قد لا يكفر ؛ بل قد يكون ظن الاجماع خطأ . والصواب في خلاف هذا القول ، وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الاجماع وما لا يكفر .

و «الاجماع» هل هو قطعي الدلالة او ظني الدلالة ؟ . فان من الناس من يطلق الاثبات بهذا او هذا ، ومنهم من يطلق النفي لهذا ولهذا . والصواب التفصيل بين ما يقطع به من الاجماع ، ويعلم يقيناً انه ليس فيه منازع من المؤمنين اصلاً ؛ فهذا يجب القطع بأنه حق ؛ وهذا لا بد ان يكون مما بين فيه الرسول الهدى ؛ كما قد بسط هذا في موضع آخر .

ومن جهة انه إذا وصف الواجب بصفات متلازمة ؛ دل على ان كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها ، وهذا مثل (الصراط المستقيم) الذي امرنا الله بسؤال هدايته ؛ فانه قد وصف بأنه الاسلام ، ووصف بأنه اتباع القرآن ، ووصف بأنه طاعة الله ورسوله ، ووصف بأنه طريق العبودية ؛ ومعلوم ان كل اسم من هذه الاسماء يجب اتباع مسماه ، ومسماها كلها واحد وان تنوعت صفاته ؛ فأى صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها ، فانه مدلول الأخرى . وكذلك اسماء الله تعالى ، واسماء كتابه ، واسماء رسوله ، هي مثل اسماء دينه .

وكذلك قوله تعالى . (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) قيل : حبل الله هو دين الاسلام ؛ وقيل : القرآن ، وقيل : عهده ، وقيل : طاعته وامره ، وقيل جماعة المسلمين ؛ وكل هذا حق .

وكذلك اذا قلنا : الكتاب ، والسنة والاجماع ، فدلول الثلاثة واحد ، فان كل ما في الكتاب فالرسول موافق له ، والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة ، فليس في المؤمنين إلا من يوجب اتباع الكتاب ، وكذلك دل ما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم فالقرآن يأمر باتباعه فيه ، والمؤمنون مجمعون على ذلك . وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون ؛ فانه لا يكون الا حقاً موافقاً لما في الكتاب والسنة ؛ لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول وأما الرسول فينزل عليه وحي القرآن ، ووحى آخر هو الحكمة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » .

وقال حسان بن عطية : كان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن . فليس كل ما جاءت به السنة يجب ان يكون مفسراً في القرآن ؛ بخلاف ما يقوله اهل الاجماع ؛ فانه لا بد ان يدل عليه الكتاب والسنة ، فان الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله في امره ونهيه ، وتحليله وتحريمه ؛ والمقصود ذكر الايمان .

ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يبغيض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » . وقوله : « آية الايمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » . فان من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول

الأمر ، وكان محباً لله ولرسوله ؛ احبهم قطعاً ، فيكون حبه لهم علامة الايمان الذي في قلبه ، ومن ابغضهم لم يكن في قلبه الايمان الذي اوجه الله عليه .

وكذلك من لم يكن في قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرمه الله ورسوله من الكفر والفسوق والعصيان ؛ لم يكن في قلبه الايمان الذي اوجه الله عليه ، فان لم يكن مبغضاً لشيء من المحرمات اصلاً ؛ لم يكن معه ايمان اصلاً ، كما سنيده ان شاء الله تعالى . وكذلك من لا يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ؛ لم يكن معه ما اوجه الله عليه من الايمان ، فحيث نفى الله الايمان عن شخص ؛ فلا يكون الا لنقص ما يجب عليه من الايمان ، ويكون من المعرضين للوعيد ، ليس من المستحقين للوعد المطلق .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا ، ومن حمل علينا السلاح فليس منا » كله من هذا الباب ، لا يقوله الا لمن ترك ما اوجب الله عليه ، او فعل ما حرمه الله ورسوله ؛ فيكون قد ترك من الايمان المفروض عليه ما ينفي عنه الاسم لأجله ، فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد ، السالمين من الوعيد .

وكذلك قوله تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسل واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما اولئك بالمؤمنين ، واذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مدعنين ، انى قلوبهم حرض ام ارتابوا ام يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله؟! بل اولئك هم الظالمون

إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا : سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون .

فهذا حكم اسم الايمان إذا أطلق في كلام الله ورسوله ؛ فانه يتناول فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، ومن نفى الله ورسوله عنه الايمان ؛ فلا بد ان يكون قد ترك واجباً او فعل محرماً ، فلا يدخل في الاسم الذي يستحق اهله الوعد دون الوعيد ؛ بل يكون من اهل الوعيد .

وكذلك قوله تعالى : (حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ؛ اولئك هم الراشدون) .

قال محمد بن نصر المروزي : لما كانت المعاصي بعضها كفر ، وبعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة انواع : نوع منها كفر ، ونوع منها فسوق وليس بكفر ، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق ، واخبر انه كرهها كلها الى المؤمنين . ولما كانت الطاعات كلها داخلة في الايمان ، وليس فيها شيء خارج عنه لم يفرق بينها فيقول : حبب اليكم الايمان والفرائض وسائر الطاعات ؛ بل اجمل ذلك فقال : (حبب اليكم الايمان) . فدخل في ذلك جميع الطاعات ؛ لأنه قد حبب الى المؤمنين الصلاة والزكاة ، وسائر الطاعات حب تدين ، لأن الله اخبر : انه حبب ذلك اليهم ، وزينه في قلوبهم ، لقوله : (حبب اليكم الايمان) ويكرهون جميع المعاصي ؛ الكفر منها والفسوق ، وسائر المعاصي كراهة تدين لأن الله اخبر : انه كره ذلك اليهم . ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

« من سرته حسنته ، وساءته سيئته ؛ فهو مؤمن » لأن الله حب الى المؤمنين الحسنات وكره اليهم السيئات .

« قلت » : وتكريمه جميع المعاصي اليهم ، يستلزم حب جميع الطاعات ؛ لأن ترك الطاعات معصية ، ولأنه لا يترك المعاصي كلها ان لم يتلبس بظدها ، فيكون محباً لظدها وهو الطاعة ؛ إذ القلب لا بد له من ارادة ، فاذا كان يكره الشر كله ؛ فلا بد ان يريد الخير . والمباح بالنية الحسنة يكون خيراً ، وبالنية السيئة يكون شراً . ولا يكون فعل اختياري الا بارادة ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « احب الأسماء الى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، واصدق الاسماء : حارث وهام واقبحها : حرب وحرمة » .

وقوله اصدق الأسماء : حارث وهام ؛ لأن كل انسان هام حارث ، والحارث الكاسب العامل . والهام الكثير الهم - وهو مبدأ الارادة - وهو حيوان ، وكل حيوان حساس متحرك بالارادة ، فاذا فعل شيئاً من المباحات ؛ فلا بد له من غاية ينتهي اليها قصده . وكل مقصود اما ان يقصد لنفسه ، واما ان يقصد لغيره . فان كان منتهى مقصوده وحراده عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو إلهه الذي يعبد لا يعبد شيئاً سواه ، وهو احب اليه من كل ما سواه ؛ فان ارادته تنتهي الى ارادته وجه الله ، فيثاب على مباحاته التي يقصد الاستعانة بها على الطاعة ، كما في « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « نفقة الرجل على اهله يحتسبها صدقة » . وفي « الصحيحين » عنه انه قال لسعد بن ابي وقاص لما

مرض بمكة وعاده - « انك لن تتفق نفقة تبغى بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعة ، حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك » . وقال معاذ بن جبل لأبي موسى : « انى احتسب نومتى كما احتسب قومتى . وفي الاثر : نوم العالم تسيح .

وان كان اصل مقصوده عبادة غير الله ؛ لم تكن الطيبات مباحة له ، فان الله أباحها للمؤمنين من عباده ؛ بل الكفار واهل الجرائم والذنوب واهل الشهوات ، يحاسبون يوم القيامة على النعم التي تتعموا بها فلم يذكره ولم يعبدوه بها ، ويقال لهم : (اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ؛ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون) . وقال تعالى : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) . اي عن شكره ، والكافر لم يشكر على النعيم الذي انعم الله عليه به فيعاقبه ، على ذلك ؛ والله انما اباحها للمؤمنين ، وامرهم معها بالشكر ، كما قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله) .

وفي « صحيح مسلم » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » . وفي « سنن ابن ماجه » وغيره : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » .

وكنذك قال للرسول : (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى : (احلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم

حرم) وقال الخليل : (وارضق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال الله تعالى : (ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير) . فالخليل انما دعا بالطيبات للمؤمنين خاصة ، والله انما اباح بهيمة الانعام لمن حرم ما حرمه الله من الصيد وهو محرم ، والمؤمنون أمرهم ان يأكلوا من الطيبات ويشكروه .

ولهذا ميز سبحانه وتعالى بين خطاب الناس مطلقاً ، وخطاب المؤمنين فقال : (يا ايها الناس كلوا مما في الارض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، انما يأحرمكم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لاتعلمون واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ؛ اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) . فانما اذن للناس ان يأكلوا مما في الأرض بشرطين : ان يكون طيباً ، وان يكون حلالاً . ثم قال : (يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون . انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله) .

فأذن للمؤمنين في الأكل من الطيبات ولم يشترط الحل ، واخبر انه لم يحرم عليهم إلا ما ذكره ؛ فما سواه لم يكن محرماً على المؤمنين ، ومع هذا فلم يكن احله بخطابه ؛ بل كان عفواً ، كما في الحديث عن سلمان موقوفاً ومرفوعاً : «الحلال ما احله الله في كتابه ، والحرام ما حرمه الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفى عنه » .

وفي حديث ابي ثعلبة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم حرماً فلا تنتهكوها وسكت عن اشيء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » .

وكذلك قوله تعالى : (قل لا اجد فيما اوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة) . نفى التحريم عن غير المذكور ، فيكون الباقي مسكوتاً عن تحريمه عفوياً ، والتحليل انما يكون بخطاب ؛ ولهذا قال في سورة المائدة التي أنزلت بعد هذا : (يسألونك ماذا احل لهم؟ قل : أحل لكم الطيبات ، وماءه تم من الجوارح مكلين) . الى قوله : (اليوم احل لكم الطيبات ، وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم) . ففي ذلك اليوم احل لهم الطيبات ، وقبل هذا لم يكن محرماً عليهم الا ما استثناه .

وقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير ، ولم يكن هذا نسخاً للكتاب ؛ لأن الكتاب لم يحل ذلك ، ولكن سكت عن تحريمه ، فكان تحريمه ابتداءً شرع ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المروي من طرق من حديث ابي رافع ، و ابي ثعلبة ، و ابي هريرة ، وغيرهم : « لا ألفين احدكم متكئاً على اريكته ، يأتيه الأمر من امري مما امرت به ، او نهيت عنه ، فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ؛ فما وجدنا فيه من حلال احللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا واني اوتيت الكتاب ومثله معه » . وفي لفظ : « الا وانه مثل القرآن او اكثر . الا واني

حرمت كل ذي ناب من السباع». فيبين انه انزل عليه وحي آخر وهو الحكمة غير الكتاب. وان الله حرم عليه في هذا الوحي ما اخبر بتحريمه ولم يكن ذلك نسخاً للكتاب؛ فان الكتاب لم يحل هذه قط. انما احل الطيبات، وهذه ليست من الطيبات، وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم). فلم تدخل هذه الآية في العموم؛ لكنه لم يكن حرماً؛ فكانت معفواً عن تحريمها؛ لا مأذوناً في اكلها.

واما «الكفار» فلم يأذن الله لهم في اكل شيء، ولا احل لهم شيئاً، ولا عفا لهم عن شيء يأكلونه؛ بل قال: (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً). فشرط فيما يأكلونه ان يكون حلالاً؛ وهو المأذون فيه من جهة الله ورسوله، والله لم يأذن في الأكل الا للمؤمن به؛ فلم يأذن لهم في اكل شيء الا اذا آمنوا. ولهذا لم تكن اموالهم مملوكة لهم ملكاً شرعياً؛ لأن الملك الشرعي هو القدرة على التصرف الذي اباحه الشارع صلى الله عليه وسلم والشارع لم يبيح لهم تصرفاً في الأموال، الا بشرط الايمان؛ فكانت اموالهم على الاباحة. فاذا قهر طائفة منهم طائفة قهراً يستحلونه في دينهم، واخذوها منهم؛ صار هؤلاء فيها كما كان اولئك.

والمسلمون اذا استولوا عليها، فغنموها، ملكوها شرعاً، لأن الله اباح لهم الغنائم، ولم يبيحها لغيرهم. ويجوز لهم ان يعاملوا الكفار فيما اخذه بعضهم من بعض بالقهر الذي يستحلونه في دينهم، ويجوز ان يشتري من بعضهم ما

سباه من غيره ؛ لأن هذا بمنزلة استيلائه على المباحات . ولهذا سمي الله ما عاد من اموالهم إلى المسلمين « فيئاً » ؛ لأن الله افاءه الى مستحقه ، اي : رده الى المؤمنين به الذين يعبدونه ، ويستعينون برزقه على عبادته ؛ فانه انما خلق الخلق ليعبدوه ، وانما خلق الرزق لهم ليستعينوا به على عبادته . ولفظ « الفئ » قد يتناول « الغنيمة » كقول النبي صلى الله عليه وسلم في غنائم خين : « ليس لي مما افاء الله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم » . لكنه لما قال تعالى : (وما افاء الله على رسوله منهم فإا اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) : صار لفظ « الفئ » اذا اطلق في عرف الفقهاء ؛ فهو ما اخذ من مال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب ، والايجاف نوع من التحريك .

واما اذا فعل المؤمن ما ابيح له قاصداً للعدول عن الحرام الى الحلال لحاجته اليه ؛ فانه يثاب على ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وفي بضع احدكم صدقة . قالوا يارسول الله يأتي احدنا شهوته ، ويكون له فيها اجر؟ قال : ارايتم لو وضعها في الحرام كان عليه وزر ، فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له اجر » . وهذا كقوله في حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله يحب ان يؤخذ برخصه ، كما يكره ان تؤتى معصيته » رواه احمد ، وابن خزيمة في « صحيحه » وغيرها .

فأخبر ان الله يحب إتيان رخصه ، كما يكره فعل معصيته . وبعض الفقهاء يرويه : « كما يحب ان تؤتى عزائمه » . وليس هذا لفظ الحديث ؛ وذلك لأن الرخص إنما أباحها الله لحاجة العباد اليها ، والمؤمنون يستعينون بها على عبادته ؛

فهو يحب الأخذ بها ، لأن الكريم يحب قبول احسانه وفضله ؛ كما قال في حديث : «القدر صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته» . ولأنه بها تتم عبادته وطاعته . وما لا يحتاج اليه الانسان من قول وعمل ، بل يفعله عبثاً ؛ فهذا عليه لاله ، كما في الحديث : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا امرأ بمعروف ، او نهياً عن منكر او ذكراً لله .

وفي «الصحيحين» عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً او ليصمت » . فأمر المؤمن بأحد امرين : اما قول الخير او الصمت . ولهذا كان قول الخير خيراً من السكوت عنه ، والسكوت عن الشر خيراً من قوله ؛ ولهذا قال الله تعالى : (ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) .

وقد اختلف «اهل التفسير» هل يكتب جميع اقواله ؟ فقال مجاهد وغيره : يكتبان كل شيء حتى أئنه في مرضه . وقال عكرمة لا يكتبان الا ما يؤجر عليه او يؤزر . والقرآن يدل على انهما يكتبان الجميع ؛ فانه قال : (ما يلفظ من قول) نكرة في الشرط مؤكدة بحرف «من» ؛ فهذا يعم كل قوله . وايضاً فكونه يؤجر على قول معين او يؤزر ؛ يحتاج الى ان يعرف الكاتب ما امر به وما نهى عنه ؛ فلا بد في اثبات معرفة الكاتب به الى نقل . وايضاً فهو مأمور ، اما بقول الخير ، واما بالصمت . فاذا عدل عما امر به من الصمت الى فضول القول الذي ليس بخير ؛ كان هذا عليه ، فانه يكون مكروهاً ، والمكروه ينقصه ؛ ولهذا قال

النبي صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . فاذا خاض فيما لا يعنيه ؛ نقص من حسن إسلامه فكان هذا عليه . إذ ليس من شرط ما هو عليه ، ان يكونه مستحقاً لعذاب جهنم وغضب الله ، بل نقص قدره ودرجته عليه .

ولهذا قال تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) . فما يعمل احد إلا عليه أوله ، فان كان مما أمر به ، كان له . والا كان عليه ولو انه ينقص قدره . والنفس طبعها الحركة لا تسكن قط ؛ لكن قد عفا الله عما حدث به المؤمنون أنفسهم ما لم يتكلموا به او يعملوا به ؛ فاذا عملوا به دخل في الأمر والنهي . فاذا كان الله قد كرهه إلى المؤمنين جميع المعاصي وهو قد حجب اليهم الايمان الذي يقتضي جميع الطاعات ، اذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس ؛ فان المرجئة لا تنازع في ان الايمان الذي في القلب يدعو الى فعل الطاعة ويقتضي ذلك ، والطاعة من ثمراته وتنتأجه ، لكنها تنازع ، هل يستلزم الطاعة ؟ فانه وان كان يدعو الى الطاعة ؛ فله معارض من النفس والشيطان ، فاذا كان قد كرهه الى المؤمنين المعارض ، كان المقتضي للطاعة سالماً عن هذا المعارض .

وايضاً فاذا كرهوا جميع السيئات لم يبق الا حسنات او مباحات ، والمباحات لم تبح الا لأهل الايمان الذين يستعينون بها على الطاعات ، والا فالله لم يبيح قط لاحد شيئاً ان يستعين به على كفر ، ولا فسوق ، ولا عصيان ؛ ولهذا لعن النبي صلى الله عليه وسلم عاصر الخمر ومعتصرها ، كما لعن شاربها . والعاصر

يعصر غنماً يصير عصيراً يمكن ان ينتفع به في المباح ، لكن لما علم ان قصد العاصر ان يجعلها خمرأ ؛ لم يكن له ان يعينه بما جنسه مباح على معصية الله ، بل لعنه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، لأن الله لم يبيح اعانة العاصي على معصيته ، ولا اباح له ما يستعين به في المعصية . فلا تكون مباحات لهم الا اذا استعانوا بها على الطاعات . فيلزم من انتفاء السيئات انهم لا يفعلون الا الحسنات ؛ ولهذا كان من ترك المعاصي كلها ، فلا بد ان يشغل بطاعة الله . وفي الحديث الصحيح : « كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها او موبقها » . فالؤمن لا بد ان يحب الحسنات . ولا بد ان يبغض السيئات ولا بد ان يسره فعل الحسنة ويسوئه فعل السيئة ، ومتى قدر ان في بعض الأمور ليس كذلك كان ناقص الايمان ،

والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها ، او يأتي بحسنات تمحوها ، او يتلى بلاء يكفرها عنه ولكن لا بد ان يكون كازها لها ؛ فان الله اخبر انه حبب الى المؤمنين الايمان ، وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، فمن لم يكره الثلاثة لم يكن منهم . ولكن « محمد بن نصر » يقول : الفاسق يكرهها تدنياً . فيقال : ان اريد بذلك انه يعتقد ان دينه حرمها ، وهو يحب دينه ، وهذه من جملة ؛ فهو يكرهها . وان كان يحب دينه جملاً ، وليس في قلبه كراهة لها ؛ كان قد عدم من الايمان بقدر ذلك ، كما في الحديث الصحيح : « من رأى منك منكرأ فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » .

وفي الحديث الآخر الذي في الصحيح أيضاً - « صحيح مسلم » - « فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة من خردل . »

فعلم ان القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله ؛ لم يكن فيه من الايمان ، الذي يستحق به الثواب . وقوله : « من الايمان » اي : من هذا الايمان ، وهو الايمان المطلق . اي : ليس وراء هذه الثلاث ما هو من الايمان ، ولا قدر حبة خردل . والمعنى : هذا آخر حدود الايمان ، ما بقى بعد هذا من الايمان شيء ؛ ليس مراده انه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الايمان شيء ؛ بل لفظ الحديث إنما يدل على المعنى الأول .

فصل

ومن هذا الباب لفظ « الكفر » و « النفاق » فالكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة ، دخل فيه المنافقون ، كقوله : (ومن يكفر بالآيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) . وقوله : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ فقد ضلّ ضلالاً بعيداً) . وقوله : (لا يصلاها إلا الاشقى الذي كذب وتولى) وقوله : (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ، إن اتمم إلا في ضلال كبير) وقوله : (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل : ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) . وقوله : (ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً او كذب بالحق لما جاءه ، اليس في جهنم مثوى للكافرين ؟) . وقوله : (ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة اعمى ، قال : رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة اشد وابقى) وقوله :

(إن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها اولئك هم شر البرية) . وامثال هذه النصوص كثير في القرآن .

فهذه كلها يدخل فيها « المنافقون » الذين هم في الباطن كفار ليس معهم من الايمان شيء ، كما يدخل فيها « الكفار » المظهرون للكفر ؛ بل المنافقون في الدرك الاسفل من النار ، كما اخبر الله بذلك في كتابه .

ثم قد يقرن « الكفر بالنفاق » في مواضع ؛ ففي اول البقرة ذكر اربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين ، فقال تعالى : (ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) وقال : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) إلى قوله : (فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) . وقال : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) . في سوتين ، وقال : (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا) . الآية .

وكذلك لفظ « المشركين » قد يقرن بأهل الكتاب فقط ، وقد يقرن بالملل الخمس ؛ كما في قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ؛ ان الله على كل شيء شهيد) .

و (الأول) كقوله : (لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين

منفكين حتى تأتيمهم البينة). وقوله : (إن الذين كفروا من اهل الكتاب
والمشركين في نار جهنم خالدين فيها ؛ اولئك هم شر البرية). وقوله تعالى : (وقل
للذين اتوا الكتاب والاميين أسأتم ، فان اساموا فقد اهدوا وان تولوا
فانما عليك البلاغ) . وليس احد بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلا من
الذين اتوا الكتاب او الاميين ، وكل امة لم تكن من الذين اتوا الكتاب
فهم من الاميين ؛ كالأميين من العرب ومن الحزر والصقالبة والهند والسودان
 وغيرهم من الامم الذين لا كتاب لهم فهؤلاء كلهم اميون ، والرسول مبعوث
 اليهم كما بعث الى الاميين من العرب .

وقوله : (وقل للذين اتوا الكتاب) - وهو انما يخاطب الموجودين
 في زمانه بعد النسخ والتبديل - يدل على ان من دان بدين اليهود والنصارى ،
 فهو من الذين اتوا الكتاب ، لا يختص هذا اللفظ بمن كانوا متمسكين به
 قبل النسخ والتبديل ، ولا فرق بين اولادهم واولاد غيرهم ؛ فان اولادهم اذا
 كانوا بعد النسخ والتبديل ممن اتوا الكتاب ، فكذلك غيرهم اذا كانوا كلهم
 كفاراً ، وقد جعلهم الذين اتوا الكتاب بقوله : (وقل للذين اتوا الكتاب)
 وهو لا يخاطب بذلك الا من بلغته رسالته ؛ لا من مات ؛ فدل ذلك على ان
 قوله : (وطعام الذين اتوا الكتاب) يتناول هؤلاء كلهم ، كما هو مذهب
 الجمهور من السلف والخلف ، وهو مذهب مالك ، وابي حنيفة ، وهو المنصوص
 عن احمد في عامة اجوبته ، لم يختلف كلامه الا في نصارى بني تغلب ، وآخر
 الروايتين عنه : انهم تباح نساؤهم وذبائحهم ؛ كما هو قول جمهور الصحابة .

وقوله في « الرواية الأخرى » : لا تباح ؛ متابعة لعلی بن ابی طالب رضي الله عنه ، لم يكن لأجل النسب ؛ بل لكونهم لم يدخلوا في دين اهل الكتاب إلا فيما يشتهونه من شرب الخمر ونحوه ، ولكن بعض التابعين ظن ان ذلك لأجل النسب ، كما نقل عن عطاء ، وقال به الشافعي ومن وافقه من اصحاب احمد ، وفرعوا على ذلك فروعا ، كمن كان احد ابويه كتابياً والآخر ليس بكتابي ونحو ذلك ، حتى لا يوجد في طائفة من كتب اصحاب احمد الا هذا القول ؛ وهو خطأ على مذهبه ، مخالف لنصوصه ، لم يعلق الحكم بالنسب في مثل هذا البتة كما قد بسط في موضعه .

ولفظ « المشركين » يذكر مفرداً في مثل قوله : (ولا تتكحوا المشركات حتى يؤمن) وهل يتناول اهل الكتاب ؟ فيه « قولان » مشهوران للسلف والخلف . والذين قالوا : بأنها تعم ؛ منهم من قال : هي محكمة ، كابن عمر والجمهور الذين يبيحون نكاح الكتابيات ؛ كما ذكره الله في آية المائدة ، وهي متأخرة عن هذه . ومنهم من يقول : نسخ منها تحريم نكاح الكتابيات . ومنهم من يقول : بل هو مخصوص لم يرد باللفظ العام ، وقد أنزل الله تعالى بعد صلح الحديبية قوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) . وهذا قد يقال : إنما نهي عن التمسك بالعصمة من كان متزوجاً كافراً ، ولم يكونوا حينئذ متزوجين إلا بمشركة وثنية ؛ فلم يدخل في ذلك الكتابيات .

فصل

وكذلك لفظ « الصالح » و « الشهيد » و « الصديق » : يذكر مفرداً ؛
فيتناول النبيين ، قال تعالى في حق الخليل : (وآتيناه اجره في الدنيا وانه في
الآخرة لمن الصالحين) . وقال : (وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن
الصالحين) . وقال الخليل : (رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين) . وقال يوسف :
(توفني مسلماً وألحطني بالصالحين) . وقال سليمان : (وادخني برحمتك في عبادك
الصالحين) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المتفق على صحته
لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان
فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم « ان الله هو السلام ، فاذا قعد
احدكم في الصلاة ؛ فليقل : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ، السلام عليك
ايها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فاذا قالها
اصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض » .. الحديث .

وقد يذكر « الصالح مع غيره » كقوله تعالى : (فأولئك مع الذين انعم الله
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) . قال الزجاج وغيره :
الصالح : القائم بحقوق الله وحقوق عباده . ولفظ « الصالح » خلاف الفاسد ؛

فاذا أطلق فهو الذي اصلح جميع امره ، فلم يكن فيه شيء من الفساد ، فاستوت سريرته وعلانيته ، واقواله واعماله على ما يرضي ربه ؛ وهذا بتناول النبيين ومن دونهم . ولفظ « الصديق » قد جعل هنا معطوفاً على النبيين ؛ وقد وصف به النبيين ، في مثل قوله : (واذاً كر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) - (واذاً كر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً) .

وكذلك « الشهيد » قد جعل هنا قرين الصديق والصالح ، وقد قال : (وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق) . ولما قيدت الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها في قوله : (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً) . فهذه شهادة مقيدة بالشهادة على الناس ، كالشهادة المذكورة في قوله : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) . وقوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) . وليست هذه الشهادة المطلقة في الآيتين بل ذلك كقوله : (ويتخذ منكم شهداء) .

فصل

وكذلك لفظ « المعصية » و « الفسوق » و « الكفر » : فإذا اطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق ، كقوله : (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً) . وقال تعالى : (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسوله واتبعوا أمراً كل جبار عنيد) . فأطلق معصيتهم للرسول بأنهم عصوا هوداً معصية تكذيب الجنس الرسول ، فكانت المعصية لجنس الرسول كمعصية من قال : (فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء) . ومعصية من كذب وتولى ، قال تعالى : (لا يصلاها الا الأشقى ، الذي كذب وتولى) أي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر ، وإنما على الخلق ان يصدقوا الرسول فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا . وكذلك قال في فرعون : (فكذب وعصى) . وقال عن جنس الكافر : (فلا صدق ولا صلي ولكن كذب وتولى) . فالتكذيب للخبر ، والتولي عن الأمر . وإنما الايمان تصديق الرسول فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا ، ومنه قوله : (كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول) .

ولفظ « التولي » بمعنى التولي عن انطاعة مذكور في مواضع من القرآن ،

كقوله : (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسامون ، فان تطيعوا يؤتكم الله أجرأحسناً ، وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) وذمه في غير موضع من القرآن من تولى ؛ دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة ، وذنم المتولي عن الطاعة ؛ كما علق الذم بمطلق المعصية في مثل قوله : (فعصى فرعون الرسول) . وقد قيل : ان « التأيد » لم يذكر في القرآن إلا في وعيد الكفار ؛ ولهذا قال : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، واعد له عذاباً عظيماً) .

وقال فيمن يجور في الموارث : (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) . فهنا قيد المعصية بتعدي حدوده ، فلم يذكرها مطلقة ؛ وقال : (وعصى آدم ربه فغوى) . فهي معصية خاصة ؛ وقال تعالى : (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما اراكم ماتحبون) فأخبر عن معصية واقعة معينة ، وهي معصية الرماة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ حيث امرهم بلزوم ثغرهم ، وان رأوا المسلمين قد انتصروا ، فعصى من عصى منهم هذا الأمر ، وجعل اميرهم يأمرهم لما رأوا الكفار منهزمين ، واقبل من اقبل منهم على المغام . وكذلك قوله : (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) ؛ جعل ذلك ثلاث مراتب . وقد قال : (ولا يعصينك في معروف) . فقيد المعصية ولهذا فسرت بالنيابة قاله ابن عباس :

وروى ذلك مرفوعاً . وكذلك قال زيد بن اسلم لا يدعن ويلاً ولا يخذشن

وجهاً ولا ينشرن شعراً ، ولا يشققن ثوباً . وقد قال بعضهم : هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الاسلام وأدلته كما قاله ابو سليمان الدمشقي ولفظ الآية عام انهن لا يعصينه في معروف . ومعصيته لا تكون إلا في معروف ؛ فانه لا يأمر بمنكر ، لكن هذا كما قيل : فيه دلالة على ان طاعة أولي الأمر ، إنما تنزم في المعروف كما ثبت في «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «إنما الطاعة في المعروف» ونظير هذا قوله : (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) وهو لا يدعو إلا إلى ذلك . والتقييد هنا لا مفهوم له ؛ فانه لا يقع دعاء لغير ذلك . ولا أمر بغيره معروف وهذا كقوله تعالى : (ولا تكرر هو أفتياتكم على البغاء إن اردن تحصناً) . فانهن اذا لم يردن تحصناً ؛ امتنع الاكراه . ولكن في هذا بيان الوصف المناسب للحكم ، ومنه قوله تعالى : (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به ؛ فانما حسابه عند ربه ؛ انه لا يفلح الكافرون) . وقوله : (ويقتلون النبيين بغير الحق) .

فالتقييد في جميع هذا للبيان والايضاح ، لا لخراج في وصف آخر ؛ ولهذا يقول من يقول من النجاة : الصفات في المعارف للتوضيح لا للتخصيص ، وفي النكرات للتخصيص يعنى في المعارف التي لا تحتاج الى تخصيص ، كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى) . وقوله : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) . وقوله : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) . والصفات في النكرات اذا تميزت تكون للتوضيح ايضاً ، ومع هذا فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق في قوله : (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) . ومعلوم ان الفاسق عاص ايضاً .

فصل

ومن هذا الباب « ظلم النفس » : فانه اذا اطلق تناول جميع الذنوب ، فانها ظلم العبد نفسه ، قال تعالى : (ذلك من انباء القرى نقصه عليك ، منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم ، فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء امر ربك ، وما زادهم غير تنيب) . وقال تعالى : (واذ قال موسى لقومه : يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم) . وقال في قتل النفس : (رب انى ظلمت نفسي فاغفر لي) . وقالت بلقيس : (رب انى ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وقال آدم عليه السلام : (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) . ثم قد يقرن ببعض الذنوب ، كقوله تعالى : (والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم) . وقوله : (ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله ؛ يجد الله غفوراً رحيماً) .

واما لفظ « الظلم المطلق » . فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب ، قال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله

فاهدوهم الى صراط الجحيم ؛ وقفوهم انهم مسئولون). قال عمر بن الخطاب :
ونظراؤهم . وهذا ثابت عن عمر ، وروى ذلك عنه مرفوعاً . وكذلك قال
ابن عباس : واشباههم . وكذلك قال قتادة والكلبي : كل من عمل بمثل عملهم ؛
فأهل الخمر مع أهل الخمر ، وأهل الزنا مع أهل الزنا . وعن الضحاك ومقاتل :
قرناؤهم من الشياطين ؛ كل كافر معه شيطانه في سلسلة ، وهذا كقوله : (وإذا
النفوس زوجت) . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الفاجر مع الفاجر ،
والصالح مع الصالح . قال ابن عباس : وذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثه .
وقال الحسن وقتادة : ألحق كل امرئ بشيعته ؛ اليهودي مع اليهود ، والنصراني
مع النصراني . وقال الربيع بن خيثم : يحشر المرء مع صاحب عمله ، وهذا كما
ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له : الرجل يحب
القوم ولما يلحق بهم ، قال : « المرء مع من أحب » . وقال : « الأرواح جنود
محندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . وقال : « المرء على
دين خليله فلينظر احدكم من يخال » .

وزوج الشيء نظيره ، وسمي الصنف زوجاً ؛ لتشابه افراده ، كقوله :
(وأنبتنا فيها من كل زوج كريم) . وقال : (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم
تذكرون) . قال غير واحد من المفسرين : صنفين ونوعين مختلفين : السماء
والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ؛ والبر والبحر ، والسهل والجبل
والشتاء والصيف ، والجن والانس ؛ والكفر والايمان ، والسعادة والشقاوة
والحق والباطل ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة والحلو والمر ، وأشبه ذلك

(لعلكم تذكرون) فتعلمون ان خالق الأزواج واحد . وليس المراد انه يحشر معهم زوجاتهم مطلقاً ؛ فان المرأة الصالحة قد يكون زوجها فاجراً ؛ بل كافراً ، كما مرأة فرعون . وكذلك الرجل الصالح ، قد تكون امرأته فاجرة ، بل كافرة ، كما مرأة نوح ولوط . لكن اذا كانت المرأة على دين زوجها ؛ دخلت في عموم الأزواج ، ولهذا قال الحسن البصري : وازواجهم المشركات .

فلا ريب ان هذه الآية تناولت الكفار ، كما دل عليه سياق الآية . وقد تقدم كلام المفسرين : انه يدخل فيها الزناة مع الزناة ، واهل الخمر مع اهل الخمر . وكذلك الأثر المروني : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين الظلمة واعوانهم ؟ - او قال : واشباههم - فيجمعون في توايت من نار ثم يقذف بهم في النار » . وقد قال غير واحد من السلف : اعوان الظلمة من اعوانهم ، ولو انهم لاق لهم دواة او برى لهم قلماً ، ومنهم من كان يقول : بل من يغسل ثيابهم من اعوانهم . واعوانهم : هم من ازواجهم المذكورين في الآية ؛ فان المعين على البر والتقوى من اهل ذلك ، والمعين على الاثم والعدوان من اهل ذلك . قال تعالى : (من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها) والشافع الذي يعين غيره ، فيصير معه شفعاً بعد ان كان وترأ ؛ ولهذا فسرت «الشفاعة الحسنة» باعانة المؤمنين على الجهاد ، و«الشفاعة السيئة» باعانة الكفار على قتال المؤمنين ، كما ذكر ذلك ابن جرير ؛ وابو سليمان .

وفسرت «الشفاعة الحسنة» بشفاعة الانسان للانسان ليجتلب له نفعاً ،

او يخلصه من بلاء ، كما قال الحسن ومجاهد ، وقتادة وابن زيد ؛ فالشفاعة الحسنة إعانة على خير يحبه الله ورسوله ؛ من نفع من يستحق النفع ودفع الضر عن من يستحق دفع الضر عنه . و « الشفاعة السيئة » إعانة على ما يكرهه الله ورسوله ، كالشفاعة التي فيها ظلم الانسان ، او منع الاحسان الذي يستحقه . وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للمؤمنين ، والسيئة بالدعاء عليهم ، وفسرت الشفاعة الحسنة بالاصلاح بين اثنين ، وكل هذا صحيح . فالشافع زوج المشفوع له إذ المشفوع عنده من الخلق إما ان يعينه على بر وتقوى ، واما ان يعينه على اثم وعدوان . وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اتاه طالب حاجة قال لأصحابه : « اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » .

وتمام الكلام يبين ان الآية — وان تناولت الظالم الذي ظلم بكفره — فهي ايضاً متناولة مادون ذلك ، وان قيل فيها : (وما كانوا يعبدون) فقد ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة تعس عبد الحميصة ، تعس واتكس واذا شيك فلا انتقش » . وثبت عنه في « الصحيح » انه قال : « ما من صاحب لوز الا جعل له كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمته انا مالك ، انا كزك » . وفي لفظ : « الا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يفر منه وهو يتبعه ، حتى يطوقه في عنقه » ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) . وفي حديث آخر : « مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب ، وهو يفر منه : هذا مالك الذي كنت تبخل به ،

فاذا رأى انه لا بد له منه ، ادخل يده في فيه ، فيقضمها كما يقضم الفحل . وفي رواية : « فلا يزال يتبعه فيلقمه يده فيقضمها ، ثم يلقمه سائر جسده » . وقد قال تعالى في الآية الأخرى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) وقد ثبت في « الصحيح » وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته الا احمى عليها في نار جهنم ، فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار » . وفي حديث أبي ذر : « بشر الكافرين برضف يحمى عليها في نار جهنم ، فتوضع على حلمة ثدي احدهم حتى يخرج من نفض كتفيه ، ويوضع على نفض كتفيه ، حتى يخرج من حلمة ثديه ، يتزلزل وتكوي الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقي الحرف في اجوافهم » . وهذا كما في القرآن ، ويدل على انه بعد دخول النار ، فيكون هذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك أولاً في الموقف . فهذا الظالم لما منع الزكاة يحشر مع اشباهه وماله الذي صار عبداً له من دون الله ، فيعذب به ، وإن لم يكن هذا من اهل الشرك الأكبر الذين يخلدون في النار . ولهذا قال في آخر الحديث : « ثم يرى سبيله اما الى الجنة ، واما الى النار » . فهذا بعد تعذيبه خمسين الف سنة مما تعدون ، ثم يدخل الجنة .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الشرك في هذه الأمة اخفى من ديب

التمل» قال ابن عباس واصحابه : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق . وكذلك قال أهل السنة كأحمد بن حنبل وغيره ، كما سنذكره - إن شاء الله - . وقد قال الله تعالى : (اتخذوا اجدارهم ورجبانهم ارباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما امروا إلا ليعبدوا الهاً واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يشركون) . وفي حديث عدي بن حاتم - وهو حديث حسن طويل رواه احمد والترمذى وغيرهما - وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية ، قال : فقلت له انا لسنا نعبدهم ؛ قال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونونه ؟! » قال : فقلت : بلى . قال : « فلتك عبادتهم » . وكذلك قال ابو البخري : اما انهم لم يصلوا لهم ، ولو امرهم ان يعبدوهم من دون الله ما اطاعوهم ، ولكن امرهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله ؛ فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية .

وقال الربيع بن أنس : قلت لأبي العالية : كيف كانت تلك الربوبية في بني اسرائيل ؟ قال : كانت الربوبية انهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا : لن نسبق اجدارنا بشيء ؛ فما امرونا به اتعمرنا ، وما نهونا عنه اتنهينا ؛ لقولهم : فاستنصحو الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ان عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال ، لا انهم صلوا لهم ، وصاموا لهم ، ودعواهم من دون الله فهذه عبادة للرجال ، وتلك عبادة للأموال ، وقد بينها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله : (لا إله الا هو سبحانه عما يشركون) . فهذا من الظلم الذي

يدخل في قوله : (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله) . فان هؤلاء والذين امرهم بهذا هم جميعاً معذبون ، وقال : (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون) . وانما يخرج من هذا من عبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع في معصية الله . فهم الذين سبقت لهم الحسنی ، كالمسح والغزير وغيرها ، فأولئك (معبدون) .

واما من رضي بأن يعبد ويطاع في معصية الله ، فهو مستحق للوعيد ، ولو لم يأمر بذلك ، فكيف إذا امر؟! وكذلك من امر غيره بأن يعبد غير الله ، وهذا من « ازواجهم » فان « ازواجهم » قد يكونون رؤساء لهم ، وقد يكونون اتباعاً ، وهم ازواج واشباه لتشابههم في الدين ، وسياق الآية يدل على ذلك ، فانه سبحانه قال : (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فاهدوهم الى صراط الجحيم) . قال ابن عباس : دلوهم . وقال الضحاك مثله . وقال ابن كيسان : قدموهم . والمعنى : قودوهم كما يقود الهادي لمن يهديه ، ولهذا تسمى الأعناق الهوادي ، لأنها تقود سائر البدن ، وتسمى اوائل الوحش الهوادي .

(وقفوهم انهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون) . اي : كما كنتم تتناصرون في الدنيا على الباطل . (بل هم اليوم مستسلمون ، واقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا : انكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا انا لذائقون ، فأغويناكم

إنا كنا غاوين ، فانهم يومئذ في العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين
إنهم كانوا اذا قيل لهم : لا إله الا الله يستكبرون . ويقولون : إنا لنتاركوا
آلهتنا لشاعر مجنون) .

وقال تعالى : (قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس
في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم
لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لكل ضعف
ولكن لا تعلمون ؛ وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل
فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) . وقال تعالى : (وإذ يتحاجون في النار
فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيباً
من النار ، قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد) .
وقال تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض
القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا انتم لكنا مؤمنين ،
قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : انحن صددناكم عن الهدى بعد إذ
جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل
والنهار إذ تأمرتنا ان نكفر بالله ونجعل له انداداً ، وأسروا الندامة لما راوا
العذاب ، وجعلنا الأغلال في اعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا
يعملون) .

وقوله في سياق الآية : (إنهم كانوا اذا قيل لهم : لا إله الا الله ، يستكبرون)

ولا ريب انها تتناول « الشركين » : الاصغر والأكبر ، وتتناول ايضاً من استكبر عما امره الله به من طاعته ؛ فان ذلك من تحقيق قول لا إله الا الله ؛ فان الاله هو المستحق للعبادة ، فكل ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له فن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعاً في ذلك لغيره ؛ لم يحقق قول : لا إله الا الله في هذا المقام .

وهؤلاء الذين اتخذوا اجبارهم ورهبانهم اربابا – حيث اطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما احل الله ، يكونون على وجهين :

(احدهما) : ان يعلموا انهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما احل الله اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم انهم خالفوا دين الرسل ، ؛ فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً – وان لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم – فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه انه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله ذلك ، دون ما قاله الله ورسوله ؛ مشركاً مثل هؤلاء .

(والثاني) : ان يكون اعتقادهم وايمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً ، لكنهم اطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد انها معاص ؛ فهؤلاء لهم حكم امثالهم من اهل الذنوب ، كما ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « انما الطاعة في المعروف » وقال : « على المسلم السمع والطاعة فيما احب او كره ما لم يؤمر بمعصية » .

وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . وقال : « من امركم بمعصية الله فلا تطيعوه » .

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام ان كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ؛ فهذا لا يؤاخذ به الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذي اطاع به ربه . ولكن من علم ان هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه ، وعدل عن قول الرسول ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله ، لا سيما ان اتبع في ذلك هواه ، ونصره باللسان واليد ، مع علمه بأنه مخالف للرسول ؛ فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه .

ولهذا اتفق العلماء على انه اذا عرف الحق لا يجوز له تقليد احد في خلافه ، وانما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال ، وان كان عاجزاً عن اظهار الحق الذي يعلمه ؛ فهذا يكون كمن عرف ان دين الاسلام حق وهو بين النصارى ، فاذا فعل ما يقدر عليه من الحق ؛ لا يؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشي وغيره . وقد انزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى . (وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم وما انزل اليهم) . وقوله : (ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون) . وقوله : (واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) .

واما ان كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل ، وقد فعل

ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد ؛ فهذا لا يؤخذ إن أخطأ ، كما في القبلية . وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم ان معه الحق ؛ فهذا من اهل الجاهلية . وإن كان متبوعه مصيباً ؛ لم يكن عمله صالحاً . وإن كان متبوعه مخطئاً ؛ كان آثماً ، كما قال في القرآن برأيه ؛ فإن اصاب فقد اخطأ ، وإن اخطأ فليتبوأ مقعده من النار . وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والحمية ، فإن ذلك لما احب المال حباً منعه عن عبادة الله وطاعته ، صار عبداً له . وكذلك هؤلاء ؛ فيكون فيه شرك اصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك . وفي الحديث : «إن بسير الرياء شرك» . وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب .

(والمقصود هنا) ان الظلم المطلق يتناول الكفر ، ولا يختص بالكفر ؛ بل يتناول ما دونه ايضاً ، وكل بحسبه كلفظ «الذنب» «والخطيئة» «والمعصية» . فان هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيان ، كما في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يارسول الله اي الذنب اعظم ؟ قال : « ان تجعل الله نداً وهو خلقك» . قلت : ثم اي ؟ قال : « ثم ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك» . قلت : ثم اي ؟ قال : « ثم ان تزاني بحليلة جارك» ، فأنزل الله تعالى : (والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ،

الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ؛ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متاباً) .

فهذا الوعيد بتهامه على الثلاثة ، ولكل عمل قسط منه ؛ فلو اشرك ولم يقتل ولم يزن ؛ كان عذابه دون ذلك . ولو زني وقتل ولم يشرك ؛ كان له من هذا العذاب نصيب ، كما في قوله : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذاباً عظيماً) . ولم يذكر : (ابدأ) . وقد قيل : ان لفظ «التأييد» لم يجيء الا مع الكفر ، وقال الله تعالى : (ويوم بعض الظالم على يديه يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . ياويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ، لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولاً) . فلا ريب ان هذا يتناول الكافر الذي لم يؤمن بالرسول . وسبب نزول الآية كان في ذلك ، فان «الظلم المطلق» يتناول ذلك ويتناول ما دونه بحسبه .

فمن خال مخلوقاً في خلاف امر الله ورسوله ؛ كان له من هذا الوعيد نصيب ، كما قال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) . وقال تعالى : (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) . قال الفضيل بن عياض : حدثنا الليث عن مجاهد : هي المودات التي كانت بينهم لغير الله . فان «المخالفة» تحاب وتواد ؛ ولهذا قال : «المرء على دين خليله» ، فان المتحابين يحب احدهما ما يحب الآخر بحسب الحب ، فاذا اتبع احدهما صاحبه على محبته ما يبغضه الله ورسوله ؛ نقص من دينهما بحسب ذلك الى ان ينتهي

الى الشرك الأكبر ، قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً
يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حباً لله) .

والذين قدموا محبة المال الذي كنزوه ، والمخلوق الذي اتبعوه ، على محبة
الله ورسوله ، كان فيهم من الظلم والشرك بحسب ذلك ، فلهذا ألزمهم محبوبهم ،
كما في الحديث ، يقول الله تعالى : « أليس عدلاً مني ان اولي كل رجل منكم ما كان
يتولاه في الدنيا . وقد ثبت في «الصحيح» يقول : « لينذهب كل قوم الى ما
كانوا يعبدون ؛ فمن كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ،
ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، ويمثل للنصارى المسيح ، ولليهود عزيز .
فيتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها » كما سيأتي
هذا الحديث - ان شاء الله - فهؤلاء « اهل الشرك الأكبر » .

واما «عبيد المال» الذين كنزوه ، وعبيد الرجال الذين اطاعوهم في معاصي
الله فأولئك يعذبون عذاباً دون عذاب اولئك المشركين ؛ اما في عرصات القيامة ،
وإما في جهنم ، ومن احب شيئاً دون الله عذب به . وقال تعالى : (يا أيها الذين
آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ،
والكافرون هم الظالمون) . «الكفر المطلق» هو الظلم المطلق ؛ ولهذا لا شفيع
لأهله يوم القيامة كما نفى الشفاعة في هذه الآية ، وفي قوله : (وانذرهم يوم الآزفة
إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع بطاع ، يعلم
خائنة الأعين وما تخفي الصدور) . وقال : (فككبوا فيها هم والغاوون ، وجنود

ابليس اجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ، وما اضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين) .

وقوله : (اذ نسويكم) لم يريدوا به أنهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه ؛ فان هذا لم يقله احد من بنى آدم ، ولا نقل عن قوم قط من الكفار أنهم قالوا : ان هذا العالم له خالقان متماثلان ، حتى المجوس القائلين « بالأصلين : النور والظلمة » متفقون على ان « النور » خير يستحق ان يعبد ويحمد ، وان « الظلمة » شريرة تستحق ان تدم وتلعن ، واختلفوا هل الظلمة محدثة او قديمة ؟ على قولين ، وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه .

وكذلك « مشركوا العرب » كانوا متفقين على ان اربابهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ؛ بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والارض وما بينهما ، كما أخبر الله عنهم بذلك في غير آية كقوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله : فأنى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شيء عليم . ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله ، قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون) . وقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض مهدياً ، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون .

والذي نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه . وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون) .

وهذه الصفات من كلام الله تعالى ؛ ليست من تمام جوابهم . وقال تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله) الآيات . وقال تعالى (قل أرأيتم ان اتاكم عذاب الله او أتكم الساعة اغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؛ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون) . وكذلك قوله : (آله خير أما يشركون ؟ . امن خلق السموات والأرض وانزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ! ام من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مع الله ؟!!) . اي : أ إله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام إنكار ، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله .

ومن قال من المفسرين إن المراد: هل مع الله إله آخر؟ فقد غلط؛ فانهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما قال تعالى : (أتتكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى

قل لا اشهد) . وقال تعالى : (فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء) . وقال تعالى عنهم : (اجعل الآلهة الهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب) .
 وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ، ولا خلق شيء ؛ بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط ، كما قال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) .
 وقال عن صاحب يس : (وما لي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون ، أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون) .
 وقال تعالى : (وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ، ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) . وقال تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تذكرون) . وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) فنفي عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفي ان يكون لغيره ملك او قسط من الملك ، او يكون عوناً لله ولم يبق الا الشفاعة ؛ فبين انها لا تنفع الا لمن اذن له الرب ، كما قال تعالى :
 (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) . وقال تعالى عن الملائكة : (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) . وقال : (وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى) .

فهذه « الشفاعة » التي يظنها المشركون ؛ هي منتفية يوم القيامة كما نفاها

القرآن . واما ما اخبر به النبي صلى الله عليه وسلم انه يكون . فأخبر : « انه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة اولاً . فاذا سجد وحمد ربه بحماد يفتحها عليه : يقال له : اي محمد ! ارفع راسك ، وقل تسبح ، وسل تعط ، واشفع تشفع . فيقول : اي رب امتي ! فيجد له حداً فيدخلهم الجنة » . وكذلك في الثانية وكذلك في الثالثة ، وقال له ابو هريرة : من اسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « من قال : لا اله الا الله خالصاً من قلبه » . فتلك « الشفاعة » هي لأهل الأخلص باذن الله ، ليست لمن اشرك بالله ، ولا تكون إلا باذن الله . وحقيقته ان الله هو الذي يتفضل على اهل الاخلص والتوحيد ، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي اذن له ان يشفع ليكرمه بذلك ، وينال به المقام المحمود الذي يعبطه به الأولون والآخرون صلى الله عليه وسلم ، كما كان في الدنيا يستسقي لهم ويدعو لهم ، وتلك شفاعة منه لهم فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته .

واذا كان كذلك « فالظلم ثلاثة انواع » : فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه . وظلم الناس بعضهم بعضاً لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه : لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم ، كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة . فالظالم المطلق ماله من شفيح مطاع ، واما الموحد فلم يكن ظالماً مطلقاً ، بل هو موحد مع ظامه لنفسه . وهذا انما نفعه في الحقيقة اخلاصه لله ، فبه صار من اهل الشفاعة .

ومقصود القرآن بنبي الشفاعة نبي الشرك ، وهو : ان احداً لا يعبد الا الله

ولا يدعو غيره ، ولا يسأل غيره ، ولا يتوكل على غيره لافي شفاعه ، ولا غيرها ؛
فليس له ان يتوكل على احد في ان يرزقه ، وان كان الله يأتيه برزقه بأسباب .

كذلك ليس له ان يتوكل على غير الله في ان يغفر له ويرحمه في الآخرة ،
وان كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعه وغيرها ، فالشفاعة التي نفاها
القرآن مطلقاً ؛ ما كان فيها شرك وتلك منتفية مطلقاً ؛ ولهذا اثبت الشفاعه
بإذنه في مواضع ، وتلك قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم انها لا تكون الا
لأهل التوحيد والاخلاص ، فهي من التوحيد ومستحقها اهل التوحيد .

واما « الظلم المقيد » فقد يختص بظلم الانسان نفسه ، وظلم الناس بعضهم
بعضاً ، كقول آدم عليه السلام وجواء : (ربنا ظلمنا انفسنا) . وقول موسى :
(رب انى ظلمت نفسي) . وقوله تعالى : (والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا
انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) . لكن قول آدم وموسى إخبار عن
واقع لا عموم فيه ، وذلك قد عرف والله الحمد انه ليس ككفرأ .

واما قوله : (والذين إذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم) فهو نكرة في
سياق الشرط ، يعم كل ما فيه ظلم الانسان نفسه ؛ وهو اذا اشرك ثم تاب ، تاب الله
عليه . وقد تقدم ان ظلم الانسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير او صغير مع
الاطلاق ، وقال تعالى (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ؛ فمنهم ظالم
لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) . فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره ؛
فلا يدخل فيه الشرك الأكبر . وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود انه لما ازلت
هذه الآية : (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق ذلك على اصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
« إنما هو الشرك ؛ ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح : (ان الشرك
لظلم عظيم) » .

والذين شق ذلك عليهم ظنوا : ان الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه ، وانه
لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ؛ فشق ذلك عليهم ، فبين النبي صلى
الله عليه وسلم لهم ما دهم على ان الشرك ظلم في كتاب الله تعالى . وحينئذ فلا يحصل
الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس ايمانه بهذا الظلم ؛ ومن لم يلبس ايمانه به كان من
اهل الأمن والاهتداء . كما كان من اهل الاصطفاء في قوله : ثم أوردنا الكتاب
الذين اصطفينا من عبادنا .. الى قوله : جنات عدن يدخلونها) . وهذا لا ينفي
ان يؤخذ احدكم بظلم نفسه اذا لم يتب ، كما قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة
خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) . وقال تعالى : (من يعمل
سوءاً يجز به) .

وقد سأل ابو بكر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : يا رسول الله !
وأينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : « يا ابا بكر ! ألسنت تنصب ، السنت تحزن ، السنت
تصيك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به » فبين ان المؤمن الذي اذا تاب دخل
الجنة ، قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه ، كما في « الصحيحين »
عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « مثل المؤمن كمثل الحامة من الزرع تفيئها
الرياح ، تقومها تارة وتمليها اخرى ، ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تزال ثابتة

على اصلها حتى يكون انجفافها مرة واحدة . « وفي « الصحيحين » عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها : إلا كفر الله بها من خطاياها » ، وفي حديث سعد بن ابي وقاص ، قلت : يا رسول الله ! اي الناس اشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الامثل فالامثل ؛ يتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلاة ، زيد في بلائه ، وان كان في دينه رقة ؛ خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الارض وليس عليه خطيئة » رواه احمد والترمذي وغيرها . وقال : « المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه ، كما تحط الشجرة اليابسة ورقها » والاحاديث في هذا الباب كثيرة .

فمن سلم من اجناس الظلم الثلاثة ؛ كان له الأمن التام ، والاهتداء التام . ومن لم يسلم من ظلمه نفسه ؛ كان له الامن والاهتداء مطلقاً ، بمعنى انه لا بد ان يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى ، وقد هداه الى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه الى الجنة ، ويحصل له من نقص الامن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه . وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « انما هو الشرك » ان من لم يشرك الشرك الأكبر ، يكون له الأمن التام ، والاهتداء التام . فان احاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين ان اهل الكبائر معرضون للخوف ، لم يحصل لهم الامن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين الى الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم ؛ بل معهم اصل الاهتداء الى

هذا الصراط ، ومعهم اصل نعمة الله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة . وقول النبي صلى الله عليه وسلم « انما هو الشرك » ان اراد به الشرك الاكبر ، فقصوده ان من لم يكن من اهله ، فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد الى ذلك . وان كان حراده جنس الشرك ؛ فيقال : ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب ؛ هو شرك اصغر ، وحب ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك اصغر ، ونحو ذلك . فهذا صاحبه قدفاته من الامن والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار .

فصل

ومن هذا الباب لفظ «الصلاح»، و«الفساد»: فاذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر، كما تقدم في اسم الصالح، وكذلك اسم المصلح والمفسد، قال تعالى في قصة موسى: (أريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، وما تريد أن تكون من المصلحين)، (وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) وقال تعالى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون، ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون).

والضمير عائد على المنافقين في قوله: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ومن سيكون بعدهم؛ ولهذا قال سلمان الفارسي: إنه غني بهذه الآية قوماً لم يكونوا خلقوا حين نزولها، وكذا قال السدي عن أشياخه: الفساد الكفر والمعاصي. وعن مجاهد: ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهي. والقولان معناها واحد. وعن ابن عباس: الكفر. وهذا معنى قول من قال: النفاق الذي صافوا به الكفار واطلعوهم على أسرار المؤمنين. وعن أبي العالية ومقاتل: العمل بالمعاصي. وهذا أيضاً عام كالأولين.

وقولهم : (إنما نحن مصلحون) فسر بانكار ما اقروا به ، اي : إنا إنما نفعل ما أمرنا به الرسول . وفسر : بأن الذي نفعله صلاح ، ونقصد به الصلاح وكلا القولين يروى عن ابن عباس ، وكلاهما حق ، فانهم يقولون هذا وهذا ، يقولون الأول لمن لم يطلع على بواطنهم ، ويقولون الثاني لأنفسهم ولمن اطلع على بواطنهم . لكن الثاني يتناول الاول ؛ فان من جملة افعالهم اسرار خلاف ما يظهرون ، وهم يرون هذا صلاحاً قال مجاهد : ارادوا أن مضافة الكفار صلاح لافساد . وعن السدي : إن فعلنا هذا هو الصلاح ، وتصديق محمد فساد وقيل : ارادوا ان هذا صلاح في الدنيا ، فان الدولة ان كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقد أهزوا بمتابعته ، وان كانت للكفار ؛ فقد امنوهم بمصافتهم .

ولأجل القولين قيل في قوله : (ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) اي لا يشعرون ان ما فعلوه فساد لا صلاح . وقيل : لا يشعرون ان الله يطلع نبيه على فسادهم . والقول الاول يتناول الثاني ؛ فهو المراد ، كما يدل عليه لفظ الآية . وقال تعالى (ان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) وقال (قال موسى : ما جئتم به السحر ، ان الله سيبطله ، ان الله لا يصلح عمل المفسدين) وقول يوسف (توفي مسلماً وألحقني بالصالحين) .

وقد يقرن احدهما بما هو اخص منه ، كقوله : (واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد) قيل : بالكفر ، وقيل : بالظلم ؛ وكلاهما صحيح وقال تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون

علواً في الأرض ولا فساداً) وقد تقدم قوله تعالى: (ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح ابناءهم ويستحي نساءهم ؛ انه كان من المفسدين) . وقال تعالى : (من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً) وقتل النفس الاول من جملة الفساد ، لكن الحق في القتل لولي المقتول ، وفي الردة والحاربة والزنا ؛ الحق فيها لعموم الناس ؛ ولهذا يقال : هو حق لله ، ولهذا لا يعنى عن هذا ، كما يعنى عن الاول لان فساده عام ، قال تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا ، او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف) الآية . قيل : سبب نزول هذه الآية العرنيون الذين ارتدوا وقتلوا وأخذوا المال . وقيل : سببه ناس معاهدون نقضوا العهد وحاربوا . وقيل : المشركون ؛ فقد قرن بالمرتدين الحاربيين وناقضي العهد الحاربيين وبالمشركين الحاربيين . وجمهور السلف والخلف على أنها تتناول قطاع الطريق من المسلمين ، والآية تتناول ذلك كله ؛ ولهذا كان من تاب قبل القدرة عليه من جميع هؤلاء ، فانه يسقط عنه حق الله تعالى .

وكذلك قرن « الصلاح والاصلاح بالايمان » في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . (فمن آمن واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . ومعلوم ان الايمان افضل الاصلاح ، وافضل العمل الصالح ، كما جاء في الحديث الصحيح انه قيل : يا رسول الله ! اي الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله » . وقال تعالى : (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل

صالحاً ثم اهتدى) . وقال : (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة) . وقال : (الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ؛ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) . وقال في القذف : (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ؛ فإن الله غفور رحيم) . وقال في السارق : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ؛ فإن الله يتوب عليه) . وقال : (واللذان يأتيانها منكم فآذوها ، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) . ولهذا شرط الفقهاء في احد قوليهما في قبول شهادة القاذف ان يصلح ، وقدروا ذلك بسنة ، كما فعل عمر بصيغ بن عسل لما اجله سنة ، وبذلك اخذ احمد في توبة الداعي إلى البدعة انه يؤجل سنة ، كما أجل عمر صيغ بن عسل .

فصل

فإن قيل : ما ذكر من تنوع دلالة اللفظ بالاطلاق والتقييد في كلام الله ورسوله ، وكلام كل احد ؛ بين ظاهر لا يمكن دفعه ؛ لكن نقول : دلالة لفظ الإيمان على الأعمال مجاز ؛ فقوله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة ؛ اعلاها قول لا إله الا الله ، وادناها إمطة الأذى عن الطريق » مجاز . وقوله : « الإيمان : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله » ... إلى آخره ؛ حقيقة . وهذا عمدة المرجئة ، والجهمية ، والكرامية ، وكل من لم يدخل الأعمال في اسم الإيمان .

ونحن نجيب بجوابين : « احدهما » : كلام عام في لفظ (الحقيقة ، والمجاز) . « والثاني » : ما يختص بهذا الموضع . فبتقدير ان يكون احدهما مجازاً ؛ ما هدر الحقيقة من ذلك من المجاز ؟ هل الحقيقة هو المطلق ، او المقيد ، او كلاهما حقيقة حتى يعرف ان لفظ الإيمان اذا اطلق على ما ذا يحمل ؟ .

فيقال اولاً : تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها الى « حقيقة ، ومجاز » ، وتقسيم دلالتها او المعاني المدلول عليها ، إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز في المدلول او في الدلالة ؛ فان هذا كله قد يقع في كلام المتأخرين . ولكن المشهور

ان الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ ، وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح
حدث بعد انقضاء القرون الثلاثة . لم يتكلم به احد من الصحابة ولا التابعين
لهم باحسان ، ولا احد من الأئمة المشهورين في العلم ، كمالك والثوري والأوزاعي
وابن حنيفة والشافعي بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو ، كالخليل وسيبويه
وابن عمرو بن العلاء ونحوهم .

واول من عرف انه تكلم بلفظ «المجاز» ابو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه .
ولكن لم يعن بالمجاز ما هو تقسيم الحقيقة . وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن
الآية ؛ ولهذا قال من قال من الأصوليين - كأبي الحسين البصري وامثاله - انها
تعرف الحقيقة من المجاز بطرق منها : نص اهل اللغة على ذلك بأن يقولوا :
هذا حقيقة ، وهذا مجاز ، فقد تكلم بلا علم ، فانه ظن ان اهل اللغة قالوا هذا ،
ولم يقل ذلك احد من اهل اللغة ، ولا من سلف الأمة وعلمائها ، وانما هذا
اصطلاح حدث ، والغالب انه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، فانه لم
يوجد هذا في كلام احد من اهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم
من السلف .

وهذا الشافعي هو اول من جرد الكلام في «اصول الفقه» لم يقسم
هذا التقسيم ، ولا تكلم بلفظ «الحقيقة والمجاز» . وكذلك محمد بن
الحسن له في المسائل المبنية على العربية كلام معروف في «الجامع الكبير»
وغيره ؛ ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز . وكذلك سائر الأئمة لم يوجد

لفظ المجاز في كلام احد منهم إلا في كلام احمد بن حنبل ؛ فانه قال في كتاب الرد على الجهمية في قوله : (إنا ، ونحن) ونحو ذلك في القرآن : هذا من مجاز اللغة ، يقول الرجل : إنا سنعطيك . انا سنفعل ؛ فذكر ان هذا مجاز اللغة .

وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه من قال : ان في «القرآن» مجازاً ، كالقاضي ابى يعلى ، وابن عقيل ، وابى الخطاب وغيرهم . وآخرون من أصحابه منعوا ان يكون في القرآن مجاز ، كأبي الحسن الحرزى . وابى عبد الله بن حامد . وابى الفضل التميمي بن ابى الحسن التميمي ، وكذلك منع ان يكون في القرآن مجاز ، محمد بن خوير منداد ، وغيره من المالكية ، ومنع منه داود بن على ، وابنه ابو بكر ، ومنذر بن سعيد البلوطي وصنف فيه مصنفاً .

وحكى بعض الناس عن احمد في ذلك روايتين . واما سائر الأئمة فلم يقل احد منهم ، ولا من قدماء اصحاب احمد : ان في القرآن مجازاً ، لا مالك ولا الشافعي ولا ابو حنيفة ، فان تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز . إنما اشتهر في المائة الرابعة ، وظهرت اوائله في المائة الثالثة ، وما علمته موجوداً في المائة الثانية ، اللهم إلا ان يكون في او اخرها ، والذين انكروا ان يكون احمد وغيره نطقوا بهذا التقسيم . قالوا : إن معنى قول احمد : من مجاز اللغة . اى : مما يجوز في اللغة ان يقول الواحد العظيم الذي له اعوان : نحن فعلنا كذا ونفعل كذا ، ونحو ذلك . قالوا : ولم يرد احمد بذلك ان اللفظ استعمل في غير ما وضع له .

وقد انكر طائفة ان يكون في اللغة مجاز ، لا في القرآن ولا غيره ، كأبي

اسحاق الاسفرائيني . وقال المنازعون له : النزاع معه لفظي ، فانه إذا سلم ان في اللغة لفظاً مستعملاً في غير ما وضع له لا يدل على معناه الا بقرينة ؛ فهذا هو المجاز وإن لم يسمه مجازاً . فيقول من ينصره : إن الذين قسموا اللفظ : حقيقة ، ومجازاً قالوا : «الحقيقة» هو اللفظ المستعمل فيما وضع له . «والمجاز» هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له كلفظ الأسد والحمار ، إذا اريد بهما البهيمة ، او اريد بهما الشجاع والبليد . وهذا التقسيم والتحديد يستلزم ان يكون اللفظ قد وضع اولاً للمعنى ، ثم بعد ذلك قد يستعمل في موضوعه ، وقد يستعمل في غير موضوعه ؛ ولهذا كان المشهور عند اهل التقسيم ان كل مجاز فلا بد له من حقيقة وليس لكل حقيقة مجاز ؛ فاعترض عليهم بعض متأخريهم وقال : اللفظ الموضوع قبل الاستعمال لا حقيقة ولا مجاز ، فاذا استعمل في غير موضوعه ، فهو مجاز لا حقيقة له .

وهذا كله انما يصح لو علم ان الالفاظ العربية وضعت اولاً للمعان ، ثم بعد ذلك استعملت فيها ؛ فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال . وهذا انما صح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية ، فيدعي ان قوما من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على ان يسموا هذا بكذا ، وهذا بكذا ، ويجعل هذا عاماً في جميع اللغات . وهذا القول لا نعرف احداً من المسلمين قاله قبل ابى هاشم بن الجبائي ؛ فانه وأبا الحسن الاشعري كلاهما قرأ على ابى علي الجبائي ، لكن الاشعري رجع عن مذهب المعتزلة ، وخالفهم في القدر والوعيد ، وفي الاسماء والاحكام ، وفي

صفات الله تعالى ، وبين من تناقضهم وفساد قولهم ما هو معروف عنه .فتنازع
الاشعري وابو هاشم في مبدأ اللغات ؛ فقال ابو هاشم : هي اصطلاحية ، وقال
الاشعري : هي توقيفية . ثم خاض الناس بعدهما في هذه المسألة ؛ فقال آخرون :
بعضها توقيفي ، وبعضها اصطلاحي ، وقال فريق رابع بالوقف .

والمقصود هنا انه لا يمكن احداً ان ينقل عن العرب ، بل ولا عن أمة من
الأمم انه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة في اللغة ، ثم
استعملوها بعد الوضع ، وانما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ
فيما عنوه بها من المعاني ، فان ادعى مدع انه يعلم وضماً يتقدم ذلك ، فهو
مبطل ، فان هذا لم ينقله احد من الناس . ولا يقال : نحن نعلم ذلك بالدليل ؛ فانه
إن لم يكن اصطلاح متقدم ، لم يمكن الاستعمال .

قيل : ليس الأمر كذلك ؛ بل نحن نجد ان الله يلهم الحيوان من الأصوات
ما به يعرف بعضها مراد بعض ، وقد سمي ذلك منطقاً وقولاً في قول سليمان :
(علمنا منطق الطير) . وفي قوله : (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم)
وفي قوله : (يا جبال أوبي معه والطير) . وكذلك الآدميون ؛ فالمولود إذا ظهر
منه التمييز ، سمع ابويه او من يريه ينطق باللفظ ، ويشير الى المعنى ، فصار يفهم
ان ذلك اللفظ يستعمل في ذلك المعنى ، اى : اراد المتكلم به ذلك المعنى ، ثم هذا
يسمع لفظاً بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير ان
يكونوا قد اصطالحوا معه على وضع متقدم ؛ بل ولا اوقفوه على معاني الأسماء ،

وان كان احياناً قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء فيوقف عليها ، كما يترجم للرجل اللغة التي لا يعرفها فيوقف على معاني الفاظها ، وان باشر اهلها مدة علم ذلك بدون توقيف من احدهم .

نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه ، كما يولد لأحدهم ولد فيسميه اسماً إما منقولاً واما مرتجلاً ، وقد يكون المسمى واحداً لم يصطلح مع غيره ، وقد يستون فيما يسمونه . وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صناعة ، او يصنف كتابا ، او يبنى مدينة ونحو ذلك ؛ فيسمى ذلك باسم لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم في اللغة العامة . وقد قال الله تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) . و (قالوا أنطقنا الله الذي انطق كل شيء) . وقال : (الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى) . فهو سبحانه يلهم الانسان المنطق ، كما يلهم غيره .

وهو سبحانه اذا كان قد علم آدم الاسماء كلها ، وعرض المسميات على الملائكة ، كما اخبر بذلك في كتابه فنحن نعلم انه لم يعلم آدم جميع اللغات التي يتكلم بها جميع الناس الى يوم القيامة ، وان تلك اللغات اتصلت الى اولاده ، فلا يتكلمون الا بها فان دعوى هذا كذب ظاهر ، فان آدم عليه السلام انما ينقل عنه بنوه ، وقد اغرق الله عام الطوفان جميع ذريته إلا من في السفينة ، واهل السفينة انقطعت ذريتهم إلا أولاد نوح ، ولم يكونوا يتكلمون بجميع ما تكلمت به الأمم بعدهم . فان «اللغة الواحدة» كالفارسية ، والعربية ، والرومية والتركية ، فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصى إلا الله ، والعرب انفسهم

لكل قوم لغات لا يفهما غيرهم ، فكيف يتصور ان ينقل هذا جميعه عن اولئك الذين كانوا في السفينة ، واولئك جميعهم لم يكن لهم نسل ، وانما النسل لنوح وجميع الناس من اولاده وهم ثلاثة : سام وحام ويافت ، كما قال الله تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) . فلم يجعل باقياً الا ذريته ، وكما روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن اولاده ثلاثة » . رواه احمد وغيره .

ومعلوم ان الثلاثة لا يمكن ان ينطقوا بهذا كله ، ويمتنع نقل ذلك عنهم ؛ فان الذين يعرفون هذه اللغة لا يعرفون هذه ، واذا كان الناقل ثلاثة ؛ فهم قد علموا اولادهم ، واولادهم علموا اولادهم ، ولو كان كذلك لاتصلت . ونحن نجد بنى الأب الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لا تعرفها الأخرى والاب واحد لا يقال : انه علم أحد ابنيه لغة وابنة الآخر لغة ؛ فان الاب قد لا يكون له إلا ابنان ، واللغات في اولاده اضعاف ذلك .

والذي اجرى الله عليه عادة بنى آدم انهم انما يعلمون اولادهم لغتهم التي يخاطبونهم بها او يخاطبهم بها غيرهم ، فأما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها اولادهم . وايضاً فانه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط من غيرهم . والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم في الاسماء التي علمها الله آدم قولان معروفان عن السلف .

(احدهما) : انه انما علمه اسماء من يعقل ، واحتجوا بقوله : (ثم عرضهم على الملائكة) . قالوا : وهذا الضمير لا يكون إلا لمن يعقل ، وما لا يعقل ، يقال

فيها: عرضها. ولهذا قال ابو العالية: علمه اسماء الملائكة، لانه لم يكن حينئذ من يعقل الا الملائكة؛ ولا كان ابليس قد انفصل عن الملائكة، ولا كان له ذرية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: علمه اسماء ذريته، وهذا يناسب الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ان ادم سأل ربه ان يريه صور الانبياء من ذريته؛ فرآهم فرأى فيهم من يبص، فقال: يارب من هذا؟ قال: ابنك داود». فيكون قد اراه صور ذريته؛ او بعضهم واسماءهم، وهذه اسماء اعلام لا أجناس.

(والثاني): ان الله علمه أسماء كل شيء، وهذا هو قول الأكثرين، كابن عباس واصحابه؛ قال ابن عباس: علمه حتى الفسوة والفسية والقصة والقصة أراد اسماء الاعراض والاعيان مكبرها ومصغرها. والدليل على ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في حديث الشفاعة: «ان الناس يقولون: يا آدم انت ابو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وعلمك اسماء كل شيء». وأيضاً قوله: «الاسماء كلها» لفظ عام مؤكد؛ فلا يجوز تخصيصه بالدعوى. وقوله: (تم عرضهم على الملائكة)؛ لأنه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل، فغلب من يعقل. كما قال: (فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على اربع). قال عكرمة: علمه اسماء الأجناس دون انواعها، كقولك: إنسان وخنزير وملك وطائر. وقال مقاتل، وابن السائب، وابن قتيبة: علمه اسماء ما خلق في الأرض من السواب والهوام والطيور.

ومما يدل على ان هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم ؛ ان اكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية ، ليس عندهم اسماء خاصة للأولاد والبيوت والاصوات وغير ذلك مما يضاف إلى الحيوان ؛ بل إنما يستعملون في ذلك الاضافة . فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة ، وأيضاً فكل امة ليس لها كتاب ليس في لغتها ايام الأسبوع ، وإنما يوجد في لغتها اسم اليوم والشهر والسنة ؛ لأن ذلك عرف بالحس والعقل ؛ فوضعت له الأمم الأسماء ؛ لأن التعبير يتبع التصور واما الاسبوع فلم يعرف إلا بالسمع ، لم يعرف ان الله خلق السموات والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش إلا بأخبار الانبياء الذين شرع لهم ان يجتمعوا في الاسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحفظون به الاسبوع الاول الذي بدأ الله فيه خلق هذا العالم ؛ ففي لغة العرب والعبرانيين ومن تلقى عنهم ايام الاسبوع ؛ بخلاف الترك ونحوهم ؛ فانه ليس في لغتهم ايام الاسبوع ، لأنهم لم يعرفوا ذلك ، فلم يعبروا عنه .

فعلم ان الله ألهم النوع الانساني ان يعبر عما يريد ويتصوره بلفظه ، وان اول من علم ذلك ابوم آدم ، وهم علموا كما علم وان اختلفت اللغات . وقد أوحى الله الى موسى بالعبرانية ، والى محمد بالعربية ؛ والجميع كلام الله ، وقد بين الله بذلك ما أراد من خلقه واحره ، وإن كانت هذه اللغة ليست الاخرى ، مع ان العبرانية من اقرب اللغات إلى العربية ، حتى إنها اقرب اليها من لغة بعض العجم إلى بعض .

فبالجملة نحن ليس غرضنا إقامة الدليل على عدم ذلك ؛ بل يكفيننا ان يقال :

هذا غير معلوم وجوده ، بل الالهام كاف في النطق باللغات من غير مواضع متقدمة ؛ وإذا سمى هذا توقيفاً ؛ فليس توقيفاً ، وحينئذ فمن ادعى وضعاً متقدماً على استعمال جميع الاجناس ؛ فقد قال ما لا علم له به . وإنما المعلوم بلاريب هو الاستعمال . ثم هؤلاء يقولون : تتميز الحقيقة من المجاز بالاكتفاء باللفظ ، فاذا دل اللفظ بمجردده فهو حقيقة ، وإذا لم يدل الامع القرينة ؛ فهو مجاز ، وهذا امر متعلق باستعمال اللفظ في المعنى لا بوضع متقدم .

ثم يقال (ثانياً) : هذا التقسيم لا حقيقة له ؛ وليس لمن فرق بينهما حد صحيح يميز به بين هذا وهذا ، فلم ان هذا التقسيم باطل ، وهو تقسيم من لم يتصور ما يقول ، بل يتكلم بلا علم ؛ فهم مبتدعة في الشرع ، مخالفون للعقل وذلك انهم قالوا : « الحقيقة » : اللفظ المستعمل فيما وضع له . و « المجاز » : هو المستعمل في غير ما وضع له ؛ فاحتاجوا إلى اثبات الوضع السابق على الاستعمال وهذا يتعذر . ثم يقسمون الحقيقة إلى لغوية ، وعرفية ، واكثرهم يقسمها إلى ثلاث : لغوية ، وشرعية ، وعرفية .

«فالحقيقة العرفية» : هي ما صار اللفظ دالاً فيها على المعنى بالعرف لا باللغة ، وذلك المعنى يكون تارة اعم من اللغوي ، وتارة اخض ، وتارة يكون مبيناً له لكن بينهما علاقة استعمال لأجلها . فالاول : مثل لفظ « الرقبة » و « الرأس » ونحوها ، كان يستعمل في العضو المخصوص ، ثم صار يستعمل في جميع البدن . والثاني مثل لفظ « الدابة » ونحوها ، كان يستعمل في كل ما دب ، ثم صار

يستعمل في عرف بعض الناس في ذوات الاربع ، وفي عرف بعض الناس في الفرس ، وفي عرف بعضهم في الحمار . والثالث مثل لفظ « الغائط » و « الطعينة » و « الراوية » و « المزادة » ؛ فان الغائط في اللغة هو المكان المنخفض من الارض ، فلما كانوا يتناوبونه لقضاء حوائجهم سمو ما يخرج من الانسان باسم محله والطعينة اسم الدابة ، ثم سمو المرأة التي تركبها باسمها ، ونظائر ذلك .

و « المقصود » ان هذه الحقيقة العرفية لم تصر حقيقة لجماعة تواطؤوا على نقلها ولكن تكلم بها بعض الناس واراد بها ذلك المعنى العرفي ، ثم شاع الاستعمال فصارت حقيقة عرفية بهذا الاستعمال ، ولهذا زاد من زاد منهم في حد الحقيقة في اللغة التي بها التخاطب ، ثم هم يعلمون ، ويقولون : إنه قد يغلب الاستعمال على بعض الالفاظ ، فيصير المعنى العرفي اشهر فيه ، ولا يدل عند الاطلاق إلا عليه فتصير الحقيقة العرفية ناسخة للحقيقة اللغوية . واللفظ مستعمل في هذا الاستعمال الحادث للعرفي ، وهو حقيقة من غير ان يكون لما استعمل فيه ذلك تقدم وضع فعلم ان تفسير الحقيقة بهذا لا يصح .

وان قالوا : نعي بما وضع له ما استعملت فيه أولاً ؛ فيقال : من اين يعلم ان هذه الالفاظ التي كانت العرب تتخاطب بها عند نزول القرآن وقبله ، لم تستعمل قبل ذلك في معنى شيء آخر . واذا لم يعلموا هذا النفي ؛ فلا يعلم انها حقيقة ، وهذا خلاف ما انفقوا عليه . وأيضاً فيلزم من هذا ان لا يقطع بشيء من الالفاظ انه حقيقة ، وهذا لا يقوله عاقل .

ثم هؤلاء الذين يقولون هذا، نجد اخدم يأتي الى ألفاظ لم يعلم انها استعملت الا مقيدة، فينطق بها مجردة عن جميع القيود، ثم يدعي ان ذلك هو حقيقةها من غير ان يعلم انها نطق بها مجردة، ولا وضعت مجردة، مثل ان يقول حقيقة العين هو العضو المبصر، ثم سميت به عين الشمس، والعين التابعة، وعين الذهب؛ المشابهة. لكن اكثرهم يقولون: ان هذا من باب المشترك، لا من باب الحقيقة والمجاز؛ فيمثل بغيره، مثل لفظ الرأس. يقولون: هو حقيقة في راس الانسان. ثم قالوا: راس الدرب لاوله، ورأس العين لمنبعها، ورأس القوم لسيدهم ورأس الامر لاوله، ورأس الشهر، ورأس الحول، وامثال ذلك على طريق المجاز. وهم لا يجدون قط ان لفظ الراس استعمل مجرداً؛ بل يجدون انه استعمل بالقيود في راس الانسان. كقوله تعالى: (وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين) ونحوه، وهذا القيد يمنع ان تدخل فيه تلك المعاني.

فاذا قيل: راس العين، ورأس الدرب، ورأس الناس، ورأس الامر؛ فهذا المقيد غير ذلك المقيد الدال، ومجموع اللفظ الدال هنا غير مجموع اللفظ الدال هناك؛ لكن اشتركا في بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرفة في لام التعريف، ولو قدر ان الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الانسان اولا، لأن الانسان يتصور رأسه قبل غيره، والتعبير اولا هو عما يتصور اولا، فالنطق بهذا المضاف اولا، لا يمنع ان ينطق به مضافاً الى غيره ثانياً، ولا يكون هذا من المجاز كما في سائر المضافات، فاذا قيل: ابن آدم اولا؛ لم يكن قولنا: ابن

الفرس ، وابن الحمار مجازاً ، وكذلك اذا قيل : بنت الانسان ؛ لم يكن قولنا :
بنت الفرس مجازاً . وكذلك اذا قيل : رأس الانسان اولا لم يكن قولنا : رأس
الفرس مجازاً ، وكذلك في سائر المضافات إذا قيل : يده او رجليه .

فاذا قيل : هو حقيقة فيما اضيف الى الحيوان ؛ قيل : ليس جعل هذا هو
الحقيقة بأولى من ان يجعل ما اضيف الى الانسان رأس ، ثم قد يضاف الى
مالا يتصوره ، أكثر الناس من الحيوانات الصغار التي لم تخطر ببال عامة الناطقين
باللغة . فاذا قيل : انه حقيقة في هذا ، فلماذا لا يكون حقيقة في رأس الجبل
والطريق والعين؟! وكذلك سائر ما يضاف الى الانسان من اعضائه ، واولاده ،
ومساكنه ؛ يضاف مثله الى غيره ويضاف ذلك الى الجمادات ؛ فيقال : رأس
الجبل ورأس العين ، وخطم الجبل اى انفه وفم الوادي ، وبطن الوادي ، وظهر
الجبل ، وبطن الأرض وظهرها ، ويستعمل مع الالف وهو لفظ الظاهر
والباطن في امور كثيرة ، والمعنى في الجميع ان الظاهر لما ظهر فتبين ، والباطن
لما بطن فحفي . وسمى ظهر الانسان ظهراً لظهوره وبطن الانسان بطناً لبطونه .
فاذا قيل : ان هذا حقيقة ، وذلك مجاز ؛ لم يكن هذا اولى من العكس .

و«أيضاً» من الأسماء ما تكلم به اهل اللغة مفرداً ، كلفظ «الانسان»
ونحوه ، ثم قد يستعمل مقيداً بالاضافة كقولهم : انسان العين ، وابرة النراع ،
ونحو ذلك ، وبتقدير ان يكون في اللغة حقيقة ومجاز ؛ فقد ادعى بعضهم ان هذا
من المجاز ؛ وهو غلط ، فان المجاز : هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له اولا
وهنا لم يستعمل اللفظ ؛ بل ركب مع لفظ آخر ، فصار وضعاً آخر بالاضافة .

فلو استعمل مضافاً في معنى ، ثم استعمل بتلك الاضافة في غيره كان مجازاً ، بل اذا كان بعلبك وحضرموت ونحوها مما يركب تركيب مزج بعد ان كان الاصل فيه الاضافة ؛ لا يقال : إنه مجاز . فما لم ينطق به إلا مضافاً اولى ان لا يكون مجازاً .

واما من فرق بين الحقيقة والمجاز ؛ بأن الحقيقة ما يفيد المعنى مجرداً عن القرائن ، والمجاز ما لا يفيد ذلك المعنى الا مع قرينه ، او قال : «الحقيقة» : ما يفيد اللفظ المطلق . و«المجاز» : ما لا يفيد الا مع التقييد . او قال : «الحقيقة» هي المعنى الذي يسبق الى الذهن عند الاطلاق . و«المجاز» ما لا يسبق الى الذهن . او قال : «المجاز» ما صح نفيه ، و«الحقيقة» ما لا يصح نفيها ، فانه يقال : ما تعني بالتجريد عن القرائن ، والاقتران بالقرائن ؟

ان عنى بذلك القرائن اللفظية ، مثل كون الاسم يستعمل مقروناً بالضافة ، او لام التعريف ، ويقيد بكونه فاعلاً ومفعولاً ومبتدأً وخبراً ؛ فلا يوجد قسط في الكلام المؤلف اسم الا مقيداً . وكذلك الفعل ، ان عنى بتقييده انه لا يند له من فاعل وقد يقيد بالمفعول به وظرفي الزمان والمكان ، والمفعول له ومعه ، والحال فالفعل لا يستعمل قط الا مقيداً ، واما الحرف فأبلغ ، فان الحرف أتى به لمعنى في غيره . ففي الجملة لا يوجد قط في كلام تام اسم ولا فعل ولا حرف الا مقيداً بقيود تزيل عنه الاطلاق . فان كانت القرينة مما يمنع الاطلاق عن كل

قيد ، فليس في الكلام الذي يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد ،
سواء كانت الجملة اسمية او فعلية ،

ولهذا كان لفظ « الكلام » و « الكلمة » في لغة العرب ، بل وفي لغة غيرهم ،
لا تستعمل إلا في المقيد . وهو الجملة التامة اسمية كانت او فعلية او ندائية ،
إن قيل انها قسم ثالث .

فأما مجرد الاسم او الفعل او الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل
فهذا لا يسمى في كلام العرب قط كلمة ، وإنما تسمية هذا كلمة ، اصطلاح نحوي
كما سموا بعض الألفاظ فعلاً ، وقسموه الى فعل ماض ومضارع وامر ، والعرب
لم تسم قط اللفظ فعلاً ؛ بل النحاة اصطلاحوا على هذا ، فسموا اللفظ باسم مدلوله ،
فاللفظ الدال على حدوث فعل في زمن ماض سموه فعلاً ماضياً ، وكذلك سائرهما .

وكذلك حيث وجد في الكتاب والسنة ، بل وفي كلام العرب نظمه وبنثه
لفظ كلمة ؛ فأنما يراد به المفيد التي تسميها النحاة جملة تامة ، كقوله تعالى : (وينذر
الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ؛ ما لهم به من علم ولا آباءهم ، كبرت كلمة تخرج من
افواههم إن يقولون إلا كذباً) . وقوله تعالى : (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى
وكلمة الله هي العليا) . وقوله تعالى : (تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) . وقوله :
(وجعلها كلمة باقية في عقبه) . وقوله : (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها
وأهلها) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

« ألا كل شيء ما خلا الله باطل »

وقوله « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . وقوله . « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن ان تبلغ به ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه الى يوم القيامة وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن ان تبلغ به ما بلغت ، يكتب الله بها سخطه الى يوم القيامة » . وقوله : « لقد قلت بعنك اربع كلمات لو وزنت بما قلته منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله مداد كلماته » .

. واذا كان كل اسم او فعل أو حرف يوجد في الكلام ، فانه مقيد . لا مطلق ، لم يميز ان يقابل للفظ الحقيقة ما دل مع الاطلاق والتجرد عن كل قرينة تقارنه .

فان قيل : اريد بعض القرائن دون بعض ، قيل له : اذ كر الفصل بين القرينة التي يكون معها حقيقة ، والقرينة التي يكون معها مجاز ولن تجد الى ذلك سبيلاً تقدر به على تقسيم صحيح معقول . ومما يدل على ذلك ان الناس اختلفوا في « العام » إذا خص هل يكون استعماله فيما بقي . حقيقة او مجازاً ؟ وكذلك لفظ « الامر » اذا اريد به النذب ، هل يكون حقيقة او مجازاً ؟ وفي ذلك قولان لاكثر الطوائف : لاصحاب احمد قولان ، ولاصحاب الشافعي قولان ، ولاصحاب مالك قولان .

ومن الناس من ظن ان هذا الخلاف يطرد في التخصيص المتصل ، كالفظة

والشرط والغاية والبدل ، وجعل يحكي في ذلك اقوال من يفصل كما يوجد في كلام طائفة من المصنفين في اصول الفقه ، وهذا مما لم يعرف ان احداً قاله فجعل اللفظ العام المقيد في الصفات والغايات والشروط مجازاً بل لما اطلق بعض المصنفين ان اللفظ العام اذا خص يصير مجازاً ؛ ظن هذا الناقل انه عنى التخصيص المتصل وأولئك لم يكن في اصطلاحهم عام مخصوص إلا اذا خص بمنفصل . واما المتصل ؛ فلا يسمون اللفظ عاماً مخصوصاً البتة فانه لم يدل إلا متصلاً والاتصال منعه العموم ، وهذا اصطلاح كثير من الاصوليين وهو الصواب . لا يقال لما قيد بالشرط والصفة ونحوها : انه داخل فيما خص من العموم ، ولا في العام المخصوص ؛ لكن يقيد فيقال : تخصيص متصل ، وهذا المقيد لا يدخل في التخصيص المطلق .

وبالجملة فيقال : اذا كان هذا مجازاً ؛ فيكون تقييد الفعل المطلق بالمفعول به وبظرف الزمان والمكان مجازاً ؛ وكذلك بالحال ، وكذلك كل ما قيد بقيد ، فيلزم ان يكون الكلام كله مجازاً ، فأين الحقيقة ؟

فان قيل : يفرق بين القرائن المتصلة والمنفصلة ، فما كان مع القرينة المتصلة فهو حقيقة ، وما كان مع المنفصلة كان مجازاً ؛ قيل : تعنى بالتصل ما كان في اللفظ ، او ما كان موجوداً حين الخطاب ؟ فان عنيت الأول ؛ لزم ان يكون ما علم من حال المتكلم او المستمع اولا قرينة منفصلة . فما استعمل بلام التعريف لما يعرفانه ، كما يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند المسلمين رسول الله أو قال الصديق ، وهو عندهم ابو بكر ، واذا قال الرجل لصاحبه : اذهب الى

الأمير او القاضي او الوالي يريد ما يعرفانه انه يكون مجازاً . وكذلك الضمير يعود الى معلوم غير مذكور . كقوله : (إنا أنزلناه) ، وقوله : (حتى توارت بالحجاب) وامثال ذلك ، ان يكون هذا مجازاً ؛ وهذا لا يقوله احد .

و « ايضاً » فاذا قال لشجاع : هذا الاسد فعل اليوم كذا ، ولبليد : هذا الحمار قال اليوم كذا ، او لعالم او جواد : هذا البحر جري منه اليوم كذا ؛ ان يكون حقيقة ، لان قوله هذا قرينة لفظية ، فلا يبقى قط مجازاً .

وان قال : المتصل اعم من ذلك ، وهو ما كان موجوداً حين الخطاب . قيل له : فهذا اشد عليك من الأول ؛ فان كل متكلم بالمجاز لا بد ان يقترن به حال الخطاب ما يبين مراده ، وإلا لم يجز التكلم به .

فان قيل : أنا اجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب الى وقت الحاجة . قيل : اكثر الناس لا يجوزون ان يتكلم بلفظ يدل على معنى وهو لا يريد ذلك المعنى الا اذا بين ، وانما يجوزون تأخير بيان ما لم يدل اللفظ عليه ، كالجملات . ثم نقول : اذا جوزت تأخير البيان ، فالبيان قد يحصل بجملة تامة ، وبأفعال من الرسول وبغير ذلك . ولا يكون البيان المتأخر الا مستقلاً بنفسه ، لا يكون مما يجب اقترانه بغيره . فان جعلت هذا مجازاً ؛ لزم ان يكون ما يحتاج في العمل الى بيان مجازاً ، كقوله : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

ثم يقال : هب ان هذا جائز عقلاً ، لكن ليس واقعاً في الشريعة اصلاً ، وجميع ما يذكر من ذلك باطل ، كما قد بسط في موضعه فان الذين قالوا :

الظاهر الذي لم يرد به ما يدل عليه ظاهره قد يؤخر بيانه ، احتجوا بقوله :
(ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة) . وادعوا أنها كانت معينة ، واخر بيان التعيين .
وهذا خلاف ما استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان من
أنهم أحمروا ببقرة مطلقه فلو أخذوا بقرة من البقر فذبحوها ، أجزأ عنهم ، ولكن
شددوا فشد الله عليهم . والآية نكرة في سياق الاثبات ، فهي مطلقه .
والقرآن يدل سياقه على ان الله ذمهم على السؤال بما هي ، ولو كان
المأمور به معيناً ، لما كانوا ملومين . ثم ان مثل هذا لم يقع قط في أمر
الله ورسوله ان يأمر عباده بشيء معين ، وبهمه عليهم مرة بعد مرة ، ولا
يذكره بصفات تختص به ابتداء .

واحتجوا بأن الله أخرج بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج ، وان هذه الالفاظ
لها معان في اللغة بخلاف الشرع ؛ وهذا غلط ، فان الله إنما أحمروا بالصلاة بعد
ان عرفوا المأمور به ، وكذلك الصيام ، وكذلك الحج ، ولم يؤخر الله قط بيان
شيء من هذه بالمأمورات ، ولبسط هذه المسألة موضع آخر .

واما قول من يقول : ان الحقيقة ما يسبق الى الذهن عند الاطلاق ؛ فمن
افسد الأقوال ، فانه يقال : اذا كان اللفظ لم ينطق به الا مقيداً ؛ فانه يسبق
الى الذهن في كل موضع منه ما دل عليه ذلك الموضع . واما اذا اطلق ؛ فهو
لا يستعمل في الكلام مطلقاً قط ، فلم يبق له حال اطلاق محض حتى يقال :
ان الذهن يسبق اليه ام لا .

و « ايضاً » فأى ذهن ؟ ! فان العربي الذي يفهم كلام العرب ؛ يسبق الى

ذهنه من اللفظ ما لا يسبق الى ذهن النبطي الذي صار يستعمل الألفاظ في غير معانيها ، ومن هنا غلط كثير من الناس ؛ فانهم قد تعودوا ما اعتادوه ، اما من خطاب عامتهم ، واما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ في معنى ، فاذا سمعوه في القرآن والحديث ظنوا انه مستعمل في ذلك المعنى ، فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم النبطية ، وعاداتهم الحادثة . وهذا مما دخل به الغلط على طوائف ، بل الواجب ان تعرف اللغة والعادة والعرف الذي نزل في القرآن والسنة ، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الالفاظ ؛ فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله . لا بما حدث بعد ذلك .

وايضاً ، فقد بينا في غير هذا الموضع ان الله ورسوله لم يدع شيئاً من القرآن والحديث الا بين معناه للمخاطبين ، ولم يحوجهم الى شيء آخر ، كما قد بسطنا القول فيه في غير هذا الموضع . فقد تبين ان ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود ؛ لا يوجد الا مقدرأ في الازهان ، لا موجوداً في الكلام المستعمل . كما ان ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدرأ في الذهن ، لا يوجد في الخارج شيء موجود خارج عن كل قيد . ولهذا كان ما يدعونه من تقسيم العلم الى تصور وتصديق ، وان التصور هو تصور المعنى الساذج الحالي عن كل قيد لا يوجد . وكذلك ما يدعونه من البسائط التي تتركب منها الأنواع ، وانها امور مطلقة عن كل قيد ، لا توجد . وما يدعونه من ان واجب الوجود هو وجود مطلق عن كل امر ثبوتي ؛ لا يوجد .

فهذه الصفات المطلقات عن جميع القيود ينبغي معرفتها لمن ينظر في هذه العلوم . فانه بسبب ظن وجودها ضل طوائف في العقليات والسمعات ، بل اذا قال العلماء : مطلق ومقيد ، انما يعنون به مطلقاً عن ذلك القيد ، ومقيد بذلك القيد . كما يقولون : الرقبة مطلقة في آية كفارة اليمين ومقيدة في آية القتل . أي مطلقة عن قيد الايمان ، والافقد قيل : (فتحير رقبة) . فقيدت بأنها رقبة واحدة ، وانها موجودة ، وانها تقبل التحرير . والذين يقولون بالمطلق المحض يقولون هو الذي لا يتصف بوحدة ولا كثرة ، ولا وجود ولا عدم ، ولا غير ذلك ؛ بل هو الحقيقة من حيث هي هي ، كما يذكره الرازي تلقياً له عن ابن سينا وامثاله من المتفلسفة . وقد بسطنا الكلام في هذا الاطلاق والتقيد ، والكليات والجزئيات في مواضع غير هذا ، وينبأ من غلط هؤلاء في ذلك ما ليس هذا موضعه .

وانما المقصود هنا « الاطلاق اللفظي » وهو ان يتكلم باللفظ مطلقاً عن كل قيد ، وهذا لا وجود له ، وحينئذ فلا يتكلم احد الا بكلام مؤلف مقيد مرتبط بعبءه بعض ، فتكون تلك قيود ممتعة الاطلاق . فتبين انه ليس لمن فرق بين الحقيقة والمجاز فرق معقول يمكن به التمييز بين نوعين ؛ فلم ان هذا التقسيم باطل وحينئذ فكل لفظ موجود في كتاب الله ورسوله فانه مقيد بما يبين معناه ، فليس في شيء من ذلك مجاز ، بل كله حقيقة .

ولهذا لما ادعى كثير من المتأخرين ان في القرآن مجازاً وذكروا ما يشهد

لهم ؛ رد عليهم المنازعون جميع ما ذكروه . فمن اشهر ما ذكروه قوله تعالى :
(جداراً يريد ان ينقض) . قالوا : والجدار ليس بحيوان ، والارادة إنما
تكون للحيوان ؛ فاستعمالها في ميل الجدار مجاز . فقيل لهم : لفظ الارادة قد
استعمل في الميل الذي يكون معه شعور وهو ميل الحي ، وفي الميل الذي لا شعور
فيه ، وهو ميل الجماد ، وهو من مشهور اللغة ؛ يقال هذا السقف يريد ان يقع
وهذه الارض تريد ان تحرث ، وهذا الزرع يريد ان يسقي ؛ وهذا الثمر يريد
ان يقطف ، وهذا الثوب يريد ان يغسل ، وامثال ذلك .

واللفظ اذا استعمل في معنيين فصاعداً ؛ فاما ان يجعل حقيقة في احدهما
مجازاً في الآخر ، او حقيقة فيما يختص به كل منهما ، فيكون مشتركا اشتراكا
لفظياً ، او حقيقة في القدر المشترك بينهما . وهي الاسماء المتواطئة . وهي الاسماء
العامة كلها . وعلى الاول يلزم المجاز . وعلى الثاني يلزم الاشتراك ؛ وكلاهما خلاف
الاصل ، فوجب ان يجعل من المتواطئة . وبهذا يعرف عموم الاسماء العامة كلها
والإفلو قال قائل : هو في ميل الجماد حقيقة ، وفي ميل الحيوان مجاز ؛ لم يكن
بين الدعويين فرق الا كثرة الاستعمال في ميل الحيوان ؛ لكن يستعمل مقيداً
بما يبين انه اريد به ميل الحيوان ، وهنا استعمل مقيداً بما يبين انه اريد به
ميل الجماد .

والقدر المشترك بين مسميات الأسماء المتواطئة امر كلي عام لا يوجد
كلياً عاماً الا في الذهن ، وهو مورد التقسيم بين الأنواع ، لكن ذلك المعنى العام

الكلي كان اهل اللغة لا يحتاجون الى التعبير عنه ؛ لأنهم إنما يحتاجون الى ما يوجد في الخارج ، والى ما يوجد في القلوب في العادة . وما لا يكون في الخارج الامضافاً الى غيره ؛ لا يوجد في الذهن مجرداً ، بخلاف لفظ الانسان والفرس ، فانه لما كان يوجد في الخارج غير مضاف ، تعودت الأذهان تصور مسمى الانسان ، ومسمى الفرس بخلاف تصور مسمى الارادة ومسمى العلم ومسمى القدرة ومسمى الوجود المطلق العام ؛ فان هذا لا يوجد له في اللغة لفظ مطلق يدل عليه ، بل لا يوجد لفظ الارادة الا مقيداً بليريد ولا لفظ العلم الا مقيداً بالعالم ، ولا لفظ القدرة الا مقيداً بالقادر . بل وهكذا سائر الأعراض لما لم توجد الا في محالها مقيدة بها ، لم يكن لها في اللغة لفظ الا كذلك .

فلا يوجد في اللغة لفظ السواد واليباض ، والطول والقصر الا مقيداً بالأسود والايض والطويل والقصير ونحو ذلك ، لا مجرداً عن كل قيد ؛ وإنما يوجد مجرداً في كلام المصنفين في اللغة ؛ لأنهم فهموا من كلام اهل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك ، ومنه قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) . فان من الناس من يقول : الذوق حقيقة في الذوق بالقم ، واللباس بما يلبس على البدن ، وإنما استعير هذا وهذا وليس كذلك ؛ بل قال الخليل : الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء ، والاستعمال يدل على ذلك . قال تعالى : (ولنديقتهم من العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر) . وقال : (ذق انك انت العزيز الكريم) . وقال : (فذاقت وبال أمرها) . وقال : (فذوقوا

العذاب بما كنتم تكفرون) - (فذوقوا عذابي ونذر) - (لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى) - (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً الا حميماً وغساقاً) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً ، وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولاً » . وفي بعض الادعية : « أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك » .

فلفظ « الذوق » يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه او لذته ، فدعوى المدعي اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه ، لكن ذلك مقيد فيقال : ذقت الطعام وذقت هذا الشراب ؛ فيكون معه من القيود ما يدل على انه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملاً فيما يحسه الانسان بباطنه ، او بظاهره ؛ حتى الماء الحميم يقال : ذاقه فالشراب إذا كان بارداً أو حاراً يقال : ذقت حره وبرده .

واما لفظ « اللباس » : فهو مستعمل في كل ما يغشى الانسان ويلتبس به ، قال تعالى : (وجعلنا الليل لباساً) . وقال : (ولباس التقوى ذلك خير) . وقال : (هن لباس لكم واتم لباس هن) . ومنه يقال : لبس الحق بالباطل اذا خلطه به حتى غشيه فلم يتميز . فالجوع الذي يشمل ألمه جميع الجائع : نفسه وبدنه ، وكذلك الخوف الذي يلبس البدن . فلو قيل : فأذاقها الله الجوع والخوف ؛ لم يدل ذلك على انه شامل لجميع اجزاء الجائع ، بخلاف ما اذا قيل : لباس الجوع والخوف . ولو قال فألبسهم لم يكن فيه ما يدل على انهم ذاقوا ما يؤلمهم الا بالعقل من حيث انه يعرف ان الجائع الخائف يألم . بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف ؛ فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالآلم ، واذا اضيف الى الملد : دل

على الاحساس به ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً » .

فان قيل : فلم لم يصف نعيم الجنة بالنوق ؟ قيل : لان النوق يدل على جنس الاحساس ويقال : ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله . واهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على النوق ؛ بل استعمل لفظ النوق في النبي كما قال عن اهل النار : (لا ينوقون فيها برداً ولا شرباً) ؛ اي لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق . وقال عن اهل الجنة : (لا ينوقون فيها الموت الا الموتة الاولى) .

وكذلك ما ادعوا انه مجاز في القرآن كلفظ « المكر » و « الاستهزاء » و « السخرية » المضاف الى الله ، وزعموا انه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز ، وليس كذلك بل مسميات هذه الاسماء اذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظاماً له ، وأما اذا فعلت بمن فعلها بالحق عليه عقوبة له بمثل فعلاه كانت عدلاً ؛ كما قال تعالى : (كذلك كدنا ليوסף) . فكاد له كما كادت اخوته لما قال له ابوه : (لاتقص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً) . وقال تعالى : (انهم يكيدون كيداً واكيد كيداً) . وقال تعالى : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) . وقال تعالى : (الذين يلزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم) . ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا الاسم ، كما

روي عن ابن عباس ؛ انه يفتح لهم باب من الجنة وهم في النار فيسرعون اليه فيغلق ، ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون اليه فيغلق ، فيضحك منهم المؤمنون . قال تعالى : (فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) .

وعن الحسن البصري : إذا كان يوم القيامة ؛ خمدت النار لهم كما تخمد الأهالة من القدر ، فيمشون فيخسف بهم . وعن مقاتل : اذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فيبقون في الظلمة فيقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . وقال بعضهم : استهزأوه : استدراجهم لهم . وقيل : ايقاع استهزأهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم . وقيل : إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما ابطن في الآخرة . وقيل هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه ؛ وهذا كله حق وهو استهزاء بهم حقيقة .

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز في القرآن : (واسأل القرية) . قالوا المراد به اهلها ، فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ، فقيل لهم : لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب ؛ وامثال هذه الامور التي فيها الحال والمحال كلاهما داخل في الاسم . ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان ، وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال : حفرت النهر ، وهو المحل . وجرى النهر ، وهو الماء ووضعت الميزاب ، وهو المحل ، وجرى الميزاب ، وهو الماء ، وكذلك القرية قال تعالى : (ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة) . وقوله : (وكم من قرية

اهلكناها فجاءها بأسنا بيّناً أو هم قائلون ، فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا إنا كنا ظالمين) . وقال في آية اخرى : (افأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بيّناً وهم نائمون) . فجعل القرى هم السكان . وقال : (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي اخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم) . وهم السكان . وكذلك قوله تعالى : (وتلك القرى اهلكناهم لما ظنوا وجعلنا لمهلكهم موعداً) . وقال تعالى : (او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) . فهذا المكان لا السكان ، لكن لابد ان يلحظ انه كان مسكوناً ؛ فلا يسمى قرية إلا إذا كان قد عمر للسكنى ، مأخوذ من القرى وهو الجمع ، ومنه قولهم : قريت الماء في الحوض إذا جمعه فيه .

ونظير ذلك لفظ «الإنسان» يتناول الجسد والروح ، ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما ؛ فكذلك القرية إذا عذب اهلها خربت ، وإذا خربت كان عذاباً لأهلها ؛ فما يصيب احدهما من الشر ، ينال الآخر ؛ كما ينال البدن والروح ما يصيب احدهما . فقوله : (واسأل القرية) . مثل قوله (قرية كانت آمنة مطمئنة) . فاللفظ هنا يراد به السكان من غير إضمار ولا حذف ، فهذا بتقدير ان يكون في اللغة مجاز ، فلا مجاز في القرآن . بل وتقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف . والحلف فيه على قولين وليس النزاع فيه لفظياً ؛ بل يقال : نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ، ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق تبين انها فروق باطلة ، وكلما ذكر بعضهم فرقاً ابطله الثاني ، كما يدعى المنطقيون ان الصفات القائمة بالوصفات

تتقسم اللازمة لها الى داخل في ماهيتها الثابتة في الخارج ، والى خارج عنها لازم للماهية ، ولازم خارج للوجود. وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة لأن هذا التقسيم باطل لا حقيقة له ، بل ما يجعلونه داخلياً يمكن جعله خارجاً ، وبالعكس كما قد بسط في موضعه .

وقولهم : اللفظ إن دل بلا قرينة فهو حقيقة ، وإن لم يدل إلا معها فهو مجاز ؛ قد تبين بطلانه ، وأنه ليس في الالفاظ الدالة ما يدل مجرداً عن جميع القرائن ، ولا فيها ما يحتاج إلى جميع القرائن . واشهر امثلة المجاز لفظ «الاسد» و «الحمار» و «البحر» ونحو ذلك مما يقولون : انه استعير للشجاع والبليد والجواد . وهذه لا تستعمل الا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية ، كما تستعمل الحقيقة ، كقول ابي بكر الصديق عن ابي قتادة لما طلب غيره سلب القتل : لاه الله اذاً يعمد الى اسد من اسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه . فقوله : يعمد الى اسد من اسد الله يقاتل عن الله ورسوله ؛ وصف له بالقوة للجهاد في سبيله ، وقد عينه تعييناً ازال اللبس . وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ان خالداً سيف من سيوف الله سلبه الله على المشركين » وامثال ذلك .

وان قال القائل : القرائن اللفظية موضوعة ، ودلالاتها على المعنى حقيقة ، لكن القرائن الحالية مجاز ؛ قيل : اللفظ لا يستعمل قط الا مقيداً بقيود لفظية موضوعة ؛ والحال حال المتكلم والمستمع ، لا بد من اعتباره في جميع الكلام

فانه اذا عرف المتكلم ، فهم من معنى كلامه ما لا يفهم اذا لم يعرف ، لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه ، واللفظ انما يدل اذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته وعرفه التي يعتادها في خطابه ، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية ارادية اختيارية ، فالتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى ؛ فاذا اعتاد ان يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته ، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها : عرف عادته في خطابه ، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره .

ولهذا ينبغي ان يقصد اذا ذكر لفظ من القرآن والحديث ، ان يذكر نظائر ذلك اللفظ ؛ ماذا عني بها الله ورسوله ، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده ، وهي العادة المعروفة من كلامه ، ثم اذا كان لذلك نظائر في كلام غيره ، وكانت النظائر كثيرة ؛ عرف ان تلك العادة واللغة مشتركة عامة ، لا يختص بها هو - صلى الله عليه وسلم - بل هي لغة قومه ، ولا يجوز ان يحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب اصحابه . كما يفعله كثير من الناس ، وقد لا يعرفون اتقاء ذلك في زمانه . ولهذا كان استعمال القياس في اللغة ، وان جاز في الاستعمال فانه لا يجوز في الاستدلال ، فانه قد يجوز للانسان ان يستعمل هو اللفظ في نظير المعنى الذي استعملوه فيه مع بيان ذلك على ما فيه من النزاع ؛ لكن لا يجوز ان يعمد الى ألفاظ قد عرف استعمالها في معان فيحملها على غير تلك المعاني ، ويقول : انهم أرادوا تلك بالقياس على تلك ؛ بل هذا تبديل وتحريف

فاذا قال : « الجار أحق بسقبه » فالجار هو الجار ليس هو الشريك ؛ فان هذا لا يعرف في لغتهم ؛ لكن ليس في اللفظ ما يقتضي انه يستحق الشفعة ؛ لكن يدل على ان البيع له أولى .

واما «الحمر» فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة انها كانت اسماً لكل مسكر ، لم يسم النبيذ خمرأً بالقياس . وكذلك «النباش» كانوا يسمونه سارقا ، كما قالت عائشة : سارق موتانا كسارق احيانا . واللائط عنهم كان أغلظ من الزاني بالمرأة .

ولا بد في تفسير القرآن والحديث من ان يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ ، وكيف يفهم كلامه ، فعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على ان نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ؛ فان عامة ضلال اهل البدع كان بهذا السبب ؛ فانهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون انه دال عليه ، ولا يكون الامر كذلك ، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة ، وهذه مجازاً ، كما أخطأ المزجئة في اسم «الايان» جعلوا لفظ «الايان» حقيقة في مجرد التصديق ، وتناوله للأعمال مجازاً .

فيقال : ان لم يصح التقسيم إلى حقيقة ومجاز ، فلا حاجة الى هذا ، وان صح ، فهذا لا ينفعكم . بل هو عليكم لالكم ؛ لأن الحقيقة هي اللفظ الذي يدل باطلاقه بلا قرينة ، والمجاز إنما يدل بقرينة . وقد تبين ان لفظ الايمان حيث اطلق في الكتاب والسنة ، دخلت فيه الأعمال ، وانما يدعي خروجها منه

عند التقييد ؛ وهذا يدل على ان الحقيقة قوله . «الايان بضع وسبعون شعبة».

واما حديث جبريل ، فان كان اراد بالايان ما ذكر مع الاسلام . فهو كذلك . وهذا هو المعنى الذي اراد النبي صلى الله عليه وسلم قطعاً . كما انه لما ذكر الاحسان اراد الاحسان مع الايمان والاسلام ؛ لم يرد ان الاحسان مجرد عن ايمان واسلام .

ولو قدر انه اريد بلفظ «الايان» مجرد التصديق ؛ فلم يقع ذلك الامع قرينة ، فيلزم ان يكون مجازاً ، وهذا معلوم بالضرورة لا يمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث ، بخلاف كون لفظ «الايان» في اللغة مرادفاً للتصديق ، ودعوى ان الشارع لم يغيره ولم ينقله ؛ بل اراد به ما كان يريد به اهل اللغة بلا تخصيص ولا تقييد ؛ فان هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحدة منهما ، فلا يعارض اليقين ، كيف وقد عرف فساد كل واحدة من المقدمتين ، وأنها من افسد الكلام .

و« ايضاً » فليس لفظ الايمان في دلالاته على الأعمال المأمور بها بدون لفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ في دلالاته على الصلاة الشرعية ، والصيام الشرعي ؛ والحج الشرعي ؛ سواء قيل : ان الشارع نقله ؛ او اراد الحكم دون الاسم ؛ او اراد الاسم وتصرف فيه تصرف اهل العرف ؛ او خاطب بالاسم مقيداً لا مطلقاً .

فان قيل : الصلاة والحج ونحوها لو ترك بعضها بطلت ، بخلاف الايمان ،

فانه لا يبطل عند الصحابة واهل السنة والجماعة بمجرد الذنب ؛ قيل : ان اريد بالبطلان انه لا تبرأ الذمة منها كلها ؛ فكذلك الايمان الواجب اذا ترك منه شيئاً لم تبرأ الذمة منه كله . وان اريد به وجوب الاعادة فهذا ليس على الاطلاق . فان في الحج واجبات اذا تركها لم يعد ، بل تجبر بدم ، وكذلك في الصلاة عند اكثر العلماء اذا تركها سهواً او مطلقاً وجبت الاعادة ، فانما تجب اذا امكنت الاعادة ، والا فما تعذرت اعادته يبقى مطالباً به كالجمعة ونحوها .

وان أريد بذلك انه لا يثاب على ما فعله ، فليس كذلك ، بل قد بين النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المسيء في صلاته انه اذا لم يتمها يثاب على ما فعل ، ولا يكون بمنزلة من لم يصل . وفي عدة أحاديث ان الفرائض تكمل يوم القيامة من النوافل ؛ فاذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دل على انه يعتدله بما فعل منها ؛ فكذلك الايمان إذا ترك منه شيئاً كان عليه فعله ؛ إن كان محرماً تاب منه ، وان كان واجباً فعله ؛ فاذا لم يفعله لم تبرأ ذمته منه ، وأثبت على ما فعله كسائر العبادات ، وقد دلت النصوص على انه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من الايمان .

وقد عدلت « المرجئة » في هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة واقوال الصحابة والتابعين لهم باحسان ، واعتمدوا على رأيهم ، وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغوي ، وهذه طريقة اهل البدع ؛ ولهذا كان الامام احمد يقول : اكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل والقياس .

ولهذا تجمد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من اهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم ، وما تأولوه من اللغة ؛ ولهذا تجمد لا يعتمدون على احاديث النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ؛ فلا يعتمدون لا على السنة ، ولا على اجماع السلف وآثارهم ؛ وإنما يعتمدون على العقل واللغة ، وتجمد لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث ؛ وآثار السلف وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم ، وهذه طريقة الملاحدة ايضاً ؛ إنما ياخذون ما في كتب الفلسفة ، وكتب الأدب واللغة ، واما كتب القرآن والحديث والآثار ؛ فلا يلتقون اليها . هؤلاء يعرضون عن نصوص الانبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم ، واولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ، وقد ذكرنا كلام احمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة اهل البدع .

وإذا تدبرت حججهم وجدت دعاوى لا يقوم عليها دليل . والقاضي ابو بكر الباقلاني نصر قول جهم في « مسألة الايمان » متبعة لأبي الحسن الأشعري ، وكذلك اكثر اصحابه . فأما ابو العباس القلانسي ، وابو علي الثقي ، وابو عبد الله ابن مجاهد — شيخ القاضي ابي بكر وصاحب ابي الحسن — فاتهم نصرُوا مذهب السلف . وابن كلاب — نفسه — والحسين بن الفضل البجلي ونحوهما كانوا يقولون : هو التصديق والقول جميعاً موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين ، كحماد بن ابي سليمان ، ومن اتبعه مثل ابي حنيفة وغيره .

فصل

وأبو الحسن الأشعري نصر قول جهنم في « الايمان » مع انه نصر المشهور عن اهل السنة من انه يستثنى في الايمان ، فيقول : انا مؤمن ان شاء الله ؛ لأنه نصر مذهب اهل السنة في انه لا يكفر احد من اهل القبلة ولا يخلدون في النار ، وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك . وهو دائماً ينصر - في المسائل التي فيها النزاع بين اهل الحديث وغيرهم - قول اهل الحديث ، لكنه لم يكن خبيراً بماخذهم ، فينصره على ما يراه هو من الاصول التي تلقاها عن غيرهم ؛ فيقع في ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل في مسألة الايمان ، ونصر فيها قول جهنم مع نصره للاستثناء ؛ ولهذا خالفه كثير من اصحابه في الاستثناء كما سنذكر مأخذه في ذلك ، واتبعه اكثر اصحابه على نصر قول جهنم في ذلك . ومن لم يقف الا على كتب الكلام ، ولم يعرف ما قاله السلف وأئمة السنة في هذا الباب ؛ فيظن ان ما ذكروه هو قول اهل السنة ؛ وهو قول لم يقله احد من أئمة السنة ، بل قد كفر احمد بن حنبل ووكيع وغيرهما من قال بقول جهنم في الايمان الذي نصره ابو الحسن . وهو عندهم شر من قول المرجئة ؛ ولهذا صار من يعظم الشافعي من الزيدية والمعتزلة ونحوهم ، يظن في كثير ممن ينتسب اليه

يقولون : الشافعي لم يكن فيلسوفاً ولا مرجئاً ، وهؤلاء فلاسفة اشعرية مرجئة ،
وغرضهم ذم الارزاء ، ونحن نذكر عمدتهم لكونه مشهوراً عند كثير من
المتأخرين المنتسبين الى السنة .

قال القاضي ابو بكر في « التمهيذ » : فان قالوا : فخبرونا ما الايمان عندهم ؟
قيل : الايمان هو التصديق بالله وهو العلم ، والصديق يوجد بالقلب ، فان قال :
فما الدليل على ما قلتم ؟ قيل : اجماع اهل اللغة قاطبة على ان الايمان قبل نزول
القرآن وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم هو التصديق ، لا يعرفون في اللغة ايماناً
غير ذلك ويدل على ذلك قوله تعالى : (وما انت بمؤمن لنا) أي بمصدق لنا .
ومنه قولهم : فلان يؤمن بالشفاعة ، وفلان لا يؤمن بعذاب القبر ، اي : لا يصدق
بذلك . فوجب ان الايمان في الشريعة هو الايمان المعروف في اللغة ؛ لأن الله
ما غير اللسان العربي ولا قلبه ، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله ، وتوفرت
دواعي الأمة على نقله ، ولغلب إظهاره على كتمانها ، وفي علمنا بأنه لم يفعل ذلك
بل اقرار اسماء الاشياء والتخاطب بأسره على ما كان ، دليل على ان الايمان في
الشريعة هو الايمان اللغوي ، ومما يبين ذلك قوله تعالى : (وما ارسلنا من رسول
إلا بلسان قومه) وقوله : (إنا جعلناه قرآناً عربياً) . فأخبر انه انزل القرآن
بلغته العرب ، وسمي الاسماء بمسمياتهم ، ولاوجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها
بغير حجة لا سيما مع القول بالعموم ، وحصول التوقيف على ان القرآن نزل
بلغتهم ؛ فدل على ما قلناه من ان الايمان ما وصفناه دون ما سواه من سائر
الطاعات من النوافل والمفروضات ، هذا لفظه .

وهذا عمدة من نصر قول الجهمية في «مسألة الايمان» وللجمهور من
اهل السنة وغيرهم عن هذا اجوبة .

(احدهما) : قول من ينازعه في ان الايمان في اللغة مرادف للتصديق ،
ويقول هو بمعنى الاقرار وغيره .

و (الثاني) : قول من يقول : وان كان في اللغة هو التصديق ؛ فالتصديق
يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« والفرج يصدق ذلك او يكذبه » .

و (الثالث) : ان يقال : ليس هو مطلق التصديق ، بل هو تصديق خاص
مقيد بقيود اتصل اللفظ بها ، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييراً له ، فان الله لم
يأمرنا بايمان مطلق ، بل بايمان خاص وصفه وبينه .

و (الرابع) : ان يقال : وان كان هو التصديق ؛ فالتصديق التام القائم
بالقلب مستلزم لما وجب من اعمال القلب والجوارح ، فان هذه لوازم الايمان
التام ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ، ونقول : ان هذه اللوازم تدخل
في مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه اخرى .

(الخامس) : قول من يقول : ان اللفظ باق على معناه في اللغة ، ولكن
الشارع زاد فيه احكاماً .

(السادس) : قول من يقول : ان الشارع استعمله في معناه المجازي ؛
فهو حقيقة شرعية ، مجاز لغوي .

(السابع) : قول من يقول : إنه منقول .

فهذه سبعة اقوال : (الأول) : قول من ينازع في ان معناه في اللغة التصديق ويقول : ليس هو التصديق ؛ بل بمعنى الاقرار وغيره .

« قوله » : اجماع اهل اللغة قاطبة على ان الايمان قبل نزول القرآن هو التصديق . فيقال له : من نقل هذا الاجماع ؟ ومن اين يعلم هذا الاجماع ؟ وفي أي كتاب ذكر هذا الاجماع ؟ .

(الثاني) ان يقال : اتعني بأهل اللغة نقلتها ، كأبي عمرو ، والاصمعي ، والحليل ، ونحوهم ؛ او المتكلمين بها ؟ فان عنيت الأول ؛ فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الاسلام باسناد ، وانما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم ، وما سمعوه في دواوين الشعر وكلام العرب وغير ذلك بالاسناد ، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الايمان فضلاً عن ان يكونوا أجمعوا عليه . وان عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الاسلام ؛ فهؤلاء لم نشهدهم ، ولا نقل لنا احد عنهم ذلك .

(الثالث) : انه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم انهم قالوا : الايمان في اللغة هو التصديق ؛ بل ولا عن بعضهم ، وان قدر انه قاله واحد او اثنان ؛ فليس هذا اجماعا .

(الرابع) : ان يقال : هؤلاء لا ينقلون عن العرب انهم قالوا : معنى هذا اللفظ كذا وكذا ؛ وانما ينقلون الكلام المسموع من العرب ، وانه يفهم منه كذا وكذا ، وحينئذ فلو قدر انهم نقلوا كلاماً عن العرب يفهم منه ان الايمان هو

التصديق : لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين كافة للقرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم انه اريد به معنى ولم يرده ؛ فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب اولى .

(الخامس) : انه لو قدر انهم قالوا هذا ؛ فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر و « التواتر » من شرطه استواء الطرفين والواسطة ، واين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن ؟ انهم كانوا لا يعرفون للايمان معنى غير التصديق .

فان قيل : هذا يقدر في العلم باللغة قبل نزول القرآن ؛ قيل : فليكن . ونحن لا حاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن ان نعرف اللغة قبل نزول القرآن ، والقرآن نزل بلغة قريش ، والذين خوطبوا به كانوا عرباً ، وقد فهموا ما اريد به وهم الصحابة ، ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه الى التابعين حتى انتهى الينا ، فلم يبق بنا حاجة الى ان تتواتر عندنا تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن لكن لما تواتر القرآن لفظاً ومعنى ، وعرفنا انه نزل بلغتهم ؛ عرفنا انه كان في لغتهم لفظ السماء والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك على ما هو معناها في القرآن . وإلا فلو كلفنا نقلاً متواتراً لآحاد هذه الألفاظ من غير القرآن ؛ لتعذر علينا ذلك في جميع الألفاظ ، لا سيما إذا كان المطلوب ان جميع العرب كانت تريد باللفظ هذا المعنى ، فان هذا يتعذر العلم به والعلم بمعاني القرآن ليس موقوفاً على شيء من ذلك ؛ بل الصحابة بلغوا معاني

القرآن ، كما بلغوا لفظه . ولو قدرنا ان قوماً سمعوا كلاماً أعجمياً ، وترجموه لنا بلغتهم ؛ لم نحتاج الى معرفة اللغة التي خوطبوا بها اولاً .

(السادس) . انه لم يذكر شاهداً من كلام العرب على ما ادعاه عليهم ؛ وإنما استدل من غير القرآن بقول الناس : فلان يؤمن بالشفاعة ، وفلان يؤمن بالجنة والنار ، وفلان يؤمن بعذاب القبر ، وفلان لا يؤمن بذلك ؛ ومعلوم ان هذا ليس من الفاظ العرب قبل نزول القرآن ؛ بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة ، لما صار من الناس اهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله : فلان يؤمن بالجنة والنار ، وفلان لا يؤمن بذلك . والقائل لذلك وان كان تصديق القلب داخلياً في مراده ؛ فليس مراده ذلك وحده ؛ بل مراده التصديق بالقلب واللسان ، فان مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه .

(السابع) : ان يقال : من قال ذلك ؛ فليس مراده التصديق بما يرجي ويخاف بدون خوف ولا رجاء ؛ بل يصدق بعذاب القبر ويخافه ، ويصدق بالشفاعة ويرجوها . وإلا فلو صدق بأنه يعذب في قبره ، ولم يكن في قلبه خوف من ذلك اصلاً ، لم يسموه مؤمناً به ، كما انهم لا يسمون مؤمناً بالجنة والنار إلا من رجا الجنة وخاف النار ، دون المعرض عن ذلك بالكلية مع علمه بأنه حق . كما لا يسمون إبليس مؤمناً بالله ، وان كان مصدقاً بوجوده وربوبيته ، ولا يسمون فرعون مؤمناً ، وان كان عالماً بأن الله بعث موسى ، وانه هو الذي انزل

الآيات ، وقد استيقت بها انفسهم مع جحدهم لها بالسنتهم . ولا يسمون اليهود مؤمنين بالقرآن والرسول ، وان كانوا يعرفون أنه حق ، كما يعرفون ابناءهم . فلا يوجد قط في كلام العرب ان من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى ، ويجب حبه وتعظيمه ؛ وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ، ولا يخافه ولا يرجوه . بل يجحد به ويكذب به بلسانه ، انهم يقولون : هو مؤمن ، بل ولو عرفه باليه وكذب به بلسانه ، لم يقولوا : هو مصدق به . ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه ، لم يقولوا هو مؤمن به . فلا يوجد في كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه .

وقوله : (وما أنت بمؤمن لنا) قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع فان هذا استدلال بالقرآن ، وليس في الآية ما يدل على ان المصدق مرادف للمؤمن ، فان صحة هذا المعنى بأحد اللفظين لا يدل على انه مرادف للآخر ، كما بسطناه في موضعه .

(الوجه الثامن) : قوله : لا يعرفون في اللغة إيماناً غير ذلك . من أين له هذا النبي الذي لا تمكن الاحاطة به ؟ بل هو قول بلا علم .

(التاسع) : قول من يقول : اصل الايمان مأخوذ من الأمن ، كما ستأتي أقوالهم ان شاء الله . وقد نقلوا في اللغة الايمان بغير هذا المعنى . كما قاله الشيخ ابو البيان في قول (١) .

(١) ياض بالأصل .

(الوجه العاشر): انه لو فرض ان الايمان في اللغة التصديق ؛ فمعلوم ان الايمان ليس هو التصديق بكل شيء ، بل بشيء مخصوص ، وهو ما اخبر به الرسول ، صلى الله عليه وسلم ؛ وحينئذ فيكون الايمان في كلام الشارع اخص من الايمان في اللغة . ومعلوم ان الخاص ينضم إليه قيود لا توجد في جميع العام كالحيوان اذا اخذ بعض انواعه وهو الانسان كان فيه المعنى العام ومعنى اخص به ، وذلك المجموع ليس هو المعنى العام . فالتصديق الذي هو الايمان ؛ أدنى أحواله ان يكون نوعاً من التصديق العام ، فلا يكون مطابقاً له في العموم والخصوص من غير تغيير اللسان ولا قلبه ؛ بل يكون الايمان في كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص كالانسان الموصوف بأنه حيوان وانه ناطق .

(الوجه الحادي عشر): ان القرآن ليس فيه ذكر ايمان مطلق غير مفسر ؛ بل لفظ الايمان فيه إما مقيد ، واما مطلق مفسر . «فالمقيد» كقوله ، (يؤمنون بالغيب) وقوله : (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) و«المطلق المفسر» كقوله تعالى : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية . وقوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، اولئك هم الصادقون) ونحو ذلك . وقوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) . وامثال هذه الآيات . وكل ايمان مطلق في القرآن فقد بين فيه انه لا يكون الرجل مؤمناً الا بالعمل مع التصديق ؛ فقد بين في

القرآن ان الايمان لا بد فيه من عمل مع التصديق ، كما ذكر مثل ذلك في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فان قيل : تلك الأسماء باقية ، ولكن ضم الى المسمي اعمالا في الحكم لا في الاسم ، كما يقوله القاضي ابو يعلى وغيره . قيل : ان كان هذا صحيحاً قيل مثله في الايمان . وقد اورد هذا السؤال لبعضهم ، ثم لم يجب عنه بجواب صحيح ، بل زعم ان القرآن لم يذكر فيه ذلك . وليس كذلك ، بل القرآن والسنة مملوءان بما يدل على ان الرجل لا يثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع التصديق . وهذا في القرآن أكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة ؛ فان تلك انما فسرتها السنة ، «والايمان» بين معناه الكتاب والسنة ، واجماع السلف .

(الثاني عشر) : انه اذا قيل : ان الشارع خاطب الناس بلغة العرب ؛ فاما خاطبهم بلغتهم المعروفة ، وقد جرى عرفهم ان الاسم يكون مطلقاً وعماماً ، ثم يدخل فيه قيد اخص من معناه ، كما يقولون : ذهب الى القاضي والوالي والأمير ، يريدون شخصاً معيناً يعرفونه دلت عليه اللام مع معرفتهم به . وهذا الاسم في اللغة اسم جنس لا يدل على خصوص شخص ، وامثال ذلك . فكذلك الايمان والصلاة والزكاة ، انما خاطبهم بهذه الأسماء بلام التعريف ، وقد عرفهم قبل ذلك ان المراد الايمان الذي صفته كذا وكذا . والدعاء الذي صفته كذا وكذا . فبتقدير ان يكون في لغتهم التصديق . فانه قد بين اني لا اكنفي بتصديق القلب واللسان ، فضلاً عن تصديق القلب وحده ، بل لا بد ان يعمل بموجب ذلك التصديق ، كما في قوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم

لم يرتابوا) (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وفي قوله صلى الله عليه وسلم « لا تؤمنون حتى تكونوا كذا ». وفي قوله تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) . وفي قوله : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء) . ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة ، كقوله عليه السلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . وقوله : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » . وأمثال ذلك .

فقد بين لهم ان التصديق الذي لا يكون الرجل مؤمناً الا به ، هو ان يكون تصديقاً على هذا الوجه . وهذا بين في القرآن والسنة من غير تغيير للغة ولا نقل لها .

(الثالث عشر) : ان يقال : بل نقل وغير . قوله : لوفعل لتواتر . قيل : نعم . وقد تواتر انه اراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج معانيها المعروفة . وأراد بالايان ما بينه بكتابه وسنة رسوله من ان العبد لا يكون مؤمناً الا به ، كقوله : (انما المؤمنون) وهذا متواتر في «القرآن والسنن» ومتواتر أيضاً انه لم يكن يحكم لأحد بحكم الايمان الا ان يؤدي الفرائض . ومتواتر عنه انه اخبر انه : من مات مؤمناً دخل الجنة ولم يعذب ، وان الفساق لا يستحقون ذلك ؛ بل هم معرضون للعذاب . فقد تواتر عنه من معاني اسم الايمان واحكامه ما لم يتواتر عنه في غيره ، فأبي تواتر أبلغ من هذا ؟! وقد توفرت الدواعي على نقل ذلك واطهاره ، والله الحمد . ولا يقدر احد ان ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً يناقض هذا . لكن اخبر انه يخرج منها من كان معه شيء من الايمان . ولم يقل :

ان المؤمن يدخلها ، ولا قال ان الفساق مؤمنون . لكن أدخلهم في مسمى
الايمان في مواضع ، كما ادخل المنافقين في اسم الايمان في مواضع مع القيود .
واما الاسم المطلق الذي وعد اهله بالجنة ؛ فلم يدخل فيه لا هؤلاء ولا هؤلاء .

(الوجه الرابع عشر) : قوله : ولا وجه للعدول - بالآيات التي تدل على
انه عربي - عن ظاهرها ؛ فيقال له : الآيات التي فسرت المؤمن ، وسلبت
الايمان عن من لم يعمل ؛ اصرح وايبين وأكثر من هذه الآيات . ثم إذا دلت على
انه عربي ؛ فما ذكر لا يخرج به عن كونه عربياً . ولهذا لما خاطبهم بلفظ الصلاة
والحج وغير ذلك ؛ لم يقولوا : هذا ليس بعربي . بل خاطبهم باسم المنافقين ، وقد
ذكر اهل اللغة ان هذا الاسم لم يكن يعرف في الجاهلية ، ولم يقولوا : انه ليس
بعربي ؛ لأن المنافق مشتق من نفاق اذا خرج ؛ فاذا كان اللفظ مشتقاً من
لغتهم وقد تصرف فيه المتكلم به كما جرت عادتهم في لغتهم ؛ لم يخرج ذلك
عن كونه عربياً .

(الوجه الخامس عشر) : انه لو فرض ان هذه الألفاظ ليست عربية ،
فليس تخصيص عموم هذه الألفاظ بأعظم من إخراج لفظ الايمان عما دل عليه
الكتاب والسنة وإجماع السلف ، فان النصوص التي تنفي الايمان عن من لا يحب
الله ورسوله ، ولا يخاف الله ولا يتقيه ولا يعمل شيئاً من الواجب ، ولا يترك
شيئاً من المحرم ؛ كثيرة صريحة . فاذا قدر أنها عارضها آية ؛ كان تخصيص اللفظ
القليل العام اولى من رد النصوص الكثيرة الصريحة .

(السادس عشر) : ان هؤلاء واقفة في الفاظ العموم لا يقولون بعمومها والسلف يقولون : الرسول وقفنا على معاني الايمان وبينه لنا . وعلمنا مراده منه بالاضطرار ، وعلمنا من مراده علماً ضرورياً ان من قيل : انه صدق ، ولم يتكلم بلسانه بالايمان مع قدرته على ذلك ، ولا صلى ولا صام ، ولا احب الله ورسوله ولا خاف الله : بل كان مبغضاً للرسول ، معادياً له يقائله ؛ ان هذا ليس بمؤمن . كما قد علمنا ان الكفار من المشركين واهل الكتاب الذين كانوا يعلمون انه رسول الله وفعلوا ذلك معه ؛ كانوا عنده كفاراً لا مؤمنين ، فهذا معلوم عندنا بالاضطرار اكثر من علمنا بأن القرآن كله ليس فيه لفظ غير عربي . فلو قدر التعارض ؛ لكان تقديم ذلك العلم الضروري اولي .

فان قالوا : من علم ان الرسول كفره ؛ علم انتفاء التصديق من قلبه .

قيل لهم : هذه مكابرة ، ان ارادوا انهم كانوا اشاكين مرتابين . وأما إن عني التصديق الذي لم يحصل معه عمل ؛ فهو ناقص كالمعدوم ؛ فهذا صحيح . ثم انما يثبت ، اذا ثبت ان الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، وذلك انما يثبت بعد تسليم هذه المقدمات التي منها هذا ، فلا تثبت الدعوى بالدعوى مع كفر صاحبها . ثم يقال : قد علمنا بالاضطرار ان اليهود وغيرهم كانوا يعرفون ان محمداً رسول الله ؛ وكان يحكم بكفرهم . فقد علمنا من دينه ضرورة انه يكفر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته في القلب ، اذا لم يعمل بهذا التصديق ، بحيث يجب ويعظمه ، ويسلم لما جاء به .

ومما يعارضون به ان يقال : هذا الذي ذكرتموه ، ان كان صحيحاً ؛ فهو أدل على قول المرجئة ، بل على قول الكرامية منه على قولكم ، وذلك ان الايمان إذا كان هو التصديق كما ذكرتم ، فالتصديق نوع من انواع الكلام ، فاستعمال لفظ الكلام والقول ونحو ذلك في المعنى واللفظ ، بل في اللفظ الدال على المعنى اكثر في اللغة من استعماله في المعنى المجرد عن اللفظ ، بل لا يوجد قط إطلاق اسم الكلام ولا انواعه : كالحبر او التصديق والتكذيب والأمر والنهي على مجرد المعنى من غير شيء يقترن به من عبارة ولا إشارة ولا غيرها ؛ وإنما يستعمل مقيداً .

وإذا كان الله انما أنزل القرآن بلغة العرب ؛ فهي لا تعرف التصديق والتكذيب وغيرها من الأقوال إلا ما كان معنى ولفظاً ، او لفظاً يدل على معنى ؛ ولهذا لم يجعل الله احداً مصدقاً للرسول بمجرد العلم والتصديق الذي في قلوبهم حتى يصدقهم بالسنتهم . ولا يوجد في كلام العرب ان يقال : فلان صدق فلاناً او كذبه إذا كان يعلم بقلبه انه صادق او كاذب ولم يتكلم بذلك . كما لا يقال : امره او نهاه ، اذا قام بقلبه طلب مجرد عما يقترن به من لفظ او إشارة او نحوها . وما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » . وقال : « إن الله يحدث من امره ما شاء ، وان مما احدث ان لا تكلموا في الصلاة » اتفق العلماء على انه اذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها ؛ بطلت صلاته . واتفقوا كلهم على ان ما يقوم بالقلب من تصديق

بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة ، وإنما يبطلها التكلم بذلك . فعمل انفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام .

وأيضاً في « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به او تعمل به » فقد اخبر أن الله عفا عن حديث النفس الا ان تتكلم ؛ ففرق بين حديث النفس وبين الكلام ، وأخبر أنه لا يؤخذ به حتى يتكلم به ، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء . فعمل ان هذا هو الكلام في اللغة ؛ لأن الشارع - كما قرر - إنما خاطبنا بلغة العرب .

وأيضاً في « السنن » أن معاذاً قال له : يا رسول الله ! وإنما لمؤاخذون بما تتكلم به ؟ فقال : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم او قال على مناخرهم الا حصائد السنتهم » . فبين ان الكلام إنما هو ما يكون باللسان . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

« وفي الصحيحين » عنه انه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقد قال الله تعالى : (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذباً) وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الكلام بعد القرآن اربع كلمات وهن في

القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله الا الله ، والله اكبر . . رواه مسلم .
 وقال تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ومثل هذا كثير .
 وفي الجملة : حيث ذكر الله في كتابه عن احد من الخلق من الأنبياء ، او
 اتباعهم او مكذبيهم انهم قالوا ويقولون ، وذلك قولهم وامثال ذلك ؛ فانما يعنى به
 المعنى مع اللفظ . فهذا اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع واحر ،
 ومصدر واسم فاعل من لفظ القول والكلام ونحوها ؛ انما يعرف في القرآن
 والسنة وسائر كلام العرب ، اذا كان لفظاً ومعنى وكذلك انواعه ، كالتصديق
 والتكذيب والأمر والنهي وغير ذلك . وهذا مما لا يمكن احداً جحده ، فانه
 اكثر من ان يحصى .

ولم يكن في مسمى « الكلام » نزاع بين الصحابة والتابعين لهم باحسان
 وتابعيهم لا من اهل السنة ، ولا من اهل البدعة . بل اول من عرف في الاسلام
 انه جعل مسمى الكلام المعنى فقط ، هو عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهو
 متأخر - في زمن محنة احمد بن حنبل - وقد انكر ذلك عليه علماء السنة ، وعلماء
 البدعة ، فيمتنع ان يكون الكلام الذي هو اظهر صفات بنى آدم - كما قال
 تعالى : (فو رب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون) . ولفظه لا تحصى
 وجوهه كثرة - لم يعرفه احد من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاء من قال
 فيه قولاً لم يسبقه اليه احد من المسلمين ، ولا غيرهم .

فان قالوا : فقد قال الله تعالى : (ويقولون في انفسهم) وقال : (واذكر
 ربك في نفسك تضرعاً وخيفة) ونحو ذلك .

قيل : ان كان المراد انهم قالوه بألسنتهم سراً ، فلا حجة فيه . وهذا هو الذي ذكره المفسرون . قالوا : كانوا يقولون : سام عليك ، فاذا خرجوا يقولون في أنفسهم اي يقول بعضهم لبعض : لو كان نبياً عذبنا بقولنا له ما نقول . وان قدر انه اريد بذلك انهم قالوه في قلوبهم ، فهذا قول مقيد بالنفس ، مثل قوله : « عما حدثت به انفسها » ولهذا قالوا : (لولا يعذبنا الله بما نقول) فأطلقوا لفظ القول هنا ، والمراد به ما قالوه بألسنتهم ، لأنه التجوى والتحية (التي نهوا عنها) كما قال تعالى : (ألم تر الى الذين نهوا عن التجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالآثم والعدوان ومعصية الرسول ، واذا جاءوك حيوك بما لم يحبك به الله ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) . مع ان الأول هو الذي عليه اكثر المفسرين ، وعليه تدل نظائره ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله : من ذكرني في نفسه ذكرتة في نفسي ومن ذكرني في ملاء ذكرتة في ملاء خير منه » ، ليس المراد انه لا يتكلم به بلسانه ، بل المراد انه ذكر الله بلسانه .

وكذلك قوله : (واذا ذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول) هو الذكر باللسان والذي يقيد بالنفس لفظ الحديث يقال : حديث النفس ، ولم يوجد عنهم انهم قالوا : كلام النفس وقول النفس ؛ كما قالوا : حديث النفس ، ولهذا يعبر بلفظ الحديث عن الأحلام التي ترى في المنام ، كقول يعقوب عليه السلام : (ويعلمك من تأويل الأحاديث) . وقول يوسف : (علمتي من تأويل الأحاديث) وتلك في النفس ، لا تكون باللسان ؛ فلفظ الحديث قد

يقيد بما في النفس ، بخلاف لفظ الكلام فانه لم يعرف انه اريد به ما في النفس فقط .

واما قوله تعالى : (واسروا قولكم او اجهزوا به انه عليم بذات الصدور) فالمراد به القول الذي تارة يسر به فلا يسمعه الانسان ، وتارة يجهر به فيسمعونه كما يقال : اسر القراءة وجهر بها ، وصلاة السر وصلاة الجهر . ولهذا لم يقل : قولوه بالسنتكم او بقلوبكم ، وما في النفس لا يتصور الجهر به ، وانما يجهر بما في اللسان ، وقوله : (انه عليم بذات الصدور) من باب التنييه . يقول : انه يعلم ما في الصدور فكيف لا يعلم القول ، كما قال في الآية الأخرى : (وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) فنبه بذلك على انه يعلم الجهر ، ويدل على ذلك انه قال : (واسروا قولكم او اجهزوا به انه عليم بذات الصدور) فلو اراد بالقول ما في النفس لكونه ذكر علمه بذات الصدور ، لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر .

وان قيل : نبه ، قيل : بل نبه على القسمين . وقوله تعالى : (آيتك ان لا تكلم الناس ثلاثة ايام إلا رمزاً) قد ذكر هذا في قوله : (ثلاث ليال سوياء) وهناك لم يستثن شيئاً ، والقصة واحدة ، وهذا يدل على ان الاستثناء منقطع ، والمعنى ، آيتك ألا تكلم الناس ، لكن ترمز لهم رمزاً ، كمنظائره في القرآن ، وقوله : (فأوحى اليهم) هو الرمز ، ولو قدر ان الرمز استثناء متصل لكان قد دخل في الكلام المقيد بالاستثناء ، كما في قوله : (وما كان لبشر ان

يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بأذنه ما يشاء .

ولا يلزم من ذلك ان يدخل في لفظ الكلام المطلق ؛ فليس في لغة القوم أصلاً ما يدل على ان ما في النفس يتناوله لفظ الكلام والقول المطلق ؛ فضلاً عن التصديق والتكذيب ، فعلم ان من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى في لغة القوم مؤمناً ، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وقول عمر رضي الله عنه : زورت في نفسي مقالة اردت ان اقولها ، حجة عليهم . قال ابو عبيد : التزوير : اصلاح الكلام وتهيئته ، قال : وقال ابو زيد : المزور من الكلام والمزوق واحد ، وهو المصلح الحسن ، وقال غيره : زورت في نفسي مقالة ، اي هيأتها لأقولها . فلفظها يدل على انه قدر في نفسه ما يريد ان يقوله ولم يقله ، فعلم انه لا يكون قولاً إلا اذا قيل باللسان ، وقبل ذلك لم يكن قولاً ، لكن كان مقدرأ في النفس يراد ان يقال ، كما يقدر الانسان في نفسه انه يحجج وانه يصلي ، وانه يسافر ، الى غير ذلك ، فيكون لما يريد من القول والعمل صورة ذهنية مقدره في النفس ، ولكن لا يسمى قولاً وعملاً إلا إذا وجد في الخارج ، كما انه لا يكون حاجاً ومصلياً إلا إذا وجدت هذه الأفعال في الخارج ، ولهذا كان ما يهيم به المرء من الأقوال المحرمة والأفعال المحرمة لا تكتب عليه حتى يقوله ، ويفعله ، وما هم به من القول الحسن ، والعمل الحسن انما يكتب له به حسنة واحدة ، فاذا صار قولاً وفعلاً كتب له به عشر

حسنت الى سبعمائة ، وعوقب عليه - اذا قال او فعل - كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به او تعمل » .

وأما البيت الذي يحكى عن الأخطل انه قال :

ان الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فمن الناس من انكر ان يكون هذا من شعره . وقالوا : انهم فقتشوا دواوينه فلم يجدوه ، وهذا يروي عن محمد بن الحشاش . وقال بعضهم : لفظه : إن البيان لفي الفؤاد .

ولو احتج محتج في مسألة بحديث اخرجاه في « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم لقالوا : هذا خبر واحد ، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله باسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد ، ولا تلقاه اهل العربية بالقبول ، فكيف يثبت به ادنى شيء من اللغة ، فضلاً عن مسمى الكلام . ثم يقال : مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه الى قول شاعر ، فان هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من اهل اللغة ، وعرفوا معناه في لغتهم ، كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل .

وأيضاً فالناطقون باللغة يحتاج باستعمالهم للألفاظ في معانيها ، لا بما يذكرونه

من الحدود ، فان اهل اللغة الناطقين لا يقول احد منهم : إن الرأس كذا ،
واليد كذا ، والكلام كذا . واللون كذا ، بل ينطقون بهذه الألفاظ دالة على
معانيها ، فتعرف لغتهم من استعمالهم .

فعلم ان الأخطل لم يرد بهذا ان يذكر مسمى « الكلام » ولا احد من
الشعراء يقصد ذلك البتة ؛ وانما أراد : إن كان قال ذلك ما فسرده به المفسرون
للشعر ، أي اصل الكلام من الفؤاد ، وهو المعنى ؛ فاذا قال الانسان بلسانه
ما ليس في قلبه فلا ثقب به ؛ وهذا كالأقوال التي ذكرها الله عن المنافقين
ذكر انهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ؛ ولهذا قال :

لا يعجبك من أثير لفظه حتى يكون مع الكلام أصيلاً
إن الكلام لني الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

نهاه ان يعجب بقوله الظاهر حتى يعلم ما في قلبه من الأصل ؛ ولهذا قال :
حتى يكون مع الكلام أصيلاً . وقوله : مع الكلام : دليل على ان اللفظ الظاهر
قد سماه كلاماً ، وان لم يعلم قيام معناه بقلب صاحبه ، وهذا حجة عليهم ؛ فقد
اشتمل شعره على هذا وهذا ؛ بل قوله : « مع الكلام » مطلق . وقوله : ان الكلام
لني الفؤاد . اراد به أصله ومعناه المقصود به ، واللسان دليل على ذلك .

و « بالجملة » فن احتاج إلى ان يعرف مسمى « الكلام » في لغة العرب
والفرس ، والروم ، والترك ، وسائر اجناس بني آدم بقول شاعر ، فانه من ابعد الناس
عن معرفة طرق العلم . ثم هو من المولدين ؛ وليس من الشعراء القديما ، وهو نصراني

كافر مثلث ، واسمه الأخطل ، والأخطل فساد في الكلام ، وهو نصراني والنصاري قد اخطؤوا في مسمى الكلام ، فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس كلمة الله .

فتبين انه إن كان « الايمان » في اللغة هو التصديق ، والقرآن إنما أراد به مجرد التصديق الذي هو قول ، ولم يسم العمل تصديقاً ، فليس الصواب إلا قول المرجئة : إنه اللفظ والمعنى . او قول الكرامية : إنه قول باللسان فقط ، فان تسمية قول اللسان قولاً اشهر في اللغة من تسمية معنى في القلب قولاً . كقوله تعالى : (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) وقوله : (ومن الناس من يقول آمناً بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) وامثال ذلك ، بخلاف ما في النفس ، فانه إنما يسمى حديثاً . والكرامية يقولون : المنافق مؤمن وهو مخلص في النار ، لأنه آمن ظاهراً لا باطناً ، وانما يدخل الجنة من آمن ظاهراً وباطناً .

قالوا : والدليل على شمول الايمان له انه يدخل في الأحكام الدينية المتعلقة باسم الايمان كقوله تعالى : (فتحرير رقبة مؤمنة) ويخاطب في الظاهر بالجمعة ، والظهارة ، وغير ذلك مما خوطب به الذين آمنوا .

وإما من صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه ، فانه لا يعلق به شيء من احكام الايمان ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله : (يا أيها الذين آمنوا) فعلم ان قول الكرامية في الايمان وإن كان باطلاً مبتدعاً لم يسبقهم اليه احد ، فقول الجهمية ابطال منه ، واولئك اقرب الى الاستدلال باللغة والقرآن والعقل من الجهمية .

و«الكرامية» توافق المرجئة والجهمية في ان ايمان الناس كلهم سواء ولا يستثنون في الايمان ؛ بل يقولون : هو مؤمن حقاً لمن اظهر الايمان ، وإذا كان منافقاً فهو مخلد في النار عندهم ؛ فانه انما يدخل الجنة من آمن باطناً وظاهراً ، ومن حكي عنهم انهم يقولون : المنافق يدخل الجنة ، فقد كذب عليهم ، بل يقولون : المنافق مؤمن لا ان الايمان هو القول الظاهر ، كما يسميه غيرهم مسلماً اذ الاسلام : هو الاستسلام الظاهر ولا ريب ان قول الجهمية افسد من قولهم من وجوه متعددة شرعاً ولغة وعقلاً .

وإذا قيل : قول الكرامية قول خارج عن إجماع المسلمين ، قيل : وقول جهنم في الايمان قول خارج عن اجماع المسلمين قبله ، بل السلف كفروا من يقول بقول جهنم في الايمان . وقد احتج الناس على فساد قول الكرامية بحجج صحيحة ، والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية أكثر ، مثل قوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) . قالوا : فقد نفى الله الايمان عن المنافقين .

فنقول : هذا حق ، فان المنافق ليس بمؤمن ، وقد ضل من سماه مؤمناً . وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول وعباده ، كاليهود وغيرهم ، سماهم الله كفاراً لم يسمهم مؤمنين قط ولا دخلوا في شيء من احكام الايمان ، بخلاف المنافق فانه يدخل في احكام الايمان الظاهرة في الدنيا ؛ بل قد نفى الله الايمان عن من قال بلسانه وقلبه اذا لم يعمل ، كما قال تعالى : (قالت الأعراب آمنا ،

قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) إلى قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) فنفي الايمان عن سوي هؤلاء .

وقال تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسل واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين). و«التولي» هو التولي عن الطاعة كما قال تعالى : (ستدعون إلى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ؛ وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) . وقال تعالى : (فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى) وقد قال تعالى : (لا يصلها الا الأشقى الذي كذب وتولى) وكذلك قال موسى وهارون : (انا قد اوحى اليانا العذاب على من كذب وتولى) . فعلم ان «التولي» ليس هو التكذيب ، بل هو التولي عن الطاعة ، فان الناس عليهم ان يصدقوا الرسول فيما اخبر ويطيعوه فيما امر . و ضد التصديق التكذيب ، و ضد الطاعة التولي ، فلهذا قال : (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى) وقد قال تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسل واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين) فنفي الايمان عن تولى عن العمل ، وان كان قد آتى بالقول . وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) وقال : (انما المؤمنون الذين اذا ذكروا بالله وجلت قلوبهم) .

ففي القرآن والسنة من نفي الايمان عن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة ، كما نفي فيها الايمان عن المنافق . واما العالم بقلبه مع المعادة والمخالفة الظاهرة ،

فهذا لم يسم قط مؤمناً؛ وعند الجهمية إذا كان العلم في قلبه فهو مؤمن كامل
الايان ، ايمانه كايان النبيين ، ولو قال وعمل ماذا عسى ان يقول ويعمل ؟ ولا
يتصور عندهم أن يتنفي عنه الايمان الا إذ زال ذلك العلم من قلبه .

ثم اكثر المتأخرين الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء في الايمان ،
ويقولون : «الايمان في الشرع» هو ما يوافق به العبدربه ، وان كان في اللغة اعم من
ذلك ، فجعلوا في «مسألة الاستثناء» مسمى الايمان ما ادعوا انه مسماه في الشرع ،
وعدلوا عن اللغة ، فهلا فعلوا هذا في الأعمال . ودلالة الشرع على ان الأعمال
الواجبة من تمام الايمان لا تحصى كثيرة ، بخلاف دلالاته على انه لا يسمى ايماناً ؛
الامامات الرجل عليه فانه ليس في الشرع ما يدل على هذا ، وهو قول محدث
لم يقله احد من السلف ، لكن هؤلاء ظنوا ان الذين استثنوا في الايمان من
السلف كان هذا مأخذهم ؛ لأن هؤلاء وامثالهم لم يكونوا خيرين بكلام السلف ،
بل ينصرون ما يظهر من اقوالهم بما تلقوه عن المتكلمين من الجهمية ونحوهم
من اهل البدع ، فيبقى الظاهر قول السلف ، والباطن قول الجهمية الذين هم
أفسد الناس مقالة في الايمان . وسنذكر - إن شاء الله - أقوال السلف
في «الاستثناء في الايمان» ولهذا لما صار يظهر لبعض اتباع أبي الحسن فساد قول
جهم في الايمان ، خالفه كثير منهم ، فمنهم من اتبع السلف .

قال أبو القاسم الأنباري شيخ الشهرستاني في « شرح الارشاد » لأبي المعالي ،
بعد ان ذكر قول أصحابه قال : وذهب اهل الأثر الى ان الايمان جميع الطاعات ،

فرضها ونفلها ، وعبروا عنه بأنه إتيان ما أمر الله به فرضاً ونفلاً ، والانتهاه عما نهى عنه تحريماً وأدباً . قال : وهذا كان يقول ابو علي الثقفى من متقدمي أصحابنا ؛ وابو العباس القلانسي .

وقد مال الى هذا المذهب ابو عبدالله بن مجاهد قال : وهذا قول مالك بن انس امام دار الهجرة . ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم اجمعين .

وكانوا يقولون : الايمان معرفة بالقلب ، واقرار باللسان . وعمل بالأركان . ومنهم من يقول بقول المرجئة : إنه التصديق بالقلب واللسان .

ومنهم من قال : إذا ترك التصديق باللسان عناداً كان كافراً بالشرع ، وان كان في قلبه التصديق والعلم . وكذلك قال ابو اسحاق الاسفرائيني .

قال الأنصاري : رأيت في تصانيفه ان المؤمن انما يكون مؤمناً حقاً إذا حقق إيمانه بالأعمال الصالحة ، كما ان العالم انما يكون عالماً حقاً إذا عمل بماعلم ، واستشهد بقول الله تعالى : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا نلت عليهم آياته زادتهم ايماناً) الى قوله : (اولئك هم المؤمنون حقاً) وقال أيضاً ابو اسحاق : حقيقة الايمان في اللغة : التصديق ، ولا يتحقق ذلك الا بالمعرفة والاثتار ، وتقوم الاشارة والانقياد مقام العبارة .

وقال أيضاً ابو اسحاق في كتاب « الأسماء والصفات » : انفقوا على ان ما يستحق به المكلف اسم الايمان في الشريعة اوصاف كثيرة ، وعقائد مختلفة ، وان

اختلفوا فيها على تفصيل ذكره ، واختلفوا في اضافة ما لا يدخل في جملة التصديق اليه لصحة الاسم ، فمنها ترك قتل الرسول ، وترك ابدائه ، وترك تعظيم الأصنام ، فهذا من التروك ، ومن الأفعال نصره الرسول والذب عنه ، وقالوا : ان جميعه يضاف الى التصديق شرعاً ، وقال آخرون : انه من الكبائر ، لا يخرج المرء بالمخالفة فيه عن الايمان .

قلت : وهذان القولان ليسا قول جهم ؛ لكن من قال ذلك فقد اعترف بأنه ليس مجرد تصديق القلب ، وليس هو شيئاً واحداً ، وقال : ان الشرع تصرف فيه ، وهذا يهدم اصلهم ؛ ولهذا كان حذاق هؤلاء ، كجهم ، والصالحى ، وابي الحسن والقاضي ابي بكر ، على انه لا يزول عنه اسم الايمان إلا بزوال العلم من قلبه .

قال ابو المعالي : (باب في ذكر الأسماء والأحكام) : اعلم ان غرضنا في هذا الباب يستدعى تقديم ذكر حقيقة الايمان . قال : وهذا مما تباينت فيه مذاهب الاسلاميين ، ثم ذكر قول الخوارج ، والمعتزلة ، والكرامية ، ثم قال : واما مذاهب اصحابنا ، فصار اهل التحقيق من اصحاب الحديث والنظار منهم الى ان الايمان هو التصديق ، وبه قال شيخنا ابو الحسن رحمه الله عليه ، واختلف رأيه في معنى التصديق ؛ وقال مرة : المعرفة بوجوده وقدمه والهيته . وقال مرة : التصديق : قول في النفس ، غير انه يتضمن المعرفة ، ولا يصح ان يوجدونها ، وهذا مقتضاه ؛ فان التصديق والتكذيب والصدق والكذب بالأقوال اجدر

فالتصديق اذا قول في النفس يعبر عنه باللسان ، فتوصف العبادة بأنها تصديق ،
لأنها عبارة عن التصديق : وقال بعض اصحابنا : التصديق لا يتحقق الا بالقول
والمعرفة جميعاً ، فاذا اجتمعا كانا تصديقاً واحداً .

ومنهم من اكنفى بترك العناد ؛ فلم يجعل الاقرار احد ركني الايمان ،
فيقول : الايمان هو التصديق بالقلب ، واوجب ترك العناد بالشرع ، وعلى هذا
الأصل يجوز ان يعرف الكافر الله ، وانما يكفر بالعناد لا لأنه ترك ما هو الأهم
في الايمان .

وعلى هذا الأصل يقال : إن اليهود كانوا عالمين بالله ونبوة محمد صلى الله
عليه وسلم ، إلا انهم كفروا عناداً وبعياً وحسداً . قال وعلى قول شيخنا
ابي الحسن : كل من حكمنا بكفره فنقول : انه لا يعرف الله أصلاً ولا عرف
رسوله ولا دينه . قال ابو القاسم الأنصاري تلميذه : كأن المعنى : لا حكم لايمانه
ولا لمعرفته شرعاً .

قلت : وليس الأمر على هذا القول كما قاله الأنصاري هذا ، ولكن على
قولهم : المعاند كافر شرعاً ، فيجعل الكفر تارة بانتفاء الايمان الذي في القلب
وتارة بالعناد ، ويجعل هذا كافراً في الشرع ، وان كان معه حقيقة الايمان الذي
هو التصديق ، ويلزمه ان يكون كافراً في الشرع ، مع ان معه الايمان الذي هو
مثل ايمان الأنبياء والملائكة . والحذاق في هذا المذهب ؛ كأبي الحسن
والقاضي ومن قبلهم من أتباع جهم ، عرفوا ان هذا تناقض يفسد الأصل

فقالوا : لا يكون احد كافراً الا إذا ذهب ما في قلبه من التصديق
والتزموا ان كل من حكم الشرع بكفره ؛ فانه ليس في قلبه شيء من معرفة
الله ولا معرفة رسوله ، ولهذا انكر هذا عليهم جماهير العقلاء ، وقالوا : هذا
مكابرة وسفستظة .

وقد احتجوا على قولهم بقوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم
الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الى قوله : (اولئك كتب في قلوبهم
الايمن) الآية . قالوا : ومفهوم هذا ، ان من لم يعمل بمقتضاه لم يكتب
في قلوبهم الايمان .

قالوا : فان قيل معناه لا يؤمنون ايماناً مجزئاً معتدأ به ، او يكون
المعنى : لا يؤدون حقوق الايمان ، ولا يعملون بمقتضاه . قلنا : هذا عام
لا يخص الا بدليل .

فيقال لهم : هذه الآية فيها نفي الايمان عن يواد المحادين لله ورسوله ،
وفيها ان من لا يواد المحادين لله ورسوله فان الله كتب في قلوبهم الايمان ،
وايدهم بروح منه ، وهذا يدل على مذهب السلف انه لا بد في الايمان من محبة
القلب لله ولرسوله ، ومن بغض من يحاد الله ورسوله ، ثم لم تدل الآية على ان
العلم الذي في قلوبهم بأن محمداً رسول الله يرتفع لا يبقى منه شيء ، والايمان
الذي كتب في القلب ليس هو مجرد العلم والتصديق ، بل هو تصديق القلب
وعمل القلب ، ولهذا قال : (وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها

الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) فقد وعدهم بالجنة . وقد اتفق الجميع على ان الوعد بالجنة لا يكون الا مع الاتيان بالمأمور به وترك المحذور ؛ فعلم ان هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ، قد ادوا الواجبات التي بها يستحقون ما وعد الله به الأبرار المتقين ، ودل هذا على ان الفساق لم يدخلوا في هذا الوعد ، ودلت هذه الآية على انه لا يوجد مؤمن يواد الكفار ، ومعلوم ان خلقاً كثيراً من الناس يعرف من نفسه ان التصديق في قلبه لم يكذب الرسول ، وهو مع هذا يواد بعض الكفار ؛ فالسلف يقولون : ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الايمان الواجب من القلب ، لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب - الذي هو حب الله ورسوله وخشية الله ، ونحو ذلك - لا يستلزم ان لا يكون في القلب من التصديق شيء ، وعند هؤلاء كل من نفى الشرع ايمانه دل على انه ليس في قلبه شيء من التصديق اصلاً ، وهذا سفسطة عند جماهير العقلاء .

وكذلك حكى ابن فورك عن ابي الحسن الأشعري قال : الايمان هو اعتقاد صدق الخبر فيما يخبر به اعتقاداً هو علم ، ومنه اعتقاد ليس بعلم ؛ والايمان بالله - وهو اعتقاد صدقه - انما يصح اذا كان عالماً بصدقه في اخباره ، وانما يكون كذلك اذا كان عالماً بأنه يتكلم والعلم بأنه متكلم بعد العلم بأنه حي ؛ والعلم بأنه حي بعد العلم بأنه فاعل ، والعلم بأنه فاعل بعد العلم بالفعل ، وهو كون العالم فعلاً له ، وقال : وكذلك يتضمن العلم بكونه قادراً وله قدرة وعالمأ وله

علم ، وحريداً وله ارادة ، وسائر ما لا يصح العلم بالله الا بعد العلم به من شرائط الايمان .

قلت : هذا مما اختلف فيه قول الأشعري وهو ان الجهل ببعض الصفات ، هل يكون جهلاً بالموصوف ، ام لا ؟ على قولين ، والصحيح الذي عليه الجمهور وهو آخر قوليه ، انه لا يستلزم الجهل بالموصوف . وجعل اثبات الصفات من الايمان ، مما خالف فيه الأشعري جهماً فان جهماً غال في نفي الصفات ، بل وفي نفي الأسماء .

قال ابو الحسن : ثم السمع ورد بضم شرائط آخر اليه ، وهو ان لا يقترن به ما يدل على كفر من يأتيه فعلاً وتركاً ، وهو ان الشرع امره بترك العبادة والسجود للضم ، فلو أتى به دل على كفره ، وكذلك من قتل نبياً او استخف به ، دل على كفره ، وكذلك لو ترك تعظيم المصحف او الكعبة دل على كفره . قال : وأحد ما استدلتنا به على كفره ما منع الشرع ، ان يقرب بالايان او أوجب ضمه الى الايمان لو وجد دلنا ذلك على ان التصديق الذي هو الايمان مفقود من قلبه ، وكذلك كل ما كفر به المخالف من طريق التأويل فانما كفرناه به لدلالته على فقدما هو ايمان من قلبه ؛ لاستحالة ان يقضي السمع بكفر من معه الايمان والتصديق بقلبه .

فيقال : لا ريب ان الشارع لا يقضي بكفر من معه الايمان بقلبه ، لكن دعواكم ان الايمان هو التصديق ، وان مجرد عن جميع اعمال القلب ، غلط ولهذا قالوا : اعمال التصديق والمعرفة من قلبه ، ألا ترى ان الشريعة حكمت بكفره ؛ والشريعة لا تحكم بكفر المؤمن المصدق ؛ ولهذا نقول : ان كفر ابليس

لغنه الله كان أشد من كفر كل كافر ، وانه لم يعرف الله بصفاته قطعاً ، ولا آمن به ايماناً حقيقياً باطنياً وان وجد منه القول والعبادة ، وكذلك اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الكفرة لم يوجد في قلوبهم حقيقة الايمان المعتد به في حال حكمنا لهم بالكفر . قال الله تعالى : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء) وقوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية فجعل الله هذه الأمور شرطاً في ثبوت حكم الايمان ، فثبت ان الايمان المعرفة بشرائط لا يكون معتداً به دونها .

فيقال : ان قلتم : انه ضم إلى معرفة القلب شروطاً في ثبوت الحكم او الاسم لم يكن هذا قول جهم ؛ بل يكون هذا قول من جعل الايمان - كالصلاة ، والحج هو - وإن كان في اللغة بمعنى القصد والدعاء ، لكن الشارع ضم اليه اموراً إما في الحكم واما في الحكم والاسم ؛ وهذا القول قد سلم صاحبه ان حكم الايمان المذكور في الكتاب والسنة لا يثبت بمجرد تصديق القلب ؛ بل لا بد من تلك الشرائط ، وعلى هذا فلا يمكنه جعل الفاسق مؤمناً إلا بدليل يدل على ذلك ، لا بمجرد قوله : ان معه تصديق القلب ، ومن جعل الايمان هو تصديق القلب يقول : كل كافر في النار ليس معهم من التصديق بالله شيء ، لا مع ابليس ولا مع غيره . وقد قال الله تعالى : (وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل اتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد) وقال تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم

يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) . فقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم وتلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا ؛ فقد عرفوا الله ورسوله واليوم الآخر وهم في الآخرة كفار .

وقال تعالى : (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنها ألم يأتكم نذير؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء) فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتزييله . واما في الآخرة فعرفوا الجميع . وقال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون-) وقال تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) إلى قوله : (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) إلى آيات أخر كثيرة تدل على ان الكفار في الآخرة يعرفون ربهم فان كان مجرد المعرفة ايماناً كانوا مؤمنين في الآخرة .

فان قالوا : الايمان في الآخرة لا ينفع ، وإنما الثواب على الايمان في الدنيا . قيل : هذا صحيح ، لكن اذا لم يكن الايمان إلا مجرد العلم ؛ فهذه الحقيقة لا تختلف ، فان لم يكن العمل من الايمان ، فالعارف في الآخرة لم يفقه شيء من الايمان ، لكن أكثر ما يدعونه انه حين مات لم يكن في قلبه من التصديق بالرب شيء ، ونصوص القرآن في غير موضع تدل على ان الكفار كانوا في الدنيا مصدقين بالرب ، حتى فرعون الذي اظهر التكذيب كان في باطنه مصدقاً . قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) وكما قال موسى لفرعون : (لقد علمت

ما انزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) ومع هذا لم يكن مؤمناً؛ بل قال موسى: (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم): قال الله: (قد اجيبت دعوتكما): ولما قال فرعون: (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل). قال الله: (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين). فوصفه بالعصية، ولم يصفه بعدم العلم في الباطن كما قال: (فعصى فرعون الرسول)، وكما قال عن إبليس: (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) فلم يصفه إلا بالاباء والاستكبار ومعارضته الأمر، لم يصفه بعدم العلم، وقد أخبر الله عن الكفار في غير موضع أنهم كانوا معترفين بالصانع في مثل قوله: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله).

ثم يقال لهم: إذا قلتم هو التصديق بالقلب، أو باللسان، أو بهما؛ فهل هو التصديق الجمل؛ أو لا بد فيه من التفصيل؟ فلو صدق أن محمداً رسول الله ولم يعرف صفات الحق، هل يكون مؤمناً أم لا؟ فإن جعلوه مؤمناً. قيل: فإذا بلغه ذلك فكذب به، لم يكن مؤمناً باتفاق المسلمين، فصار بعض الإيمان أكمل من بعض؛ وإن قالوا: لا يكون مؤمناً، لزمهم أن لا يكون أحد مؤمناً حتى يعرف تفصيل كل ما أخبر به الرسول؛ ومعلوم أن أكثر الأمة لا يعرفون ذلك وعندهم الإيمان لا يتفاضل إلا بالدوام فقط.

قال أبو المعالي: فإن قال القائل: أصلكم يلزمكم أن يكون إيمان المنهمك في فسقه كإيمان النبي صلى الله عليه وسلم.

قلنا : الذي يفضل ايمانه على ايمان من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله اياه من مخامرة الشكوك واختلاج الريب ، والتصديق عرض من الأعراس لا يبقى وهو متوال للنبي صلى الله عليه وسلم ثابت لغيره في بعض الأوقات ، وزائل عنه في اوقات الفترات ، فيثبت للنبي صلى الله عليه وسلم اعداد من التصديق ، ولا يثبت لغيره الا بعضها ، فيكون ايمانه لذلك اكثر وافضل ؛ قال : ولو وصف الايمان بالزيادة والنقصان وأريد به ذلك كان مستقيماً .

قلت : فهذا هو الذي يفضل به النبي غيره في الايمان عندهم ، ومعلوم ان هذا في غاية الفساد من وجوه كثيرة ، كما قد بسط في مواضع أخرى .

فصل

قال الذين نصرؤا مذهب جهم فى الایمان من المتأخرین - كالقاضی ابی بكر وهذا لفظه - فان قال قائل : وما الاسلام عنكم ؟ قيل له : « الاسلام » : الانقیاد والاستسلام ؛ فكل طاعة انقاد العبد بها لربه واستسلم فیها لأمره فهى اسلام ، والایمان : خصلة من خصال الاسلام ؛ وكل ایمان اسلام ، وليس كل اسلام ایماناً ، فان قال : فلم قلتم : ان معنى الاسلام ما وصفتم ؟ قيل : لأجل قوله تعالى : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) فنفى عنهم الایمان واثبت لهم الاسلام ، وانما اراد بما اثبتة الانقیاد والاستسلام ، ومنه : (القوا الیکم السلم) وكل من استسلم لشیء فقد اسلم ، وان كان اکثر ما يستعمل ذلك فى المستسلم لله ولنیبه .

« قلت » : وهذا الذى ذكروه مع بطلانه ومخالفته للكتاب والسنة هو تناقض ، فانهم جعلوا الایمان خصلة من خصال الاسلام ، فالطاعات كلها اسلام وليس فیها ایمان الا التصدیق ، والمرجئة وان قالوا : ان الایمان يتضمن الاسلام فهم یقولون : الایمان هو تصدیق القلب واللسان واما الجهمیة فیجعلونه تصدیق القلب ، فلا تكون الشهادتان ، ولا الصلاة ، ولا الزكاة ، ولا غیرهن من الایمان ، وقد

تقدم ما بينه الله ورسوله ، من أن الاسلام داخل في الايمان ، فلا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون مسلماً . كما ان الايمان داخل في الاحسان ، فلا يكون محسناً حتى يكون مؤمناً .

واما التناقض ، فانهم اذا قالوا : الايمان خصلة من خصال الاسلام ، كان من أتى بالايمان إنما أتى بخصلة من خصال الاسلام ، لا بالاسلام الواجب جميعه . فلا يكون مسلماً حتى يأتي بالاسلام كله ، كما لا يكون عندهم مؤمناً ، حتى يأتي بالايمان كله ، والا فمن أتى ببعض الايمان عندهم لا يكون مؤمناً ، ولا فيه شيء من الايمان ، فكذلك يجب ان يقولوا في الاسلام ، وقد قالوا . كل ايمان اسلام ، وليس كل اسلام ايماناً ، وهذا ان ارادوا به ان كل ايمان هو الاسلام الذي امر الله به ، ناقض قولهم : ان الايمان خصلة من خصاله ، فجعلوا الايمان بعضه ولم يجعلوه اياه ، وان قالوا : كل ايمان فهو اسلام ، اى هو طاعة الله ، وهو جزء من الاسلام الواجب ، وهذا مرادهم . قيل لهم : فعلى هذا يكون الاسلام متعدداً بتعدد الطاعات ، وتكون الشهاداتان وحدها إسلاماً ، والصلاة وحدها اسلاماً ، والزكاة إسلاماً ، بل كل درهم تعطيه للفقير إسلاماً ، وكل سجدة اسلاماً ، وكل يوم تصومه اسلاماً ، وكل نسيحة تسبجها في الصلاة او غيرها اسلاماً .

ثم المسلم إن كان لا يكون مسلماً إلا بفعل كل ما سميتموه اسلاماً ، لزم ان يكون الفساق ليسوا مسلمين مع كونهم مؤمنين ، فجعلتم المؤمنين الكاملي

الايان عنكم ليسوا مسلمين وهذا شر من قول الكرامية ، ويلزم ان الفساق من اهل القبلة ليسوا مسلمين ؛ وهذا شر من قول الحوارج والمعتزلة وغيرهم ، بل وان يكون من ترك التطوعات ليس مسلماً ، اذ كانت التطوعات طاعة لله ، ان جعلتم كل طاعة فرضاً او نفلاً اسلاماً .

ثم هذا خلاف ما احتججتم به من قوله للأعراب : (لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) . فأثبت لهم الاسلام دون الايمان ، وايضاً فاخراجكم الفساق من اسم الاسلام ان اخرجتموه ، اعظم شناعة من اخراجهم من اسم الايمان ، فوقعتم في اعظم ما عبتموه على المعتزلة ، فان الكتاب والسنة تنفي عنهم اسم الايمان ، اعظم مما تنفي اسم الاسلام ، واسم الايمان في الكتاب والسنة اعظم .

وان قلتم : بل كل من فعل طاعة سمي مسلماً ، لزم ان يكون من فعل طاعة من الطاعات ولم يتكلم بالشهادتين مسلماً ، ومن صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه ان يكون مسلماً عنكم ، لأن الايمان عنكم اسلام ، فمن اتى به فقد أتى بالاسلام ، فيكون مسلماً عنكم من تكلم بالشهادتين ولا اتى بشيء من الأعمال .

واحتجاجكم بقوله : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) قلتم : نفى عنهم الايمان واثبت لهم الاسلام . فيقال : هذه الآية حجة عليكم لأنه لما اثبت لهم الاسلام مع انتفاء الايمان ، دل ذلك على ان الايمان ليس بجزء من الاسلام ، اذ لو كان بعضه لما كانوا مسلمين ان لم يأتوا به ، وان قلتم : اردنا بقولنا : اثبت لهم الاسلام اى اسلاماً ما ، فان كل طاعة من الاسلام

إسلام عندنا ، لزمكم ما تقدم ، من ان يكون صوم يوم اسلاماً ، وصدقة درهم اسلاماً ، وامثال ذلك .

وهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، قالو : هذا من حيث الاطلاق ، والا فالتفصيل ما ذكرناه من ان الايمان خصلة من خصال الاسلام والدين ، وليس هو جميع الاسلام والدين ، فان الاسلام هو الاستسلام لله بفعل كل طاعة وقعت موافقة للامر . والايمان اعظم خصلة من خصال الاسلام . واسم الاسلام شامل لكل طاعة انقاد بها العبد لله ، من ايمان ، وتصديق ، وفرض سواء ، ونفل ، غير انه لا يصلح التقرب بفعل ما عدا الايمان من الطاعات دون تقديم فعل الايمان . قالوا : والدين مأخوذ من التدين ؛ وهو قريب من الاسلام في المعنى .

فيقال لهم : اذا كان هذا قولكم : فقولكم : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً يناقض هذا ؛ فان المسلم هو المطيع لله ، ولا تصح الطاعة من احد الا مع الايمان ، فيمتنع ان يكون احد فعل شيئاً من الاسلام الا وهو مؤمن ، ولو كان ذلك ادنى الطاعات ، فيجب ان يكون كل مسلم مؤمناً ، سواء اريد بالاسلام فعل جميع الطاعات ، او فعل واحدة منها ، وذلك لا يصح كله الا مع الايمان ، وحينئذ فالآية حجة عليكم لا لكم .

ثم قولكم : كل مؤمن مسلم ، ان كنتم تريدون بالايمان تصديق القلب فقط ، فيلزم ان يكون الرجل مساماً ولو لم يتكلم بالشهادتين ولا اتى بشيء

من الأعمال المأمور بها وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الاسلام ، بل عامة اليهود والنصارى يعلمون ان الرجل لا يكون مسلماً حتى يأتي بالشهادتين او ما يقوم مقامهما ، وقولكم : كل مؤمن مسلم ، لا يريدون انه آتى بالشهادتين ولا بشيء من المباني الخمس ، بل آتى بما هو طاعة وتلك طاعة باطنة ، وليس هذا هو المسلم المعروف في الكتاب والسنة ، ولا عند الأئمة الأولين والآخرين ، ثم استدلتهم بالآية ، والأعراب انما اتوا باسلام ظاهر نطقوا فيه بالشهادتين ، سواء كانوا صادقين او كاذبين ، فأثبت الله لهم الاسلام دون الايمان ، فيظن من لا يعرف حقيقة الأمر ان هذا هو قول السلف الذي دل عليه الكتاب والسنة من ان كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ، وبينهما من التباين اعظم مما بين قول السلف وقول المعتزلة في الايمان والاسلام ؛ فان قول المعتزلة في الايمان والاسلام اقرب من قول الجهمية بكثير ، ولكن قولهم في تخليد اهل القبلة ابعد عن قول السلف من قول الجهمية .

فالتأخرون الذين نصروا قول جهنم في « مسألة الايمان » يظهرون قول السلف في هذا وفي الاستثناء ، وفي انتفاء الايمان الذي في القلب حيث نفاء القرآن ونحو ذلك . وذلك كله موافق للسلف في مجرد اللفظ ، وإلا فقولهم في غاية المبينة لقول السلف ؛ ليس في الأقوال أبعدهن السلف منه . وقول المعتزلة والخوارج والكرامية في اسم الايمان والاسلام أقرب الى قول السلف من قول

الجهمية ؛ لكن المعتزلة والخوارج يقولون بتخليد العصاة ، وهذا أبعد عن قول السلف من كل قول ، فهم أقرب في الاسم وأبعد في الحكم ؛ والجهمية وإن كانوا في قولهم : بأن الفساق لا يخلدون أقرب في الحكم إلى السلف ، فقولهم في مسمى الإسلام والأيمان وحقيقتهما أبعد من كل قول عن الكتاب والسنة ، وفيه من مناقضة العقل والشرع واللغة ما لا يوجد مثله لغيرهم .

فصل

ومما يدل من القرآن على ان الايمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى :
(انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم
لا يستكبرون) فنفي الايمان عن غير هؤلاء ، فمن كان إذا ذكر بالقرآن
لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين ، وسجود الصلوات
الخمس فرض باتفاق المسلمين ، واما سجود التلاوة ففيه نزاع ؛ وقد يحتاج بهذه
الآية من يوجهه ، لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسألة ، فهذه الآية مثل
قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم
وانفسهم) . وقوله : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وقوله
(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معاً على امر جامع لم ينهبوا
حتى يستأذنه) ومن ذلك قوله تعالى : (عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك
الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان
يجاهدوا بأموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين ، انما يستأذنك الذين لا يؤمنون
بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) .

وهذه الآية مثل قوله : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون
من حاد الله ورسوله) وقوله : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه

ما اتخذوهم اولياء) بين سبحانه ان الايمان له لوازم وله أصدقاء موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء اعداده ومن أصدقاءه موادة من حاد الله ورسوله ، ومن اعداده استئذانه في ترك الجهاد ، ثم صرح بأن استئذانه إنما يصدر من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ودل قوله : (والله عليم بالمتقين) على ان المتقين هم المؤمنون .

ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » وقوله : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وقوله : « لا تؤمنوا حتى تحابوا » وقوله : « لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » وقوله « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه » وقوله « من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا » .

فصل

واما اذا قيد الايمان بقرن بالاسلام او بالعمل الصالح ، فانه قد يراد به ما في القلب من الايمان باتفاق الناس ، وهل يراد به أيضاً المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام ، او لا يكون حين الاقتران داخلاً في مسماه ؟ بل يكون لا زمأ له ، على مذهب اهل السنة ، او لا يكون بعضاً ولا لازماً ، هذا فيه ثلاثة اقوال للناس ، كما سيأتي ان شاء الله ، وهذا موجود في عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ، مثال ذلك اسم « المعروف » و « المنكر » إذا أطلق كما في قوله تعالى : (يأحرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) وقوله : (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وقوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) يدخل في المعروف كل خير ، وفي المنكر كل شر .

ثم قد يقرب بما هو اخص منه كقوله : (لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس) فغاير بين المعروف وبين الصدقة والاصلاح بين الناس - كما غاير بين اسم الايمان والعمل ؛ واسم الايمان والاسلام - وكذلك قوله تعالى : (ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) غاير

بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله : (وينهون عن المنكر) ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) جعل البغى هنا مغايراً لهما ، وقد دخل في المنكر في ذنبك الموضوعين .

ومن هذا الباب لفظ « العبادة » فاذا امر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ما امر الله به ، فالتوكل عليه مما امر به والاستعانة به مما امر به ؛ فيدخل ذلك في مثل قوله : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وفي قوله : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) . وقوله : (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) وقوله : (انا انزلنا إليك الكتاب بالحق فأعبد الله مخلصاً له الدين) (قل الله اعبد مخلصاً له ديني) . وقوله : (اغفیر الله تأمروني اعبد ايها الجاهلون) .

ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله : (اياك نعبد و اياك نستعين) وقوله : (فاعبده وتوكل عليه) . وقول نوح (اعبدوا الله واتقوه واطيعون) . وكذلك إذا افرد اسم « طاعة الله » دخل في طاعته كل ما امر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته ، وكذا اسم « التقوى » اذا افرد دخل فيه فعل كل ما مور به وترك كل محذور . قال طلق بن حبيب : التقوى : ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله ، وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله : (ان المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

وقد يقرن بها اسم آخر كقوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقوله : (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) وقوله : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) وقوله : (اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) . وقوله : (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقوله : (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وאתم مسلمون) وامثال ذلك .

فقوله : (اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) مثل قوله : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وقوله : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فعطف قولهم على الايمان ؛ كما عطف القول السديد على التقوى ؛ ومعلوم ان التقوى إذا أطلقت دخل فيها القول السديد ، وكذلك الايمان إذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول ، وكذلك قوله : (آمنوا بالله ورسوله) ، وإذا أطلق الايمان بالله في حق أمة محمد دخل فيه الايمان بالرسول ، وكذلك قوله : (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) وإذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع ، وكذلك قوله : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) وقوله : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم) الآية .

وإذا قيل : (آمنوا بالله ورسوله النبي الأمي) دخل في الإيمان برسوله
الإيمان بجميع الكتب والرسل والنبين ، وكذلك إذا قيل : (آمنوا برسوله
يؤتكم كفلين من رحمته) وإذا قيل : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم
مستخلفين فيه) دخل في الإيمان بالله ورسوله الإيمان بذلك كله ، والانفاق
يدخل في قوله في الآية الأخرى : (آمنوا بالله ورسوله) كما يدخل القول
السديد في مثل قوله : (ولقد وضينا الذين أوتوا الكتاب) .

وكذلك لفظ « البر » إذا اطلق تناول جميع ما امر الله به كما في قوله :
(ان الأبرار لني نعيم ، وان الفجار لني جحيم) وقوله : (ولكن البر من اتقى)
وقوله : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين
وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين
وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين
في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)
فالبر إذا اطلق كان مسما مسمى التقوى ، والتقوى إذا اطلقت كان
مسماها مسمى البر ، ثم قد يجمع بينهما كما في قوله تعالى : (وتعاونوا على
البر والتقوى) .

وكذلك لفظ « الاثم » إذا اطلق دخل فيه كل ذنب ، وقد يقرب بالعدوان
كما في قوله تعالى : (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) . وكذلك لفظ « الذنوب »
إذا اطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم ، كما في قوله : (يا عبادي

الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً). ثم قد يقرن بغيره كما في قوله : (ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا) وكذلك لفظ « الهدى » اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً فيدخل فيه كل ما امر الله به كما في قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً . وكذلك قوله : (هدى للمتقين) . والمراد به انهم يعاينون ما فيه ويعملون به ، ولهذا صاروا مفلحين ، وكذلك قول اهل الجنة : (الحمد لله الذي هدانا لهذا) وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح .

ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله (واجتنبناهم وهديناهم الى صراط مستقيم) وكما في قوله : (شاكراً لأنعمه اجتنابه وهداه) (الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من يئيب) وكذلك قوله تعالى : (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق) والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام ، واذا اطلق الهدى كان كالايان المطلق يدخل فيه هذا وهذا .

ولفظ « الضلال » اذا اطلق تناول من ضل عن الهدى ، سواء كان عمداً او جهلاً ، ولزم ان يكون معذباً كقوله : (انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) وقوله : (ربنا إنا اطعنا سادتنا وكرهنا فاضلونا السيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والغنم لغناً كبيراً) وقوله : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) ثم قد يقرن بالغي والغضب كما في قوله : (ما ضل صاحبكم

وما غوى) . وفى قوله : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) . وقوله : (ان
المجرمين فى ضلال وسعر) . وكذلك لفظ « الغي » إذا اطلق تناول كل معصية لله
كما فى قوله عن الشيطان : (لأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) . وقد
يقرن بالضلال كما فى قوله : (ما ضل صاحبكم وما غوى) .

وكذلك اسم « الفقير » إذا اطلق دخل فيه المسكين ، وإذا اطلق لفظ
« المسكين » تناول الفقير ، وإذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر ؛ فالأول كقوله :
(وان تحفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) وقوله : (فكفارته إطعام
عشرة مساكين) والثاني كقوله : (اما الصدقات للفقراء والمساكين) .

و « هذه الأسماء » التى تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد ،
والإقتران تارة يكونان إذا افرد أحدهما اعم من الآخر ، كما سم « الايمان »
و « المعروف » مع العمل ومع الصدق ؛ و « كالنكر » مع الفحشاء ومع البغي
ونحو ذلك . وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص ، كلفظ « الايمان »
و « البر » و « التقوى » و لفظ « الفقير » و « المسكين » ؛ فأيهما اطلق تناول
ما يتناوله الآخر ؛ وكذلك لفظ « التلاوة » فانها إذا اطلقت فى مثل قوله : (الذين
آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) تناولت العمل به كما فسره بذلك الصحابة
والتابعون مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالوا : يتلونه حق تلاوته
يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بحكمه ويؤمنون
بمتشابهه . وقيل : هو من التلاوة بمعنى الاتباع كقوله : (والقمر اذا تلاها)

وهذا يدخل فيه من لم يقرأه ، وقيل : بل من تمام قراءته ان يفهم معناه ويعمل به كما قال ابو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرها انهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

وقوله : (الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قد فسر بالقرآن وفسر بالتوراة . وروى محمد بن نصر باسناده الثابت عن ابن عباس : (يتلونه حق تلاوته) قال يتبعونه حق اتباعه . وروى ايضاً عن ابن عباس : يتلونه حق تلاوته ، قال : يحلون حلاله . ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه ، وعن قتادة : يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به ، قال : اولئك اصحاب محمد آمنوا بكتاب الله وصدقوا به ، احلوا حلاله وحرموا حرامه وعملوا بما فيه ، ذكر لنا ان ابن مسعود كان يقول ان حق تلاوته : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وان نقرأه كما انزل الله ولا نحرفه عن مواضعه ، وعن الحسن : يتلونه حق تلاوته ، قال : يعملون بحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكفون ما اشكل عليهم إلى عاله ، وعن مجاهد : يتبعونه حق اتباعه وفي رواية : يعملون به حق عمله .

ثم قد يقرب بالتلاوة غيرها ، كقوله : (اتل ما أوحى إليك من الكتاب واقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) . قال احمد بن حنبل وغيره : تلاوة الكتاب : العمل بطاعة الله كلها ، ثم خص الصلاة بالذكر كما في قوله : (والذين يسكنون بالكتاب واقاموا الصلاة) وقوله : (فاعبدني واقم الصلاة

لذكري) . وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله :
 (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) وقوله : (فمن اتبع
 هداي فلا يضل ولا يشقى) وقوله : (وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا
 تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سيبيه) وقد يقرن به غيره كقوله : (وهذا كتاب
 أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقوله : (اتبع ما أوحى إليك من
 ربك لا إله إلا هو واعرض عن المشركين) وقوله : (واتبع ما أوحى إليك
 واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) .

وكذلك لفظ « الأبرار » اذا اطلق دخل فيه كل تقي من السابقين
 والمقتصدين ، واذا قرن بالمقربين كان أخص ، قال تعالى في الأول : (ان الأبرار
 لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم) وقال في الثاني : (ان كتاب الأبرار لفي عليين ،
 وما ادراك ما عليون ، كتاب مرقوم يشهده المقربون) وهذا باب واسع
 يطول استقصاؤه .

ومن أنفع الأمور في معرفة دلالة الألفاظ مطلقاً وخصوصاً ألفاظ
 الكتاب والسنة ، وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع الناس ، من جملتها
 « مسألة الايمان والاسلام » فان النزاع في مسألهما اول اختلاف وقع ، افرقت
 الأمة لأجله وصاروا مختلفين في الكتاب والسنة ، وكفر بعضهم بعضاً
 وقاتل بعضهم بعضاً ، كما قد بسطنا هذا في مواضع أخر ، إذ المقصود هنا
 بيان شرح كلام الله ورسوله على وجه يبين ان الهدى كله مأخوذ من كلام

الله ورسوله باقامة الدلائل الدالة ، لا بذكر الأقوال التي تقبل بلا دليل وترد بلا دليل ، او يكون المقصود بها نصر غير الله والرسول فان الواجب ان يقصد معرفة ما جاء به الرسول واتباعه بالأدلة الدالة على ما بينه الله ورسوله .

ومن هذا الباب اقوال السلف وأئمة السنة في « تفسير الايمان » فتارة يقولون : هو قول وعمل . وتارة يقولون : هو قول وعمل ونية . وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة . وتارة يقولون : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وكل هذا صحيح . فاذا قالوا : قول وعمل فانه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً ؛ وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ، ونحو ذلك اذا اطلق .

والناس لهم في مسمى « الكلام » و « القول » عند الاطلاق اربعة اقوال فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور انه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً كما يتناول لفظ الانسان للروح والبدن جميعاً . وقيل : بل مسماه هو اللفظ ، والمعنى ليس جزء مسماه ، بل هو مدلول مسماه ، وهذا قول كثير من اهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين الى السنة ، وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ . وقيل : بل مسماه هو المعنى وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه ، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه ، وقيل : بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى ، وهو قول بعض المتأخرين من الكلامية ، ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن انه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين ، لأن حروف الآدميين

تقوم بهم ، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم ، بخلاف الكلام القرآني ؛ فإنه لا يقوم عنده بالله ، فيمتنع ان يكون كلامه ، ولبسط هذا موضع آخر .

(والمقصود هنا) ان من قال من السلف : الايمان قول وعمل ، اراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ؛ ومن أراد الاعتقاد رأى ان لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر او خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال : قول وعمل ونية ، قال : القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان ، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلا باتباع السنة ، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل ، إنما ارادوا ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على « المرجئة » الذين جعلوه قولاً فقط ، فقالوا : بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه « اربعة اقسام » فسروا حرامهم ، كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الايمان ما هو ؟ فقال : قول وعمل ونية وسنة ، لأن الايمان اذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ، واذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق ، واذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة .

فصل

وعطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذي ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب اعلاها ان يكونا متباينين ليس احدهما هو الآخر ولا جزأه ، ولا يعرف لزومه له كقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة ايام) ونحو ذلك ، وقوله : (وجبريل وميكال) وقوله : (وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان) وهذا هو الغالب . وبليه ان يكون بينهما لزوم كقوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) وقوله : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين) وقوله : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله) فان من يكفر بالله فقد كفر بهذا كله ، فالمعطوف لازم للمعطوف عليه ، وفي الآية التي قبلها المعطوف عليه لازم ، فانه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين . وفي الثاني نزاع ، وقوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) هما متلازمان ، فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوساً به ، خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل ، فصار ملبوساً ، ومن كتم الحق احتاج ان يقتم موضعه

باطلا فيلبس الحق بالباطل ، ولهذا كان كل من كتم من اهل الكتاب ما انزل الله فلا بد ان يظهر باطلا .

وهكذا « اهل البدع » لا تجد احداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة ، ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئاً من السنة ، كما جاء في الحديث : « ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها » رواه الامام احمد . وقد قال تعالى : (ففسوا حظاً مما ذكروا به فأغرنا بينهم العداوة والبغضاء) فلما تركوا حظاً مما ذكروا به اعتاضوا بغيره فوَقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وقال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) اي عن الذكر الذي انزله الرحمن ، وقال تعالى : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن اعرض عن ذكرى فانه له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى) وقال : (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون) فأمر باتباع ما انزل ونهى عما يصاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه ، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر ، ولهذا قال (ويتبع غير سبيل المؤمنين) قال العلماء : من لم يكن متبعاً سبيلهم كان متبعاً غير سبيلهم ، فاستدلوا بذلك على ان اتباع سبيلهم واجب ، فليس لأحد ان يخرج عما اجمعوا عليه .

وكذلك من لم يفعل للمأمور ، فعل بعض المحذور ، ومن فعل المحذور ، لم يفعل جميع المأمور ، فلا يمكن الانسان ان يفعل جميع ما امر به مع فعله لبعض

ما حظر، ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما احمر، فان ترك ما حظر من جملة ما امر به فهو مأمور، ومن المحذور ترك المأمور، فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم، وكل ما لا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله، ولهذا كان لفظ «الأمر» إذا أطلق يتناول النهي، وإذا قيد بالنهي كان النهي نظير ما تقدم، فاذا قال تعالى عن الملائكة: (لا يعصون الله ما أمرهم) دخل في ذلك انه إذا نهى عن شيء اجتنبهه، واما قوله: (ويفعلون ما يؤمرون) فقد قيل: لا يتعدون ما أمروا به، وقيل: يفعلونه في وقته لا يقدمونه ولا يؤخرونه.

وقد يقال: هو لم يقل: ولا يفعلون إلا ما يؤمرون، بل هذا دل عليه قوله: (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وقد قيل: لا يعصون ما أمرهم به في الماضي ويفعلون ما يؤمرون في المستقبل، وقد يقال: هذه الآية خبر عما سيكون، ليس ما أمروا به هنا ماضياً بل الجميع مستقبل، فانه قال: (قو انفسكم واهليكم ناراً) وما يتقي به إنما يكون مستقبلاً، وقد يقال: ترك المأمور تارة يكون لمعصية الأمر وتارة يكون لعجزه، فاذا كان قادراً حريداً، لزم وجود المأمور المقذور، فقوله (لا يعصون) لا يتمتعون عن الطاعة، وقوله (ويفعلون ما يؤمرون) أي هم قادرون على ذلك لا يعجزون عن شيء منه بل يفعلونه كله فيلزم وجود كل ما أمروا به، وقد يكون في ضمن ذلك أنهم لا يفعلون الا المأمور به كما يقول القائل: انا افعل ما امرت به أي افعله ولا اتعداه الى زيادة ولا نقصان.

وايضاً فقوله : (لا يعصون الله ما امرهم) ان كان نهام عن فعل آخر كان ذلك من امره ، وان كان لم ينههم لم يكونوا مذمومين بفعل ما لم ينهوا عنه .

والمقصود ان لفظ « الأمر » إذا أطلق تناول النهي ، ومنه قوله : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر) اي اصحاب الأمر ، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهي ووجبت طاعته في هذا وهذا ، فالنهي داخل في الامر ، وقال موسى للخضر : (ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً قال فان اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكراً) وهذا نهى له عن السؤال حتى يحدث له منه ذكراً ولما خرق السفينة قال له موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً امراً) فسأله قبل احداث الذكر ، وقال في الغلام (أقتلت نفساً زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئاً نكراً) فسأله قبل احداث الذكر ، وقال في الجدار (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) وهذا سؤال من جهة المعنى ، فان السؤال والطلب قد يكون بصيغة الشرط كما تقول : لو نزلت عندنا لأكرمناك ، وان بت الليلة عندنا أحسنت لنا ، ومنه قول آدم (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقول نوح (رب اني أعوذ بك ان أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمي اكن من الخاسرين) ومثله كثير ولهذا قال موسى (ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاجني) فدل على انه سأله الثلاث قبل ان يحدث له الذكر ، وهذا معصية لنيه وقد دخل في قوله (ولا أعصي لك أمراً) فدل على ان عاصي النهي عاص الأمر ، ومنه قوله تعالى

(الاله الخلق والأمر) وقد دخل النهي في الأمر . ومنه قوله : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) وقوله : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فان نهيه داخل في ذلك .

وقد تنازع الفقهاء في قول الرجل لامرأته : .إذا عصيت امري فأنت طالق ، اذا نهاها فعصته هل يكون ذلك داخلياً في أمره ؟ على قولين : قيل : لا يدخل لأن حقيقة النهي غير حقيقة الامر ، وقيل : يدخل لأن ذلك يفهم منه في العرف معصية الأمر والنهي ، وهذا هو الصواب ، لأن ما ذكر في العرف هو حقيقة في اللغة والشرع ، فان الأمر المطلق من كل متكلم اذا قيل : اطع امر فلان ، او فلان يطيع امر فلان ، او لا يعصي أمره ، فانه يدخل فيه النهي ، لأن النهي أمر بترك المنهي عنه ، فلهذا قال سبحانه : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق واتم تعملون) ولم يقل : لا تكتموا الحق فلم ينفه عن كل مهما لتلازمهما ، وليست هذه واو الجمع التي يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم ، فانه كان يكون المعنى : لا تجمعوا بينهما فيكون احدها وحده غير منهي عنه .

و « أيضاً » فتلك إنما تجيء إذا ظهر الفرق كقوله : (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقوله : (أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص) . ومن عطف الملزوم قوله تعالى : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فانهم إذا اطاعوا

الرسول فقد اطاعوا الله كما قال تعالى : (من يطع الرسول فقد اطاع الله)
 واذا اطاع الله من بلغته رسالة محمد فانه لا بد ان يطيع الرسول ، فانه لا طاعة
 لله إلا بطاعته . و « الثالث » عطف بعض الشيء عليه كقوله : (حافظوا على
 الصلوات والصلوة الوسطى) وقوله (واذا اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن
 نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن حريم) وقوله : (من كان عدواً لله
 وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وقوله : (واورثكم ارضهم وديارهم
 واموالهم وارضاً لم تطؤوها) و « الرابع » عطف الشيء على الشيء لاختلاف
 الصفتين ، كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر
 فهدى والذي اخرج المرعى) وقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة
 ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة
 هم يوقنون) وقد جاء في الشعر ما ذكر انه عطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله :
 وألفى قولها كذباً وميناً .

ومن الناس من يدعي ان مثل هذا جاء في كتاب الله كما يذكرونه في
 قوله : (شرعة ومنهاجا) وهذا غلط ، مثل هذا لا يجيء في القرآن ولا في كلام
 فصيح ، وغاية ما يذكر الناس اختلاف معنى اللفظ ، كما ادعى بعضهم ان من
 هذا قوله :

ألا حبذا هند وارض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

فزعوا أنهما بمعنى واحد . واستشهدوا بذلك على ما ادعوه من ان الشرعة

هي النهاج ، فقال المخالفون لهم : النأي اعم من البعد ، فان النأي كلما قل بعده
او كثر ؛ كأنه مثل المفارقة . والبعد انما يستعمل فيما كثر مسافة مفارقته ،
وقد قال تعالى : (وهم ينهون عنه وينأون عنه) وهم مذمومون على مجانبته والتحجى
عنه سواء كانوا قريين او بعيدين ، وليس كلهم كان بعيداً عنه ، لا سيما عند
من يقول : نزلت في ابى طالب ، وقد قال النابغة : -

والنؤي كالحوض بالظلومة الجلد .

والمراد به ما يحفر حول الخيمة لينزل فيه الماء ولا يدخل الخيمة ، اى صار
كالحوض فهو مجانب للخيمة ليس بعيداً منها .

فصل

فاذا تبين هذا، فلفظ «الايان» إذا اطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ « البر » ، و بلفظ « التقوى » و بلفظ « الدين » كما تقدم ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم بين ان « الايمان بضع وسبعون شعبة ، افضلها قول : لا اله الا الله ، وادناها إمطة الأذى عن الطريق » فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الايمان وكذلك لفظ « البر » يدخل فيه جميع ذلك إذا اطلق ، وكذلك لفظ «التقوى» وكذلك « الدين ، او دين الاسلام » وكذلك روي انهم سألوا عن الايمان فأنزل الله هذه الآية (ليس البر ان تولوا وجوهكم) الآية ، وقد فسر البر بالايمان ، وفسر بالتقوى ، وفسر بالعمل الذي يقرب الى الله والجميع حق ، وقد روى حرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم (انه فسر البر بالايمان) .

قال محمد بن نصر : حدثنا اسحاق بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ والملائي قالا : حدثنا المسعودي عن القاسم قال : جاء رجل إلى ابي ذر فسأله عن الايمان فقرأ : (ليس البر ان تولوا وجوهكم) الى آخر الآية ؛ فقال الرجل : ليس عن البر سألتك . فقال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني عنه ، فقرأ عليه الذي قرأت عليك ، فقال له الذي قلت

لي . فلما ابى ان يرضى قال له : إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنه سرته ورجا ثوابها واذا عمل السيئه ساءته وخاف عقابها .

وقال : حدثنا اسحاق حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الكريم الجزري عن نجاهد ان ابا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرا عليه : (ليس البر ان تولوا وجوهكم) الى آخر الآيه ، وروى باسناده عن عكرمة قال : سئل الحسن بن علي بن ابي طالب مقبله من الشام عن الايمان فقرا : (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال : قلت لسالم الأفطس : رجل اطاع الله فلم يعصه ، ورجل عصى الله فلم يطعه ، فصار المطيع الى الله فأدخله الجنة ، وصار العاصي الى الله فأدخله النار ، هل يتفاضلان في الايمان ؟ قال : لا . قال فذكرت ذلك لعطاء فقال : سلهم الايمان طيب او خيئ ؟ فان الله قال : (ليميز الله الخيئ من الطيب ويجعل الخيئ بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم اولئك هم الخاسرون) فسألتهم فلم يجيبوني ، فقال بعضهم : إن الايمان يبطن ليس معه عمل ، فذكرت ذلك لعطاء فقال : سبحان الله ! أما يقرؤون الآيه التي في البقرة : (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين) ؟ . قال : ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال : (وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل — الى قوله — وأولئك هم المتقون) فقال : سلهم

هل دخل هذا العمل في هذا الاسم . وقال: (ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) فالزم الاسم العمل والعمل الاسم .

والمقصود هنا انه لم يثبت المدح إلا على إيمان معه العمل ، لا على إيمان خال عن عمل ، فاذا عرف ان النعم والعقاب واقع في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه ، بل يكون نزاعاً لفظياً مع انهم مخطئون في اللفظ ، مخالفون للكتاب والسنة ، وان قالوا : إنه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح ؛ وبعض الناس يحكي هذا عنهم وانهم يقولون : إن الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم ان يعملوها ولا يضرهم تركها ، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون : لا يدخل النار من اهل التوحيد احد ، لكن ما علمت معيماً أحكي عنه هذا القول ، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله ، وقد يكون قول من لا خلاق له ؛ فان كثيراً من الفساق والمنافقين يقولون : لا يضر مع الايمان ذنب او مع التوحيد ، وبعض كلام الراديين على المرجئة وصفهم بهذا .

ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية (اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) . فقوله صدقوا اي في قولهم : آمنوا ؛ كقوله : (قالت الأعراب آمنة قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) الى قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) اي هم الصادقون في قولهم : آمنة بالله ، بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله

والله يعلم إنك لرسوله ؛ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقال تعالى :
(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله
والذين آمنوا وما يخدعون إلا انفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم
الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون)، وفي (يكذبون) قراءتان مشهورتان
فانهم كذبوا في قولهم : آمنا بالله واليوم الآخر ، وكذبوا الرسول في الباطن وان
صدقوه في الظاهر ، وقال تعالى : (ألم : احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا
آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن
الكاذبين) فيبين انه لا بد ان يفتن الناس اي يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم . يقال :
فتنت الذهب اذا ادخلته النار لتميزه مما اختلط به ، ومنه قول موسى : (ان هي
إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) أي محتتك واختبارك وابتلاؤك ،
كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره ، وابتليتهم
بارسال الرسل وإزالة الكتب ليتبين المؤمن من الكافر والصادق من
الكاذب والمنافق من المخلص فتجعل ذلك سبباً لضلالة قوم وهدى آخرين .

والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق ، والمنافقين بالكذب
لأن الطائفتين قالتا بألسنتهما : آمنا ، فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق
ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب منافق ، قال تعالى : (وما اصابكم
يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا
قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ
اقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله اعلم بما يكتمون)

فلما قال في آية البر : (اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) دل على ان المراد صدقوا في قولهم : آمنا ، فان هذا هو القول الذي امروا به وكانوا يقولونه .

ولم يؤمروا أن يلفظوا بالسنتهم ويقولوا : نحن ابرار او بررة ؛ بل اذا قال الرجل : انا بر فهذا مزك لنفسه ، ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها بررة فقيل : تزكي نفسها، فسماها النبي صلى الله عليه وسلم زينب ؛ بخلاف انشاء الايمان بقولهم : «آمنا» فان هذا قد فرض عليهم ان يقولوه ، قال تعالى (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم) وكذلك في اول آل عمران (قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم) .

وقال تعالى : (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رساله) فقوله : (لا نفرق) دليل على انهم قالوا : آمنا ولا نفرق ، ولهذا قال : (وقالوا سمعنا واطعنا) فجمعوا بين قولهم : آمنا وبين قولهم : سمعنا واطعنا ، وقد قال في آية البر : (واولئك هم المتقون) فجعل الأبرار هم المتقين عند الاطلاق والتجريد ، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله : (وتعاونوا على البر والتقوى) ودلت هذه الآية على ان مسمى الايمان ومسمى البر ومسمى التقوى عند الاطلاق واحد ، فالمؤمنون هم المتقون وهم الأبرار .

ولهذا جاء في احاديث الشفاعة الصحيحة : « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان » ، وفي بعضها : « مثقال ذرة من خير » وهذا مطابق لقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وذلك الذي هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من ايمان ، وهؤلاء المؤمنون الأبرار الأتقياء هم اهل السعادة المطلقة ، وهم اهل الجنة الذين وعدوا بدخولها بلا عذاب ، وهؤلاء الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا » فانه ليس من هؤلاء ؛ بل من اهل الذنوب المعرضين للوعيد اسوة امثالهم .

فصل

وهذا النوع من نمط «اسماء الله، واسماء كتابه، واسماء رسوله، واسماء دينه» قال الله تعالى : (قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن اياً ما تدعوا فله الاسماء الحسنی) وقال تعالى : (ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فی اسمائه) وقال الله تعالى : (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا اله الا هو : الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنی يسبح له ما فی السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فأسماءه كلها متفقة في الدلالة على نفسه المقدسة ، ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته . ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر ؛ فالعزيز يدل على نفسه مع عزته ، والخالق يدل على نفسه مع خلقه ، والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ، ونفسه تستلزم جميع صفاته ، فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة ، وعلى احدها بطريق التضمن ، وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم .

وهكذا «اسماء كتابه» القرآن، والفرقان، والكتاب والهدى، والبيان، والشفاء

والنور ، ونحو ذلك هي بهذه المنزلة . وكذلك « أسماء رسوله » : محمد ، وأحمد والمحي ، والحاشر ، والمقفي ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، كل اسم يدل على صفة من صفاته الممدوحة غير الصفة الأخرى ، وهكذا ما يثني ذكره من القصص في القرآن كقصة موسى وغيرها ، ليس المقصود بها ان تكون سمرا ؛ بل المقصود بها ان تكون عبراً كما قال تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) فالذي وقع ، شيء واحد وله صفات ، فيعبر عنه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من الصفات التي يعتبر بها المعتبرون ، وليس هذا من التكرير في شيء .

وهكذا « أسماء دينه » الذي أمر الله به ورسوله يسمى إيماناً ، وبراً ، وتقوى ، وخيراً ، ودينياً ، وعملاً صالحاً ، وصرافاً مستقيماً ، ونحو ذلك ؛ وهو في نفسه واحد ، لكن كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة التي يدل عليها الآخر ، وتكون تلك الصفة هي الأصل في اللفظ والباقي كان تابعاً لها لازماً لها ثم صارت دالة عليه بالتضمن ، فان « الايمان » أصله الايمان الذي في القلب ، ولا بد فيه من « شيئين » : تصديق بالقلب ، وإقراره ومعرفته . ويقال لهذا : قول القلب . قال « الجنيد بن محمد » : التوحيد : قول القلب . والتوكل : عمل القلب ، فلا بد فيه من قول القلب ، وعمله ؛ ثم قول البدن وعمله ، ولا بد فيه من عمل القلب ، مثل حب الله ورسوله ، وخشية الله ، وحب ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وإخلاص العمل لله وحده ، وتوكل القلب على الله وحده ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الايمان .

ثم القلب هو الأصل ، فاذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك الى البدن بالضرورة ، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريد القلب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « الا وان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد الا وهي القلب » .

وقال أبو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فاذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده ، وقول أبي هريرة تقريب . وقول النبي صلى الله عليه وسلم أحسن بياناً ، فان الملك وإن كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس ، فيكون فيهم صلاح مع فساده ، أو فساده مع صلاحه ؛ بخلاف القلب فان الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد » .

فاذا كان القلب صالحاً بما فيه من الايمان علماً وعملاً قليلاً لمزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالايمان المطلق ، كما قال أئمة أهل الحديث : قول وعمل ، قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر ، وإذا فسدت فسدت ؛ ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلى العابد : لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ، فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواها قال الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم

كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله (فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حبا لله من المشركين لاندادهم .

وفي الآية « قولان » : قيل : يحبونهم كحب المؤمنين الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله منهم لأوثانهم . وقيل : يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله منهم ، وهذا هو الصواب ؛ والأول قول متناقض وهو باطل ، فان المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله ، وتستلزم الإرادة ، والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل ، فيمتنع ان يكون الانسان محبا لله ورسوله ؛ مريدا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله ، فاذا لم يتكلم الانسان بالايان مع قدرته دل على انه ليس في قلبه الايمان الواجب الذي فرضه الله عليه .

ومن هنا يظهر خطأ قول « جهنم بن صفوان » ومن اتبعه حيث ظنوا ان الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، لم يجعلوا اعمال القلب من الايمان ، وظنوا انه قد يكون الانسان مؤمناً كامل الايمان بقلبه ، وهو مع هذا يسب الله ورسوله وبعادى الله ورسوله وبعادى اولياء الله ، ويوالى اعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ، ويهين المصاحف ، ويكرم الكفار غاية الكرامة ، ويهين المؤمنين غاية الاهانة ، قالوا : وهذه كلها معاص لا تنافي الايمان الذي في قلبه ، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن قالوا : وإنما ثبت له في الدنيا احكام الكفار ، لأن هذه الأقوال اشارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم

بالاقرار والشهود ، وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما قر به وبخلاف ما شهد به الشهود ، فاذا أورد عليهم الكتاب والسنة والاجماع على ان الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة ، قالوا : فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه ، فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل ، والايان شيء واحد وهو الغم ، او تكذيب القلب وتصديقه ، فانهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم او هو هو ؟ .

وهذا القول مع انه افسد قول قيل في « الايمان » فقد ذهب اليه كثير من « اهل الكلام المرجئة » . وقد كفر السلف - كوكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وابي عبيد وغيرهم - من يقول بهذا القول . وقالوا : إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم ، لا لكونه كذب خبراً . وكذلك فرعون وقومه ، قال الله تعالى فيهم : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا) وقال موسى عليه السلام لفرعون : (لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر) بعد قوله : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لاظنك يا موسى مسحوراً ، قال لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر وانى لاظنك يا فرعون مشبوراً) .

فوسى وهو الصادق المصدوق يقول : (لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر) . فدل على ان فرعون كان عالماً بأن الله انزل الآيات وهو

من اكبر خلق الله عناداً وبعياً لفساد ارادته وقصده لا لعدم علمه . قال تعالى :
 (ان فرعون علا في الارض وجعل اهله شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح
 ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين) وقال تعالى : (وجحدوا بها
 واستيقنتها انفسهم ظالماً وعلوا) . وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم : (الذين
 آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم) . وكذلك كثير من المشركين الذين
 قال الله فيهم : (فاتهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

فهؤلاء غلطوا في « اصلين » :

(احدهما) : ظنهم ان الايمان مجرد تصديق وعلم فقط ، ليس معه عمل ،
 وحال ، وحركة ، وارادة ، ومحبة ، وخشية في القلب ؛ وهذا من اعظم غلط
 المرجئة مطلقاً ، فان « اعمال القلوب » التي يسميها بعض الصوفية احوال ومقامات
 او منازل السائرين الى الله او مقامات العارفين او غير ذلك ، كل ما فيها مما فرضه
 الله ورسوله فهو من الايمان الواجب ، وفيها ما احبه ولم يفرضه ، فهو من
 الايمان المستحب ؛ فالاول لا بد لكل مؤمن منه ، ومن اقتصر عليه فهو من
 الابرار اصحاب اليمين ، ومن فعله وفعل الثاني كان من المقربين السابقين ، وذلك
 مثل حب الله ورسوله ، بل ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواها
 بل ان يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله احب اليه من اهله وماله ،
 ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ، ورجاء الله وحده دون
 رجاء المخلوقين ، والتسوكل على الله وحده دون المخلوقين ، والانابة اليه

مع خشيته كما قال تعالى : (هذا ما توعدون لكل آواب حفيظ ، من خشية الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالاتة لله والمعاداة لله .

و (الثاني) : ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار ، فإما ذلك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق . وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع ، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة وجهاهير النظار ؛ فان الانسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده اياه ، او لطلب علوه عليه ، أو لهوى النفس ، ويحملة ذلك الهوى على أن يعتدي عليه ويرد ما يقول بكل طريق ، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه ، وعامة من كذب الرسل علموا ان الحق معهم وانهم صادقون ، لكن إما لحسدهم وإما لارادتهم العلو والرياسة ، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصدقة اقوام وغير ذلك ، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة اليهم او حصول امور مكروهة اليهم ، فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من اكفر الناس كابليس وفرعون ، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق .

ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدر في صدق الرسل ، إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم ، كقولهم لنوح : (انؤمن لك واتبعك الأرذلون) ومعلوم ان اتباع الارذلين له لا يقدر في صدقه ؛ لكن كرهوا مشاركة اولئك ،

كما طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم ، ابعاد الضعفاء ، كسعد بن ابي وقاص ، وابن مسعود ، وخباب بن الارت ، وعمار بن ياسر ، وبلال ونحوهم ، وكان ذلك بمكة قبل ان يكون في الصحابة اهل الصفة ، فأُنزل الله تبارك وتعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتناً بعضهم ببعض ليقولوا اهولاء من الله عليهم من بيننا ، اليس الله بأعلم بالشاكرين ؟!) .

ومثل قول فرعون : (انؤمن لبشرين مثلنا وقومها لنا عابدون) وقول فرعون : (الم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين) ومثل قول مشركي العرب : (ان نتبع الهدي معك تتخطف من ارضنا) قال الله تعالى : (او لم نمكن لهم حرماً آمناً يجي اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا؟!) ومثل قول قوم شعيب له : (اصلاتك تأحرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل في اموالنا ما نشاء) ومثل قول عامة المشركين : (انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون) .

وهذه الامور وامثالها ليست حججاً تقدرح في صدق الرسل ، بل تبين انها تخالف اِرادتهم واهوائهم وعاداتهم ، فلذلك لم يتبعوهم ، وهؤلاء كلهم كفار ، بل ابو طالب وغيره كانوا يحبون النبي صلى الله عليه وسلم ويحبون علو كلمته ، وليس عندهم حسد له ، وكانوا يعلمون صدقه ، ولكن كانوا يعلمون ان في

متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم ، فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم ، فلم يتركوا الايمان لعدم العلم بصدق الايمان به ؛ بل لهُوى النفس ، فكيف يقال : إن كل كافر انما كفر لعدم علمه بالله .

ولم يكف الجهمية ان جعلوا كل كافر جاهلا بالحق حتى قالوا : هو لا يعرف ان الله موجود حق ، والكفر عندهم ليس هو الجهل بأي حق كان ؛ بل الجهل بهذا الحق المعين . ونحن والناس كلهم يرون خلقا من الكفار يعرفون في الباطن ان دين الاسلام حق ، ويذكرون ما يمنعهم من الايمان ، اما معاداة أهلهم واما مال يحصل لهم من جتهتهم يقطعونه عنهم ، واما خوفهم اذا آمنوا ان لا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم في دينهم ، وامثال ذلك من اغراضهم التي يبينون انها المانعة لهم من الايمان ، مع علمهم بأن دين الاسلام حق ، ودينهم باطل .

وهذا موجود في جميع الأمور التي هي حق ، يوجد من يعرف بقلبه انها حق وهو في الظاهر يجحد ذلك ، ويعادي اهله لظنه ان ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة . قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ، بعضهم اولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة ، فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم ؟ حبطت اعمالهم فأصبحوا خاسرين) .

والمفسرون متفقون على انها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الاسلام
 وفي قلبه مرض ، خاف ان يغلب اهل الاسلام فيوالي الكفار من اليهود
 والنصارى وغيرهم للخوف الذي في قلوبهم ؛ لا لاعتقادهم ان محمداً كاذب ،
 واليهود والنصارى صادقون ، واشهر النقول في ذلك ان عبادة بن الصامت قال :
 يارسول الله ان لى موالي من اليهود واني أبرأ الى الله من ولاية يهود ، فقال :
 عبدالله بن ابي : لكنني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية يهود فنزلت
 هذه الآية .

«المرجئة» الذين قالوا : الايمان تصديق القلب ، وقول اللسان ، والأعمال
 ليست منه . كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها ؛ ولم يكن قولهم مثل
 قول جهم ؛ فعرفوا ان الانسان لا يكون مؤمناً ان لم يتكلم بالايمان مع قدرته
 عليه . وعرفوا ان ابليس وفرعون وغيرها كفار مع تصديق قلوبهم ، لكنهم
 اذا لم يدخلوا اعمال القلوب في الايمان لزمهم قول جهم ، وان ادخلوها في
 الايمان لزمهم دخول اعمال الجوارح ايضا فانها لازمة لها ، ولكن هؤلاء لهم
 حجج شرعية بسببها اشبه الأمر عليهم ، فاتهم رأوا ان الله قد فرق في كتابه بين
 الايمان والعمل ؛ فقال في غير موضع : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات)
 ورأوا ان الله خاطب الانسان بالايمان قبل وجود الأعمال فقال : (يا ايها الذين
 آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق) . (يا ايها الذين
 آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) .

وقالوا: لو ان رجلاً آمن بالله ورسوله ضحوة ومات قبل ان يجب عليه شيء من الأعمال مات مؤمناً ، وكان من اهل الجنة ، فدل على ان الاعمال ليست من الايمان . وقالوا : نحن نسلم ان الايمان يزيد ، بمعنى انه كان كلما انزل الله آية وجب التصديق بها ، فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذي كان قبله ؛ لكن بعد كمال ما انزل الله ما بقي الايمان يتفاضل عندهم ، بل إيمان الناس كلهم سواء ؛ إيمان السابقين الأولين كأبي بكر وعمر ، وإيمان ائمة الناس كالحجاج وأبي مسلم الخراساني وغيرها .

والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء منهم يقولون : ان الأعمال قد تسمى ايمانا مجازا ، لأن العمل ثمرة الايمان ومقتضاه ، ولأنها دليل عليه ، ويقولون : قوله : « الايمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة افضلها قول : لا إله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق » : مجاز .

«والمرجئة ثلاثة اصناف» : الذين يقولون : الايمان مجرد ما في القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه اعمال القلوب وهم اكثر فرق المرجئة كما قد ذكر ابو الحسن الاشعري اقوالهم في كتابه ، وذكر فرقا كثيرة بطول ذكرهم ، لكن ذكرنا حمل اقوالهم ، ومنهم من لا يدخلها في الايمان كجهم ومن اتبعه كالصالحى ، وهذا الذي نصره هو واكثر اصحابه . و«القول الثانى» من يقول : هو مجرد قول اللسان ، وهذا لا يعرف لاحد قبل الكرامية ، و«الثالث» تصديق القلب وقول اللسان ، وهذا هو المشهور عن اهل الفقه والعبادة منهم ، وهؤلاء غلطوا من وجوه :

(احدها) : ظنهم ان الايمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد، وان الايمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص ، وليس الامر كذلك فان اتباع الانبياء المتقدمين اوجب الله عليهم من الايمان ما لم يوجبه على امة محمد ، واوجب على امة محمد من الايمان ما لم يوجبه على غيرهم ، والايمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ، ليس هو مثل الايمان الذي يجب بعد نزول القرآن ، والايمان الذي يجب على من عرف ما اخبر به الرسول مفصلاً ليس مثل الايمان اندي يجب على من عرف ما اخبر به مجملًا ، فانه لا بد في الايمان من تصديق الرسول في كل ما اخبر ، لكن من صدق الرسول ومات عقب ذلك لم يجب عليه من الايمان غير ذلك . وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بنجر خبر ، وأمر امر ما لا يجب على من لم يجب عليه الا الايمان المجمل لموته قبل ان يبلغه شيء آخر .

و«ايضاً» لو قدر انه عاش فلا يجب على دل واحد من العامة ان يعرف كل ما امر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما اخبر به ، بل اتما عليه ان يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه ، فمن لا مال له لا يجب عليه ان يعرف امره المفصل في الزكاة . ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه ان يعرف امره المفصل بالمناسك ، ومن لم يتزوج ليس عليه ان يعرف ما وجب للزوجة ، فصار يجب من الايمان تصديقا وعملاً على اشخاص ما لا يجب على آخرين .

وبهذا يظهر الجواب عن قولهم : خوطبوا بالايمان قبل الأعمال . فنقول :

إن قلت: إنهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال، فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان، وكانوا مؤمنين بالإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه، فلما نزل إن لم يقرؤا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين، ولهذا قال تعالى: (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) ولهذا لم يجيء ذكر الحج في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الإسلام والإيمان، كحديث وفد عبد القيس، وحديث الرجل التجدي الذي يقال له: ضمام بن ثعلبة وغيرها، وإنما جاء ذكر الحج في حديث ابن عمر وجبريل، وذلك لأن الحج آخر ما فرض من الخمس، فكان قبل فرضه لا يدخل في الإيمان والإسلام، فلما فرض ادخله النبي صلى الله عليه وسلم في الإيمان إذا افرد، وادخله في الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد، وسند كراهة الله متى فرض الحج.

وكذلك قولهم: من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمناً، فصحيح لأنه أتى بالإيمان الواجب عليه، والعمل لم يكن وجب عليه بعد، فهذا مما يجب أن يعرف، فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين.

فاذا قيل: الأعمال الواجبة من الإيمان. فالإيمان الواجب متنوع ليس شيئاً واحداً في حق جميع الناس. وأهل السنة والحديث يقولون: جميع الأعمال الحسنة واجبة ومستحبة من الإيمان، أي من الإيمان الكامل بالمستحبات. ليست من الإيمان الواجب. ويفرق بين الإيمان الواجب وبين الإيمان الكامل

بالمستحبات كما يقول الفقهاء : الغسل ينقسم الى مجزيه وكامل . فالمجزيه : ما اتى فيه بالواجبات فقط . والكامل : ما اتى فيه بالمستحبات . ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب . وقد يراد به الكمال المستحب .

واما قولهم : ان الله فرق بين الايمان والعمل في مواضع ، فهذا صحيح . وقد بينا ان الايمان اذا اطلق ادخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها . وقد يقرب به الاعمال ، وذكرونا نظائر لذلك كثيرة . وذلك لأن اصل الايمان هو ما في القلب . والأعمال الظاهرة لازمة لذلك . لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع اعمال الجوارح ، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الايمان الذي في القلب ؛ فصار الايمان متناولاً للملزوم واللازم وإن كان اصله ما في القلب ؛ وحيث عطفت عليه الأعمال ، فانه اريد انه لا يكتفي بايمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة .

ثم للناس في مثل هذا قولان : منهم من يقول : المعطوف دخل في المعطوف عليه اولاً ؛ ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصاً له ، لئلا يظن انه لم يدخل في الأول ، وقالوا : هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام ، كقوله : (من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال) وقوله : (واذا اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن حريم) وقوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم) فخص الايمان بما نزل على محمد بعد قوله : (والذين آمنوا) وهذه نزلت في الصحابة

وغيرهم من المؤمنين . وقوله : (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى)
وقوله : (وما أحروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة
ويؤتوا الزكاة) والصلوة والزكاة من العبادة ، فقوله : (آمنوا وعملوا الصالحات)
كقوله : (وما أحروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة
ويؤتوا الزكاة) .

فانه قصد « اولاً » ان تكون العبادة لله وحده لا لغيره ، ثم امر بالصلوة
والزكاة ليعلم انهما عبادتان واجبتان ، فلا يكتفي بمطلق العبادة الخالصة دونهما ،
وكذلك يذكر الايمان اولاً لأنه الاصل الذي لا بد منه . ثم يذكر العمل
الصالح فانه ايضاً من تمام الدين لا بد منه ، فلا يظن الظان اكتفائه بمجرد
ايمان ليس معه العمل الصالح ، وكذلك قوله : (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه
هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ،
والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون ، اولئك
على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) .

وقد قيل : إن هؤلاء هم اهل الكتاب الذين آمنوا بما انزل عليه وما انزل
على من قبله ، كابن سلام ونحوه ، وان هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين
يؤمنون بالغيب ، وقد قيل : هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما انزل إليه وما
انزل من قبله ، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد ، وانما عطفوا
لتعابير الصفتين كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى ؛ الذي خلق فسوى ، والذي

قدر فهدي ، والذي اخرج المرعى ؛ فجعله غشاء احوى) ؛ فهو سبحانه واحد وعطف بعض صفاته على بعض ، وكذلك قوله : (والصلاة الوسطى) ، وهي صلاة العصر .

والصفات ؛ إذا كانت معارف كانت للتوضيح وتضمنت المدح او الذم . تقول : هذا الرجل هو الذي فعل كذا ، وهو الذي فعل كذا ، وهو الذي فعل كذا تعدد محاسنه ، ولهذا مع الاتباع قد يعطفونها وينصبون ، او يرفعون ، وهذا القول هو الصواب ، فان المؤمنين بالغيب إن لم يؤمنوا بما انزل اليه وما انزل من قبله لم يكونوا على هدى من ربهم ولا مفلحين ولا متقين ، وكذلك الذين آمنوا بما انزل اليه وما انزل من قبله ان لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون ، لم يكونوا على هدى من ربهم ، ولم يكونوا مفلحين ، ولم يكونوا متقين ، فدل على ان الجميع صفة المهتمدين المتقين الذين اهدوا بالكتاب المنزل الى محمد ، فقد عطف هذه الصفة على تلك مع انها داخلة فيها ، لكن المقصود صفة إيمانهم ، وانهم يؤمنون بجميع ما انزل الله على انبيائه ، لا يفرقون بين احد منهم ؛ وإلا فاذا لم يذكر الا الايمان بالغيب ، فقد يقول : من يؤمن ببعض ويكفر ببعض : نحن تؤمن بالغيب .

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن ؛ ويقال : إنها اول سورة نزلت بالمدينة ، افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين ، فانه من حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم

صار الناس «ثلاثة اصناف»: اما مؤمن ، واما كافر مظهر للكفر ، واما منافق؛ بخلاف ما كانوا وهو بمكة : فانه لم يكن هناك منافق ؛ ولهذا قال احمد بن حنبل وغيره : لم يكن من المهاجرين منافق ، وانما كان النفاق في قبائل الأنصار ؛ فان مكة كانت للكفار مستولين عليها ، فلا يؤمن ويهاجر الا من هو مؤمن ليس هناك داع يدعو الى النفاق؛ والمدينة آمن بها اهل الشوكة ؛ فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار ، فمن لم يظهر الايمان آذوه ؛ فاحتاج المنافقون إلى اظهار الايمان ، مع ان قلوبهم لم تؤمن ؛ والله تعالى افتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالايمان بجميع ما جاءت به الأنبياء ؛ فقال في اولها ما تقدم ، وقال في وسطها : (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فانما هم في شقاق) الآية : وقال في آخرها : (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله وقالوا : سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) والآية الأخرى .

وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الآيتان من آخر سورة البقرة : من قرأ بهما في ليلة كفتاه » والآية الوسطى قد ثبت في « الصحيح » انه كان يقرأ بهما في ركعتي الفجر : وب « قل يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الآية ، تارة . وب (قل يا أيها الكافرون)

(وقل هو الله احد) تارة . فيقرأ بما فيه ذكر الايمان والاسلام ، او بما فيه ذكر التوحيد والاخلاص .

فعلى قول هؤلاء يقال : الأعمال الصالحة المعطوفة على الايمان دخلت في الايمان ، وعطف عليه عطف الخاص على العام ؛ اما لذكره خصوصاً بعد عموم واما لكونه إذا عطف كان دليلاً على انه لم يدخل في العام . وقيل : بل الأعمال في الأصل ليست من الايمان ؛ فان اصل الايمان هو ما في القلب ، ولكن هي لازمة له ، فمن لم يفعلها كان ايمانه منتفياً ؛ لأن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الايمان إذا اطلق ، كما تقدم في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فاذا عطف عليه ذكرت ، لتلا يظن الظان ان مجرد ايمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للايمان يوجب الوعد ؛ فكان ذكرها تخصيصاً وتخصيماً ليعلم ان الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون الا لمن آمن وعمل صالحاً ؛ لا يكون لمن ادعى الايمان ولم يعمل ، وقد بين سبحانه في غير موضع ان الصادق في قوله : آمنت لا بد ان يقوم بالواجب وحصر الايمان في هؤلاء يدل على انتفائه عن سواهم .

وللجهمية هنا سؤال ذكره ابو الحسن في كتاب « الموجز » وهو ان القرآن نقي الايمان عن غير هؤلاء ، كقوله : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ولم يقل : ان هذه الأعمال من الايمان ، قالوا : فنحن نقول : من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمناً ، لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه .

والجواب عن هذا من وجوه :

(أحدها) : انكم سلمتم ان هذه الأعمال لازمة لايمان القلب ، فاذا اتفت لم يبق في القلب ايمان ، وهذا هو المطلوب ؛ وبعد هذا فكونها لازمة او جزءاً ، نزاع لفظي .

(الثاني) : ان نصوصاً صرحت بأنها جزء ، كقوله : «الايان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة» .

(الثالث) : انكم ان قلتم بأن من اتفى عنه هذه الأمور فهو كافر خال من كل ايمان ، كان قولكم قول الخوارج ، وانتم في طرف ، والخوارج في طرف ؛ فكيف توافقونهم ومن هذه الأمور اقام الصلاة ، وابتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج ، والجهاد ، والاجابة الى حكم الله ورسوله ؛ وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه ، وان كفرتموه كان قولكم قول الخوارج .

(الرابع) : ان قول القائل : ان اتفاه بعض هذه الأعمال يستلزم ان لا يكون في قلب الانسان شيء من التصديق بأن الرب حق ، قول يعلم فساد بالاضطرار .

(الخامس) : ان هذا اذا ثبت في هذه ثبت في سائر الواجبات ، فيرتفع النزاع المعنوي .

فصل

(الوجه الثاني) من غلط «المرجئة»: ظنهم ان ما في القلب من الايمان ليس الا التصديق فقط، دون اعمال القلوب؛ كما تقدم عن جهمية المرجئة.

(الثالث) ظنهم ان الايمان الذي في القلب يكون تاماً بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الايمان ومقتضاه، بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له؛ والتحقيق ان ايمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع ان يقوم بالقلب ايمان تام بدون عمل ظاهر؛ ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب مثل ان يقولوا: رجل في قلبه من الايمان مثل ما في قلب ابي بكر وعمر، وهو لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم رمضان، ويزني بأمه وأخته، ويشرب الخمر نهار رمضان؛ يقولون: هذا مؤمن تام الايمان، فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الانكار.

قال احمد بن حنبل: حدثنا خلف بن حيان، حدثنا معقل بن عبيد الله العبسي قال: قدم علينا سالم الأفتس بالارجاء، فففر منه اصحابنا نفوراً شديداً منهم ميمون بن مهران، وعبد الكريم بن مالك، فانه عاهد الله ان

لا يؤويه وإياه سقف بيت الا المسجد ، قال معقل : فحجبت فدخلت على عطاء ابن ابي رباح في نفر من اصحابي وهو يقرأ : (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا) قلت : ان لنا حاجة فأخذنا ، ففعل ؛ فأخبرته ان قوماً قبلنا قد احدثوا وتكلموا وقالوا : ان الصلاة والزكاة ليستا من الدين ؛ فقال : اوليس الله تعالى يقول : (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين خفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) . فالصلاة والزكاة من الدين ، قال : فقلت : إنهم يقولون : ليس في الايمان زيادة . فقال : اوليس قد قال الله فيما أنزل : (ليزدادوا إيماناً مع ايمانهم) هذا الايمان . فقلت : انهم اتحلوك . وبلغني ان ابن ذر دخل عليك في اصحاب له ، فعرضوا عليك قولهم فقيلته . فقلت هذا الأمر ، فقال : لا والله الذي لا اله الا هو ، مرتين او ثلاثاً ثم قال : قدمت المدينة فجلست إلى نافع فقلت : يا ابا عبدالله ! ان لي اليك حاجة ، فقال : سر ام علانية ؟ فقلت : لا بل سر : قال : رب سر لا خير فيه ، فقلت : ليس من ذلك ، فلما صلينا العصر قام واخذ بثوبي ، ثم خرج من الحوخة ولم ينتظر القاص ، فقال : حاجتك ؟ قال فقلت : اخلي هذا . فقال : تنح ؛ قال : فذكرت له قولهم . فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «امرت ان أضربهم بالسيف حتى يقولوا : لا اله الا الله ؛ فاذا قالوا : لا اله الا الله عصموا مني دماءهم واموالهم الابحقتها وحسابهم على الله» قال : قلت : إنهم يقولون : نحن نقر بأن الصلاة فرض ولا نصلي ؛ وبأن الخمر حرام ونشربها ؛ وان نكاح الأمهات حرام ونحن تنكح . فنثر يده من يدي وقال : من فعل هذا فهو كافر .

قال معقل : فلقيت الزهري فأخبرته بقولهم . فقال : سبحان الله ! وقد اخذ الناس في هذه الخصومات . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ؛ ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . قال معقل . فلقيت الحكم بن عتبة فقلت له : إن عبد الكريم وميموناً بلغهما انه دخل عليك ناس من المرجئة فعرضوا بقولهم عليك فقبلت قولهم ؛ قال . فقبل ذلك علي ميمون ؛ وعبد الكريم ؛! لقد دخل علي اثنا عشر رجلاً وأنا مريض فقالوا : يا ابا محمد بلغك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل بأمة سوداء ، او حبشية ، فقال : يا رسول الله ! على رقبة مؤمنة ، افترى هذه مؤمنة ؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتشهدين ان لا اله الا الله ؟ » : فقالت : نعم . قال : « وتشهدين ان محمداً رسول الله ؟ » : قالت : نعم ، قال : « وتشهدين ان الجنة حق والنار حق » قالت : نعم ، قال : « وتشهدين ان الله يبعث من بعد الموت ؟ » . قالت : نعم ؛ قال : « فاعتقها فانها مؤمنة » : فخرجوا وهم ينتحلون ذلك .

قال معقل : ثم جلست إلى ميمون بن مهران ، فقلت يا أبا أيوب لو قرأت لنا سورة ففسرتها ، قال : فقرأ : (إذا الشمس كورت) حتى إذا بلغ : (مطاع ثم امين) قال : ذاكم جبريل ، والخيبة لمن يقول : ان ايمانه كايمان جبريل ، ورواه حنبل عن احمد ، ورواه ايضاً عن ابن ابي مليكة قال : لقد اتى علي برهة من الدهر وما اراني أدرك يوماً يقول احدم : « اني مؤمن مستكمل الايمان ، ثم ما رضى حتى قال : ايماني على ايمان جبريل وميكائيل ، وما زال بهم الشيطان

حتى قال احدهم : اني مؤمن وإن نكح أخته وامه وبنته ، والله لقد ادركت كذا وكذا من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ما مات احد منهم إلا وهو يخشى النفاق على نفسه ، وقد ذكر هذا المعنى عنه البخاري في « صحيحه » قال : ادركت ثلاثين من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم احد يقول : إيمانه كإيمان جبريل .

وروى البغوي عن عبدالله بن محمد عن ابن مجاهد قال : كنت عند عطاء ابن ابي رباح ، فجاء ابنه يعقوب فقال : يا أبتاه إن اصحاباً لي يزعمون ان ايمانهم كإيمان جبريل ؛ فقال : يا بني ليس إيمان من اطاع الله كإيمان من عصي الله .

قلت : قوله عن « المرجئة » : انهم يقولون : ان الصلاة والزكاة ليستا من الدين ، قد يكون قول بعضهم ، فانهم كلهم يقولون : ليستا من الايمان ، واما من الدين فقد حكي عن بعضهم انه يقول : ليستا من الدين ؛ ولا نفرق بين الايمان والدين ، ومنهم من يقول : بل هما من الدين ويفرق بين اسم الايمان واسم الدين ، وهذا هو المعروف من اقوالهم التي يقولونها عن انفسهم : ولم ار انا في كتاب احد منهم انه قال : الأعمال ليست من الدين ، بل يقولون ليست من الايمان ، وكذلك حكي ابو عبيد عن ناظره منهم ، فان أبا عبيد وغيره يحتجون بأن الأعمال من الدين ؛ فتذكر قوله : (اليوم أكملت لكم دينكم) انها نزلت في حجة الوداع . قال ابو عبيد : فأخبر انه انما كمل الدين الآن في آخر الاسلام في حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، وزعم هؤلاء انه كان كاملاً قبل ذلك

بعشرين سنة من اول ما نزل عليه الوحي بمكة حين دعا الناس الى الاقرار ، حتى قال : لقد اضطر بعضهم حين ادخلت عليه هذه الحجّة ... الى ان قال : ان الايمان ليس بجميع الدين ، ولكن الدين ثلاثة أجزاء : الايمان جزء ؛ والفرائض جزء ، والنوافل جزء .

قلت : هذا الذي قاله هذا هو مذهب القوم ، قال ابو عبيد : وهذا غير ما نطق به الكتاب ، ألا تسمع الى قوله : (ان الدين عند الله الاسلام) وقال (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) . وقال : (ورضيت لكم الاسلام ديناً) فأخبر ان الاسلام هو الدين برمته ؛ وزعم هؤلاء انه ثلث الدين .

قلت : انما قالوا : ان الايمان ثلث ، ولم يقولوا ان الايمان ثلث الدين لكنهم فرقوا بين مسمى الايمان ومسمى الدين ، وسندكر ان شاء الله تعالى الكلام في مسمى هذا ومسمى هذا ، فقد يحكي عن بعضهم انه يقول ليستا من الدين ولا يفرق بين اسم الايمان والدين ومنهم من يقول بل كلاهما من الدين ويفرق بين اسم الايمان واسم الدين ، والشافعي رضي الله عنه كان معظماً لعطاء ابن ابي رباح ، ويقول : ليس في التابعين اتبع للحديث منه ، وكذلك ابو حنيفة قال . ما رأيت مثل عطاء ، وقد اخذ الشافعي هذه الحجّة عن عطاء . فروى ابن ابي حاتم في مناقب الشافعي : حدثنا ابي ، حدثنا ميمون ، حدثنا ابو عثمان بن الشافعي ، سمعت ابي يقول ليلة للحميدي : ما يحتج عليهم ، يعني

اهل الارزاء بآفة أءء من قوله : . (وما امروا الا لبعءوا الله مءلصن له الءن ءنفاء وبعقموا الصلاة وبعؤءوا الزكاة وءلك ءن القفمة) .

وقال الشافعى رضى الله عنه فى ءاب « الأم » فى (باب النفة فى الصلاة) : بعءب بآن لا بعزىء صلاة إلا بنية بعءب عمر بن الءطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله علیه وسلم : « انما الأعمال بالنفاء » ثم قال : وكان الاءءاع من الصءابة ، وءالبعبن من بعءهم ، ومن اءركنام بقولون : الاءمان قول وعمل ونية ؛ لا بعزىء واحد من ءءاء إلا بالآخر .

وقال ءنبل : ءءءنا الءمىءى قال : واءءرت أن ناساً بقولون : من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والءبب ولم بفعل من ءلك شفاء ءى يموت ، وبعلى مسءبر القبلة ءى يموت ؛ فهو مؤمن ما لم بكن باءاً إذا علم أن تركه ءلك فىه إءمانه إذا كان مقراً بالفرائض واستقبال القبلة ، فقلت : هذا الكفر الصراح ، وءلاف ءاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين . قال الله تعالى : (وما أمروا الا لبعءوا الله مءلصن له الءن) الآية . وقال ءنبل : سمعت أباعء الله اءمء بن ءنبل بقول : من قال هذا فقء كفر بالله وء على أمره وعلى الرسول ما باء به عن الله .

قلت : واما اءءببهم بقوله للأمة « اعءقها فأنها مؤمنة » فهو من ءببهم المشهورة ، وبه اءءبب ابن ءلاب ، وكان بقول : الاءمان هو ءءءبب والقول ءمبباً ، فكان قوله أقرب من قول بهم وأبباعه ، وهذا لا ءبب فىه ؛ لأن

الايان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الايمان في الباطن الذي يكون صاحبه من اهل السعادة في الآخرة ، فان المنافقين الذين قالوا : (آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) هم في الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس ، ويصومون ويحجون ويغزون ، والمسلمون بنا كحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يحكم النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر ، لافي مناصحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك ؛ بل لما مات عبد الله بن ابي بن سلول — وهو من أشهر الناس بالنفاق — ورثه ابنه عبد الله وهو من خيار المؤمنين ، وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون ؛ واذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين .

وقد تنازع الفقهاء في المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته ، هل يرث ويورث ؟ على قولين ، والصحيح انه يرث ويورث وان علم في الباطن انه منافق ، كما كان الصحابة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأن الميراث مبنء على الموالاة الظاهرة ، لا على المحبة التي في القلوب ، فانه لو علق بذلك لم تمكن معرفته ، والحكمة اذا كانت خفية او منتشرة علق الحكم بمظنتها ، وهو ما اظهره من موالاة المسلمين ؛ فقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » لم يدخل فيه المنافقون وان كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار ؛ بل كانوا يورثون ويرثون ؛ وكذلك كانوا في الحقوق والحدود كسائر المسلمين ، وقد اخبر الله عنهم انهم يصلون ويذكرون ومع هذا

لم يقبل ذلك منهم فقال : (وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله
وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) وقال
(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى
يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلاً) .

وفي « صحيح مسلم » عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تلك صلاة
المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت
بين قرني شيطان قام فقرأ أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » ، وكانوا يخرجون
مع النبي صلى الله عليه وسلم في المغازي ، كما خرج ابن ابي في غزوة بني المصطلق
وقال فيها : (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل) .

« وفي الصحيحين » عن زيد بن ارقم قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه
وسلم في سفر اصاب الناس فيها شدة ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : لا تتفقوا
على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : (لئن رجعنا الى المدينة
ليخرجن الأعزّ منها الأذل) فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فأرسل
الى عبد الله بن أبي : فسأله فاجتهد يمينه ما فعل ، وقالوا : كذب زيد يا رسول الله
فوقع في نفسي مما قالوا شدة ، حتى انزل الله تصديقي في (إذا جاءك المنافقون)
فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وفي غزوة تبوك
استغفرهم النبي صلى الله عليه وسلم كما استغفر غيرهم ، فخرج بعضهم معه وبعضهم
تخلفوا ، وكان في الذين خرجوا معه من هم بقتله في الطريق ، هموا بجل حزام

ناقته ليقع في واد هناك ، فجاءه الوحي ، فأسر الى حذيفة اسماءهم ، ولذلك يقال :
هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، كما ثبت ذلك في « الصحيح » ومع هذا
ففي الظاهر تجري عليهم احكام اهل الايمان .

وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد في هذا المقام ؛ فان كثيراً من
المتأخرين ما بقي في المظهرين للاسلام عندهم الا عدل او فاسق ، واعرضوا عن
حكم المنافقين ، والمنافقون ما زالوا ولا يزالون الى يوم القيامة ، والنفاق شعب
كثيرة ، وقد كان الصحابة يخافون النفاق على انفسهم .

ففي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث ؛
اذا حدث كذب ، وإذا وعد اخلف وإذا ائتمن خان » وفي لفظ مسلم : « وإن
صام وصلى وزعم انه مسلم » .

وفي « الصحيحين » عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال . « اربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه شعبة منهم كانت
فيه شعبة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا ائتمن خان ، واذا عاهد
غدر ، واذا خاصم فجر » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم اولاً يصلي عليهم ويستغفر لهم ، حتى نهاه
الله عن ذلك فقال : (ولا تصل على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره)
وقال : (استغفر لهم او لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر
الله لهم) فلم يكن يصلي عليهم ولا يستغفر لهم ، ولكن دماؤهم واموالهم معصومة

لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون انهم مؤمنون ، بل يظهرون الكفر دون الايمان ، فانه صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله الا الله واني رسول الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » ولما قال لأسامة بن زيد : « اقتلته بعد ما قال : لا اله الا الله ؟ » قال : انما قالها تعوداً . قال : « هلا شققت عن قلبه ؟ » وقال . « انى لم أومر ان انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم » وكان اذا استؤذن في قتل رجل يقول : « اليس يصلي ، اليس يتشهد ؟ » فاذا قيل له : انه منافق . قال : « ذاك » .

فكان حكمه صلى الله عليه وسلم في دماهم واموالهم حكمه في دماء غيرهم لا يستحل منها شيئاً إلا بأمر ظاهر ، مع انه كان يعلم نفاق كثير منهم ؛ وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه . قال تعالى : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم) وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لا يعلمون انه منافق ومن علم انه منافق لم يصل عليه . وكان عمر اذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصل على حذيفة ، لأن حذيفة كان قد علم اعيانهم . وقد قال الله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعهن الى الكفار) فأمر بامتحنهن هنا وقال : (الله اعلم بايمانهن) .

والله تعالى لما امر في الكفارة بعق رقبة مؤمنة ، لم يكن على الناس ان لا يعتقدوا إلا من يعلموا ان الايمان في قلبه ؛ فان هذا كما لو قيل لهم : اقتلوا إلا من علمتم ان الايمان في قلبه . وهم لم يؤمروا ان ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم ؛ فاذا رأوا رجلاً يظهر الايمان جاز لهم عتقه ، وصاحب الجارية لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل هي مؤمنة ؟ إنما اراد الايمان الظاهر الذي يفرق به بين المسلم والكافر ، وكذلك من عليه نذر لم يلزمه ان يعتقد الا من علم ان الايمان في قلبه ؛ فانه لا يعلم ذلك مطلقاً ؛ بل ولا احد من الخلق يعلم ذلك مطلقاً . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم اعلم الخلق والله يقول له : (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين) . فأولئك إنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحكم فيهم حكمه في سائر المؤمنين ؛ ولو حضرت جنازة احدكم صلى عليها ، ولم يكن منهاياً عن الصلاة الا على من علم نفاقه ؛ وإلا لزم ان ينقب عن قلوب الناس ويعلم سرائرهم ، وهذا لا يقدر عليه بشر .

ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله : (ومنهم) ، (ومنهم) صار يعرف نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك ، فان الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم ؛ وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم ، وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه ؛ فلم يكن نفاقهم معلوماً عند الجماعة ، بخلاف حالهم لما نزل القرآن ؛ ولهذا لما نزلت سورة براءة كتبوا النفاق وما بقي يمكنهم من إظهاره احياناً ما كان يمكنهم قبل ذلك ، وانزل الله تعالى : (لئن لم ينته

المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ، ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن نجد لسنة الله تبديلاً) فلما توعدوا بالقتل إذا اظهروا النفاق ، كتموه .

ولهذا تنازع الفقهاء في استتابة الزنديق . فقيل : يستتاب . واستدل من قال ذلك بالمنافقين الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل إعلانيتهم ويكلم امرهم الى الله ؛ فيقال له : هذا كان في اول الأمر ، وبعد هذا انزل الله : (ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً) فعلموا أنهم إن اظهروه كما كانوا يظهرونه قتلوا ، فكتموه .

والزنديق : هو المنافق ، وانما يقتله من يقتله اذا ظهر منه انه يكتم النفاق ، قالوا : ولا تعلم توبته ، لأن غاية ما عنده انه يظهر بما كان يظهر ؛ وقد كان يظهر الايمان وهو منافق ؛ ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل الى تقبيلهم ، والقرآن قد توعدهم بالتقتيل .

والمقصود ان النبي صلى الله عليه وسلم انما اخبر عن تلك الأمة بالايمان الظاهر الذي علقته به الأحكام الظاهرة ، والا فقد ثبت عنه ان سعداً لما شهد لرجل انه مؤمن قال : « او مسلم » وكان يظهر من الايمان ما تظهره الأمة وزيادة ، فيجب ان يفرق بين احكام المؤمنين الظاهرة التي يحكم فيها الناس في الدنيا ، وبين حكمهم في الآخرة بالثواب والعقاب ؛ فالمؤمن المستحق للجنة لا بد ان

يكون مؤمناً في الباطن باتفاق جميع اهل القبلة ، حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمناً ويقولون : الايمان هو الكلمة ، يقولون : انه لا ينفع في الآخرة إلا الايمان الباطن .

وقد حكى بعضهم عنهم انهم يجعلون المنافقين من اهل الجنة ، وهو غلط عليهم ؛ إنما نازعوا في الاسم لا في الحكم بسبب شبهة المرجئة في ان الايمان لا يتبع ولا يتفاضل ؛ ولهذا اكثر ما اشترط الفقهاء في الرقبة التي تجزىء في الكفارة العمل الظاهر ، فتنازعوا هل يجزىء الصغير ؟ على قولين معروفين للسلف هما روايتان عن احمد ؛ فقيل : لا يجزىء عتقه ، لأن الايمان قول وعمل والصغير لم يؤمن بنفسه إنما ايمانه تبع لأبويه في احكام الدنيا ؛ ولم يشترط احد ان يعلم انه مؤمن في الباطن ؛ وقيل : بل يجزىء عتقه ، لأن العتق من الأحكام الظاهرة وهو تبع لأبويه ؛ فكما انه يرث منهما ويصلي عليه ، ولا يصلى الا على مؤمن ، فإنه يعتق .

وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم إذا ماتوا ، ويدفنون في مقابر المسلمين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، والمقبرة التي كانت للمسلمين في حياته وحياة خلفائه واصحابه يدفن فيها كل من اظهر الايمان وان كان منافقاً في الباطن ، ولم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون بها عن المسلمين في شيء من ديار الاسلام . كما تكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها ، ومن دفن في مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون ، والصلاة لا تجوز على من علم نفاقه بنص القرآن ، فعلم ان ذلك بناء على الايمان الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وقد كان النبي صلى الله عليه

وسلم يصلى عليهم ويستغفر لهم حتى نهي عن ذلك . وعلل ذلك بالكفر ، فكان ذلك دليلاً على ان كل من لم يعلم انه كافر بالباطن جازت الصلاة عليه والاستغفار له وإن كانت فيه بدعة وان كان له ذنوب .

وإذا ترك الامام ، أو اهل العلم والدين « الصلاة » على بعض المتظاهرين ببدعة او فحور زجراً عنها ، لم يكن ذلك محرماً للصلاة عليه والاستغفار له ، بل قال النبي صلى الله عليه وسلم فيمن كان يمتنع عن الصلاة عليه وهو الغال وقائل نفسه والمدين الذي لا وفاء له : « صلوا على صاحبكم » وروي انه كان يستغفر للرجل في الباطن وإن كان في الظاهر يدع ذلك زجراً عن مثل مذهبه ، كما روي في حديث محم بن جثامة .

وليس في الكتاب والسنة المظهرون للاسلام الاقسامان : مؤمن او منافق ، فالمنافق في الدرك الأسفل من النار ، والآخر مؤمن ، ثم قد يكون ناقص الايمان فلا يتناوله الاسم المطلق ، وقد يكون تام الايمان ، وهذا يأتي الكلام عليه ان شاء الله في مسألة الاسلام والايمان . واسماء الفساق من اهل الملة : لكن المقصود هنا انه لا يجعل احد بمجرد ذنب يذنبه ولا يبدعه ابتدعها — ولو دعا الناس اليها — كافرأ في الباطن ، الا اذا كان منافقاً . فأما من كان في قلبه الايمان بالرسول وما جاء به وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع ، فهذا ليس بكافر اصلاً ، والحوارج كانوا من اظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيراً لها ، ولم يكن في الصحابة من يكفرهم لا علي بن طالب ولا غيره ، بل حكموا

فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك في غير هذا الموضع .

وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة ، من كان منهم منافقاً فهو كافر في الباطن ، ومن لم يكن منافقاً بل كان مؤمناً بالله ورسوله في الباطن ، لم يكن كافراً في الباطن ، وان اخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤه ؛ وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار . ومن قال : ان الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفوياً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، بل واجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة ، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة ، وانما يكفر بعضهم بعضاً ببعض المقالات ، كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع .

وانما قال الأئمة بكفر هذا ، لأن هذا فرض ما لا يقع ، فيمتنع ان يكون الرجل لا يفعل شيئاً مما أمر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات ، مثل الصلاة بلا وضوء والى غير القبلة ، ونكاح الأمهات ، وهو مع ذلك مؤمن في الباطن ؛ بل لا يفعل ذلك الا لعدم الايمان الذي في قلبه ، ولهذا كان اصحاب ابي حنيفة يكفرون انواعاً ممن يقول كذا وكذا ؛ لما فيه من الاستخفاف ، ويجعلونه مرتداً ببعض هذه الأنواع مع النزاع اللفظي الذي بين اصحابه وبين الجمهور في العمل : هل هو داخل في اسم الايمان

أم لا؟ ولهذا فرض متأخروا الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهو ان الرجل اذا كان مقرراً بوجوب الصلاة فدعي اليها وامتنع واستناب ثلاثاً مع تهديده بالقتل فلم يصل حتى قتل ، هل يموت كافراً او فاسقاً؟ على قولين :

وهذا الفرض باطل ، فانه يمتنع في الفطرة ان يكون الرجل يعتقد ان الله فرضها عليه ، وانه يعاقبه على تركها ويصبر على القتل ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك ، هذا لا يفعله بشر قط ، بل ولا يضرب احد ممن يقر بوجوب الصلاة إلا صلى ، لا ينتهي الأمر به الى القتل ، وسبب ذلك ان القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الانسان إلا لأمر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد انه إن فارقه هلك فيصبر عليه حتى يقتل ، وسواء كان الدين حقاً او باطلاً ، اما مع اعتقاده ان الفعل يجب عليه باطناً وظاهراً فلا يكون فعل الصلاة اصعب عليه من احتمال القتل قط .

ونظير هذا لو قيل : ان رجلاً من اهل السنة قيل له : ترض عن ابي بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلها ، ومع عدم الاعتذار المانعة من الترضي عنهما ، فهذا لا يقع قط . وكذلك لو قيل : ان رجلاً يشهد ان محمداً رسول الله باطناً وظاهراً وقد طلب منه ذلك ، وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها ، فامتنع منها حتى قتل ، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد ان محمداً رسول الله ؛ ولهذا كان القول الظاهر من الايمان الذي لا نجا للعبد الا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين الا الجهمية - جهماً ومن وافقه - فانه اذا قدر انه معذور لكونه اخرس ، أو لكونه خائفاً من قوم ان

اظهر الاسلام آذوه ونحو ذلك ، فهذا يمكن ان لا يتكلم مع ايمان في قلبه ،
كالمكره على كلمة الكفر . قال الله تعالى : (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان
ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)
وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهن ومن اتبعه ، فانه جعل كل من تكلم
بالكفر ، من اهل وعيد الكفار ، الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان .

فان قيل : فقد قال تعالى : (ولكن من شرح بالكفر صدراً) قيل : وهذا
موافق ، لأولها فانه من كفر من غير اكره فقد شرح بالكفر صدراً ، والا
ناقض اول الآية آخرها ، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره ، وذلك
يكون بلا اكره ، لم يستثن المكره فقط ، بل كان يجب ان يستثنى المكره وغير
المكره إذا لم يشرح صدره ، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعاً فقد شرح بها
صدراً وهي كفر ، وقد دل على ذلك قوله تعالى : (يحذر المنافقون ان تنزل
عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون ، ولئن
سألتمهم ليقولن انما كنا نحوض ونلعب قل أبلله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟
لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم
كانوا مجرمين) . فقد اخبر انهم كفروا بعد ايمانهم مع قولهم : إنا تكلمنا بالكفر
من غير اعتقاد له ، بل كنا نحوض ونلعب ، وبين ان الاستهزاء بآيات الله كفر ،
ولا يكون هذا إلا بمن شرح صدره بهذا الكلام ، ولو كان الايمان في قلبه
منعه ان يتكلم بهذا الكلام .

والقرآن يبين ان ايمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه ، كقوله تعالى :
(ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما
أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون
وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين) الى قوله : (انما كان قول المؤمنين اذا
دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون)
فنفي الايمان بمن تولى عن طاعة الرسول ، واخبر ان المؤمنين اذا دعوا الى الله
ورسوله ليحكم بينهم سمعوا واطعوا ؛ فيبين ان هذا من لوازم الايمان .

فصل

فان قيل : فاذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما امر الله به ورسوله، فمتى ذهب بعض ذلك بطل الايمان فيلزم تكفير اهل الذنوب كما تقوله الخوارج ، او تخليدهم في النار وسلبهم اسم الايمان بالكيفية كما تقوله المعتزلة ، وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة فان المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير ، واما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم .

قيل : أولاً ينبغي ان يعرف ان القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه احد من اهل السنة هو القول بتخليد اهل الكبائر في النار ؛ فان هذا القول من البدع المشهورة ، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان ؛ وسائر أئمة المسلمين على انه لا يخلد في النار احد ممن في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، وانفقوا ايضاً على ان نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من اهل الكبائر من امته . ففي «الصحيحين» عنه انه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة » ، وهذه الأحاديث المذكورة في مواضعها . وقد نقل بعض الناس عن الصحابة في ذلك خلافاً ، كما

روى عن ابن عباس ان القائل لا توبه له ، وهذا غلط على الصحابة : فانه لم يقل احد منهم ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يشفع لأهل الكبائر ولا قال : انهم يخلدون في النار ، ولكن ابن عباس في احدي الروايتين عنه قال : ان القائل لا توبه له . وعن احمد بن حنبل في قبول توبه القاتل روايتان ايضاً . والنزاع في التوبه غير النزاع في التخليد ، وذلك ان القتل يتعلق به حق آدمي ، فلهذا حصل فيه النزاع .

واما قول القائل : ان الايمان اذا ذهب بعضه ذهب كله . فهذا ممنوع . وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الايمان فانهم ظنوا انه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء . ثم قالت «الحوارج والمعتزلة» : هو مجموع ما امر الله به ورسوله . وهو الايمان المطلق كما قاله اهل الحديث : قالوا : فاذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الايمان شيء فيخلد في النار وقالت «المرجئة» على اختلاف فرقهم : لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئاً من الايمان اذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئاً واحداً يستوي فيه البر والفاجر ، ونصوص الرسول واصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه ، كقوله : «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان» .

ولهذا كان «اهل السنة والحديث» على انه يتفاضل ، وجمهورهم يقولون : يزيد وينقص ، ومنهم من يقول : يزيد ولا يقول : ينقص ، كما روى عن مالك في احدي الروايتين ، ومنهم من يقول : يتفاضل ، كعبدالله بن المبارك ، وقد

ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة؛ فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة: عن حماد بن سامة، عن ابي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي؛ وهو من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الايمان يزيد وينقص؛ قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته؛ واذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه؛ وروى اسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان، عن الحارث بن محمد عن ابي الدرداء قال: الايمان يزيد وينقص.

وقال احمد بن حنبل: حدثنا يزيد، حدثنا جرير بن عثمان قال: سمعت اشياخنا او بعض اشياخنا ان ابا الدرداء قال: ان من فقه العبد ان يتعاهد ايمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد ان يعلم أنزداد الايمان ام ينقص؟ وان من فقه الرجل ان يعلم نزغات الشيطان أنى تأتبه. وروى اسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمرو، عن عبدالله بن ربيعة الحضرمي، عن ابي هريرة قال: الايمان يزيد وينقص.

وقال احمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن طلحة، عن يزيد، عن ذر قال، كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه: هلموا نردد ايماناً، فيذكرون الله عز وجل وقال ابو عبيد في «الغريب» في حديث علي: ان الايمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الايمان ازدادت اللمظة يروي ذلك عن عثمان بن عبدالله عن عمرو بن هند الجلي عن علي قال الأصمعي، اللمظة: مثل النكتة او نحوها.

وقال احمد بن حنبل : حدثنا وكيع ، عن شريك ، عن هلال ، عن عبد الله ابن عكيم قال : سمعت ابن مسعود يقول في دعائه : اللهم زدنا ايماناً و يقيناً وفقهاً . وروى سفيان الثوري عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال : كان معاذ بن جبل يقول لرجل : اجلس بنا تؤمن نذكر الله تعالى ، وروى ابو اليمان : حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد ، ان عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من اصحابه فيقول : قم بنا تؤمن ساعة ، فنحن في مجلس ذكر . وهذه الزيادة اثبتها الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله .

وصح عن عمار بن ياسر انه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان الانصاف من نفسه ، والانفاق من الاقتار ؛ وبذل السلام للعالم ، ذكره البخاري في « صحيحه » ، وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايماناً ، والآثار في هذا كثيرة ، رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة .

[قال مالك بن دينار : الايمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلاً كالبقلة ؛ فان صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ، واماط عنه البغل وما يضعفه ويوهنه ، اوشك ان ينمو او يزداد ، ويصير له اصل وفروع ، وثمره وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير امثال الجبال . وان صاحبه اهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فتفتتها ، او صبي فذهب بها ، واكثر عليها الدغل فأضعفها او اهلكها او ايبسها ، كذلك الايمان .

وقال خيشمة بن عبد الرحمن: الايمان بسمن في الخصب ، ويهزل في الجذب
فخصبه العمل الصالح ، وجذبه الذنوب والمعاصي . وقيل لبعض السلف : يزداد
الايمان وينقص ؟ قال نعم يزداد حتى يصير امثال الجبال ، وينقص حتى يصير
امثال الهباء .

وفي حديث حذيفة الصحيح : « حتى يقال للرجل : ما اجلده ، ما اظرفه
ما اعقله ؛ وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان » وفي حديثه الآخر الصحيح
« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأبي قلب اشربها ، نكتت
فيه نكتة سوداء ؛ وابي قلب انكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير
على قلبين : ابيض مثل الضفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض
والآخر اسود : مر باداً ، كالكوز مجخياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر
منكراً إلا ما اشرب هواه ؛ وفي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير
حساب كفاية ، فانه من اعظم الأدلة على زيادة الايمان ونقصانه لأنه وصفهم
بقوة الايمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل على قوة ايمانهم ؛ وتوكلهم على
الله في امورهم كلها .

وروى ابو نعيم من طريق الليث بن سعد ، عن يزيد بن عبد الله الزني ،
عن ابي رافع انه سمع رجلاً حدثه انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
الايمان فقال : أحب ان اخبرك بصريح الايمان ؟ قال : نعم . قال : اذا اسأت
او ظلمت احداً ، عبدك او امتك او احداً من الناس ، حزنت وساءك ذلك .

وإذا تصدقت أو أحسنت استبشرت وسرك ذلك ، ورواه بعضهم عن يزيد ،
عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم أنه سأل عن زيادة الإيمان في القلب ونقصانه
فذكر نحوه ، وقال البزار : حدثنا محمد بن أبي الحسن البصري ، ثنا هانيء بن
المتوكل ، ثنا عبد الله بن سليمان ، عن إسحاق بن أنس حرفوعاً : ثلاث من كن
فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان ، خلق يعيش به في الناس ، وورع
يحجزه عن معصية الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل .

و « أربع من الشقاء : جمود العين وقساوة القلب ، وطول الأمل
والحرص على الدنيا » . فالحاصل الأولى تدل على زيادة الإيمان وقوته ، والأربعة
الأخر تدل على ضعفه ونقصانه .

وقال أبو يعلى الموصلي : ثنا عبد الله القواريري ، ويحيى بن سعيد قالا :
ثنا يزيد بن زريع ، ويحيى بن سعيد قالا : حدثنا عوف حدثني عقبة بن عبد الله
المزني قال يزيد في حديثه في مسجد البصرة : حدثني رجل قد سماه ، ونسي
عوف اسمه قال : كنت بالمدينة في مسجد فيه عمر بن الخطاب . فقال لبعض
جلسائه : كيف سمعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الإسلام ؟ فقال :
سمعتة يقول : الإسلام بدأ جذعاً ؛ ثم ثنياً ؛ ثم رباعياً ؛ ثم سداسياً ؛ ثم بازلاً .
فقال عمر : فما بعد النزول إلا النقصان ، كذا ذكره أبو يعلى في « مسند عمر »
وفي « مسند » هذا الصحابي المبهم ذكره أولى .

قال أبو سليمان : من أحسن في ليله كوفيء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره
كوفيء في ليله [(١)] .

(١) ما بين القوسين المرعين من ص ٢٢٥ — ٢٢٧ زيادة من المخطوطة .

والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات ؛ كقوله تعالى : (اما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) وهذه زيادة اذا تليت عليهم الآيات اي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول ، وهذا امر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان ما لم يكن ؛ حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرغبة من الشر ما لم يكن ؛ فزاد علمه بالله ومحبه لطاعته ، وهذه زيادة الايمان ، وقال تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فزادوا يقيناً وتوكلاً على الله ، وثباتاً على الجهاد وتوحيداً بأن لا يخافوا المخلوق ؛ بل يخافون الخالق وحده ، وقال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؛ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ؛ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم) .

وهذه « الزيادة » ليست مجرد التصديق بأن الله انزلها بل زادتهم إيماناً بحسب مقتضاها ؛ فان كانت امرأ بالجهاد او غيره ازدادوا رغبة ، وإن كانت نهياً عن شيء اتهموا عنه فكرهوه ، ولهذا قال : (وهم يستبشرون) والاستبشار غير مجرد التصديق ، وقال تعالى : (والذين آتيناكم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه) ، والفرح بذلك من زيادة الايمان قال تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) . وقال تعالى : (ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله) وقال تعالى : (وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً) . وقال : (هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وهذه نزلت لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه من الحديبية ؛ فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان .

والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ، ولهذا قال يوم حنين : (ثم انزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها) وقال تعالى : (ثانی اثین إذ هما فی الغار إذ یقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ؛ فأنزل الله سكينة عليه وايد به جنود لم تروها) ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار ؛ وانما انزل سكينة وطمأنينته من خوف العدو ، فلما انزل السكينة في قلوبهم ، مرجعهم من الحديبية ، ليزدادوا إيماناً مع ايمانهم ، دل على ان الايمان المزيد ، حال للقلب وصفة له ، وعمل مثل طمأنينته وسكونه وبقينه ، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة ، كما يكون بالعلم ، والريب المنافي لليقين يكون ريباً في العلم ، وريباً في طمأنينة القلب ، ولهذا جاء في الدعاء المأثور : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » .

وفي حديث الصديق الذي رواه احمد والترمذي وغيرها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سلوا الله العافية واليقين ؛ فما اعطي احد بعد اليقين شيئاً

خيراً من العافية؛ فسلوها الله تعالى»؛ فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينه القلب وطمأنينته وتسليمه، وهذا من تمام الايمان بالقدر خيره وشره، كما قال تعالى: (ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال علقمة: ويروى عن ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم، بقوله تعالى: (يهد قلبه) هداه لقلبه هو زيادة في ايمانه؛ كما قال تعالى: (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقال: (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) .

ولفظ « الايمان » اكثر ما يذكر في القرآن مقيداً؛ فلا يكون ذلك اللفظ متناولاً للجميع ما امر الله به؛ بل يجعل موجباً للوازمه وتمام ما امر به، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى: (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه؛ فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير، وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد اخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين؛ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور) وقال تعالى في آخر السورة: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم، والله غفور رحيم) .

وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى: انها خطاب لقريش؛ وفي الثانية انها خطاب لليهود والنصارى، وليس كذلك؛ فان الله لم يقل قط للكفار: (يا أيها الذين آمنوا) ثم قال بعد ذلك: (لئلا يعلم اهل الكتاب ان لا يقدرين

على شيء من فضل الله) وهذه السورة مدنية بانفاق ، لم يخاطب بها المشركين بحكمة ؛ وقد قال : (وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد اخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين) وهذا لا يخاطب به كافر ؛ وكفار مكة لم يكن اخذ ميثاقهم ، وانما اخذ ميثاق المؤمنين بيعتهم له ؛ فان كل من كان مسلماً مهاجراً ، كان يبايع النبي صلى الله عليه وسلم ، كما يبايع الأنصار ليلة العقبة وانما دعاهم الى تحقيق الايمان وتكميله ، بأداء ما يجب من تمامه باطنياً وظاهراً كما نسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم في كل صلاة ؛ وان كان قد هدى المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة ، لكن الهداية المفصلة في جميع ما يقولونه ويفعلونه في جميع امورهم لم تحصل ، وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هي من الايمان المأمور به . وبذلك يخرجهم الله من الظلمات الى النور .

فصل

وزيادة الايمان الذي أمر الله به ، والذي يكون من عباده المؤمنين يعرف من وجوه :

(احدها) : الاجمال والتفصيل فيما امروا به ، فانه وان وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله ، ووجب على كل امة التزام ما يأمر به رسولهم مجملاً . فعلوم انه لا يجب في اول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله ، ولا يجب على كل عبد من الايمان المفصل مما اخبر به الرسول ، ما يجب على من بلغه غيره ، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها ، لزمه من الايمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره ، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطناً وظاهراً ، ثم مات قبل ان يعرف شرائع الدين ، مات مؤمناً بما وجب عليه من الايمان ، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه ، مثل إيمان من عرف الشرائع فأمن بها وعمل بها ؛ بل إيمان هذا اكمل وجوباً ووقوعاً ، فان ما وجب عليه من الايمان اكمل ، وما وقع منه اكمل .

وقوله تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم) اي في التشريع بالأمر والنهي ليس المراد ان كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة ، وانه فعل ذلك ؛ بل في « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه وصف النساء

بأنهن ناقصات عقل ودين ، وجعل نقصان عقلاها ، ان شهادة امرأتين ، شهادة رجل واحد ، ونقصان دينها انها إذا حاضت ، لا تصوم ولا تصلي ، وهذا النقصان ليس هو نقص مما امرت به ؛ فلا تعاقب على هذا النقصان ، لكن من امر بالصلاة والصوم ففعله كان دينه كاملاً بالنسبة الى هذه الناقصة الدين .

(الوجه الثاني) : الاجمال والتفصيل فيما وقع منهم ، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقاً فلم يكذبه قط ، لكن اعرض عن معرفة امره ، ونهيه ، وخبره ، وطلب العلم الواجب عليه ؛ فلم يعلم الواجب عليه ، ولم يعمل به ؛ بل اتبع هواه ، وآخر طلب علم ما امر به فعمل به ، وآخر طلب علمه ، فعمله ، وآمن به ولم يعمل به وان اشتركوا في الوجوب ، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه اكمل به ؛ فهؤلاء ممن عرف ما يجب عليه والتزمه ، واقر به ، ولكنه لم يعمل بذلك كله ، وهذا المقرب بما جاء به الرسول ، المعترف بذنبه الخائف من عقوبة ربه على ترك العمل اكمل ايماناً ممن لم يطلب معرفة ما امر به الرسول ولا عمل بذلك ؛ ولا هو خائف ان يعاقب ؛ بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع انه مقر بنبوته باطناً وظاهراً .

فكلما علم القلب ، ما اخبر به الرسول فصدقه ، وما امر به فالتزمه ؛ كان ذلك زيادة في ايمانه على من لم يحصل له ذلك ؛ وان كان معه التزام عام واقرار عام .

وكذلك من عرف اسماء الله ومعانيها ، فأمن بها ؛ كان ايمانه اكمل ممن لم

يعرف تلك الأسماء بل آمن بها إيماناً مجملًا ، أو عرف بعضها ؛ وكلما ازداد الانسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته ، كان إيمانه به اكمل .

(الثالث) : ان العلم والتصديق نفسه ، يكون بعضه اقوى من بعض ، واثبت وابتعد عن الشك والريب ، وهذا امر يشهده كل احد من نفسه ؛ كما ان الحس الظاهر بالشيء الواحد ، مثل رؤية الناس للهلال ، وان اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته اتم من بعض ؛ وكذلك سماع الصوت الواحد ، وشم الرائحة الواحدة ، وذوق النوع الواحد من الطعام ، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل اعظم من ذلك من وجوه متعددة ! والمعاني التي يؤمن بها من معاني اسماء الرب وكلامه ، يتفاضل الناس في معرفتها ، اعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها .

(الرابع) ان التصديق المستلزم لعمل القلب ، اكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله ؛ فالعلم الذي يعمل به صاحبه ، اكمل من العلم الذي لا يعمل به واذا كان شخصان يعلمان ان الله حق ، ورسوله حق ، والجنة حق ، والنار حق وهذا علمه أوجب له محبة الله ، وخشيته ، والرغبة في الجنة ، والهرب من النار والآخر علمه لم يوجب ذلك ؛ فعلم الأول اكمل ؛ فان قوة المسبب ، دل على قوة السبب ، وهذه الامور نشأت عن العلم ، فالعلم بالمحجوب يستلزم طلبه ؛ والعلم بالخوف ، يستلزم الهرب منه ؛ فاذا لم يحصل اللازم ، دل على ضعف الملزوم ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس الخبر كالمعائن » فان موسى لما اخبره

ربه ان قومه عبدوا العجل ، لم يلق الألواح . فلما رآهم قد عبدوه القاها ؛ وليس ذلك لشك موسى في خبر الله ، لكن الخبر وإن جزم بصدق الخبر ، فقد لا يتصور الخبر به في نفسه ، كما يتصوره اذا عاينه ؛ بل يكون قلبه مشغولاً عن تصور الخبر به ، وان كان مصدقاً به ؛ ومعلوم انه عند المعاينة ، يحصل له من تصور الخبر به ما لم يكن عند الخبر ، فهذا التصديق اكمل من ذلك التصديق .

(الخامس) : ان أعمال القلوب ، مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله تعالى ورجائه ، ومحو ذلك ، هي كلها من الايمان ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف ؛ وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلاً عظيماً .

(السادس) : ان الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي ايضاً من الايمان ، والناس يتفاضلون فيها .

(السابع) ذكر الانسان بقلبه ما امره الله به واستحضاره لذلك ، بحيث لا يكون غافلاً عنه ؛ اكمل ممن صدق به وغفل عنه ؛ فان الغفلة تضاد كمال العلم ؛ والتصديق والذكر ، والاستحضار يكمل العلم واليقين ؛ ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة ، اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ؛ واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه وهو كذلك ؛ وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه : اجلسوا بنا ساعة تؤمن ، قال تعالى ، (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) وقال تعالى : (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقال تعالى : (سيدذكر من يخشى ويتجنبها الأشقي) ثم كلما تذكر الانسان ما عرفه قبل ذلك ؛ وعمل به ،

حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك وعرف من معاني اسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك ، كما في الأثر « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، وهذا امر يجده في نفسه كل مؤمن .

وفي « الصحيح » ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحى والميت » . قال تعالى : (وإذ أنزلت عليهم آياته زادتهم ایماناً) ، وذلك انها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه ، وتزيدهم عملاً بذلك العلم ، وتزيدهم تذكراً لما كانوا نسوه ، وعملاً بتلك التذكرة ، وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات فى الآفاق ، وفى انفسهم . قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ، أى إن القرآن حق ، ثم قال تعالى : (او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) . فان الله شهيد فى القرآن بما اخبر به ؛ فآمن به المؤمن ثم اراهم فى الآفاق وفى انفسهم من الآيات ، ما يدل على مثل ما اخبر به فى القرآن ، فبينت لهم هذه الآيات ، ان القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك .

وقال تعالى : (افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) ، فالآيات المخلوقة والمتلوة ، فيها تبصرة ، وفيها تذكرة : تبصرة من العمى ، وتذكرة من الغفلة ؛ فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف ، ويذكر من عرف ونسى ، والإنسان يقرأ السورة مرات ، حتى سورة الفاتحة ، ويظهر له فى اثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك ، حتى كأنها تلك الساعة نزلت ؛ فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه

وعمله . وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر ، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه . ثم كلما فعل شيئاً مما امر به ، استحضر انه امر به فصدق الأمر ، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلاً عنه وان لم يكن مكذباً منكراً .

(الوجه الثامن) : ان الانسان قد يكون مكذباً ومنكراً لأمر لا يعلم ان الرسول اخبر بها ، وامر بها ، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر . بل قلبه جازم بأنه لا يخبر الا بصدق ولا يأمر الا بحق ، ثم يسمع الآية او الحديث ، او يتدبر ذلك ، او يفسر له معناه ، او يظهر له ذلك بوجه من الوجود ، فيصدق بما كان مكذباً به ، ويعرف ما كان منكراً ، وهذا تصديق جديد ، وايمان جديد ازداد به ايمانه ، ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلاً ؛ وهذا وان اشبه المجمل والمفصل لكون قلبه سليماً عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل ، وعن معرفة وانكار لشيء من ذلك ، فيأتيه التفصيل بعد الأجمال على قلب ساذج ؛ واما كثير من الناس ، بل من اهل العلوم والعبادات ، فيقوم بقلوبهم من التفصيل امور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول وهم لا يعرفون انها تخالف ، فاذا عرفوا رجعوا ، وكل من ابتدع في الدين قولاً خاطئاً فيه ، او عملاً عملاً خاطئاً فيه ، وهو مؤمن بالرسول ، او عرف ما قاله وآمن به ، لم يعدل عنه ؛ هو من هذا الباب وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب ؛ فمن علم ما جاء به الرسول ، وعمل به ، اكمل ممن اخطأ ذلك ؛ ومن علم الصواب بعد الخطأ ، وعمل به فهو اكمل ممن لم يكن كذلك .

فصل

وقد أثبت الله في القرآن إسلاماً بلا إيمان في قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) . وقد ثبت في « الصحيحين » : عن سعد بن أبي وقاص ، قال : أعطى النبي صلى الله عليه وسلم رهطاً ، وفي رواية قسم قسماً ، وترك فيهم من لم يعطه ، وهو أعجبهم إلي ، فقلت : يارسول الله ، مالك عن فلان ؟ فوالله انى لأراه مؤمناً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو مسلماً » . اقولها ثلاثاً ، ويردها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً . ثم قال : « انى لأعطي الرجل ، وغيره احب إلي منه ، مخافة ان يكبه الله على وجهه في النار » ، وفي رواية : فضرب بين عنقي وكتفي ، وقال : « أقتال أي سعد ؟ ! » .

فهذا الاسلام الذي نفى الله عن اهله دغول الايمان في قلوبهم ، هل هو اسلام يثابون عليه ؟ ام هو من جنس اسلام المنافقين ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف : احدهما : انه اسلام يثابون عليه ، ويخرجهم من الكفر والنفاق . وهذا مهروي عن الحسن ، وابن سيرين ، وابراهيم النخعي ،

وابى جعفر الباقر ؛ وهو قول حماد بن زيد ، واحمد بن حنبل ، وسهل بن عبد الله التستري ، وابى طالب المكي ، وكثير من اهل الحديث والسنة والحقائق .

قال احمد بن حنبل : حدثنا مؤمل بن اسحق عن عمار بن زيد قال : سمعت هشاماً يقول : كان الحسن ومحمد بقولان : مسلم ، ويهابان : مؤمن . وقال احمد بن حنبل : حدثنا ابو سلمة الخزازي ، قال : قال مالك ، وشريك ، وابو بكر بن عياش ، وعبد العزيز بن ابي سلمة ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد : « الايمان » المعرفة والاقرار والعمل . الا ان حماد بن زيد ، يفرق بين الاسلام والايان . يجمل الايمان خاصاً ، والاسلام عاماً .

و(القول الثاني) : ان هذا الاسلام : هو الاستسلام خوف السبي والقتل ، مثل اسلام المنافقين . قالوا : وهؤلاء كفار ، فان الايمان لم يدخل في قلوبهم ومن لم يدخل الايمان في قلبه فهو كافر . وهذا اختيار البخاري ، ومحمد بن نصر المروزي ، والسلف مختلفون في ذلك .

قال محمد بن نصر : حدثنا اسحاق ، ابناً جرير ، عن مغيرة ، قال : اتيت ابراهيم النخعي ، فقلت : ان رجلاً خاصني يقال له : سعيد الغنبري ، فقال ابراهيم ليس بالغنبري ولكنه زيدي . قوله : (قالت الاعراب آما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) فقال : هو الاستسلام . فقال ابراهيم : لا ، هو الاسلام .

وقال : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن

مجاهد : (قالت الاعراب آمنوا ولم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) ، قال :
استسلمنا خوف السبي والقتل . ولكن هذا منقطع ، سفيان لم يدرك مجاهداً .
والذين قالوا : ان هذا الاسلام هو كاسلام المنافقين ، لا يثابون عليه ، قالوا :
لأن الله نفى عنهم الايمان ، ومن نفى عنه الايمان فهو كافر . وقال هؤلاء :
الاسلام هو الايمان ، وكل مسلم مؤمن . وكل مؤمن مسلم ، ومن جعل الفساق
مسلمين غير مؤمنين ، لزمه ان لا يجعلهم داخلين في قوله تعالى : (يا أيها الذين
آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) : وفي قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة
من يوم الجمعة) ، وامثال ذلك فانهم انما دعوا باسم الايمان ، لا باسم الاسلام ، فمن
لم يكن مؤمناً لم يدخل في ذلك .

وجواب هذا ان يقال : الذين قالوا من السلف : إنهم خرجوا من الايمان
الى الاسلام ، لم يقولوا : انه لم يبق معهم من الايمان شيء ، بل هذا قول الخوارج ،
والمعتزلة . واهل السنة الذين قالوا هذا ، يقولون : الفساق يخرجون من النار
بالشفاعة . وإن معهم ايمان يخرجون به من النار . لكن لا يطلق عليهم اسم
الايمان ، لأن الايمان المطلق ، هو الذي يستحق صاحبه الثواب ، ودخول الجنة ،
وهؤلاء ليسوا من اهله ، وهم يدخلون في الخطاب بالايمان ، لأن الخطاب بذلك
هو لمن دخل في الايمان وان لم يستكمله ، فانه انما خوطب ليفعل تمام الايمان ،
فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب ؟ ! والا كنا قد تبينا ان هذا المأمور من
الايمان قبل الخطاب ؛ وانما صار من الايمان بعد ان احسروا به ، فالخطاب بـ (يا أيها

الذين آمنوا) ؛ غير قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا
وجاهدوا بأموالهم وانفسهم) ونظائرهما ، فان الخطاب بـ (يا أيها الذين آمنوا)
أولاً : يدخل فيه من اظهر الايمان ، وان كان منافقاً في الباطن يدخل فيه
في الظاهر ، فكيف لا يدخل فيه من لم يكن منافقاً ، وان لم يكن من
المؤمنين حقاً .

وحقيقته ان من لم يكن من المؤمنين حقاً ، يقال فيه : انه مسلم ، ومعه ايمان
يمنعه الخلود في النار ، وهذا متفق عليه بين اهل السنة . لكن هل يطلق عليه
اسم الايمان ؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه ، فقيل : يقال مسلم ، ولا يقال : مؤمن .
وقيل : بل يقال : مؤمن .

والتحقيق ان يقال : انه مؤمن ناقص الايمان ، مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته
ولا يعطي اسم الايمان المطلق ؛ فان الكتاب والسنة نفيًا عنه الاسم المطلق ؛
واسم الايمان يتناوله فيما احمر الله به ورسوله ، لأن ذلك إيجاب عليه وتحريم
عليه ، وهو لازم له كما يلزمه غيره ، وانما الكلام في اسم المدح المطلق ؛ وعلى
هذا فالخطاب بالايمان يدخل فيه « ثلاث طوائف » : يدخل فيه المؤمن حقاً ،
ويدخل فيه المنافق في احكامه الظاهرة ، وان كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل
من النار ؛ وهو في الباطن ينفي عنه الاسلام والايمان ، وفي الظاهر ثبت له
الاسلام والايمان الظاهر ؛ ويدخل فيه الذين اسلموا وإن لم تدخل حقيقة
الايمان في قلوبهم ؛ لكن معهم جزء من الايمان والاسلام يثابون عليه .

ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم ، وليس معهم من الكبار ما يعاقبون عليه كأهل الكبار ، لكن يعاقبون على ترك المفروضات ، وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم ؛ فانهم قالوا : آما من غير قيام منهم بما امروا به باطناً وظاهراً . فلا دخلت حقيقة الايمان في قلوبهم ، ولا جاهدوا في سبيل الله . وقد كان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وقد يكونون من اهل الكبار المعرضين للوعيد ؛ كالذين يصلون ويذكرون ويجاهدون ، ويأتون الكبار ؛ وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام ؛ بل هم مسلمون ولكن بينهم نزاع لفظي : هل يقال : انهم مؤمنون كما سئذ كرهه إن شاء الله ؟ .

وأما «الجوارح» ، «والمعتزلة» فيخرجونهم من اسم الايمان والاسلام ؛ فان الايمان والاسلام عندهم واحد ؛ فاذا خرجوا عندهم من الايمان خرجوا من الاسلام ؛ لكن الجوارح تقول : هم كفار ؛ والمعتزلة تقول : لا مسلمون ولا كفار ؛ ينزلونهم منزلة بين المنزلتين ؛ والدليل على ان الاسلام المذكور في الآية هو إسلام يثابون عليه وانهم ليسوا منافقين انه قال : (قالت الأعراب آما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) ثم قال : (وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتيكم من اعمالكم شيئاً) ؛ فدل على انهم اذا اطاعوا الله ورسوله مع هذا الاسلام ؛ آجرهم الله على الطاعة . والمنافق عمله حابط في الآخرة .

وايضاً فانه وصفهم بخلاف صفات المنافقين ، فان المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم ، وانهم يبطنون خلاف ما يظهرون ؛ كما قال تعالى : (ومن الناس

من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ؛ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا انفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً (الآيات . وقال :) اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسو الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون (فالمنافقون يصفهم في القرآن بالكذب ؛ وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وبأن في قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه ؛ وهؤلاء لم يصفهم بشيء من ذلك ، لكن لما ادعوا الايمان قال للرسول : (قل لم تؤمنوا ؛ ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) .

ونفي الايمان المطلق لا يستلزم ان يكونوا منافقين ، كما في قوله : (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) ثم قال : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا نلت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً) ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك ؛ يكون منافقاً من اهل الدرك الأسفل من النار بل لا يكون قد أتى بالايمان الواجب ، فنفي عنه كما ينفي سائر الأسماء عن ترك بعض ما يجب عليه فكذلك الأعراب لم يأتوا بالايمان الواجب ؛ فنفي عنهم لذلك وان كانوا مسلمين ، معهم من الايمان ما يثابون عليه .

وهذا حال أكثر الداخلين في الاسلام ابتداء ؛ بل حال أكثر من لم يعرف

حقائق الايمان : فان الرجل إذا قوتل حتى أسلم كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا ، او اسلم بعد الأسر او سمع بالاسلام فحجاء فأسلم ؛ فانه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل الي قلبه المعرفة بحقائق الايمان ، فان هذا انما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك ؛ إما بفهم القرآن وإما بمباشرة اهل الايمان والاقضاء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال ، وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها . والانسان قد يظهر له من محاسن الاسلام ما يدعوه الى الدخول فيه ، وان كان قد ولد عليه وترى بين اهله فانه يحبه ، فقد ظهر له بعض محاسنه وبعض مساويء الكفار .

وكثير من هؤلاء قد يرتاب إذا سمع الشبه القاذحة فيه ولا يجاهد في سبيل الله ؛ فليس هو داخلياً في قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله) وليس هو منافقاً في الباطن مضمراً للكفر ، فلا هو من المؤمنين حقاً ولا هو من المنافقين ، ولا هو ايضاً من اصحاب الكبر ، بل يأتي بالطاعات الظاهرة ولا يأتي بحقائق الايمان التي يكون بها من المؤمنين حقاً ؛ فهذا معه إيمان وليس هو من المؤمنين حقاً ويثاب على ما فعل من الطاعات ، ولهذا قال تعالى : (ولكن قولوا أسلمنا) ولهذا قال : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم ؛ بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) يعنى في قولكم : (آمنا) .

يقول : ان كنتم صادقين ، فالله يمن عليكم أن هداكم للايمان ؛ وهذا

يقتضي انهم قد يكونون صادقين في قولهم : (آمنا) . ثم صدقهم ، إما ان يراد به انصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ؛ وإما ان يراد به انهم لم يكونوا كلنا فقيين ، بل معهم إيمان وان لم يكن لهم ان يدعوا مطلق الايمان ، وهذا اشبه والله اعلم لأن النسوة المتحذات قال فيهن : (فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار) ولا يمكن نفي الريب عنهن في المستقبل ولأن الله انما كذب المنافقين ولم يكذب غيرهم ؛ وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال : (لم تؤمنوا) كما قال : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » و « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وهؤلاء ليسوا منافقين .

وسياق الآية يدل على ان الله ذمهم ، لكونهم منوا باسلامهم لجهلهم وجفائهم واطفروا ما في انفسهم مع علم الله به ؛ فان الله تعالى قال : (قل اتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الارض) فلو لم يكن في قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم ؛ فان الاسلام الظاهر يعرفه كل احد . ودخلت الباء في قوله : (اتعلمون الله بدينكم) لانه ضمن معنى يخبرون ويحدثون كأنه قال : اتخبرونه وتحدثونه بدينكم وهو يعلم ما في السموات وما في الارض . وسياق الآية يدل على ان الذي اخبروا به الله هو ما ذكره الله عنهم من قولهم : (آمنا) فانهم اخبروا عما في قلوبهم .

وقد ذكر المفسرون انه لما نزلت هاتان الآيتان ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلفون انهم مؤمنون صادقون ، فنزل قوله تعالى : (قل اتعلمون الله بدينكم) وهذا يدل على انهم كانوا صادقين اولاً في دخولهم في الدين ، لانه لم يتجدد لهم بعد نزول الآية جهاد حتى يدخلوا به في الآية ، انما هو كلام قالوه وهو سبحانه قال : (ولما يدخل الايمان في قلوبكم) ولفظ : (لما) ينفي به ما يقرب حصوله ويحصل غالباً . كقوله : (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) وقد قال السدي : نزلت هذه الآية في اعراب مزينة وجهينة واسلم ، واشجع وغفار ، وهم الذين ذكرهم الله في سورة الفتح وكانوا يقولون : آمنة بالله ليأمنوا على انفسهم ، فلما استنفروا الى الحديبية تخلفوا ؛ فنزلت فيهم هذه الآية .

وعن مقاتل : كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، وكانوا إذا حرت بهم سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنة ، ليأمنوا على دماءهم واموالهم فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه .

وقال مجاهد : نزلت في اعراب بنى أسد بن خزيمة ، ووصف غيره حالهم . فقال : قدموا المدينة في سنة مجدية ، فأظهروا الاسلام ولم يكونوا مؤمنين وافسدوا طرق المدينة بالعدرات وأغلوا اسعارهم ، وكانوا يمتنون على رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقولون: اتيناك بالأثقال والعيال، فنزلت فيهم هذه الآية، وقد قال قتادة في قوله: (يؤمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان ان كنتم صادقين) قال: منوا على النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءوا فقالوا: إنا اسلمنا بغير قتال، لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الله لئيبه: (يؤمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان).

وقال مقاتل بن حيان: هم اعراب بني اسد بن خزيمه، قالوا: يارسول الله أتيناك بغير قتال، وتركنا العشائر والأموال، وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرها في الاسلام؛ فلنا بذلك عليك حق: فأنزل الله تعالى: (يؤمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان ان كنتم صادقين). فله بذلك المن عليكم وفيهم انزل الله: (ولا تبطلوا اعمالكم)، ويقال: من الكبائر التي ختمت بنار، كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها.

وهذا كله يبين انهم لم يكونوا كفاراً في الباطن؛ ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الايمان؛ وسورة الحجرات قد ذكرت هذه الأوصاف فقال: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) ولم يصفهم بكفر ولا نفاق؛ لكن هؤلاء يخشى عليهم الكفر والنفاق، ولهذا ارتد بعضهم لأنهم لم يخالطوا الايمان بشاشة قلوبهم، وقال بعد ذلك (يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم

فاسق بنياً ففتينوا) الآية وهذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة ، وكان قد كذب فيما اخبر .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليقبض صدقاتهم ، وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فسار بعض الطريق ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنهم منعوا الصدقة وارانوا قتلي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث اليهم ، فنزلت هذه الآية . وهذه القصة معروفة من وجوه كثيرة ، ثم قال تعالى في تمامها : (واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) وقال تعالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلا فأصلحا ايديهما فان بغت إحداهما على الأخرى) الآية . ثم نهام عن ان يسخر بعضهم ببعض ، وعن المز والتناز بالألقاب وقال : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) وقد قيل : معناه : لا تسميه فاسقاً ولا كافراً بعد إيمانه ، وهذا ضعيف ، بل المراد : بئس الاسم ان تكونوا فاسقاً بعد ايمانكم ، كما قال تعالى في الذي كذب : (ان جاءكم فاسق بنياً ففتينوا) فسماه فاسقاً .

وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، يقول : فاذا سابتهم المسلم وسخرتم منه ولم ترموه استحقتهم ان تسموا فاسقاً ، وقد قال في آية القذف : (ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً واولئك هم الفاسقون) . يقول : فاذا أتيتهم بهذه الأمور التي تستحقون بها ان تسموا

فساقاً كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعدة الايمان، وإلا فهم في تنازهم ما كانوا يقولون: فاسق، كافر. فان النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضاً .

وقد قال طائفة من المفسرين في هذه الآية: لا تسميه بعد الاسلام بدنيه قبل الاسلام، كقوله لليهودي إذا أسلم: يا يهودي، وهذا مروى عن ابن عباس وطائفة من التابعين، كالحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، والقرظي، وقال عكرمة: هو قول الرجل: يا كافر! يمانفق! وقال عبد الرحمن بن زيد: هو تسمية الرجل بالأعمال، كقوله: يا زاني ياسارق يافاسق وفي تفسير العوفي عن ابن عباس قال: هو تعبير التائب بسيئات كان قد عملها، ومعلوم ان اسم الكفر، واليهودية، والزاني، والسارق وغير ذلك من السيئات ليست هي اسم الفاسق، فعلم ان قوله: (بأس الاسم الفسوق) لم يرد به تسمية المسبوب باسم الفاسق، فان تسميته كافراً اعظم، بل إن الساب يصير فاسقاً لقوله: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ثم قال: (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) فجعلهم ظالمين إذا لم يتوبوا من ذلك واز، كانوا يدخلون في اسم المؤمنين، ثم ذكر النهي عن الغيبة، ثم ذكر النهي عن التفاخر بالأحساب، وقال: (ان أكرمكم عند الله أتقاكم). ثم ذكر قول الأعراب: (آمنا).

فالسورة تهى عن هذه المعاصي والذنوب التي فيها تعد على الرسول وعلى

المؤمنين ، فالأعراب المذكورون فيها من جنس المنافقين . واهل السباب
والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وامثالهم ، ليسوا من المنافقين ، ولهذا
قال المفسرون : إثم الذين استنفروا عام الحديبية ، واولئك وان كانوا من اهل
الكبائر فلم يكونوا في الباطن كفاراً منافقين .

قال ابن اسحاق : لما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة - عمرة
الحديبية - استنفر من حول المدينة من اهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه
خوفاً من قومه ان يعرضوا له بحرب او بصد ، فتناقل عنه كثير منهم ، فهم الذين
عنى الله بقوله : (سيقول لك الخلفون من الأعراب شغلنا اموالنا واهلونا فاستغفر
لنا) اى ادع الله ان يغفر لنا تخلفنا عنك (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم)
اى ما يبالون ، استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم ، وهذا حال الفاسق الذي لا يبالي
بالذنب ، والمنافقون قال فيهم : (واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا
رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم ام لم تستغفر
لهم لن يغفر الله لهم) ولم يقل مثل هذا في هؤلاء الأعراب ، بل الآية دليل على
أنهم لو صدقوا في طلب الاستغفار نفعهم استغفار الرسول لهم ثم قال :
(ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ، فان طيعوا يؤتكم
الله اجراً حسناً وان تولوا كما توليتم من قبل يغذّبكم عذاباً أليماً) فوعدهم الله
بالثواب على طاعة الداعى الى الجهاد ، وتوعدهم بالتولي عن طاعته .

وهذا كخطاب امثالهم من اهل الذنوب والكبائر ؛ بخلاف من هو كافر

في الباطن ، فانه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الامر حتى يؤمن اولاً ، ووعيده ليس على مجرد توليه عن الطاعة في الجهاد ، فان كفره اعظم من هذا .

فهذا كله يدل على ان هؤلاء من فساق الملة ، فان الفسق يكون تارة بترك الفرائض ، وتارة بفعل المحرمات ، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد وحصل عندهم نوع من الريب الذي اضعف ايمانهم . لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم ، وان كانوا صادقين في انهم في الباطن متدينون بدين الاسلام .

وقول المفسرين : لم يكونوا مؤمنين نفي لما نفاه الله عنهم من الايمان كما نفاه عن الزاني ، والسارق ، والشارب ، وعمن لا يأمن جاره بوائقه ، وعمن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ؛ وعمن لا يجب الى حكم الله ورسوله ، وأمثال هؤلاء . وقد محتج على ذلك بقوله : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) كما قال : «سباب المسلم فسوق . وقتاله كفر» فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الايمان ؛ فدل على ان الفاسق لا يسمى مؤمناً فدل ذلك على ان هؤلاء الأعراب من جنس اهل الكبائر لا من جنس المنافقين .

واما ما نقل من انهم اسلموا خوف القتل والسبي ؛ فهكذا كان اسلام غير المهاجرين والأنصار ، أسلموا رغبة ورهبة ، كاسلام الطلقاء من قريش بعد ان قهرهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ واسلام المؤلفلة قلوبهم من هؤلاء ومن اهل نجد وليس كل من اسلم لرغبة او رهبة كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل

من النار ؛ بل يدخلون في الاسلام والطاعة وليس في قلوبهم تكذيب ومعاداة
لرسول ، ولا استنارت قلوبهم بنور الايمان ولا استبصروا فيه ؛ وهؤلاء قد
يحسن اسلام احدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطلقاء ، وقد يبقى من فساق
الملة ؛ ومنهم من يصير منافقاً مرتاباً اذا قال له منكر ونكير : ما تقول
في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه ! هاه ! لا ادري ، سمعت الناس
يقولون شيئاً فقلته .

وقد تقدم قول من قال : انهم اسلموا بغير قتال ؛ فهؤلاء كانوا احسن
اسلاماً من غيرهم ، وان الله انما ذمهم لكونهم منوا بالاسلام وانزل فيهم (ولا
تبتلوا اعمالكم) وانهم من جنس اهل الكبائر .

وأيضاً قوله : (ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) (ولما)
انما ينفي بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقباً ، كقوله : (ام حسبتم ان تدخلوا
الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقوله : (ام حسبتم ان
تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) فقوله : (ولما يدخل
الايمان في قلوبكم) يدل على ان دخول الايمان منتظر منهم ؛ فان الذي يدخل
في الاسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه الايمان ، لكنه يحصل فيما بعد
كما في الحديث : « كان الرجل يسلم اول النهار رغبة في الدنيا فلا يجيء آخر النهار
إلا والاسلام احب اليه مما طلعت عليه الشمس » . ولهذا كان عامة الذين اسلموا
رغبة ورهبة دخل الايمان في قلوبهم بعد ذلك ؛ وقوله : (ولكن قولوا اسلمنا)

أمر لهم بأن يقولوا ذلك والمنافق لا يؤمر بشيء ، ثم قال : (وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالهم شيئاً) والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولاً .

وهذه الآية مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على انه يستثنى في الايمان دون الاسلام وان اصحاب الكبائر يخرجون من الايمان الى الاسلام . قال الميموني : سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في : انا مؤمن ان شاء الله ؟ فقال : أقول : مؤمن ان شاء الله وأقول : مسلم ولا استثنى ، قال : قلت لأحمد : تفرق بين الاسلام والايمان ؟ فقال لي : نعم ، فقلت له : بأي شيء تحتج ؟ قال لي : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) ، وذكر اشياء . وقال الشالنجي : سألت أحمد عن قال : انا مؤمن عند نفسي من طريق الأحكام والمواريث ولا اعلم ما انا عند الله ؟ قال : ليس بمرجيء .

وقال ابو ايوب سليمان بن داود الهاشمي : الاستثناء جائز ، ومن قال : انا مؤمن حقاً ، ولم يقل : عند الله ، ولم يستثن : فذلك عندي جائز وليس بمرجيء . وبه قال ابو خيثمة وابن ابي شيبة ؛ وذكر الشالنجي انه سأل أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده ، اي يطلب الذنب بجهده ، الا انه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم ؛ هل يكون مصرأ من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر مثل قوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » يخرج من الايمان ، ويقع في الاسلام ، ومن نحو قوله : « ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا

يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » ومن نحو قول ابن عباس في قوله :
(ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون) فقلت له : ما هذا الكفر ؟
قال : كفر لا ينقل عن الملة ، مثل الايمان بعرضه دون بعض ؛ فكذلك الكفر
حتى يجيء من ذلك امر لا يختلف فيه . وقال ابن ابي شيبة : « لا يزني الزاني حين
يزني وهو مؤمن » : لا يكون مستكمل الايمان ، يكون ناقصاً من ايمانه .

قال الشالنجي : وسألت احمد عن الايمان والاسلام . فقال : الايمان قول
وعمل ؛ والاسلام : اقرار ، قال : وبه قال أبو خزيمة . وقال ابن ابي شيبة :
لا يكون اسلام الا بايمان ولا ايمان الا باسلام ؛ واذا كان على المخاطبة فقال : قد
قبلت الايمان ، فهو داخل في الاسلام ؛ واذا قال : قد قبلت الاسلام فهو داخل
في الايمان . وقال محمد بن نصر المروزي : وحكي غير هؤلاء انه سأل احمد
ابن حنبل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو
مؤمن » فقال : من أتى هذه الأربعة او مثلهن او فوقهن فهو مسلم ، ولا
اسميه مؤمناً ، ومن أتى دون ذلك ، يريد دون الكبائر ، اسمه مؤمناً
ناقص الايمان .

قلت : احمد بن حنبل كان يقول تارة بهذا الفرق ، وتارة كان يذكر
الاختلاف ويتوقف ، وهو المتأخر عنه ، قال ابو بكر الأثرم في « السنة » سمعت
أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء في الايمان ما تقول فيه ؟ فقال : اما أنا فلا اعيبه
أي من الناس من يعيبه . قال ابو عبد الله : إذا كان يقول : ان الايمان قول

وعمل يزيد وينقص ، فاستثنى مخافة واحتياطاً ، ليس كما يقولون على الشك : إنما يستثنى للعمل . قال ابو عبد الله : قال الله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) أي ان هذا استثناء بغير شك ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في اهل القبور : « وانا ان شاء الله بكم لاحتمون » اي لم يكن يشك في هذا ، وقد استثناء وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « وعليها نبعث ان شاء الله » يعني من القبر وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اني لأرجو ان أكون اخشاكم لله » قال : هذا كله تقوية للاستثناء في الايمان .

قلت لأبي عبد الله : وكأنك لا ترى بأساً ان لا يستثنى . فقال : إذا كان ممن يقول الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ؛ فهو اسهل عندي ؛ ثم قال ابو عبد الله : إن قوماً تضعف قلوبهم عن الاستثناء ، كالتعجب منهم ، وسمعت أبا عبد الله وقيل له : شبابة اي شيء تقول فيه ؟ فقال : شبابة كان يدعي الارضاء ، قال : وحكي عن شبابة قول أخبث من هذه الأقاويل ، ما سمعت عن احد بمثله ؛ قال أبو عبد الله : قال شبابة : إذا قال : فقد عمل بلسانه كما يقولون فاذا قال فقد عمل بجارحته ، اي بلسانه حين تكلم به ؛ ثم قال ابو عبد الله : هذا قول خبيث ما سمعت احداً يقول به ولا بلغني ، قيل لأبي عبد الله : كنت كتبت عن شبابة شيئاً ؟ فقال : نعم كنت كتبت عنه قديماً يسيراً قبل ان نعلم انه يقول بهذا ، قلت لأبي عبد الله : كتبت عنه بعد ؟ قال : لا ولا حرف ، قيل لأبي عبد الله : يزعمون ان سفیان كان يذهب الى الاستثناء في الايمان . فقال : هذا مذهب سفیان ، المعروف به الاستثناء ، قلت لأبي عبد الله : من يرويه عن

سفيان فقال كل من حكي عن سفيان في هذا حكاية كان يستثنى ، قال وقال
وكيع عن سفيان : الناس عندنا مؤمنون في الأحكام والمواريث ؟ ولا تدري ما هم
عند الله قلت لأبي عبد الله : فأنت بأي شيء تقول ؟ فقال : نحن نذهب
إلى الاستثناء .

قلت لأبي عبد الله : فأما إذا قال : انا مسلم فلا يستثنى ؟ فقال : نعم لا يستثنى
إذا قال : انا مسلم : قلت لأبي عبد الله : أقول : هذا مسلم ، وقد قال النبي صلى
الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وأنا أعلم أنه لا يسلم
الناس منه ، فذكر حديث معمر عن الزهري : فترى أن الاسلام الكلمة
والإيمان العمل ، قال ابو عبد الله : حدثناه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري
قيل لأبي عبد الله : فنقول : الإيمان يزيد وينقص ؟ فقال : حديث النبي صلى
الله عليه وسلم يدل على ذلك ، فذكر قوله « أخرجوا من النار من كان في قلبه
مثقال كذا ، أخرجوا من كان في قلبه مثقال كذا » فهو يدل على ذلك وذكر
عند أبي عبد الله عيسى الأحمر ، وقوله في الأرجاء فقال : نعم وذلك خيث القول
وقال أبو عبد الله : حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن زيد ، سمعت هشاماً يقول :
كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم . وسهبا بن : مؤمن .

قلت لأبي عبد الله : رواه غير سويد ؟ قال : ما علمت بذلك ، وسمعت
أبا عبد الله يقول : الإيمان قول وعمل . قلت لأبي عبد الله : فالحديث الذي
يروى « اعتقها فانها مؤمنة » قال : ليس كل احد يقول : إنها مؤمنة يقولون
اعتقها . قال : ومالك سمعه من هذا الشيخ هلال بن علي لا يقول « فانها مؤمنة »

وقد قال بعضهم بأنها مؤمنة ، فهي حين تقر بذلك فحكمها حكم المؤمنة ، هذا معناه . قلت لأبي عبد الله : تفرق بين الايمان والاسلام ؟ فقال : قد اختلف الناس فيه ، وكان حماد بن زيد - زعموا - يفرق بين الايمان والاسلام ، قيل له : من المرجة ؟ قال : الذين يقولون : الايمان قول بلا عمل

قلت : فأحمد بن حنبل لم يرد قط انه سلب جميع الايمان فلم يبق معه منه شيء ، كما تقولوا الخوارج والمعتزلة ، فانه قد صرح في غير موضع : بأن اهل الكبار معهم ايمان يخرجون به من النار ، واحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » وليس هذا قوله ولا قول احد من أئمة اهل السنة ، بل كلهم متفقون على ان الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شيء من الايمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين ، لكن اذا كان معه بعض الايمان لم يلزم ان يدخل في الاسم المطلق الممدوح ، وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ؛ وقال : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه » وقال : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » واقسم على ذلك مرات وقال : « المؤمن من امنه الناس على دماهم واموالهم » .

و «المعتزلة» ينفون عنه اسم الايمان بالكلية ، واسم الاسلام ايضاً ، ويقولون : ليس معه شيء من الايمان والاسلام ، ويقولون : نزله منزلة بين منزلتين ، فهم يقولون : إنه يخلد في النار لا يخرج منها بالشفاعة ، وهذا هو الذي انكر عليهم

وإلا لوقفوا مطلق الاسم واثبتوا معه شيئاً من الإيمان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة . وكل اهل السنة متفقون على انه قد سلب كمال الايمان الواجب فزال بعض ايمانه الواجب لكنه من اهل الوعيد ، وانما ينازع في ذلك من يقول : الايمان لا يتبعض من الجهمية والمرجئة فيقولون : انه كامل الايمان ، فالذي ينفي اطلاق الاسم يقول : الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب ، كقولنا : متق ، وبر ، وعلى الصراط المستقيم ، فاذا كان الفاسق لا تطلق عليه هذه الاسماء ، فكذلك اسم الايمان ، واما دخوله في الخطاب ، فلأن المخاطب باسم الايمان كل من معه شيء منه ، لأنه امر لهم ، فمعاصيهم لا تسقط عنهم الأمر .

وأما ما ذكره احمد في الاسلام ، فاتبع فيه الزهري حيث قال : فكانوا يرون الاسلام الكلمة ، والايمان العمل ، في حديث سعد بن ابى وقاص ، وهذا على وجهين ، فانه قد يراد به الكلمة بتوابعها من الاعمال الظاهرة ، وهذا هو الاسلام الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « الاسلام : ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » وقد يراد به الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة ، وليس هذا هو الذي جعله النبي صلى الله عليه وسلم للاسلام . لكن قد يقال : اسلام الاعراب كان من هذا ، فيقال . الاعراب وغيرهم كانوا اذا اسلموا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ألزموا بالاعمال الظاهرة : الصلاة ، والزكاة ، والصيام . والحج ، ولم يكن احد يترك بمجرد الكلمة ، بل كان من اظهر المعصية يعاقب عليها .

واحد ان كان اراد في هذه الرواية ان الاسلام هو الشهادتان فقط ، فكل من قالها فهو مسلم ، فهذه احدى الروايات عنه ، والرواية الاخرى : لا يكون مسلماً حتى يأتي بها ويصلى ، فاذا لم يصل كان كافراً . و « الثالثة » انه كافر بترك الزكاة ايضاً . و « الرابعة » انه يكفر بترك الزكاة اذا قاتل الامام عليها دون ما اذا لم يقاتله ، وعنه انه لو قال : انا اؤديها ولا ادفعها الى الامام ، لم يكن للامام ان يقتله ، وكذلك عنه رواية انه يكفر بترك الصيام والحج ، اذا عزم انه لا يحج ابداً . ومعلوم انه على القول بكفر تارك المباني يمتنع ان يكون الاسلام مجرد الكلمة ، بل المراد انه اذا آتى بالكلمة دخل في الاسلام ، وهذا صحيح ، فانه يشهد له بالا سلام ولا يشهد له بالايمان الذي في القلب ، ولا يستثنى في هذا الاسلام ، لانه امر مشهور ، لكن الاسلام الذي هو اداء الخمس كما امر به يقبل الاستثناء ، فالاسلام الذي لا يستثنى فيه الشهادتان باللسان فقط فانها لا تزيد ولا تنقص فلا استثناء فيها .

وقد صار الناس في مسمى الاسلام على « ثلاثة اقوال » : قيل : هو الايمان ، وهما اسمان لمسمى واحد . وقيل : هو الكلمة ، وهذان القولان لهما وجه سند كره ، لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمان ، ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة ، والايمان بالايمان بالاصول الخمسة ، فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان ان نجيب بغير ما اجاب به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ واما اذا افرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام ؛ واذا افرد الاسلام ؛ فقد يكون مع الاسلام مؤمناً بلا نزاع ؛ وهذا

هو الواجب ، وهل يكون مسلماً ولا يقال له : مؤمن ؟ قد تقدم الكلام فيه .
وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان ؟ هذا فيه النزاع المذكور وسنينه ،
والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب انما هو معلق باسم الايمان
واما اسم الاسلام مجرداً فما علق به في القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه واخبر
انه دينه الذي لا يقبل من احد سواه .

وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى : (ومن يتبع غير الاسلام
ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وقال : (إن الدين عند الله
الاسلام) وقال نوح : (يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله
فعلى الله توكلت فأجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمّة ثم اقضوا
اليّ ولا تتظرون ، فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجري الا على الله واحرت
ان اكون من المسلمين) وقد اخبر انه لم ينبج من العذاب الا المؤمنون فقال :
(قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن
آمن وما آمن معه الا قليل) وقال : (واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك
الا من قد آمن) وقال نوح : (وما انا بطارد الذين آمنوا) .

وكذلك اخبر عن ابراهيم ان دينه الاسلام فقال تعالى : (ومن يرغب عن
ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن
الصالحين ، اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ، ووضي بها ابراهيم
بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون)

وقال: (ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم خيفاً واتخذ الله ابراهيم خيلاً) وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال : (بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) كما علقه بالإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح في قوله: (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وهذا يدل على ان الاسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذي امر الله به هو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان ، فان الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب ، وانتفاء العقاب ، فان انتفاء الخوف علة تقتضي انتفاء ما يخافه ؛ ولهذا قال : (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لم يقل : لا يخافون فهم لا خوف عليهم وان كانوا يخافون الله ونفى عنهم ان يحزنوا لأن الحزن انما يكون على ماض ، فهم لا يحزنون بحال لا في القبر ولا في عرصات القيامة ، بخلاف الخوف فانه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولا خوف عليهم في الباطن كما قال تعالى : (الا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

واما «الاسلام المطلق المجرد» فليس في كتاب الله تعليق دخول الجنة به كما في كتاب الله تعليق دخول الجنة بالايمان المطلق المجرد ، كقوله : (سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض اعدت للذين آمنوا بالله

ورسله) وقال : (وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم) . وقد وصف الخليل ومن اتبعه بالايمان كقوله : (فآمن له لوط) ووصفه بذلك فقال : (فأى الفريقين احق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) ووصفه بأعلى طبقات الايمان ، وهو افضل البرية بعد محمد صلى الله عليه وسلم . والخليل انما دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال : (وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) وقال : (واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسامة لك) (وقال موسى : يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) بعد قوله : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأه ان يفقتهم) وقال : (واوحينا الى موسى واخيه ان تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة واقموا الصلاة وبشر المؤمنين) وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمسلمين في قوله : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) .

وقد وصف الله السحرة بالاسلام والايمان معاً فقالوا : (آمنا رب العالمين ، رب موسى وهارون) وقالوا : (وما تقم منا إلا ان آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا) وقالوا : (إنا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا اول المؤمنين) وقالوا : (ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) . ووصف الله انبياء بني اسرائيل بالاسلام في قوله : (إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها

النبيون الذين اسلموا للذين هادوا) والأنبياء كلهم مؤمنون . ووصف الحواريين بالايمان والاسلام فقال تعالى : (واذا وحيت الى الحواريين ان آمنوا بي ورسولي قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون) و (قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) .

وحقيقة الفرق ان الاسلام دين . و « الدين » مصدر دان يدين ديناً : إذا خضع وذل ، و « دين الاسلام » الذي أرتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده : فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ماسواه . فمن عبده ، وعبد معه إلهاً آخر ، لم يكن مسلماً ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً . والاسلام هو الاستسلام لله . وهو الخضوع له ، والعبودية له ، هكذا قال اهل اللغة : اسلم الرجل إذا استسلم : فالاسلام في الأصل من باب العمل ، عمل القلب والجوارح .

وأما الايمان فأصله تصديق وقرار ومعرفة ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ؛ والأصل فيه التصديق ، والعمل تابع له ، فلهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم « الايمان » بايمان القلب وبخضوعه ، وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر « الاسلام » باستسلام مخصوص ، هو المباني الخمس . وهكذا في سائر كلامه صلى الله عليه وسلم : يفسر الايمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا ، وذلك النوع أعلى . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « الاسلام علانية والايمان في القلب » فان الأعمال الظاهرة يراها الناس ، واما

ما في القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن ؛ لكن لهلوازم قد تدل عليه ، واللازم لا يدل إلا اذا كان ملزوماً ، فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق ، فلا يدل^(١) . ففي حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة جميعاً ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من امنه الناس على دماءهم وأموالهم» ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه ، وفسر المؤمن بأمر باطن وهو ان يأمنوه على دماءهم وأموالهم وهذه الصفة اعلى من تلك ، فان من كان مأموناً سلم الناس منه ؛ وليس كل من سلموا منه يكون مأموناً ، فقد يترك اذا هم وهم لا يأمنون اليه ، خوفاً ان يكون ترك اذا هم لرغبة ورهبة ؛ لا لايمان في قلبه .

وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما الاسلام ؛ قال « اطعام الطعام . ولين الكلام » قال : فما الايمان قال « السماحة والصبر » فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الانسان لمقاصد متعددة ، وكذلك لين الكلام ، واما السماحة والصبر فخلقان في النفس . قال تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة) وهذا أعلى من ذلك ، وهو ان يكون صباراً شكوراً فيه سماحة بالرحمة للانسان وصبر على المكروه ، وهذا ضد الذي خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً ، واذا مسه الخير منوعاً ؛ فان ذلك ليس فيه سماحة عند النعمة ، ولا صبر عند المصيبة .

(١) يباخر بالأصل .

وتمام الحديث : فأبي الاسلام أفضل ؟ قال « من سلم المسلمون من لسانه ويده » قال : يا رسول الله اى المؤمنين اكمل ايماناً ؟ قال « احسنهم خلقاً » قال : يا رسول الله اى القتل اشرف ؟ قال « من اريق دمه وعقر جواده » قال يا رسول الله فأبى الجهاد افضل ؟ قال « الذين جاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله » قال يا رسول الله فأبى الصدقة افضل ؟ قال « جهد المقل » قال يا رسول الله فأبى الصلاة افضل ؟ قال « طول القنوت » قال يا رسول الله فأبى الهجرة افضل ؟ قال « من هجر السوء » وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير ، تارة يروى مرسلأ ، وتارة يروى مسندأ ، وفى رواية : اى الساعات أفضل ؟ قال « جوف الليل الغابر » وقوله : « افضل الايمان السباحة والصبر » يروى من وجه آخر عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه احمد عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده انه قال : والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد اصابعي هذه أن لا آتيتك ، فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : الاسلام . قال : وما الاسلام ؟ قال « ان تسلم قلبك لله وان توجه وجهك الى الله ، وان تصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، اخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد اسلامه » وفى رواية قال « ان تقول : اسلمت وجهي لله وتخلت وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم » وفى لفظ تقول « اسلمت نفسي لله وخلت وجهي اليه » وروى محمد بن نصر من حديث خالد

ابن معدان عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان للاسلام صوى ومناراً كمنار الطريق ، من ذلك ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً . وان تقيم الصلاة . وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتسلم على بني آدم اذا لقيتهم ، فان ردوا عليك ، ردت عليك وعليهم الملائكة ، وان لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتم ان سكت عنهم وتسليمك على اهل بيتك اذا دخلت عليهم ، فمن انتقص منهن شيئاً فهو سهم في الاسلام تركه . ومن تركهن فقد نبذ الاسلام وراء ظهره . »

وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) قال مجاهد : وقتادة : نزلت في المسلمين بأمرهم بالدخول في شرائع الاسلام كلها ، وهذا لا يناق قول من قال : نزلت فيمن أسلم من اهل الكتاب او فيمن لم يسلم ، لأن هؤلاء كلهم مأمورون ايضاً بذلك ، والجمهور يقولون : (في السلم) اي في الاسلام ، وقالت طائفة : هو الطاعة ، وكلاهما مأثور عن ابن عباس ، وكلاهما حق ، فان الاسلام هو الطاعة كما تقدم انه من باب الأعمال . واما قوله : (كافة) فقد قيل : المراد ادخلوا كلكم . وقيل : المراد به ادخلوا في الاسلام جميعه ، وهذا هو الصحيح ، فان الانسان لا يؤمر بعمل غيره ، وانما يؤمر بما يقدر عليه ، وقوله : (ادخلوا) خطاب لهم كلهم فقوله (كافة) إن اريد به مجتمعين لزم ان يترك الانسان الاسلام حتى يسلم غيره فلا يكون الاسلام مأموراً به إلا بشرط موافقة الغير له كالجمعة ، وهذا لا يقوله مسلم ، وإن اريد بكافة : اي ادخلوا جميعكم ، فكل او امر القرآن كقوله : (آمنوا بالله ورسوله) (واقموا الصلاة

وآتوا الزكاة) كلهما من هذا الباب ، وما قيل فيها كافة ، وقوله تعالى : (قاتلوا المشركين كافة) اى قاتلوهم كلهم لا تدعوا مشركاً حتى تقاتلوه ، فانها أزلت بعد نبذ اليهود ، ليس المراد : قاتلوهم مجتمعين او جميعكم ، فان هذا لا يجب ، بل يقاتلون بحسب المصلحة ، والجهاد فرض على الكفاية ، فاذا كانت فرائض الأعيان لم يؤكد المأمورين فيها بكافة ، فكيف يؤكد بذلك في فروض الكفاية؟! وانما المقصود تعميم المقاتلين . وقوله : (كما يقاتلونكم كافة) فيه احتمالان .

والمقصود ان الله امر بالدخول في جميع الاسلام كما دل عليه هذا الحديث ، فكل ما كان من الاسلام وجب الدخول فيه ، فان كان واجباً على الأعيان لزمه فعله ، وان كان واجباً على الكفاية اعتقد وجوبه ، وعزم عليه إذا تعين ، واخذ بالفضل ففعله ، وإن كان مستحباً اعتقد حسنه واحب فعله ، وفي حديث جرير أن رجلاً قال : يارسول الله صف لي الاسلام . قال : « تشهد ان لا اله الا الله وتقر بما جاء من عند الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» قال : أقررت ؛ في قصة طويلة فيها انه وقع في أخاقيق جردان ، وانه قتل وكان جائعاً وملكان يدسان في شدقه من ثمار الجنة . فقوله : « وتقر بما جاء من عند الله» هو الاقرار بأن محمداً رسول الله فانه هو الذي جاء بذلك .

وفي الحديث الذي يرويه ابو سليمان الداراني : حديث الوفد الذين قالوا: نحن المؤمنون ، قال : «فما علامة ايمانكم ؟» قالوا : خمس عشرة خصلة : خمس أمرتارسلك ان نعمل بهن ، وخمس أمرتارسلك ان

تؤمن بهن ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية ونحن عليها في الاسلام إلا ان تكره منها شيئاً . قال : « فما الخمس التي أمرتكم رسي ان تعملوا بها » ؟ قالوا : أن نشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت . قال : « وما الخمس التي أمرتكم ان تؤمنوا بها » ؟ قالوا : أمرتنا ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، قال : « وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية وثبتتم عليها في الاسلام ؟ » قالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضى بمر القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشهامة بالأعداء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « علماء حكما كادوا من صدقهم ان يكونوا انبياء » . فقال صلى الله عليه وسلم : « وانا أزيدكم خمساً فتم لكم عشرون خصلة : ان كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوا مالا تاكلون ، ولا تبسوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء اتم عنه غدا تزولون وعنه منتقلون ، واتقوا الله الذي اليه ترجعون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون » .

فقد فرقوا بين الخمس التي يعمل بها فجعلوها الاسلام ؛ والخمس التي يؤمن بها فجعلوها الايمان ؛ وجميع الأحاديث المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم تدل على مثل هذا .

وفي الحديث الذي رواه احمد من حديث ايوب عن ابي قلابة عن رجل من اهل الشام عن ابيه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « أسلم تسلم » قال .

وما الاسلام قال : « ان تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك »
قال : فأبي الاسلام أفضل ؟ قال : « الايمان » قال : وما الايمان ؟ قال : « ان تؤمن
بالله وملائكته وكتبه ورساله وبالبعث بعد الموت » قال : فأبي الايمان افضل ؟ قال :
« الهجرة » قال : وما الهجرة ؟ قال : « ان تهجر السوء » قال : فأبي
الهجرة افضل ؟ قال : الجهاد قال : وما الجهاد ؟ قال : « ان تجاهد
الكفار اذا لقيتهم ولا تغل ولا تجبن » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
« ثم عملان هما افضل الأعمال الا من عمل بمثلهما » قالها ثلاثاً : « حجة
مبرورة : او عمرة » وقوله : « هما أفضل الأعمال » أى بعد الجهاد ؛ لقوله . « ثم
عملان » ، ففي هذا الحديث جعل الايمان خصوصاً فى الاسلام ، والاسلام
اعم منه ، كما جعل الهجرة خصوصاً فى الايمان والايمان اعم منه ، وجعل الجهاد
خصوصاً من الهجرة والهجرة اعم منه . فالاسلام ان تعبد الله وحده لا شريك
له مخلصاً له الدين .

وهذا دين الله الذي لا يقبل من احد ديناً غيره لا من الأولين ولا من
الآخرين ، ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل الينا إلا بما امرت به رساله ،
لا بما يضاد ذلك فان ضد ذلك معصية ، وقد ختم الله الرسل بمحمد صلى الله
عليه وسلم فلا يكون مسلماً إلا من شهد ان لا إله الا الله وان محمداً عبده
ورسوله ، وهذه الكلمة بها يدخل الانسان فى الاسلام . فمن قال : الاسلام
الكلمة واراد هذا فقد ضنق ، ثم لا بد من التزام ما امر به الرسول من
الأعمال الظاهرة ، كالبانى الخمس ، ومن ترك من ذلك شيئاً نقص إسلامه

بقدر ما نقص من ذلك ، كما في الحديث : من انتقص منهن شيئاً فهو سهم من الاسلام تركه .»

وهذه الأعمال اذا عملها الانسان مخلصاً لله تعالى فانه يثيبه عليها ، ولا يكون ذلك الا مع اقراره بقلبه انه لا اله الا الله وان محمداً رسول الله فيكون معه من الايمان هذا الاقرار ، وهذا الاقرار لا يستلزم ان يكون صاحبه معه من اليقين ما لا يقبل الريب ، ولا أن يكون مجاهداً ولا سائر ما يتميز به المؤمن عن المسلم الذي ليس بمؤمن ، وخلق كثير من المسلمين باطنياً وظاهراً معهم هذا الاسلام بلوازمه من الايمان . ولم يصلوا إلى اليقين والجهاد ، فهؤلاء يثابون على إسلامهم وإقرارهم بالرسول جملاً ، وقد لا يعرفون أنه جاء بكتاب ، وقد لا يعرفون أنه جاءه ملك ، ولا أنه أخبر بكذا ، واذا لم يبلغهم أن الرسول أخبر بذلك لم يكن عليهم الاقرار المفصل به ، لكن لا بد من الاقرار بأنه رسول الله وانه صادق في كل ما يخبر به عن الله .

ثم الايمان الذي يمتاز به فيه تفصيل وفيه طمأنينة ويقين ، فهذا متميز بصفته وقدره في الكمية والكيفية ، فان اولئك معهم من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله وتفصيل المعاد والقدر ما لا يعرفه هؤلاء .

وأيضاً ففي قلوبهم من اليقين والثبات ولزوم التصديق لقلوبهم ما ليس مع هؤلاء وأولئك هم المؤمنون حقاً . وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلماً ؛ فان الايمان يستلزم الأعمال ، وليس كل مسلم مؤمناً هذا الايمان المطلق ، لأن

الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الايمان الخاص ، وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله ، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، ولكن دخول حقيقة الايمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك ، وإلا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شككوا الشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، وليسوا كفاراً ولا منافقين ، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفة ويقينه ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة . وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبتهم ، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق .

وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من اهل الوعيد ، ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اسلم عامة اهلها ، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق . فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لما اتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم . قال تعالى : (الم ، احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال تعالى : (ما كان الله لينذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) وقال : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمان به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه

خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الحسران المين) ولهذا ذم الله المنافقين بأنهم دخلوا في الإيمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى: (والله يشهد ان المنافقين لكاذبون اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) - الى قوله - (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) وقال في الآية الأخرى (يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة) - الى قوله - (قل ابا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ، ان نعف عن طائفة منكم نعدب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) فقد امره ان يقول لهم : قد كفرتم بعد ايمانكم .

وقول من يقول عن مثل هذه الآيات : انهم كفروا بعد ايمانهم بلسانهم مع كفرهم اولاً بقلوبهم ، لا يصح ، لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد ايمانكم ، فانهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر ، وان اريد انكم اظهرتم الكفر بعد اظهاركم الإيمان ، فهم لم يظهروا للناس الا لحواصهم ، وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا ؛ بل لما نافقوا وحذروا ان تنزل سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق ، وتكلموا بالاستهزاء ، صاروا كافرين بعد ايمانهم ، ولا يدل اللفظ على انهم ما زالوا منافقين ، وقد قال تعالى : (يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواجم جهنم وبئس المصير ، يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نعموا الا ان اغنم الله ورسوله من فضله ، فان يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً اليماً في الدنيا والآخرة) فهنا قال : (وكفروا بعد اسلامهم) .
فهذا الاسلام قد يكون من جنس اسلام الأعراب فيكون قوله : (بعد

إيمانهم) وبعد إسلامهم سواء ، وقد يكونون ما زالوا منافقين ، فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الإيمان شيء . لكنهم اظهروا الكفر والردة : وهذا دعاءهم الى التوبة فقال : (فان يتوبوا بك خير لهم وان يتولوا) بعد التوبة عن التوبة (يعذبهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة) وهذا إنما هو لمن اظهر الكفر ، فيجاهده الرسول باقامة الحد والعقوبة . ولهذا ذكر هذا في سياق قوله : (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ولهذا قال في تمامها : (وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) .

وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد إسلامهم غير الذين كفروا بعد إيمانهم فان هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا ، وقد قالوا كلمة الكفر التي كفروا بها بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا . وهو يدل على أنهم سعوا في ذلك ، فلم يصلوا إلى مقصودهم : فانه لم يقل : هموا بما لم يفعلوا ، لكن (بما لم ينالوا) فصدر منهم قول وفعل ، قال تعالى : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) فاعترفوا واعتذروا ؛ ولهذا قيل : (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) فدل على أنهم لم يكونوا عند انفسهم قد اتوا كفراً ، بل ظنوا ان ذلك ليس بكفر ، فيبين ان الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه ، فدل على انه كان عندم إيمان ضعيف ، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا انه محرم ، ولكن لم يظنوه كفراً ، وكان كفراً كفروا به ، فانهم لم يعتقدوا جوازه ، وهكذا قال غير واحد من السلف

في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في سورة البقرة أنهم ابصروا ثم عموا ،
وعرفوا ثم انكروا ، وآمنوا ثم كفروا . وكذلك قال قتادة ومجاهد : ضرب
المثل لاقبالهم على المؤمنين ؛ وسماعهم ماجاء به الرسول . وذهب نورهم ،
قال : (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله
بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون) الى
ما كانوا عليه .

واما قول من قال : المراد بالنور ، ما حصل في الدنيا من حقن دماهم
واموالهم فاذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب صاحب النار ضوءه ؛ فلفظ الآية،
يدل على خلاف ذلك ، فانه قال : (وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم
عمى فهم لا يرجعون). ويوم القيامة يكونون في العذاب كما قال تعالى : (يوم
يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا
وراءكم فاتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من
قباه العذاب . ينادونهم الم نكن معكم ؛ قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم) الآية
وقد قال غير واحد من السلف : ان المنافق يعطى يوم القيامة نوراً ثم يطفأ ،
ولهذا قال تعالى : (يوم لا ينجزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين
ايديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا) .

قال المفسرون : اذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ ، سألوا الله ان يتم
لهم نورهم ويبلغهم به الجنة .

قال ابن عباس : ليس أحد من المسلمين ، إلا يعطى نوراً يوم القيامة ؛ فأما المنافق فيطفأ نوره ، وأما المؤمن فيشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : (ربنا أتم لنا نورنا) ، وهو كما قال : فقد ثبت في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة وأبي سعيد - وهو ثابت من وجوه آخر - عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها - ومن حديث أبي موسى في الحديث الطويل الذي يذكر فيه انه ينادى يوم القيامة : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ؛ فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك ، وهذا مكاتنا حتى يأتينا ربنا . فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم : فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه . » وفي رواية : « فيكشف عن ساقه » : وفي رواية فيقول : « هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون : نعم . فيكشف عن ساقه ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا اذن له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما اراد ان يسجد خر على قفاه . فتبقي ظهورهم مثل صياحي البقر فيرفعون رؤوسهم فإذا نورهم بين ايديهم وبأيمانهم ويطفأ نور المنافقين فيقولون ذرونا نقبس من نوركم » .

فين ان المنافقين يحشرون مع المؤمنين في الظاهر ، كما كانوا معهم في الدنيا ثم وقت الحقيقة ، هؤلاء يسجدون لرهبهم ، وأولئك لا يتمكنون من السجود .

فانهم لم يسجدوا في الدنيا له ، بل قصدوا الرياء للناس ، والجزاء في الآخرة هو من جنس العمل في الدنيا ، فلماذا اعطوا نوراً ثم طغى ، لأنهم في الدنيا دخلوا في الأيمان ، ثم خرجوا منه . ولهذا ضرب الله لهم المثل بذلك . وهذا المثل ، هو لمن كان فيهم آمن ثم كفر ، وهؤلاء الذين يعطون في الآخرة نوراً ثم يطفأ .

ولهذا قال : (فهم لا يرجعون) الى الاسلام في الباطن وقال قتادة ومقاتل : لا يرجعون عن ضلالهم ، وقال السدي : لا يرجعون إلى الاسلام ، يعنى في الباطن ، وإلا فهم يظهرونه ، وهذا المثل إنما يكون في الدنيا ، وهذا المثل مضروب لبعضهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا . واما الذين لم يزالوا منافقين ف ضرب لهم المثل الآخر ، وهو قوله : (او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) وهذا اصح القولين . فان للفسرين اختلفوا ، هل المثلان مضروبان لهم كلهم ، او هذا المثل لبعضهم ؟ على « قولين » . و « الثاني » هو الصواب لأنه قال : (او كصيب) وانما يثبت بها احد الأمرين ؛ فدل ذلك على أنهم مثلهم هذا وهذا ، فانهم لا يخرجون عن المثلين بل بعضهم يشبه هذا وبعضهم يشبه هذا ، ولو كانوا كلهم يشبهون المثلين لم يذكر (او) بل يذكر الواو العاطفة .

وقول من قال : (او) ههنا للتخير - كقولهم : جالس الحسن او ابن سيرين - ليس بشيء ، لأن التخير يكون في الأمر والطلب لا يكون في الخبر ، وكذلك قول من قال : (او) بمعنى الواو او لتشكيك المخاطبين ،

او الابهام عليهم ليس بشيء . فان الله يريد بالأمثال البيان والتفهيم ، لا يريد التشكيك والابهام .

والمقصود تفهيم المؤمنين حالهم وبدل على ذلك انه قال في « المثل الاول » :
(صم بكم عمي) وقال في « الثاني » : (يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق
حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما أضاء لهم
مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم إن الله
على كل شيء قدير) فبين في « المثل الثاني » انهم يسمعون ويبصرون ولو شاء
الله لذهب بسمعهم وابصارهم ، وفي « الأول » كانوا يبصرون ثم صاروا في ظلمات
لا يبصرون ، صم بكم عمي . وفي « الثاني » إذا أضاء لهم البرق مشوا فيه واذا
أظلم عليهم قاموا ، فلهم « حالان » : حال ضياء وحال ظلام ، والأولون
بقوا في الظلمة . فالأول حال من كان في ضوء فصار في ظلمة ، والثاني
حال من لم يستقر لافي ضوء ولا في ظلمة ، بل تختلف عليه الأحوال التي
توجب مقامه واستراتبه .

يبين هذا انه سبحانه ضرب للكفار ايضاً مثلين بحرف (او) فقال :
(والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده
شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، او كظلمات في بحر
لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا
اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) « فالأول »

مثل الكفر الذي يحسب صاحبه انه على حق وهو على باطل ، كمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فانه لا يعلم ولا يعلم انه لا يعلم ؛ فلهذا مثل بسراب ببيعة و « الثانى » مثل الكفر الذي لا يعتقد صاحبه شيئاً ، بل هو فى ظلمات بعضها فوق بعض من عظم جهاه لم يكن معه اعتقاد انه على حق ؛ بل لم يزل جاهلاً ضالاً فى ظلمات متراكمة .

و « ايضاً » فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفاً بهذا الوصف وتارة متصفاً بهذا الوصف ، فيكون التقسيم فى المثلى لتتوع الأشخاص ولتتوع احوالهم ، وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل هو مماثل لما ضرب له هذا المثل لاختلاف المثلى صورة ومعنى ، ولهذا لم يضرب للايمان إلا مثل واحد ، لأن الحق واحد فضرب مثله بالنور ، واولئك ضرب لهم المثل بضوء لا حقيقة له . كالسراب بالبيعة او بالظلمات المتراكمة ، وكذلك المنافق يضرب له المثل بمن ابصر ثم عمي ، او هو مضطرب يسمع ويبصر ما لا ينتفع به . فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطناً ، وهذا مما استفاض به النقل عند اهل العلم بالحديث والتفسير والسير انه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا ، وكان يجري ذلك لأسباب :

منها أمر القبلة لما حولت ارتد عن الايمان لأجل ذلك طائفة ، وكانت محنة امتحن الله بها الناس . قال تعالى : (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله)

قال : أي اذا حولت ؛ والمعنى ان الكعبة هي القبلة التي كان في عامنا ان نجعلها قبلتكم ؛ فان الكعبة ومسجدها وحرمة افضل بكثير من بيت المقدس وهي البيت العتيق ، وقبلة ابراهيم وغيره من الانبياء ، ولم يأمر الله قط احداً ان يصلي الى بيت المقدس ، لا موسى ولا عيسى ولا غيرها ؛ فلم نكن لنجعلها لك قبلة دائماً ، ولكن جعلناها اولاً قبلة لمتحن بتحويلك عنها الناس فيتين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، فكان في شرعها هذه الحكمة .

وكذلك ايضاً لما انهزم المسلمون يوم احد وشج وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته ، ارتد طائفة نافقوا قال تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنوا واتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسخم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وللمحصى الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) ، وقال تعالى : (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، ثم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله اعلم بما يكتمون) فقوله : (وليعلم الذين نافقوا) ظاهر فيمن احدث نفاقاً وهو يتناول من لم يوافق قبل ، ومن نافق ثم جدد نفاقاً ثانياً . وقوله : (ثم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) يبين انهم لم يكونوا قبل ذلك اقرب منهم بل اما ان يتساويا واما ان يكونوا للإيمان اقرب ، وكذلك كان ؛ فان ابن ابي لما

انخزل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد . انخزل معه ثلث الناس قيل : كانوا نحو ثلاثمائة . وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن ، اذ لم يكن لهم داع الى النفاق .

فان ابن ابي كان مظهراً لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم والايمان به ؛ وكان كل يوم جمعة يقوم خطيباً في المسجد يأمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن ما في قلبه يظهر الا لقليل من الناس إن ظهر ، وكان معظماً في قومه ؛ كانوا قد عزموا على ان يتوجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم ؛ فلما جاءت النبوة بطل ذلك فحمله الحسد على النفاق ، وإلا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو اليه ؛ وانما كان هذا في اليهود ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بدينه وقد أظهر الله حسنه ونوره مالت اليه القلوب لا سيما لما نصره الله يوم بدر ، ونصره على يهود بني قينقاع صار معه الدين والدنيا ؛ فكان المقتضي للايمان في عامة الأنصار قائماً ، وكان كثير منهم يعظم ابن ابي تعظيماً كثيراً ويواليه ، ولم يكن ابن ابي أظهر مخالفة توجب الامتياز ؛ فلما انخزل يوم أحد وقال : يدع رأيي ورأيه ، وبأخذ رأي الصبيان - او كما قال - انخزل معه خلق كثير ، منهم من لم ينافق قبل ذلك .

وفي الجملة : ففي الأخبار عن نفاق بعد ايمانه ما يطول ذكره هنا ؛ فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم ايمان ، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل ، فلو ماتوا قبل الحنة والنفاق ماتوا على هذا الاسلام الذي يثابون عليه ولم يكونوا من

المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على الايمان ، ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الايمان بالحنة . وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم . إذا ابتلوا بالحن التي يتضعع فيها اهل الايمان بنقص ايمانهم كثيراً وينافقوا أكثرهم أو كثير منهم . ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً ؛ وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة . وإذا كانت العافية ، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين . وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً لكن ايماناً لا يثبت على الحنة .

ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض واتباع المحارم . وهؤلاء من الذين قالوا : (آمنا) فقليل لهم : (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا : اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) اي الايمان المطلق ، الذي اهله هم المؤمنون حقاً ، فان هذا هو الايمان اذا اطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة . ولهذا قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) فلم يحصل لهم ريب عند الحن التي تقلقل الايمان في القلوب ، والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب ؛ بخلاف الشك فانه لا يكون إلا في العلم ، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملاً ؛ والا فاذا كان عالماً بالحق ؛ ولكن المصيبة أو الخوف اورثه جزعا عظيماً ، لم يكن صاحب يقين . قال تعالى : (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) .

وكثيراً ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ، ثم يتوب الله عليه ؛ وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ، ويدفعه الله عنه . والمؤمن يتلى بوساوس الشيطان ، وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره . كما قالت الصحابة : يارسول الله ! إن احدنا ليجد في نفسه ما لئن نخر من السماء الى الأرض ، احب اليه من ان يتكلم به . فقال : « ذاك صريح الايمان » وفي رواية : « ما يتعظم ان يتكلم به » قال : « الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة » اي حصول هذا الوسواس ، مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب ، هو من صريح الايمان : كالمجاهد الذي جاءه العدو ، فدافعه حتى غلبه ؛ فهذا اعظم الجهاد و « الصريح » الخالص ، كاللبن الصريح . وانما صار صريحاً ، لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحاً .

ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس ؛ فمن الناس من يجيها فصيّر كافراً او منافقاً ؛ ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين ، فاما ان يصير مؤمناً واما ان يصير منافقاً ؛ ولهذا يعرض للناس من الوسواس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلوا ، لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا اراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به ؛ فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ، ويعرض لخاصة اهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم ، لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه ؛ بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه . وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة

فانه عدوهم يطلب صدمهم عن الله . قال تعالى : (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ولهذا امر قارىء القرآن ، ان يستعين بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به ، تورث القلب الايمان العظيم ، وتزيده يقيناً وطمانينة وشفاء . وقال تعالى : (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) وقال تعالى : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) وقال تعالى (هدى للمتقين) وقال تعالى : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) .

وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه ؛ فالشيطان يريد بوساوسه ان يشغل القلب عن الاتفاف بالقرآن ؛ فأمر الله القارىء إذا قرأ القرآن ، ان يستعين منه قال تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) فان المستعين بالله مستجير به ، لاجيء اليه ، مستغيث به من الشيطان ؛ فالعائد بغيره مستجير به ؛ فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيراً به متوكلاً عليه فيعيذه الله من الشيطان ويحيره منه ؛ ولذلك قال الله تعالى : (ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ؛ واما ينزغناك من الشيطان نزع فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) .

وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « انى لأعلم كلمة لو

قالها لذهب عنه ما يجد ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فأمر سبحانه
 بالاسعاذة عند طلب العبد الخير ، لئلا يعوقه الشيطان عنه ؛ وعند ما يعرض عليه
 من الشر ليدفعه عنه عند ارادة العبد للحسنات ؛ وعند ما يأمره الشيطان
 بالسيئات . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الشيطان يأتي احدكم
 فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق الله ؟
 فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته » فأمر بالاستعاذة عندما
 يطلب الشيطان ان يوقعه في شر او يمنعه من خير ؛ كما يفعل العدو
 مع عدوه .

وكلما كان الانسان اعظم رغبة في العلم والعبادة ، واقدر على ذلك من غيره
 بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ، ورغبته وارادته في ذلك اتم ؛ كان ما يحصل
 له ان سلمه الله من الشيطان اعظم ؛ وكان ما يفتن به ان تمكن منه الشيطان
 أعظم . ولهذا قال الشعبي : كل امة علماءؤها شرارها ، إلا المسلمين
 فان علماءهم خيارهم .

واهل السنة في الاسلام ؛ كأهل الاسلام في الملل ؛ وذلك ان كل امة غير المسلمين
 فهم ضالون ، وانما يضلهم علماءؤهم ؛ فعلماءؤهم شرارهم ، والمسلمون على هدى
 وانما يتبين الهدى بعلمائهم ، فعلماءؤهم خيارهم ؛ وكذلك اهل السنة ، أتمهم خيار
 الأمة ، وأئمة اهل البدع ، اضر على الأمة من اهل الذنوب . ولهذا امر النبي
 صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ؛ ونهى عن قتال الولاة الظلمة ؛ وأولئك لهم

نهمة في العلم والعبادة؛ فصار يعرض لهم من الوسوس التي تضلهم - وهم يظنونها هدى ، فيطيعونها - ما لا يعرض لغيرهم ، ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصايح الهدى ، وينايع العلم ؛ كما قال ابن مسعود لأصحابه : كونوا ينايع العلم ، مصايح الحكمة ، سرج الليل ؛ جدد القلوب ، احلاس البيوت ، خلقان الثياب ؛ تعرفون في اهل السماء ، وتخفون على اهل الأرض .

فصل

ومما ينبغي ان يعلم ان الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث ، إذا عرف تفسيرها وما اريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتاج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال اهل اللغة ولا غيرهم ؛ ولهذا قال الفقهاء : «الاسماء ثلاثة انواع» نوع يعرف حده بالشرع ، كالصلاة والزكاة ؛ ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ؛ ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ، ولفظ المعروف في قوله : (وعاشروهن بالمعروف) ونحو ذلك . وروي عن ابن عباس انه قال : تفسير القرآن على اربعة اوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر احد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء . وتفسير لا يعلمه إلا الله ، من ادعى علمه فهو كاذب . فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك ، قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم ما يراد بها في كلام الله ورسوله ، وكذلك لفظ الحجر وغيرها ، ومن هناك يعرف معناها ، فلو اراد احد ان يفسرها بغير ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه ، واما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها ، فذاك من جنس علم البيان . وتعليل الأحكام ، هو زيادة في العلم ، وبيان حكمة ألفاظ القرآن ؛ لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا .

واسم الايمان والاسلام والتفائق والكفر ، هي اعظم من هذا كله ؛

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد بين المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك ؛ فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله ، فانه شاف كاف ؛ بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة ، بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الايمان ، علم بالاضطرار انه مخالف للرسول ، ويعلم بالاضطرار ان طاعة الله ورسوله من تمام الايمان وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنباً كافراً ، ويعلم انه لو قدر ان قوماً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : نحن تؤمن بما جئنا به بقلوبنا من غير شك ؛ ونقر بالسنتنا بالشهادتين ، إلا انا لا نطيعك في شيء مما امرت به ونهيت عنه ، فلا نصلى ولا نصوم ولا نحج ، ولا نصدق الحديث ، ولا تؤدي الأمانة ، ولا نفي بالعهد ؛ ولا نصل الرحم ، ولا نفعل شيئاً من الخير الذي أمرت به ، ونشرب الخمر ؛ ونتكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ، ونقتل من قدرنا عليه من اصحابك وأمتك ، ونأخذ اموالهم ، بل نقتلك أيضاً ونقتلك مع اعدائك ؛ هل كان يتوهم عاقل ان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم : انتم مؤمنون كاملوا الايمان ، واتم من اهل شفاعتي يوم القيامة ، ويرجى لكم ان لا يدخل احد منكم النار ، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار انه يقول لهم : انتم أكفر الناس بما جئت به ، ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك .

وكذلك كل مسلم يعلم ان شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق ، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يجعلهم مرتدين يجب قتلهم ، بل القرآن والنقل المتواتر عنه ، يبين ان هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الاسلام ،

كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني ، وقطع السارق ، وهذا متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولو كانوا حريدين لقتلهم . فكلا القولين مما يعلم فسادهما بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل ، لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق ، وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها . إما في دلالة الالفاظ . وإما في المعاني المعقولة . ولا يتأملون بيان الله ورسوله ، وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله ، فإنها تكون ضلالاً ، ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين ؛ وكذلك ذكر في رسالته الى ابي عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة ، وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين . لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا الى ذلك سبيلاً ؛ ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها انه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم ، او غير الحق ، وهذا مما حرمه الله ورسوله . وقال تعالى في الشيطان : (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وإن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقال تعالى : (ألم يأخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله الا الحق) وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » .

مثال ذلك ان «المرجئة» لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله ، اخذوا يتكلمون في مسمى «الايمان» و«الاسلام» وغيرها بطرق ابتدعوها ، مثل ان

يقولوا: «الإيمان في اللغة» هو التصديق ، والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها ، فيكون مراده بالإيمان التصديق ؛ ثم قالوا : والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان ، او بالقلب ، فالأعمال ليست من الإيمان ، ثم عمدتهم في ان الإيمان هو التصديق قوله : (وما انت بمؤمن لنا) اى بمصدق لنا .

فيقال لهم : «اسم الإيمان» قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ ، وهو اصل الدين ، وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور؛ ويفرق بين السعداء والأشقياء ، ومن يوالي ومن يعادي ، والدين كله تابع لهذا ؛ ، وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك ؛ أفيجوز ان يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله . ووكله إلى هاتين المقدمتين؟ . ومعلوم ان الشاهد الذي استشهدوا به على ان الإيمان هو التصديق انه من القرآن . ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم اعظم من تواتر لفظ الكلمة ، فان الإيمان يحتاج الى معرفة جميع الأمة فينقلونه ، بخلاف كلمة من سورة . فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة ، فلا يجوز ان يجعل بيان اصل الدين مبنياً على مثل هذه المقدمات ، ولهذا كثرت النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم ، وسلكوا السبل ، وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم اليينات ، فهذا كلام عام مطلق .

ثم يقال : «هاتان المقدمتان» كلاهما ممنوعة ، فمن الذي قال : ان لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق؟ وهب ان المعنى بصح إذا استعمل في هذا الموضع ، فلم

قلت : انه يوجب الترادف ؛ ولو قلت : ما أنت بمسلم لنا ، ما انت بمؤمن لنا ،
صح المعنى . لكن لم قلت : ان هذا هو المراد بلفظ مؤمن ؛ واذا قال الله :
(اقيموا الصلاة) . ولو قال القائل : اتعوا الصلاة ، ولازموا الصلاة ، التزموا
الصلاة ، افعلوا الصلاة ، كان المعنى صحيحاً . لكن لا يدل هذا على معنى : اقيموا .
فكون اللفظ يرادف اللفظ ؛ يراد دلالة على ذلك .

ثم يقال : ليس هو مرادفاً له ، وذلك من وجوه :

(احدها) : ان يقال للمخبر اذا صدقته : صدقه ، ولا يقال : آمنه وآمن به . بل يقال :
آمن به . كما قال : (فآمن له لوط) وقال : (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) وقال
فرعون : (آمنتم له قبل ان آذن لكم) وقالوا لنوح : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون)
وقال تعالى : (قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) . (فقالوا :
انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقال : (وان لم تؤمنوا لي
فاعتزلون) .

فان قيل : فقد يقال : ما انت بمصدق لنا . قيل : اللام تدخل على ما يتعدى
بنفسه اذا ضعف عمله ، اما بتأخيره او بكونه اسم فاعل او مصدراً ، او باجتماعهما ،
فيقال : فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ، ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل : هو عابد
لربه متق لربه ، خائف لربه ، وكذلك تقول : فلان يرهب الله ثم تقول : هو
راهب لربه ، واذا ذكرت الفعل واخرته ، تقويه باللام ، كقوله : (وفي نسختها
هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقد قال : (قايي فارهبون) فعدهم

بنفسه ، وهناك ذكر اللام ، فان هنا قوله : (فاي اي) آتم من قوله : فلي . وقوله ، هنا لك (لر بهم) آتم من قوله : ربهم ، فان الضمير المنفصل المنصوب ، اكمل من ضمير الجر بالياء ، وهناك اسم ظاهر ، فتقويته باللام اولى وآتم من تجريده ؛ ومن هذا قوله : (ان لستم للرؤيا تعبرون) ويقال : عبرت رؤياه ، وكذلك قوله : (وانهم لنا لغائظون) وانما يقال : غظته ، لا يقال : غظت له ، ومثله كثير ، فيقول القائل : ما انت بصدق لنا ، ادخل فيه اللام ، لكونه اسم فاعل ، والا فانما يقال : صدقته . لا يقال : صدقت له ، ولو ذكروا الفعل ، لقالوا : ما صدقتنا ، وهذا بخلاف لفظ الايمان ، فانه تعدى الى الضمير باللام دائماً ؛ لا يقال : آمنته قط ، وانما يقال : آمنت له كما يقال : اقررت له ، فكان تفسيره بلفظ الاقرار اقرب من تفسيره بلفظ التصديق ، مع ان بينهما فرقاً .

(الثاني) : انه ليس مرادفاً للفظ التصديق في المعنى ، فان كل مخبر عن مشاهدة او غيب يقال له في اللغة : صدقت ، كما يقال : كذبت . فمن قال : السماء فوقنا ، قيل له : صدق كما يقال : كذب ، واما لفظ الايمان فلا يستعمل الا في الخبر عن غائب ، لم يوجد في الكلام ان من اخبر عن مشاهدة ؛ كقوله : طلعت الشمس ، وغربت ، انه يقال : آمناه ، كما يقال : صدقناه ، ولهذا ؛ المحدثون والشهود ونحوهم ؛ يقال : صدقناهم ؛ وما يقال آمننا لهم ؛ فان الايمان مشتق من الأمن . فانما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر ، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر ؛ ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ آمن له ، الا في هذا النوع ؛ والاشتان اذا اشتركا في معرفة الشيء

يقال : صدق احدهما صاحبه ولا يقال : آمن له ، لأنه لم يكن غائباً عنه ائتمنه عليه ولهذا قال : (فآمن له لوط) (انؤمن لبشرين مثلنا) . (آمتهم له) (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) فيصدقهم فيما اخبروا به . مما غاب عنه وهو مأمون عنده على ذلك ، فاللفظ متضمن مع التصديق ومعنى الائتمان والأمانة ؛ كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ، ولهذا قالوا : (ما انت بمؤمن لنا) اي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ، ولا تطمئن اليه ولو كنا صادقين ؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك . فلو صدقوا لم يأمن لهم .

(الثالث) : ان لفظ الايمان في اللغة ، لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق فانه من المعلوم في اللغة ان كل مخبر يقال له : صدقت او كذبت ويقال : صدقناه او كذبناه ، ولا يقال لكل مخبر : آمناله او كذبناه ؛ ولا يقال انت مؤمن له او مكذب له ؛ بل المعروف في مقابلة الايمان لفظ الكفر . يقال : هو مؤمن او كافر ، والكفر لا يختص بالتكذيب ؛ بل لو قال : انا اعلم انك صادق لكن لا اتبعك ، بل اعاديك وانفضك واخالفك ولا وافقك ، لكان كفره اعظم ؛ فلما كان الكفر المقابل للايمان ليس هو التكذيب فقط ، علم ان الايمان ليس هو التصديق فقط ، بل اذا كان الكفر ، يكون تكديباً ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب ؛ فلا بد ان يكون الايمان تصديقاً مع موافقة وموالاتة وانقياد لا يكفي مجرد التصديق ؛ فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر ، فيجب ان يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر ، وهذا هو العمل .

فان قيل : فالرسول صلى الله عليه وسلم فسر الايمان بما يؤمن به .

قيل : فالرسول ذكر ما يؤمن به لم يذكر ما يؤمن له ، وهو نفسه يجب ان يؤمن به ويؤمن له ، فالايمان به من حيث ثبوته غيب عنا اخبرنا به وليس كل غيب آمننا به علينا ان نطيعه ، وأما ما يجب من الايمان له فهو الذي يوجب طاعته ، والرسول يجب الايمان به وله ، فينبغي ان يعرف هذا ، وايضاً فان طاعته طاعة لله ، وطاعة الله من تمام الايمان به .

(الرابع) : أن من الناس من يقول : الايمان اصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف ؛ فأمن اي صار داخلياً في الأمن وأنشدوا ...^(١)

واما « المقدمة الثانية » فيقال : إنه اذا فرض انه مرادف للتصديق فقولهم : ان التصديق لا يكون إلا بالقلب او اللسان ؛ عنه جوابان .

« احدهما » : المنع بل الأفعال تسمى تصديقاً كما ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « العينان تزنيان وزناها النظر ؛ والأذن تزني وزناها السمع ؛ واليد تزني وزناها البطش ؛ والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمني ذلك ويشتهي ؛ والفرج يصدق ذلك او يكذبه » . وكذلك قال اهل اللغة وطوائف من السلف والحلف . قال الجوهري : والتصديق مثال الفسيق : الدائم التصديق . ويكون الذي يصدق قوله بالعمل . وقال الحسن البصري : ليس الايمان بالتحلي ولا بالتبني ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الاعمال ، وهذا

(١) يياض في الأصل .

مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه ، كما رواه عباس الدوري : حدثنا حجاج : حدثنا ابو عبيدة الناجي عن الحسن قال : ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ؛ ولكن ما وقر في القلب وصدقته الاعمال . من قال حسناً وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ، ومن قال حسناً وعمل صالحاً رفعه العمل ، ذلك بأن الله يقول : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ورواه ابن بطة من الوجهين .

وقوله : ليس الايمان بالتمني — يعني الكلام — وقوله : بالتحلي .
يعنى ان بصير حلية ظاهرة له ، فيظهره من غير حقيقة من قلبه ، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الاعمال ، فالعمل يصدق ان في القلب إيماناً وإذا لم يكن عمل ، كذب ان في قلبه إيماناً ، لان ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر . وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم .

وقد روى محمد بن نصر المروزي باسناده ، ان عبد الملك بن حبروان كتب الى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل . فأجابه عنها : سألت عن الايمان ، فالايان هو التصديق ، ان يصدق العبد بالله وملائكته وما انزل الله من كتاب وما ارسل من رسول ، وباليوم الآخر . وسألت عن التصديق . والتصديق : ان يعمل العبد بما صدق به من القرآن ، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه عرف انه ذنب ، واستغفر الله وتاب منه ولم يصر عليه ، فذلك

هو التصديق . وتسأل عن الدين ، فالدين هو العبادة ، فانك لن تجد رجلاً من اهل الدين ترك عبادة اهل دين ، ثم لا يدخل في دين آخر إلا صار لادين له . وتسأل عن العبادة والعبادة هي الطاعة ، ذلك انه من اطاع الله فيما امره به وفيما نهاه عنه ، فقد آثر عبادة الله ، ومن اطاع الشيطان في دينه وعمله ، فقد عبد الشيطان ، ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) وانما كانت عبادتهم الشيطان انهم اطاعوه في دينهم .

وقال اسد بن موسى : حدثنا الوليد بن مسلم الأوزاعي ، حدثنا حسان ابن عطية قال : الايمان في كتاب الله صار الى العمل . قال الله تعالى : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية . ثم صيرهم الى العمل فقال : (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) قال : وسمعت الأوزاعي يقول : قال الله تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فإخوانكم في الدين) والايان بالله باللسان ، والتصديق به العمل .

وقال معمر عن الزهري : كنا نقول الاسلام بالاقرار ، والايان بالعمل والايان : قول وعمل قرينان ، لا ينفع احدهما إلا بالآخر ، وما من احد إلا يوزن قوله وعمله ؛ فان كان عمله ، اوزن من قوله : صعد الى الله ؛ وان كان كلامه اوزن من عمله لم يصعد الى الله . ورواه ابو عمرو الطلمنكي بأسناده

المعروف . وقال معاوية بن عمرو : عن ابي اسحاق الفزاري عن الأوزاعي قال :
لا يستقيم الايمان إلا بالقول ، ولا يستقيم الايمان والقول إلا بالعمل ، ولا يستقيم
الايمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة .

وكان من مضي من سلفنا ، لا يفرقون بين الايمان والعمل ؛ العمل من
الايمان والايمان من العمل ؛ وانما الايمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها
ويصدق العمل . فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدق بعمله ، فتلك العروة
الوثقى التي لا انفصام لها . ومن قال بلسانه ، ولم يعرف بقلبه ، ولم يصدق بعمله
كان في الآخرة من الخاسرين . وهذا معروف عن غير واحد من السلف
والخلف ؛ انهم يجعلون العمل مصدقا للقول ؛ ورووا ذلك عن النبي صلى الله عليه
وسلم كما رواه معاذ بن اسد : حدثنا الفضيل بن عياض ، عن ليث بن ابي سليم
عن مجاهد : ان أباذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان . فقال : « الايمان :
الاقرار والتصديق بالعمل ؛ ثم تلا (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق
والمغرب) الى قوله (واولئك هم المتقون) » .

قلت حديث ابي ذر هذا مرهوي من غير وجه ؛ فان كان هذا اللفظ
هو لفظ الرسول ، فلا كلام ، وان كانوا رووه بالمعنى ، دل على انه من المعروف
في لغتهم انه يقال : صدق قوله بعمله ؛ وكذلك قال شيخ الاسلام الهروي :
الايمان تصديق كله .

وكذلك « الجواب الثاني » انه إذا كان اصله التصديق ، فهو تصديق

مخصوص ، كما ان الصلاة دعاء مخصوص ، والحج قصد مخصوص ، والصيام
امساك مخصوص ؛ وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة في مسماه عند
الاطلاق ؛ فان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم ، ويبقى النزاع لفظياً : هل
الايان دال على العمل بالتضمن او باللزوم ؟

ومما ينبغي ان يعرف ان اكثر التنازع بين اهل السنة في هذه المسألة هو
نزاع لفظي ، وإلا فالقائلون بأن الايمان قول من الفقهاء - كحماد بن ابي سليمان
وهو اول من قال ذلك ، ومن اتبعه من اهل الكوفة وغيرهم - متفقون مع
جميع علماء السنة على ان اصحاب الذنوب داخلون تحت اللمم والوعيد ، وان
قالوا : ان ايمانهم كامل كايان جبريل فهم يقولون : ان الايمان بدون العمل
المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقاً للثم والعقاب ، كما تقوله
الجماعة . ويقولون أيضاً بأن من اهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة
والذين ينفون عن الفاسق اسم الايمان من اهل السنة متفقون على انه لا يدخل
في النار . فليس بين فقهاء الملة نزاع في اصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنياً
وظاهراً بما جاء به الرسول ، وما تواتر عنه انهم من اهل الوعيد ، وانه يدخل
النار منهم من اخبر الله ورسوله بدخوله اليها ، ولا يدخل منهم فيها احد ، ولا
يكونون مرتدين مباحي الدماء ، ولكن « الأقوال المنحرفة » قول من يقول
بتخليد في النار ، كالحوارج ، والمعتزلة . وقول غلاة المرجئة الذين يقولون :
ما نعلم ان أحداً منهم يدخل النار ؛ بل نقف في هذا كله . وحكي عن بعض غلاة
المرجئة الحزم بالنفي العام .

ويقال للخوارج : الذي نفى عن السارق والزاني والشارب وغيرهم
الايمان : هو لم يجعلهم مرتدين عن الاسلام ؛ بل عاقب هذا بالجلد وهذا
بالقطع ، ولم يقتل احداً إلا الزاني المحصن ، ولم يقتله قتل المرتد ؛ فان المرتد
يقتل بالسيف بعد الاستتابة ، وهذا يرمج بالحجارة بلا استتابة . فدل ذلك على
أنه وان نفى عنهم الايمان ، فليسوا عنده مرتدين عن الاسلام مع ظهور ذنوبهم
وليسوا كالمناقضين الذين كانوا يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر ، فأولئك لم
يعاقبهم الا على ذنب ظاهر .

وبسبب الكلام في « مسألة الايمان » تنازع الناس ، هل في اللغة أسماء
شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة ، او انها باقية في الشرع على ما كانت
عليه في اللغة ، لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الأسماء ؟ . وهكذا قالوا
في اسم « الصلاة » و « الزكاة » و « الصيام » و « الحج » إنها باقية في كلام الشارع على
معناها اللغوي ، لكن زاد في أحكامها . ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق ،
وذلك يحصل بالقلب واللسان . وذهبت طائفة ثالثة الى ان الشارع تصرف فيها
تصرف اهل العرف ، فهي بالنسبة الى اللغة مجاز ، وبالنسبة الى عرف
الشارع حقيقة .

والتحقيق ان الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ، ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة ،
كما يستعمل نظائرها ، كقوله تعالى : (والله على الناس حج البيت) فذكر حجاً
خاصاً ، وهو حج البيت ، وكذلك قوله : (فمن حج البيت او اعتمر) فلم يكن

لفظ الحج متاولاً لكل قصد ، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير
تغيير اللغة . والشاعر إذا قال :

واشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا

كان متكلماً باللغة ، وقد قيد : لفظه : بحج سب الزبرقان المزعفرا . ومعلوم
ان ذلك الحج المخصوص دلت عليه الاضافة ، فكذلك الحج المخصوص الذي
امر الله به دلت عليه الاضافة او التعريف باللام : فاذا قيل : الحج فرض عليك ،
كانت لام العهد تبين انه حج البيت وكذلك «الزكاة» هي اسمها تزكوبه النفس ؛
وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها ، والاحسان الى الناس من اعظم
ما تزكوبه النفس ؛ كما قال تعالى : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيم بها)
وكذلك ترك الفواحش مما تزكوبه . قال تعالى . (ولولا فضل الله عليكم ورحمته
ما زكى منكم من احد أبداً) واصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله ؛ قال
تعالى : (وويل للشركين الذين لا يؤتون الزكاة) وهي عند المفسرين التوحيد .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مقدار الواجب ، وسمها الزكاة المفروضة ؛
فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد ، ومن الأسماء ما يكون
اهل العرف نقلوه وينسبون ذلك الى الشارع ، مثل لفظ «التيمم» فان الله تعالى
قال : (فتيموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه) فلفظ « التيمم»
استعمل في معناه المعروف في اللغة ، فانه امر بتيمم الصعيد ثم امر بمسح الوجوه
والأيدي منه ؛ فصار لفظ التيمم في عرف الفقهاء يدخل فيه هذا المسح ؛ وليس

هو لغة الشارع ، بل الشارع فرق بين تيمم الصعيد وبين المسح الذي يكون بعده ، ولفظ «الايان» امر به مقيداً بالايان بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، وكذلك لفظ «الاسلام» بالاستسلام لله رب العالمين ؛ وكذلك لفظ «الكفر» مقيداً ؛ ولكن لفظ «النفاق» قد قيل : انه لم تكن العرب تكلمت به ، لكنه مأخوذ من كلامهم ، فان نفق يشبه خرج ، ومنه نفقت الدابة اذا ماتت ، ومنه نفاقه اليربوع ، والنفق في الأرض قال تعالى : (فان استطعت ان تبغني نفقاً في الأرض) فالنفاق هو الذي خرج من الايمان باطناً بعد دخوله فيه ظاهراً ؛ وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان . ومن الناس من يسمي من خرج عن طاعة الملك منافقاً عليه ؛ لكن النفاق الذي في القرآن هو النفاق على الرسول . فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء كخطاب الناس بغيرها ؛ وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل انواعاً .

وقد بين الرسول تلك الحصاص ؛ والاسم دل عليها ؛ فلا يقال : انها منقولة ، ولا انه زيد في الحكم دون الاسم ؛ بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع ؛ لم يستعمل مطلقاً ، وهو انما قال : (أقيموا الصلاة) بعد ان عرفهم الصلاة بالمأمور بها ؛ فكان التعريف منصرفاً الى الصلاة التي يعرفونها ؛ لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه . ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة : انه عام للمعنى اللغوي ؛ او انه مجمل لترده بين المعنى اللغوي والشعري ونحو ذلك ؛ فأقواهم ضعيفة ، فان هذا اللفظ انما ورد خبراً او امراً ، فالجبر كقوله : (ارابت الذي ينهى عبداً اذا صلى) وسورة (اقرأ) من اول ما نزل من القرآن ، وكان

بعض الكفار اما ابو جهل او غيره قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقال : لئن رأيتك يصلي لأبطأن عنقه . فلما رآه ساجداً رأى من الهول ما اوجب نكوصه على عقبيه ؛ فاذا قيل : (ارايت الذي ينهى عبداً اذا صلى) فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا اجمال في اللفظ ولا عموم .

ثم انه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج اقام النبي صلى الله عليه وسلم لهم الصلوات بمواقيتها صحيحة ذلك اليوم ، وكان جبرائيل يؤم النبي صلى الله عليه وسلم . والمسلمون يأتون بالنبي صلى الله عليه وسلم . فاذا قيل لهم : (اقيموا الصلاة) عرفوا انها تلك الصلاة ، وقيل : انه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار ، فكانت ايضاً معروفة ، فلم يخاطبوا باسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم . فلا اجمال في ذلك ، ولا يتناول كل ما ينسب حجاً ودعاءً وضوئاً ، فان هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقاً ، وذلك لم يرد .

وكذلك « الايمان » و « الاسلام » وقد كان معنى ذلك عندهم من اظهر الأمور . وانما سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وهم يسمعون وقال : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » ليعين لهم كمال هذه الاسماء وحقائقها التي ينبغي ان تقصد لئلا يقتصروا على ادنى مسمياتها ، وهذا كما في الحديث الصحيح انه قال : « ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمران ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنا يغنيه ولا يفتن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً » فهم كانوا يعرفون المسكين وانه المحتاج ، وكان ذلك

مشهوراً عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال ، فيبين النبي صلى الله عليه وسلم ان الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له ، والسؤال له بمنزلة الحرفة ، وهو وإن كان مسكيناً يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته . فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكيناً ، وإنما المسكين المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف فيعطى . فهذا هو الذي يجب ان يقدم في العطاء ، فانه مسكين قطعاً ، وذاك مسكنته تدفع بعطاء من يسأله ، وكذلك قوله : « الاسلام هو الحمس » . يريد ان هذا كله واجب داخل في الاسلام ، فليس للانسان ان يكتبي بالاقرار بالشهادتين ؛ وكذلك الايمان يجب ان يكون على هذا الوجه المفصل ، لا يكتبي فيه بالايمان الجمل ، ولهذا وصف الاسلام بهذا .

وقد انفق المسلمون على انه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر ، واما الأعمال الأربعة فاختلفوا في تكفير تاركها ، ونحن اذا قلنا : اهل السنة متفقون على انه لا يكفر بالذنب ، فانما يريد به المعاصي كالزنا والشرب ، واما هذه المباني ففي تكفير تاركها نزاع مشهور . وعن احمد : في ذلك نزاع ، واحدى الروايات عنه : انه يكفر من ترك واحدة منها ، وهو اختيار ابى بكر وطائفة من اصحاب مالك كابن حبيب . وعنه رواية ثانية : لا يكفر الا بترك الصلاة والزكاة فقط ، ورواية ثالثة : لا يكفر الا بترك الصلاة ، والزكاة إذا قاتل الامام عليها ، ورابعة : لا يكفر الا بترك الصلاة . وخامسة : لا يكفر بترك شيء منهن . وهذه اقوال معروفة للسلف . قال الحكم بن عتيبة : من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ، ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر . ومن ترك الحج متعمداً فقد كفر . ومن ترك صوم

رمضان متعمداً فقد كفر . وقال سعيد بن جبير : من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر بالله . ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر بالله . ومن ترك صوم رمضان متعمداً فقد كفر بالله . وقال الضحاك : لا ترفع الصلاة الا بالزكاة . وقال عبد الله بن مسعود : من اقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له . رواه ابن اسد بن موسى .

وقال عبد الله بن عمرو : من شرب الخمر ممسياً اصبح مشركاً ، ومن شربه مصباحاً امسى مشركاً ، فقيل لابراهيم النخعي : كيف ذلك ؛ قال : لأنه يترك الصلاة ، قال ابو عبد الله الأحنس في كتابه : من شرب المسكر فقد تعرض لترك الصلاة ، ومن ترك الصلاة فقد خرج من الايمان . ومما يوضح ذلك أن جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان ، كان في آخر الأمر بعد فرض الحج ، والحج إنما فرض سنة تسع او عشر .

وقد اتفق الناس على أنه لم يفرض قبل ست من الهجرة ، ومعلوم ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمر الناس بالايمان . ولم يبين لهم معناه الى ذلك الوقت ، بل كانوا يعرفون اصل معناه وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .

و (المقصود هنا) ان من نفي عنه الرسول اسم « الايمان » او « الاسلام » فلا بد ان يكون قد ترك بعض الواجبات فيه وإن بقي بعضها ، ولهذا كان الصحابة والسلف يقولون : إنه يكون في العبد ايمان ونفاق . قال ابو داود السجستاني : حدثنا احمد بن حنبل حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن ابي المقدم عن

أبي يحيى قال : سئل حذيفة عن المنافق . قال : الذي يعرف الإسلام ولا يعمل به . وقال أبو داود : حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة قال : القلوب أربعة : قلب اغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح ، وذلك قلب المنافق وقلب اجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ؛ وقلب فيه إيمان ونفاق ؛ فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب ؛ ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم ؛ فأيهما غلب عليه غلب . وقد روى مرفوعاً ؛ وهو في « المسند » مرفوعاً .

وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب ، فلما كان يوم أخذ غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب . وروى عبد الله بن المبارك عن عوف بن أبي جميلة عن عبد الله بن عمرو بن هند عن علي بن أبي طالب قال : إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب . فكما ازداد العبد إيماناً ازداد القلب بياضاً ، حتى إذا استكمل الإيمان أبيض القلب كله . وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب ، فكما ازداد العبد نفاقاً ازداد القلب سواداً ، حتى إذا استكمل العبد النفاق أسود القلب ، وإيم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض ، ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود .

وقال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . رواه أحمد وغيره وهذا كثير في كلام السلف ، يبينون أن القلب قد يكون فيه

ايمان ونفاق ، والكتاب والسنة يدلان على ذلك ، فان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر شعب الايمان ، وذكر شعب النفاق وقال : « من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها » وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الايمان ، ولهذا قال : « ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » فلم ان من كان معه من الايمان اقل القليل لم يخلد في النار ، وان من كان معه كثير من النفاق ، فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ، ثم يخرج من النار .

وعلى هذا فقوله للأعراب : (لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) نفى حقيقة دخول الايمان في قلوبهم ، وذلك لا يمنع ان يكون معهم شعبة منه ، كما نفاه عن الزاني والسارق ، ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره ، فان في القرآن والحديث ممن نفى عنه الايمان لترك بعض الواجبات شيء كثير .

وحينئذ فنقول : من قال من السلف : اسلمنا ، اي استسلمنا خوف السيف ، وقول من قال : هو الاسلام ، الجميع صحيح ، فان هذا انما اراد الدخول في الاسلام والاسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون ، فيدخل فيه من كان في قلبه ايمان ونفاق ؛ وقد علم انه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، بخلاف المنافق المحض الذي قلبه كله اسود ، فهذا هو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار ، ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على انفسهم ، ولم يخافوا

التكذيب لله ورسوله ، فان المؤمن يعلم من نفسه انه لا يكذب الله ورسوله
يقيناً ، وهذا مستند من قال : انا مؤمن حقاً ، فانه اراد بذلك ما يعلمه من
من نفسه من التصديق الجازم . وليكن ، الايمان ليس مجرد التصديق بل لا بد
من اعمال قلبية تستلزم اعمالاً ظاهرة كما تقدم فحب الله ورسوله من الايمان ،
وحب ما امر الله به ، وبغض ما نهى عنه ، وهذا من اخص الامور بالايمان ،
ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في عدة احاديث ان : « من سرته حسنته
وساءته سيئته فهو مؤمن » فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ، وببغض السيئة
ويسوءه فعلها وان فعلها بشهوة غالبية ، وهذا الحب والبغض من خصائص
الايمان .

ومعلوم ان الزاني حين يزني إنما يزني لحب نفسه لذلك الفعل ،
فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة او حب الله الذي يغلبها ؛ لم يزني ،
ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه
من عبادنا المخلصين) فمن كان مخلصاً لله حق الاخلاص لم يزني وانما يزني
لخلوه عن ذلك ، وهذا هو الايمان الذي ينزع منه لم ينزع منه نفس التصديق
ولهذا قيل : هو مسلم وليس بمؤمن ؛ فان المسلم المستحق للثواب لا بد ان يكون
مصدقاً ، والا كان منافقاً ؛ لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الاحوال
الايمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله ، ومثل خشية الله والاخلاص له
في الأعمال والتوكل عليه بل يكون الرجل مصدقاً بما جاء به الرسول ، وهو

مع ذلك يرائى بأعماله ، ويكون اهله وماله احب اليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله ، وقد خوطب بهذا المؤمنون في آخر الأمر في سورة براءة ف قيل لهم : (ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وامول اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى ياتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) ومعلوم ان كثيراً من المسلمين او اكثرهم بهذه الصفة .

وقد ثبت انه لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها ؛ وانما المؤمن من لم يرتب ، وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله ، فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة في الايمان ، فهو الذي نفى عنه الرسول الايمان وإن كان معه التصديق ، والتصديق من الايمان ، ولا بد ان يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله ، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس ايماناً البتة ، بل هو كتصديق فرعون واليهود وابليس ، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية . قال الحميدي : سمعت وكيعاً يقول : اهل السنة يقولون : الايمان قول وعمل ، والمرجئة يقولون : الايمان قول . والجهمية يقولون : الايمان المعرفة ، وفي رواية اخرى عنه : وهذا كفر . قال محمد بن عمر الكلابي : سمعت وكيعاً يقول : الجهمية شر من القدرية ، قال : وقال وكيع : المرجئة : الذين يقولون : الاقرار يجزيء عن العمل ؛ ومن قال هذا فقد هلك ؛ ومن قال : النية تجزيء عن العمل ، فهو كفر ، وهو قول جهم ، وكذلك قال احمد بن حنبل .

ولهذا كان القول : ان الايمان قول وعمل عند اهل السنة من شعائر السنة ، وحكى غير واحد الاجماع على ذلك ، وقد ذكرنا عن الشافعي - رضى الله عنه - ما ذكره من الاجماع على ذلك قوله في « الأم » : وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدم ومن ادركناهم يقولون : إن الايمان قول وعمل ونية ، لا يجزىء واحد من الثلاثة إلا بالآخر ؛ وذكر ابن ابي حاتم - في « مناقبه » - : سمعت حرمة يقول : اجتمع حفص الفرد ومصلاان الأباضى عند الشافعي في دار الجروي ، فتناظرا معه في الايمان فاحتج مصلاان في الزيادة والنقصان وخالفه حفص الفرد ، فحمي الشافعي وتقلد المسألة على ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، فطحن حفصا الفرد ، وقطعه .

وروى ابو عمرو الطلمنكي باسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمالي قال : املى علينا إسحاق بن راهويه ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، لاشك ان ذلك كما وصفنا ، وانما عقننا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة ؛ وآحاد اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين ، وهلم جراً على ذلك ، وكذلك بعد التابعين من اهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه ، وكذلك في عهد الاوزاعي بالشام ، وسفيان الثوري بالعراق ؛ ومالك بن انس بالحجاز ، ومعر باليمن ، على ما فسرنا وبيننا ، ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص .

وقال إسحاق : من ترك الصلاة متعمداً حتى ذهب وقت الظهر إلى المغرب ،

والمغرب إلى نصف الليل ، فانه كافر بالله العظيم ، يستتاب ثلاثة ايام ، فان لم يرجع وقال تركها لا يكون كفراً ، ضربت عنقه — يعني تاركها . وقال ذلك — واما إذا صلى وقال ذلك ، فهذه مسألة اجتهاد ، قال : واتبعهم على ما وصفنا من بعدم من عصرنا هذا اهل العلم ، إلا من باين الجماعة واتبع الأهواء المختلفة ، فأولئك قوم لا يعبا الله بهم لما باينوا الجماعة .

قال ابو عبيد القاسم بن سلام الامام — وله كتاب مصنف في الايمان ، قال — : هذه تسمية من كان يقول : الايمان قول وعمل يزيد وينقص . من اهل مكة : عبيد بن عمير الليثي ، عطاء بن ابي رباح ، مجاهد بن جبر ، ابن ابي مليكة ، عمرو بن دينار ؛ ابن ابي نجيح ، عبيد الله بن عمر ؛ عبد الله بن عمرو ابن عثمان ، عبد الملك بن جريح ، نافع بن جبير ؛ داود بن عبد الرحمن العطار ؛ عبد الله بن رجاء . ومن اهل المدينة : محمد بن شهاب الزهري ، ربيعة بن ابي عبد الرحمن ، ابو حازم الأعرج . سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، يحيى بن سعيد الأنصاري ، هشام بن عروة بن الزبير ، عبد الله بن عمر العمري ، مالك بن انس ، محمد بن ابي ذئب ، سليمان بن بلال ، عبد العزيز بن عبد الله — يعني الماجشون — ، عبد العزيز بن ابي حازم . ومن اهل اليمن : طاووس اليماني ، وهب بن منبه ، معمر بن راشد ، عبد الرزاق بن همام . ومن اهل مصر والشام : مكحول ، الأوزاعي ، سعيد بن عبد العزيز ، الوليد بن مسلم ، يونس بن يزيد الأيلي ، يزيد بن ابي حبيب ، يزيد بن شريح ، سعيد بن ابي ايوب ، الليث بن سعد ، عبد الله بن ابي جعفر ، معاوية بن ابي صالح ، حيوة

ابن شريح، عبد الله بن وهب . ومن سكن العواصم وغيرها من الجزيرة :
ميمون بن مهران ، يحيى بن عبد الكريم ، معقل بن عبيد الله ، عبيد الله بن
عمرو الرقي ، عبد الملك بن مالك ، المعافى بن عمران ، محمد بن سلمة الحراني ،
ابو اسحاق الفزاري ، مخلد بن الحسين ، علي بن بكار ، يوسف بن اسباط ،
عطاء بن مسلم ، محمد بن كثير ، الهيثم بن جميل . ومن اهل الكوفة : علقمة ،
الأسود بن يزيد ، ابو وائل وسعيد بن جبير ، الربيع بن خيثم ، عامر الشعبي ،
ابراهيم النخعي ، الحكم بن عتيبة ، طلحة بن مصرف ، منصور بن المعتمر ، سلمة
ابن كهيل ، مغيرة الضبي ، عطاء بن السائب ، اسماعيل بن ابي خالد ، ابو حيان ،
يحيى بن سعيد ، سليمان بن مهران الأعمش ، يزيد بن ابي زياد ، سفيان بن
سعيد الثوري ، سفيان بن عيينة ، الفضيل بن عياض ، ابو المقدم ، ثابت بن
العجلان ، ابن شبرمة . ابن ابي ليلي ، زهير ، شريك بن عبد الله ، الحسن بن
صالح ، حفص بن غياث ، ابو بكر بن عياش ، ابو الأحوص ، وكيع بن الجراح ،
عبد الله بن نمر ، ابو أسامة ، عبد الله بن ادريس ، زيد بن الحباب ، الحسين
ابن علي الجعفي ، محمد بن بشر العبدي ، يحيى بن آدم ومحمد ويعلي وعمرو
بنو عبيد .

ومن اهل البصرة : الحسن بن ابي الحسن ، محمد بن سيرين ، قتادة
ابن دعامة ، بكر بن عبد الله المزني ، ايوب السختياني ، يونس بن عبيد ،
عبد الله بن عون ، سليمان التيمي ، هشام بن حسان الدستوائي ، شعبة
ابن الحجاج ، حماد بن سلمة ، حماد بن زيد ، ابو الاشهب ، يزيد بن ابراهيم ،

ابو عوانة ، وهيب بن خالد ، عبد الوارث بن سعيد ، معتمر بن سليمان
التمي ، يحيى بن سعيد القطان ، عبد الرحمن بن مهدي ، بشر بن المفضل ،
يزيد بن زريع ، المؤمل بن اسماعيل ، خالد بن الحارث ، معاذ بن معاذ ،
ابو عبد الرحمن المقرئ .

ومن اهل واسط : هشيم بن بشير ، خالد بن عبد الله ، علي بن عاصم ،
يزيد بن هارون ، صالح بن عمر بن علي بن عاصم .

ومن اهل المشرق : الضحاك بن مزاحم ، ابو جرة ، نصر بن عمران ،
عبد الله بن المبارك ، النضر بن شميل ، جرير بن عبد الحميد الضبي .

قال ابو عبيد : هؤلاء جميعاً يقولون : الايمان قول وعمل يزيد وينقص ؛
وهو قول اهل السنة المعمول به عندنا .

قلت : ذكر من الكوفيين من قال ذلك أكثر مما ذكر من غيرهم ،
لأن الارزاء في أهل الكوفة كان اولاً فيهم أكثر ، وكان اول من قاله حماد
ابن ابي سليمان ، فاحتاج علماءها ان يظهروا انكار ذلك ، فكثرت منهم من
قال ذلك ؛ كما ان التجهم وتعطيل الصفات لما كان ابتداء حدوثه من
خراسان ، أكثر من علماء خراسان ذلك الوقت من الانكار على الجهمية ما لم
يوجد قط لمن لم تكن هذه البدعة في بلده ولا سمع بها ، كما جاء في حديث :
« إن لله عند كل بدعة يكاد بها الاسلام واهله من يتكلم بعلامات الاسلام ؛
فاغتتموا تلك المجالس ، فان الرحمة تنزل على اهلها » او كما قال .

وإذا كان من قول السلف : ان الانسان يكون فيه إيمان ونفاق ،
فكذلك في قولهم : انه يكون فيه إيمان وكفر ، ليس هو الكفر الذي ينقل
عن الملة ؛ كما قال ابن عباس واصحابه في قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما انزل الله
فأولئك هم الكافرون) قالوا : كفروا كفراً لا ينقل عن الملة ، وقد اتبعهم على
ذلك احمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة .

قال الامام محمد بن نصر المروزي في كتاب « الصلاة » : اختلف الناس
في تفسير حديث جبرائيل هذا ، فقال طائفة من اصحابنا : قول النبي صلى الله
عليه وسلم : « الايمان ان تؤمن بالله » وما ذكر معه كلام جامع مختصر له
غور وقد وهمت المرجئة في تفسيره فتأولوه على غير تأويله قلة معرفة منهم
بلسان العرب ، وغور كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذي قد اعطى جوامع
الكلم وفوائده ، واختصر له الحديث اختصاراً . اما قوله : « الايمان ان
تؤمن بالله » فان توحيده وتصديق به بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره
باعطاء العزم للأداء لما امر ، مجانباً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة ، فاذا
فعلت ذلك لزمتم محابه واجتنبت مساخطه . واما قوله : « وملائكته »
فان تؤمن بمن سمي الله لك منهم في كتابه ، وتؤمن بأن الله ملائكة سوامه ،
لا يعرف اسماءهم وعددهم إلا الذي خلقهم . وأما قوله : « وكتبه » فان
تؤمن بما سمي الله من كتبه في كتابه من التوراة والانجيل والزبور خاصة ؛
وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتباً انزلها على انبيائه لا يعرف اسماءها وعددها إلا
الذي انزلها ، وتؤمن بالفرقان ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب .

إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان ، وإيمانك بالفرقان
إقرارك به واتباعك مافيه .

وأما قوله : « ورسله » فإن تؤمن بما سمي الله في كتابه من رسله ، وتؤمن
بأن الله سواهم رسلاً وأنبياء لا يعلم اسماءهم إلا الذي ارسلهم ، وتؤمن بمحمد
صلى الله عليه وسلم وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل . إيمانك بسائر الرسل
إقرارك بهم ، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائماً على ما جاء به ،
فإذا اتبعت ما جاء به أدبت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام ، ووقفت
عند الشبهات ، وسارعت في الخيرات ، وأما قوله : « واليوم الآخر » فإن تؤمن
بالبعث بعد الموت والحساب والميزان ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار ،
وبكل ما وصف الله به يوم القيامة . وأما قوله : « وتؤمن بالقدر خيره وشره »
فإن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن
ليصيبك ، ولا تقل : لو كان كذا لم يكن كذا ، ولولا كذا وكذا لم يكن
كذا وكذا . قال : فهذا هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر .

فصل

ومما يسأل عنه انه إذا كان ما اوجبه الله من الأعمال الظاهرة اكثر من هذه الخمس ؛ فلماذا قال : الاسلام هذه الخمس ، وقد أجاب بعض الناس بأن هذه اظهر شعائر الاسلام واعظمها ، وقيام العبد بها يتم اسلامه ، وتركه لها يشعر بأحلال قيد انقياده .

و « التحقيق » ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً ، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان . فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله بها مخلصاً له الدين . وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك فانما يجب بأسباب لمصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ؛ بل اما ان يكون فرضاً على الكفاية ، كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؛ وما يتبع ذلك من امارة ، وحكم ، وقتيا ؛ وإقراء ، وتحديث ، وغير ذلك . واما ان يجب بسبب حق للأدميين يختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط باسقاطه . وإذا حصلت المصلحة او الإبراء ، إما بإرائه واما بحصول المصلحة ، فحقوق العباد مثل قضاء الديون ، ورد الغصب ، والحواري والودائع ، والانصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض ؛ إنما هي حقوق الأدميين ، وإذا أبرئوا منها سقطت .

وتجب على شخص دون شخص في حال دون حال ، لم تجب عبادة محضة لله على كل عبد قادر ؛ ولهذا يشترك فيها المسلمون واليهود والنصارى ، بخلاف الخمسة فانها من خصائص المسلمين .

وكذلك ما يجب من صلة الأرحام ، وحقوق الزوجة ، والأولاد والجران والشركاء ، والفقراء . وما يجب من اداء الشهادة ، والفتيا ، والقضاء ، والامارة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ؛ كل ذلك يجب بأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار ، لو حصلت بدون فعل الانسان لم تجب ؛ فما كان مشتركاً فهو واجب على الكفاية ، وما كان مختصاً فانما يجب على زيد دون عمرو ، لا يشترك الناس في وجوب عمل بعينه على كل احد قادر سوى الخمس ؛ فان زوجة زيد واقاربه ليست زوجة عمرو واقاربه فليس الواجب على هذا مثل الواجب على هذا ، بخلاف صوم رمضان ، وحج البيت ، والصلوات الخمس ، والزكاة ؛ فان الزكاة وان كانت حقاً مالياً فانها واجبة لله ؛ والأصناف الثمانية مصارفها ؛ ولهذا وجبت فيها النية ، ولم يجز ان يفعلها الغير عنه بلا اذنه ، ولم تطلب من الكفار . وحقوق العباد لا يشترط لها النية ، ولو اداها غيره عنه بغير اذنه برئت ذمته ، ويطلب بها الكفار ، وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد ، وفيها شوب العقوبات فان الواجب لله « ثلاثة انواع » : عبادة محضة كالصلوات ، وعقوبات محضة كالحدود ، وما يشبهها كالكفارات . وكذلك كفارات الحج ، وما يجب بالنذر فان ذلك يجب بسبب فعل من العبد ، وهو واجب في ذمته .

واما « الزكاة » فانها تجب حقاً لله في ماله . ولهذا يقال : ليس في المال
 حق سوى الزكاة أي ليس فيه حق يجب بسبب المال سوى الزكاة ، وإلا فيه
 واجبات بغير سبب المال ، كما تجب النفقات للأقارب ، والزوجة ، والرقيق
 والبهائم ، ويجب حمل العاقلة ، ويجب قضاء الديون ، ويجب الاعطاء في النائبة
 ويجب اطعام الجائع وكسوة العاري فرضاً على الكفاية ؛ الى غير ذلك من
 الواجبات المالية . لكن بسبب عارض ، والمال شرط وجوبها ، كالاستطاعة
 في الحج ، فان البدن سبب الوجوب والاستطاعة شرط ، والمال في الزكاة
 هو السبب والوجوب معه ؛ حتى لو لم يكن في بلده من يستحقها حملها الى بلد
 اخرى ، وهي حق وجب لله تعالى . ولهذا قال : من قال من الفقهاء : ان
 التكليف شرط فيها ، فلا تجب على الصغير والمجنون . واما عامة الصحابة
 والجمهور ، كمالك والشافعي واحمد ، فأوجبوها في مال الصغير والمجنون ، لأن
 مالهما من جنس مال غيرها وليهما يقوم مقامهما ، بخلاف بينهما . فانه انما
 يتصرف بعقلهما ؛ وعقلهما ناقص . وصار هذا كما يجب العشر في ارضهما
 مع انه انما يستحقه الثمانية . وكذلك إيجاب الكفارة في مالهما . والصلاة
 والصيام انما تسقط لعجز العقل عن الإيجاب ، لاسيما إذا انضم إلى عجز البدن
 كالصغير . وهذا المعنى منتف في المال فان الولي قام مقامهما في الفهم كما يقوم
 مقامهما في جميع ما يجب في المال ، واما بينهما فلا يجب عليهما فيه شيء .

فصل

قال محمد بن نصر: واستدلوا على ان الايمان هو ما ذكره بالآيات التي تلونها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعات ايماناً، واستدلوا أيضاً بما قص الله من ابناء ابليس حين عصى ربه في سجدة واحدة امر أن يسجدها لآدم فأبأها. فهل جحد ابليس ربه وهو يقول: (رب بما اغويتني)؟! ويقول: (رب فأنظرنى الى يوم يبعثون) ايماناً منه بالبعث، وايماناً بنفاذ قدرته في انظاره اياه الى يوم يبعثون، وهل جحد احداً من انبيائه او انكر شيئاً من سلطانه وهو يحلف بغزته؟ وهل كان كفره الا بترك سجدة واحدة امر بها فأبأها؟ قال: واستدلوا أيضاً بما قص الله علينا من نبأ انبي آدم (اذ قربا قرباناً فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر) الى قوله: (فأصبح من الخاسرين) قالوا: وهل جحد ربه؟ وكيف يجحده وهو يقرب القربان؟ قالوا: قال الله تعالى: (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمدهم وهم لا يستكبرون) ولم يقل: اذا ذكروا بها أقروا بها فقط. وقال: (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به) يعني يتبعونه حق اتباعه؟

فان قيل : فهل مع ما ذكرت من سنة ثابتة ، تبين ان العمل داخل في الايمان بالله وملائكته وكتبه ورساله ؟ قيل : نعم عامة السنن والآثار تنطق بذلك ، منها حديث وفد عبد القيس : وذكر حديث شعبة وقره بن خالد عن ابي حمزة عن ابن عباس كما تقدم ، ولفظه « آمركم بالايمان بالله وحده » ثم قال : « هل تدرون ما الايمان بالله وحده ؟ » قالوا : الله ورسوله اعلم قال : « شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقام الصلاة وابتاء الزكاة وصوم رمضان وان تعطوا خمس ما غنمتم » وذكر احاديث كثيرة توجب دخول الأعمال في الايمان مثل قوله في حديث ^(١) لما سئل صلى الله عليه وسلم ^(٢)

ثم قال ابو عبد الله محمد بن نصر : اختلف اصحابنا في تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فقالت طائفة منهم : انما اراد النبي صلى الله عليه وسلم ازالة اسم الايمان عنه من غير ان يخرج من الاسلام . ولا يزيل عنه اسمه ، وفرقوا بين الايمان والاسلام ، وقالوا : اذا زنى فليس بمؤمن وهو مسلم ، واحتجوا التفريقهم بين الاسلام والايمان . بقوله : (قالت الأعراب آمنا) الآية ، فقالوا : الايمان خاص يثبت الاسم به بالعمل مع التوحيد ، والاسلام عام يثبت الاسم بالتوحيد والخروج من ملل الكفر واحتجوا بحديث سعد بن ابي وقاص ، وذكره عن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطى رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً . فقلت : يا رسول الله اعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً وهو مؤمن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « او مسلم » أعادها ثلاثاً ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « او مسلم » ثم قال :

(١) ياض بالاصل .

« انى لأعطي رجلاً وامنع آخرين وهم احب الي منهم مخافة ان يكبوا على وجوههم فى النار » قال الزهري : فدى ان الاسلام الكلمة ، والايان العمل .

قال محمد بن نصر : واحتجوا بانكار عبدالله بن مسعود على من شهد لنفسه بالايان فقال : انا مؤمن . من غير استثناء ، وكذلك اصحابه من بعده ، وجل علماء الكوفة على ذلك . واحتجوا بحديث أبي هريرة : « يخرج منه الايمان فان رجع رجع اليه » ، وبما أشبه ذلك من الأخبار ، وبما روى عن الحسن ومحمد بن سيرين انهما كانا يقولان : مسلم ، ويهايان : مؤمن ؛ واحتجوا بقول ابي جعفر الذي حدثناه اسحاق بن ابراهيم ، أنبأنا وهب بن جرير بن حازم ، حدثني ابي ، عن فضيل بن بشار ، عن ابي جعفر محمد بن على انه سئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن » ، فقال ابو جعفر : هذا الاسلام ودور دائرة واسعة ، وهذا الايمان ودور دائرة صغيرة فى وسط الكبيرة ، فاذا زنى او سرق خرج من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرج من الاسلام الا الكفر بالله . واحتجوا بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » ، حدثنا بذلك يحيى بن يحيى ، حدثنا ابن لهيعة عن شريح بن هانيء عن عقبة بن عامر الجهني ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » .

وذكر عن حماد بن زيد أنه كان يفرق بين الايمان والاسلام ، فجعل

الإيمان خاصاً والاسلام عاما . قال : فلنا في هؤلاء اسوة وبهم قدوة ، مع ما ثبت ذلك من النظر ، وذلك ان الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومدحة ، أوجب عليه الجنة فقال : (وكان بالمؤمنين رحيماً . تحيتهم يوم يلقونه سلام واعد لهم اجراً كريماً) وقال : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) وقال : (وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم) وقال : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم) وقال : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) وقال : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) .

قال : ثم اوجب الله النار على الكبائر ، فدل بذلك على ان اسم الايمان زائل عن آتى كبيرة . قالوا : ولم نجده اوجب الجنة باسم الاسلام ، فثبت ان اسم الاسلام له ثابت على حاله ، واسم الايمان زائل عنه .

فان قيل لهم في قولهم هذا : ليس الايمان ضد الكفر ، قالوا : الكفر ضد لأصل الايمان ، لأن للايمان أصلاً وفروعاً ، فلا يثبت الكفر حتى يزول أصل الايمان الذي هو ضد الكفر ، فان قيل لهم : فالذين زعمتم ان النبي صلى الله عليه وسلم أزال عنهم اسم الايمان هل فيهم من الايمان شيء ؟ قالوا : نعم اصله ثابت ، ولولا ذلك لكفروا . ألم تسمع الى ابن مسعود انكر على النبي شهد انه مؤمن ثم قال : لكننا تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، يخبرك انه قد آمن من جهة انه صدق ، وانه لا يستحق اسم المؤمن إذا كان يعلم انه مقصر ،

لأنه لا يستحق هذا الاسم عنده إلا من أدى ما وجب عليه واتهى عما حرم عليه من الموجبات للنار التي هي الكبائر .

قالوا : فلما ابان الله ان هذا الاسم يستحقه من قد استحق الجنة ، وان الله قد اوجب الجنة عليه . وعلمنا انا قد آمننا وصدقنا ؛ لأنه لا يخرج من التصديق إلا بالتكذيب ؛ ولسنا بشاكين ولا مكذبين ؛ وعلمنا انا عاصون له مستوجبون للعذاب وهو ضد الثواب الذي حكم الله به للمؤمنين على اسم الايمان ؛ علمنا انا قد آمننا وأمسكنا عن الاسم الذي اثبت الله عليه الحكم في الجنة وهو من الله اسم ثناء ، وتركية ، وقد نهانا الله ان نزي أنفسنا ، وأمرنا بالحرف على أنفسنا ، وأوجب لنا العذاب بعصياننا ، فعلمنا انا لسنا بمستحقين بأن نسمى مؤمنين إذ اوجب الله على اسم الايمان الثناء والتركية والرأفة والرحمة والمغفرة والجنة ؛ وأوجب على الكبائر النار ، وهذان حكمان متضادان .

فان قيل : فكيف أمسكتكم عن اسم الايمان ان تسموا به واتم تزعمون ان اصل الايمان في قلوبكم وهو التصديق بأن الله حق ، وما قاله صدق ؟ قالوا : إن الله ورسوله وجماهير المسلمين سموا الأشياء بما غلب عليها من الأسماء ، فسموا الزاني فاسقاً ، والقاذف فاسقاً وشارب الخمر فاسقاً ، ولم يسموا واحداً من هؤلاء متقياً ولا ورعاً ؛ وقد أجمع المسلمون ان فيه اصل التقوى والورع ، وذلك انه يتقي ان يكفر او يشرك بالله شيئاً . وكذلك يتقي الله ان يترك الغسل من الجنابة او الصلاة ، ويتقي ان يأتي امه ، فهو في جميع ذلك متق ، وقد اجمع

للمسلمون من الموافقين والمخالفين انهم لا يسمونه متقياً ولا ورعاً إذا كان يأتي بالفجور ، فلما اجمعوا ان اصل التقى والورع ثابت فيه ، وانه قد يزيد فيه فرعاً بعد الأصل كتورعه عن إتيان المحارم ، ثم لا يسمونه متقياً ولا ورعاً مع إتيانه بعض الكبائر ، بل سموه فاسقاً وفاجراً مع علمهم انه قد اتى ببعض التقى والورع ، فمنعهم من ذلك ان اسم التقى اسم ثناء وتزكية ، وان الله قد اوجب عليه المغفرة والجنة .

قالوا : فلذلك لا نسميه مؤمناً ونسميه فاسقاً زانياً . وان كان في قلبه اصل اسم الايمان ، لأن الايمان اسم اتى الله به على المؤمنين وزكاهم به وأوجب عليه الجنة ، فمن ثم قلنا : مسلم ولم نقل : مؤمن . قالوا : ولو كان احد من المسلمين الموحدين يستحق ان لا يكون في قلبه ايمان ولا اسلام لكان أحق الناس بذلك اهل النار الذين دخلوها . فلما وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يخبر ان الله يقول : « اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » ثبت ان شر المسلمين في قلبه ايمان ، ولما وجدنا الأمة تحكم عليه بالأحكام التي ألزمها الله للمسلمين ولا يكفرونهم ، ولا يشهدون لهم بالجنة : ثبت انهم مسلمون اذ اجمعوا ان يمضوا عليهم احكام المسلمين ، وانهم لا يستحقون ان يسموا مؤمنين إذ كان الاسلام يثبت للملة التي يخرج بها الانسان من جميع الملل فتزول عنه اسماء الملل إلا اسم الاسلام وثبت احكام الاسلام عليه وتزول عنه احكام جميع الملل .

فان قال لهم قائل : لمَ لم تقولوا : كافر ان شاء الله ، تريدون به كمال الكفر ، كما قلتم : مؤمنون ان شاء الله تريدون به كمال الايمان ؟ قالوا : لأن الكافر منكر للحق ، والمؤمن اصل إيمانه الاقرار ، والانكار لا أول له ولا آخر فنتنظر به الحقائق ، والايمان اصله التصديق ، والاقرار ينتظر به حقائق الأداء لما اقر ، والتحقيق لما صدق ؛ ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل ، فسأل احدهما حقه ، فقال : ليس لك عندي حق ، فأنكر وجحد فلم يبق له منزلة يحقق بها ما قال إذا جحد وانكر ، وسأل الآخر حقه فقال : نعم لك علي كذا وكذا ، فليس اقراره بالذي يصل إليه بذلك حقه دون ان يوفيه ؛ فهو منتظر له ان يحقق ما قال بالأداء ويصدق اقراره بالوفاء . ولو أقر ثم لم يؤد اليه حقه كان كمن جحده في المعنى اذ استويا في الترك للأداء ، فتحقيق ما قال ان يؤدى اليه حقه ؛ فان ادى جزءاً منه حقق بعض ما قال ووفى ببعض ما اقر به . وكلما ادى جزءاً ازداد تحقيقاً لما اقر به . وعلى المؤمن الأداء أبداً بما اقر به حتى يموت . فمن ثم قلنا : مؤمن ان شاء الله ولم نقل : كافر إن شاء الله .

قال محمد بن نصر : وقالت طائفة أخرى من اصحاب الحديث بمثل مقالة هؤلاء ، إلا انهم سموه مسلماً لخروجه من ملل الكفر ولاقراره بالله ، وبما قال ولم يسموه مؤمناً . وزعموا انهم مع تسميتهم إياه بالاسلام كافر ؛ لا كافر بالله ؛ ولكن كافر من طريق العمل . وقالوا : كفر لا ينقل عن الملة ؛ وقالوا : محال ان يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »

والكفر ضد الايمان ، فلا يزول عنه اسم الايمان إلا واسم الكفر لازم له لأن الكفر ضد الايمان ، إلا ان الكفر كفران : كفر هو جحد بالله وبما قال فذاك ضده الاقرار بالله والتصديق به وبما قال ، وكفر هو عمل فهو ضد الايمان الذي هو عمل ، ألا ترى الى ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » قالوا : فاذا لم يؤمن فقد كفر ، ولا يجوز غير ذلك الا أنه كفر من جهة العمل ، إذ لم يؤمن من جهة العمل ، لأنه لا يضيع ما فرض عليه ويرتكب الكبائر إلا من قلة خوفه وإنما يقل خوفه من قلة تعظيمه لله ووعيده ، فقد ترك من الايمان التعظيم الذي صدر عنه الحرف والورع فأقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمن إذا لم يأمن جاره بوائقه .

ثم قد روى جماعة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وانه قال : « اذا قال المسلم لأخيه : يا كافر ! فلم يكن كذلك باء بالكفر » . فقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم بقتاله أخاه كافراً وبقوله له : يا كافر ! كافراً ؛ وهذه الكلمة دون الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر . قالوا : فأما قول من احتج علينا فزعم انا اذا سمينا كافراً لزمنا ان يحكم عليه بحكم الكافرين بالله ، فنستتبه ونبطل الحدود عنه ؛ لأنه اذا كفر فقد زالت عنه احكام المؤمنين وحدودهم ، وفي ذلك اسقاط الحدود واحكام المؤمنين على كل من اتى كبيرة ، فانا لم نذهب في ذلك الى حيث ذهبوا ولكننا نقول : للايمان اصل وفرع ، وضد الايمان الكفر في كل معنى ، فأصل الايمان الاقرار والتصديق ، وفرعه اكمال العمل بالقلب والبدن ، فضع الاقرار والتصديق الذي

هو اصل الايمان : الكفر بالله وبما قال ، وترك التصديق به وله ، وضد الايمان الذي هو عمل ، وليس هو اقرار ، كفر ليس بكفر بالله ينقل عن الملة؛ ولكن كفر تضييع العمل ، كما كان العمل ايماناً ، وليس هو الايمان الذي هو اقرار بالله ، فلما كان من ترك الايمان الذي هو اقرار بالله كافراً ، يستتاب ومن ترك الايمان الذي هو عمل مثل الزكاة والحج والصوم ، او ترك الورع عن شرب الخمر والزنا ، قد زال عنه بعض الايمان ، ولا يجب ان يستتاب عندنا ولا عند من خالفنا من اهل السنة واهل البدع ممن قال : ان الايمان تصديق وعمل ، الا الحوارج وحدها ، فكذلك لا يجب بقولنا : كافر من جهة تضييع العمل ان يستتاب ، ولا تزول عنه الحدود ، كما لم يكن بزوال الايمان الذي هو عمل استتابة ، ولا ازالة الحدود والأحكام عنه ، اذ لم يزل اصل الايمان عنه فكذلك لا يجب علينا استتابة وازالة الحدود والأحكام عنه باثباتنا له اسم الكفر من قبل العمل ، اذ لم يأت بأصل الكفر الذي هو جحد بالله او بما قال .

قالوا : ولما كان العلم بالله ايماناً ، والجهل به كفراً ، وكان العمل بالفرائض ايماناً ، والجهل بها قبل نزولها ليس بكفر ، لأن اصحاب رسول صلى الله عليه وسلم قد اقرؤا بالله اول ما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم إليهم ، ولم يعلموا الفرائض التي افترضت عليهم بعد ذلك ، فلم يكن جهلهم بذلك كفراً ، ثم انزل الله عليهم الفرائض ، فكان اقرارهم بها والقيام بها ايماناً ، وانما يكفر من جحدها لتكذيبه خبر الله ؛ ولو لم يأت خبر من الله ، ما كان بجهلها كافراً

وبعد مجيء الخبر ، من لم يسمع بالخبر من المسلمين ، لم يكن بجهلها كافراً . والجهل بالله في كل حال كفر قبل الخبر وبعد الخبر .

قالوا : فمن ثم قلنا : ان ترك التصديق بالله كفر ؛ وان ترك الفرائض مع تصديق الله انه قد اوجبها كفر ؛ ليس بكفر بالله ، انما هو كفر من جهة ترك الحق كما يقول القائل : كفرتني حقي ونعمتي ، يريد ضيعت حقي وضيعت شكر نعمتي ؛ قالوا : ولنا في هذا قدوة بمن روى عنهم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين . اذ جعلوا للكفر فروعاً دون اصله ، لا ينقل صاحبه عن ملة الاسلام . كما اثبتوا للايمان من جهة العمل فروعاً للأصل لا ينقل تركه عن ملة الاسلام ، من ذلك قول ابن عباس في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . قال محمد بن نصر : حدثنا ابن يحيى ، حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام يعني ابن عروة عن حجير ، عن طاووس عن ابن عباس : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ليس بالكفر الذي يذهبون اليه .

حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن رافع ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال هي به كفر ، قال ابن طاووس : وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله .

حدثنا اسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاووس ، عن

أبيه ، عن ابن عباس قال : هو به كفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه
ورسله ، وبه أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال :
قلت لابن عباس : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) فهو كافر . قال : هو به كفر
وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله .

حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا عبد الرزاق عن سفيان عن رجاء عن طاووس
عن ابن عباس قال : كفر لا ينقل عن الملة .

حدثنا اسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن سعيد المكي عن طاووس قال
ليس بكفر ينقل عن الملة .

حدثنا اسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء قال : كفر
دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

قال محمد بن نصر : قالوا : وقد صدق عطاء ، قد يسمى الكافر ظالماً
ويسمى العاصي من المسلمين ظالماً ، فظلم ينقل عن ملة الاسلام ، وظلم لا ينقل .
قال الله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وقال : (ان الشرك لظلم
عظيم) وذكر حديث ابن مسعود المتفق عليه قال : لما نزلت : (الذين آمنوا ولم
يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا :
أينا لم يظلم نفسه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بذلك . لم تسمعوا
الى قول العبد الصالح : (ان الشرك لظلم عظيم) انما هو الشرك .

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحجاج بن المنهال عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ان عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه ، فدخل ذات يوم فقراً ، فأتى على هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الى آخر الآية ، فاتعل واخذ رداءه ثم أتى الى ابي بن كعب فقال : يا با المنذر اتيت قبل على هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وقد نرى انا نظلم ونفعل . فقال : يا امير المؤمنين ان هذا ليس بذلك ، يقول الله : (ان الشرك لظلم عظيم) انما ذلك الشرك .

قال محمد بن نصر : وكذلك « الفسق فسقان » : فسق ينقل عن الملة وفسق لا ينقل عن الملة فيسمى الكافر فاسقاً ، والفاسق من المسلمين فاسقاً . ذكر الله إبليس فقال : (ففسق عن امر ربه) وكان ذلك الفسق منه كفراً ، وقال الله تعالى : (واما الذين فسقوا فمأواهم النار) يريد الكفار ، دل على ذلك قوله : (كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) وسمى الفاسق من المسلمين فاسقاً ولم يخرج من الاسلام . قال الله تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً وأولئك هم الفاسقون) وقال تعالى : (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) فقالت العلماء في تفسير الفسوق ها هنا : هي المعاصي .

قالوا : فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين ، كذلك الكفر كفران :

(أحدهما) ينقل عن الملة ، و (الآخر) لا ينقل عن الملة ، وكذلك الشرك «شركان» : شرك في التوحيد ينقل عن الملة ، وشرك في العمل لا ينقل عن الملة وهو الرياء قال تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) يريد بذلك المرءاة بالأعمال الصالحة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الطيرة شرك » .

قال محمد بن نصر : فهذان مذهبان هما في الجملة محكيان عن أحمد بن حنبل في موافقيه من أصحاب الحديث ، حكى الشالنجي إسماعيل بن سعيد أنه سأل أحمد ابن حنبل عن المصر على الكبراء يطلبها بجهد إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصيام ، هل يكون مصرأ من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر ، مثل قوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام ، ومن نحو قوله : « لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن » ومن نحو قول ابن عباس في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فقلت له : ما هذا الكفر ؟ فقال : كفر لا ينقل عن الملة ، مثل الإيمان بعضه دون بعض ، وكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه . وقال ابن أبي شيبة : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن : لا يكون مستكمل الإيمان ، يكون ناقصاً من إيمانه قال : وسألت أحمد بن حنبل عن « الإسلام ، والإيمان » فقال : الإيمان قول وعمل ، والإسلام إقرار . قال : وبه قال أبو خيثمة ، وقال ابن أبي شيبة لا يكون الإسلام إلا بإيمان ، ولا إيمان إلا بإسلام .

« قلت » : وقد تقدم تمام الكلام بتلازمهما وان كان مسمى احدهما ليس هو مسمى الآخر . وقد حكى غير واحد اجماع اهل السنة والحديث على ان الايمان قول وعمل . قال ابو عمر بن عبد البر في « التمهيد » : اجمع اهل الفقه والحديث على ان الايمان قول وعمل ، ولا عمل الا بنية ، والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . والطاعات كلها عندهم ايمان الا ما ذكر عن ابي حنيفة واصحابه فانهم ذهبوا الى ان الطاعة لا تسمى ايمانا قالوا انما الايمان التصديق والاقرار . ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به ... الى ان قال :

وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن انس ، والليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي والشافعي واحمد بن حنبل ، واسحاق بن راهويه ، وابو عبيد القاسم بن سلام ، وداود ابن علي والطبري ومن سلك سبيلهم ؛ فقالوا : الايمان قول وعمل ، قول باللسان وهو الاقرار واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة . قالوا : وكل ما بطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الايمان ، والايمان يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي واهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملي الايمان من أجل ذنوبهم ، وانما صاروا ناقصي الايمان بارتكابهم الكبائر . ألا ترى الى قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ... الحديث يريد مستكمل الايمان ، ولم يرد به نفي جميع الايمان عن فاعل ذلك ، بدليل الاجماع على تورث الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا الى القبلة وانتحلوا دعوة الاسلام ، من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا

بتلك الأحوال ، واحتج على ذلك ؛ ثم قال : واكثر اصحاب مالك على أن
الايان والاسلام شيء واحد .

قال : واما قول المعتزلة . فالايان عندهم جميع الطاعات ، ومن قصر منها
عن شيء فهو فاسق ؛ لا مؤمن ولا كافر ، وهؤلاء هم المتحققون بالاعتزال اصحاب
المنزلة بين المنزلتين . . . الى ان قال : وعلى ان الايمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة
وينقص بالمعصية ، وعليه جماعة اهل الآثار ؛ والفقهاء من اهل الفتيا في الأمصار
وروى ابن القاسم عن مالك ان الايمان يزيد وتوقف في نقصانه . وروى عنه
عبد الرزاق ومعن بن عيسى وابن نافع انه يزيد وينقص ؛ وعلى هذا مذهب
الجماعة من اهل الحديث ، والحمد لله .

ثم ذكر حجج المرجئة ؛ ثم حجج اهل السنة ، ورد على الخوارج التكفير
بالحدود المذكورة للعصاة في الزنا والسرقه ، ونحو ذلك . وبالوارثة ومحدث
عبادة : « من اصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة » وقال :
الايان مراتب بعضها فوق بعض ؛ فليس ناقص الايمان ككامل الايمان .
قال الله تعالى : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) اي حقاً .
ولذلك قال : (هم المؤمنون حقاً) وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن
من امنه الناس ؛ والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » - يعنى حقاً -
ومن هذا قوله : « اكمل المؤمنين إيماناً » . ومعلوم ان هذا لا يكون اكمل
حتى يكون غيره انقص !

وقوله : « اوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله » . وقوله :
« لا إيمان لمن لا امانة له » يدل على ان بعض الايمان اوثق واكمل من بعض
وذكر الحديث الذي رواه الترمذى وغيره : « من احب لله وابغض لله »
الحديث . وكذلك ذكر ابو عمرو الطلمنكي اجماع اهل السنة على ان الايمان
قول وعمل ونية واصابة السنة . وقال ابو طالب المكي : مباني الاسلام الخمسة :
يعنى الشهادتين : والصلوات الخمس : والزكاة وصيام شهر رمضان : والحج .
قال واركان الايمان سبعة : يعنى الخمسة المذكورة فى حديث جبرائيل ، والايمان
بالقدر : والايمان بالجنة والنار ، وكلاهما قد رويت فى حديث جبريل كما
سند ذكر ان شاء الله تعالى .

قال : والايمان بأسماء الله تعالى وصفاته : والايمان بكتب الله وانبيائه ،
والايمان بالملائكة والشياطين : يعنى - والله اعلم - الايمان بالفرق بينهما ؛
فان من الناس من يجعلهما جنساً واحداً ؛ لكن تختلف باختلاف الأعمال ، كما
يختلف الانسان البر والفاجر ، والايمان بالجنة والنار ؛ وانهما قد خلقتا قبل
آدم . والايمان بالبعث بعد الموت ، والايمان بجميع اقدار الله خيرها وشرها
وحلوها ومرها ؛ انها من الله قضاء وقدرأ ومشيئة وحكما ، وان ذلك عدل منه
وحكمة بالغة ؛ استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها .

قال : وقد قال قائلون : إن الايمان هو الاسلام ، وهذا قد اذهب
التفاوت والمقامات ، وهذا يقرب من مذهب المرجئة : وقال آخرون : ان

الاسلام غير الايمان وهؤلاء قد ادخلوا التضاد والتغاير، وهذا قريب من قول الأباضية؛ فهذه مسألة مشكلة تحتاج إلى شرح وتفصيل، فمثل الاسلام من الايمان، كمثل الشهادتين أحدهما من الأخرى في المعنى والحكم، فشهادة الرسول غير شهادة الوجدانية، فهما شيئان في الأعيان. واحدهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد، كذلك الايمان والاسلام احدهما مرتبط بالآخر، فهما كشيء واحد، لا ايمان لمن لا اسلام له؛ ولا اسلام لمن لا ايمان له اذ لا يخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه، ولا يخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الايمان؛ واشترط للايمان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسبعه) وقال في تحقيق الايمان بالعمل: (ومن بآته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) فمن كان ظاهره اعمال الاسلام ولا يرجع الى عقود الايمان بالغيب فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة ومن كان عقده الايمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الايمان وشرائع الاسلام فهو كافر كفوفاً لا يثبت معه توحيد؛ ومن كان مؤمناً بالغيب مما اخبرت به الرسل عن الله عاملاً بما امر الله فهو مؤمن مسلم؛ ولولا انه كذلك لكان المؤمن يجوز ان لا يسمى مسلماً؛ ولجواز ان المسلم لا يسمى مؤمناً بالله.

وقد اجمع اهل القبلة على ان كل مؤمن مسلم؛ وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه قال: ومثل الايمان في الأعمال كمثل القلب في الجسم لا ينفك احدهما عن الآخر؛ لا يكون ذو جسم حي لا قلب له؛ ولا ذو قلب بغير

جسم : فهما شيئان منفردان ؛ وهما في الحكم والمعنى منفصلان ؛ ومثلهما ايضاً مثل حبة لها ظاهر وباطن وهي واحدة . لا يقال : حبتان : لتفاوت صفتيها .
فكذلك اعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الايمان ؛ وهو من اعمال الجوارح ، والايمان باطن الاسلام وهو من اعمال القلوب .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الاسلام علانية ؛ والايمان في القلب »: وفي لفظ : « الايمان سر » فالاسلام اعمال الايمان ؛ والايمان عقود الاسلام : فلا ايمان الا بعمل ؛ ولا عمل الا بعقد . ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن : احدهما مرتبط بصاحبه من اعمال القلوب وعمل الجوارح ؛ ومثله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «انما الأعمال بالنيات» اى لا عمل الا بعقد وقصد ، لأن « إنما » تحقيق للشيء ونفى لما سواه ؛ فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات ؛ وعمل القلوب من النيات ؛ فمثل العمل من الايمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام الا بهما ؛ لان الشفتين تجمع الحروف ؛ واللسان يظهر الكلام ؛ وفي سقوط احدهما بطلان الكلام ؛ وكذلك في سقوط العمل ذهاب الايمان ؛ ولذلك حين عدد الله نعمه على الانسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان في قوله : (الم نجعل له عينين ولساناً وشفتين) بمعنى الم نجعله ناظراً متكلماً ؛ فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين ؛ لان الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم الا بهما .

ومثل « الايمان » و « الاسلام » ايضاً كفسطاط قائم في الأرض له ظاهر

والأطناب وله عمود في باطنه ، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح ، وهي الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذي في وسط الفسطاط . مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلا به ، فقد احتاج الفسطاط إليها ، إذ لا قوام له ولا قوة إلا بهما ، كذلك الإسلام في أعمال الجوارح لا قوام له إلا بالإيمان ، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام ، وهو صالح الأعمال .

و « أيضاً » فإن الله قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحداً ، فلو لا أنهما كشيء واحد في الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً فقال : (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) وقال : (أيا حركم بالكفر بعد إذ اتهم مسلمون) . فجعل ضدهما الكفر . قال : وعلى مثل هذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، والإسلام من صنف واحد ؛ فقال في حديث ابن عمر : « بنى الإسلام على خمس » وقال في حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف ، فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر ، وإن الإيمان والعمل ، قرينان لا ينفع أحدهما بدون صاحبه .

قال : فأما تفرقة النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل بين الإيمان والإسلام فإن ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعاني التي وصفناها أن تكون عقوداً من تفصيل أعمال الجوارح مما يوجب الأفعال

الظاهرة التي وصفها أن تكون علانية ، لا أن ذلك يفرق بين الإسلام والايان في المعنى باختلاف وتضاد ، ليس فيه دليل أنهما مختلفان في الحكم ، قال :
ويجتمعان في عبد واحد مسلم مؤمن ، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه ، وما ذكره من العلانية وصف جسمه .

قال : و « أيضاً » فان الأمة مجتمعة ان العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب في حديث جبريل من وصف الايمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الاسلام انه لا يسمي مؤمناً ، وانه إن عمل بجميع ما وصف به الاسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من الايمان انه لا يكون مسلماً ، وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الأمة لا تجتمع على ضلالة .

قلت : كأنه اراد بذلك إجماع الصحابة ومن اتبعهم ، او انه لا يسمي مؤمناً في الأحكام ، وانه لا يكون مسلماً إذا انكر بعض هذه الأركان ، او علم ان الرسول اخبر بها ولم يصدقه ، او انه لم ير خلاف اهل الأهواء خلافاً ؛ وإلا فأبو طالب كان عارفاً بأقوالهم ، وهذا - والله اعلم - مراده ، فانه عقد « الفصل الثالث والثلاثين » في بيان تفصيل الاسلام والايان ، وشرح عقود معاملة القلب من مذهب اهل الجماعة ، وهذا الذي قاله اجود مما قاله كثير من الناس ، لكن ينازع في شيئين .

(احدها) : ان المسلم المستحق للثواب لا بد ان يكون معه الايمان الواجب
المفصل المذكور في حديث جبريل .

و (الثاني) : ان النبي صلى الله عليه وسلم انما يطلق مؤمناً دون مسلم في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « او مسلم » لكونه ليس من خواص المؤمنين وفاضلهم ، كأنه يقول : لكونه ليس من السابقين المقربين بل من المقتصدین الأبرار ، فهذان مما تنازع فيهما جمهور العلماء ، ويقولون : لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الرجل « او مسلم » لكونه لم يكن من خواص المؤمنين وفاضلهم كالسابقين ، المقربين ، فان هذا لو كان كذلك لكان ينفي الايمان المطلق عن الأبرار المقتصدین المتقين الموعودين بالجنة بلا عذاب إذا كانوا من اصحاب اليمين ، ولم يكونوا من السابقين والمقربين ؛ وليس الأمر كذلك ، بل كل من اصحاب اليمين مع السابقين المقربين ، كلهم مؤمنون موعودون بالجنة بلا عذاب، وكل من كان كذلك فهو [مؤمن] بانفاق المسلمين من اهل السنة، واهل البدع؛ ولو جاز ان ينفي الايمان عن شخص لكون غيره افضل منه إيماناً نفي الايمان عن اكثر اولياء الله المتقين ، بل وعن كثير من الأنبياء ، وهذا في غاية الفساد ، وهذا من جنس قول من يقول : نفي الاسم لنفي كماله المستحب .

وقد ذكرنا ان مثل هذا لا يوجد في كلام الله ورسوله ؛ بل هذا الحديث خص من قيل فيه مسلم وليس بمؤمن ، فلا بد ان يكون ناقصاً عن درجة الأبرار المقتصدین اهل الجنة ، ويكون إيمانه ناقصاً عن إيمان هؤلاء كلهم ، فلا يكون قد أتى بالايمان الذي امر به هؤلاء كله ، ثم إن كان قادراً على ذلك الايمان وترك الواجب ، كان مستحقاً للذم ، وان قدر أنه لا يقدر على ذلك الايمان الذي اتصف به هؤلاء ، كان عاجزاً عن مثل إيمانهم ، ولا يكون هذا وجب عليه ، فهو وان

دخل الجنة لا يكون كمن قدر انه آمن إيماناً مجملًا ومات قبل ان يعلم تفصيل
الايان وقبل ان يتحقق به ويعمل بشيء منه ، فهو يدخل الجنة ، لكن لا يكون
مثل اولئك .

لكن قد يقال : الأبرار اهل اليمين هم ايضاً على درجات ، كما في الحديث
الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « المؤمن القوي خير واحب الى
الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » وقد قال الله تعالى : (لا يستوى القاعدون
من المؤمنين غير اولى الضرر) الآية فدرجة المؤمن القوي في الجنة اعلى وإن كان
كل منهما كمل ما وجب عليه ، وقد يريد ابو طالب وغيره بقولهم : ليس هذا
من خواص المؤمنين هذا المعنى : اي ليس ايمانه كايان من حقق خاصة الايمان سواء
كان من الأبرار او من المقربين ، وان لم يكن ترك واجباً لعجزه عنه او لكونه لم
يؤمر به ، فلا يكون مذموماً ، ولا يمدح مدح اولئك ، ولا يلزم أن يكون من
اولئك المقربين .

فيقال : وهذا ايضاً لا ينفي عنه الايمان . فيقال : هو مسلم لا مؤمن ، كما
يقال : ليس بعالم ولا مفت ، ولا من اهل الاجتهاد ، وقد قال النبي صلى الله
عليه وسلم « لو انفق احدكم مثل احد ذهباً ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه » وهذا
كثير ، فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدوراً لمن دونه ، فكذلك من
حقائق الايمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس ، بل ولا أكثرهم ، فهؤلاء
يدخلون الجنة ، وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التي فضل الله بها
غيرهم ، ولا تركوا واجباً عليهم وان كان واجباً على غيرهم ، ولهذا كان من الايمان

ما هو من المواهب والفضل من الله فانه من جنس العلم ، والاسلام الظاهر من جنس العمل ؛ وقد قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) : وقال : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقال : (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) .

ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ؛ ولكن الله يجعل ذلك في قلبه فضلاً منه وجزاء على عمل سابق ، كما قال : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تئيباً ؛ وإذا لا تيناهم من لدنا اجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً) كما قال : (اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) وكما قال : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) ولهذا قيل : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ؛ وهذا الجنس غير مقدور للعباد ؛ وإن كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضاً بفضل الله وإعائته وإقداره لهم ؛ لكن الأمور قسمان : منه ما جنسه مقدور لهم لاعانة الله لهم ، كالقيام والقعود ، ومنه ما جنسه غير مقدور لهم ؛ اذا قيل : إن الله يعطي من اطاعه قوة في قلبه وبدنه يكون بها قادراً على ما لا يقدر عليه غيره فهذا أيضاً حق وهو من جنس هذا المعنى . قال تعالى : (اذ يوحى ربك الى الملائكة أتي معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقد قال : (اذا لقيتم فئة فاثبتوا) فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحى الى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين .

والمقصود أنه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ، ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ، ويفضل الله ذلك بهذا الايمان ، وإن لم يكن المفضل ترك واجباً ، فيقال : وكذلك في الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ، ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره ؛ لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل إذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ، ولكن بدنه عاجز كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة حبسهم العذر » . وكما قال تعالى : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم ؛ فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة) فاستنى أولى الضرر .

وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير ان ينقص من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير ان ينقص من أوزارهم شيئاً » . وفي حديث أبي كبشة الأثماري : « هما في الاجر سواء ، وهما في الوزر سواء » ، رواه الترمذي وصححه ولفظه : « إنما الدنيا لأربعة : رجل آتاه الله علماً ومالاً فهو يتقى في ذلك المال ربه ، ويصل فيه رحمة ، ويعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وبعد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية ، يقول : لو ان لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته ، فأجرهما سواء ، وبعد

رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو ان لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيتي ، فوزرها سواء .»

ولفظ ابن ماجه : « مثل هذه الامة كمثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول : لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فهما في الاجر سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً ، فهو يخبط في ماله ينفقه في غير حقه ، ورجل لم يؤته علماً ولا مالا وهو يقول : لو كان لي مثل مال هذا عملت مثل الذي يعمل ، فهما في الوزر سواء .»

كالشخصين إذا تماثلا في ايمان القلوب معرفة وتصديقاً وجباً وقوة وحالا ومقاماً ، فقد يتماثلان ، وإن كان لاحدهما من اعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر ، كما جاء في الأثر : ان المؤمن قوته في قلبه وضعفه في جسمه ، والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « ليس الشديد ذو الصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وقد قال : « رأيت كأنى انزع على قلب ، فأخذها ابن ابى قحافة ، فنزع ذنوباً او ذنوبين وفي نزعها ضعف والله يغفر له ، فأخذها ابن الخطاب فاستحالت في

يده غرباً . فلم ار عبقرياً يفري فريه حتى صدر الناس بعطن» ، فذكر ان ابا بكر
 اضعف ، وسواء اراد قصر مدته او اراد ضعفه عن مثل قوة عمر ، فلا ريب ان
 ابا بكر اقوى ايماناً من عمر . وعمر اقوى عملاً منه كما قال ابن مسعود : ما زلنا
 أعزة منذ اسلم عمر : وقوة الايمان اقوى واكمل من قوة العمل ، وصاحب
 الايمان يكتب له اجر عمل غيره ، وما فعله عمر في سيرته مكتوب مثله لأبي بكر
 فانه هو الذي استخلفه .

وفي «المسند» من وجهين عن النبي صلى الله عليه وسلم ان النبي صلى الله عليه
 وسلم وزن بالأمة فرجح ، ثم وزن ابو بكر بالأمة فرجح ، ثم وزن عمر بالأمة
 فرجح ، وكان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد موته يحصل لعمر بسبب
 ابي بكر من الايمان والعلم ما لم يكن عنده ، فهو قد دعاه الى ما فعله من خير
 واعانه عليه بجهده ، والمعين على الفعل اذا كان يريد ارادة جازمة كان كفاعله ،
 كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من جهز
 غازياً فقد غزا ، ومن خلفه في اهله بخير فقد غزا » وقال : « من دل على خير
 فله مثل اجر فاعله » وقال : « من فطر صائماً فله مثل اجره » .

وقد روي الترمذي « من عزي مصاباً فله مثل اجره » وهذا وغيره مما
 يبين ان الشخصين قد يتماثلان في الأعمال الظاهرة ، بل يتفاضلان ويكون
 المفضل فيها افضل عند الله من الآخر ، لأنه افضل في الايمان الذي في القلب ،
 واما اذا تفاضلا في ايمان القلوب فلا يكون المفضل فيها افضل عند الله البتة ،

وان كان المفضل لم يهبه الله من الايمان ما وهبه للفاضل ، ولا اعطي قلبه من الأسباب التي بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما اعطي المفضل ، ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض ، وان كان الفاضل اقل عملاً من المفضل . كما فضل الله نبينا صلى الله عليه وسلم - ومدة نبوته بضع وعشرون سنة - على نوح وقد لبث في قومه الف سنة الا خمسين عاماً ، وفضل امة محمد وقد عملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من اول النهار الى صلاة الظهر ، وعلى من عمل من صلاة الظهر الى العصر . فأعطى الله امة محمد اجرين ، واعطي كلا من اولئك اجراً اجراً ، لأن الايمان الذي في قلوبهم كان اكمل وافضل . وكان اولئك اكثر عملاً ؛ وهؤلاء اعظم اجراً ، وهو فضله يؤتية من يشاء بالأسباب التي تفضل بها عليهم وخصهم بها .

وهكذا سائر من يفضله الله تعالى ، فانه يفضله بالأسباب التي يستحق بها التفضيل بالجزاء ، كما يخص احد الشخصين بقوة ينال بها العلم ، وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص ؛ وغير ذلك مما يفضله الله به ، وانما فضله في الجزاء بما فضل به من الايمان . كما قال تعالى : (وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى احد مثل ما اوتيتم او يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله) وقال في الآية الأخرى : (الله اعلم حيث يجعل رسالته) وقال : (الله بصطني من الملائكة رسلاً ومن الناس) وقال : (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) .

وقد بين في مواضع اسباب المغفرة واسباب العذاب ، وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب ، وقد عرف انه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق .

وإذا كان من الايمان ما يعجز عنه كثير من الناس ويختص الله به من يشاء فذلك مما يفضلهم الله به ، وذلك الايمان ينفي عن غيرهم ، لكن لا على وجه النعم بل على وجه التفضيل ، فان النعم انما يكون على ترك مأمور او فعل محظور . لكن على ما ذكره ابو طالب . يقال : فمثل هؤلاء مسلمون لا مؤمنون باعتبار ويقال : إنهم مؤمنون باعتبار آخر ، وعلى هذا ينفي الايمان عن فاته الكمال المستحب ؛ بل الكمال الذي يفضل به على من فاته ، وإن كان غير مقدور للعباد بل ينفي عنه الكمال الذي وجب على غيره ، وان لم يكن في حقه لا واجباً ولا مستحباً ، لكن هذا لا يعرف في كلام الشارع ، ولم يعرف في كلامه إلا ان نفي الايمان يقتضي النعم حيث كان ، فلا ينفي الايمان له ذنب ، فتبين ان قوله : « او مسلم » توقف في اداء الواجبات الباطنة والظاهرة كما قال جماهير الناس .

ثم طائفة يقولون : قد يكون منافقاً ليس معه شيء من الايمان ، وهم الذين يقولون : الأعراب المذكورون منافقون ليس معهم من الايمان شيء ، وهذا هو القول الذي نصره طائفة ، كمحمد بن نصر ، والأكثر يقولون : بل هؤلاء لم يكونوا من المنافقين الذين لا يقبل منهم شيء من اعمالهم ، وان كان فيهم شعبة نفاق ؛ بل كان معهم تصديق يقبل معه منهم ما عملوه لله ، ولهذا جعلهم مسلمين ؛ ولهذا قال : (أن هذا كم للايمان ان كنتم صادقين) كما

قالوا مثل ذلك في الزاني والسارق وغيرها ممن نفى عنه الايمان ، مع ان معه التصديق . وهذا أصح الأقوال الثلاثة فيهم .

وأبو طالب جعل من كان مذموماً لترك واجب ، من المؤلفة قلوبهم الذين لم يعطوا شيئاً ، وجعل ذلك الشخص مؤمناً غيره افضل منه . واما الأكثرون فيقولون : إثبات الاسلام لهم دون الايمان كإثباته لذلك الشخص كان مسلماً لا مؤمناً كلاهما مذموم ، لا مجرد ان غيره افضل منه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » ولم يسلب عمن دونه الايمان . وقال تعالى : (لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل ، اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى) .

فأثبت الايمان للفاضل والمفضل ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان اجتهد فأخطأ فله اجر » وقال لسعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة » وكان يقول لمن يرسله في جيش او سرية : « إذا حاصرت اهل حصن فسألوك ان تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، فانك لا تدري ما حكم الله فيهم ؛ ولكن أنزلهم على حكمك وحكم اصحابك » . وهذه الأحاديث الثلاثة في « الصحيح » وفي حديث سليمان عليه السلام : واسألك حكماً يوافق حكمك .

فهذه النصوص وغيرها تدل على ما اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم

باحسان ان أحد الشخصين قد يخصه الله باجتهد يحصل له به من العلم ما يعجز عنه غيره فيكون له أجران ، وذلك الآخر عاجز له اجر ولا إثم عليه ؛ وذلك العلم الذي خص به هذا . والعمل به باطناً ، وظاهراً زيادة في إيمانه ، وهو ايمان يجب عليه ، لأنه قادر عليه . وغيره عاجز عنه فلا يجب . فهذا قد فضل بإيمان واجب عليه وليس بواجب على من عجز عنه .

وهذا حال جميع الأمة فيما تنازعت فيه من المسائل الحبرية والعملية إذا خص أحدها بمعرفة الحق في نفس الأمر مع اجتهاد الآخر وعجزه ، كلاهما محمود مثاب مؤمن ، وذلك خصه الله من الايمان الذي وجب عليه بما فضله به على هذا ؛ وذلك المخطيء لا يستحق ذمماً ولا عقاباً ، وإن كان ذلك لو فعل ما فعل ذم وعوقب ، كما خص الله أمة نبينا بشريعة فضلها به ، ولو تركنا مما أمرنا به فيها شيئاً ، لكان ذلك سبباً للذم والعقاب ؛ والأنبياء قبلنا لا يذمون بترك ذلك لكن محمد صلى الله عليه وسلم فضله الله على الأنبياء وفضل امته على الأمم من غير ذم لأحد من الأنبياء ، ولا لمن اتبعهم من الأمم .

وأيضاً فإذا كان الانسان لا يجب عليه شيء من الايمان إلا ما يقدر عليه وهو إذا فعل ذلك كان مستحقاً لما وعد الله به من الجنة ، فلو كان مثل هذا يسمى مسلماً ولا يسمى مؤمناً لوجب ان يكون من اهل الوعد بالجنة من يسمى مسلماً لا مؤمناً كالأعراب ، وكالشخص الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « او مسلم » وكسائر من نفي عنه الايمان مع أنه مسلم ، كالزاني ، والشارب

والسارق ، ومن لا يأمن جاره بوائقه ، ومن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب
لنفسه ؛ وغير هؤلاء ، وليس الأمر كذلك .

فان الله لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الايمان ، لم يعلقه باسم الاسلام مع ايجابه
الاسلام وإخباره انه دينة الذي ارتضاه ؛ وانه لا يقبل ديناً غيره ، ومع هذا فما
قال : إن الجنة اعدت للمسلمين ، ولا قال : وعد الله المسلمين بالجنة ، بل إنما
ذكر ذلك باسم الايمان كقوله : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من
تحتها الأنهار) فهو يعلقها باسم الايمان المطلق ، او المقيد بالعمل الصالح ، كقوله :
(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لولئك هم خير البرية ؛ جزأؤهم عند ربهم جنات
عدن تجري من تحتها الأنهار) وقوله : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات
ان لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا
الذي رزقنا من قبل) وقوله : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله : (فأما
الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم اجرهم ويزيدهم من فضله) وقوله : (فأما
الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه
صراطاً مستقيماً) وقوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري
من تحتها الأنهار خالدين فيها ابداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً)
وفي الآية الأخرى : (ومن اصدق من الله قيلاً) وقال : (واما الذين آمنوا
وعملوا الصالحات فيوفيههم اجرهم والله لا يحب الظالمين) وقال : (وعد الله
الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) وقال : (فمن آمن واصلح

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فالوعد بالجنة والرحمة في الآخرة ، وبالسلامة من العذاب ، علق باسم الايمان المطلق ، والمقيد بالعمل الصالح ، ونحو ذلك ؛ وهذا كما تقدم ان المطلق يدخل فيه فعل ما امر الله به ورسوله ، ولم يعلق باسم الاسلام . فلو كان من آتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلماً لا مؤمناً ، لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلماً وان لم يسم مؤمناً ، وليس الامر كذلك ، بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان ، وهذا ايضاً مما استدل به من قال: إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة ، إذ لو كان الامر كذلك لكان وعد الجنة معلقاً باسم الاسلام ، كما علق باسم الايمان وكما علق باسم «التقوى» واسم «البر» في مثل قوله : (ان المتقين في جنات ونهر) وقوله : (ان الابرار لفي نعيم) وباسم اولياء الله ، كقوله : (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) فلما لم يجر اسم الاسلام هذا المجرى ، علم ان مسماه ليس ملازماً لمسمى الايمان كما يلزمه اسم البر والتقوى واولياء الله ، وان اسم الاسلام يتناول من هو من اهل الوعيد وإن كان الله يثيبه على طاعته ، مثل ان يكون في قلبه ايمان ، ونفاق يستحق به العذاب ، فهذا يعاقبه الله ولا يخلده في النار ؛ لان في قلبه مثقال ذرة او اكثر من مثقال ذرة من ايمان .

وهكذا سائر اهل الكبائر ايمانهم ناقص ، وإذا كان في قلب احدكم شعبة نفاق عوقب بها اذا لم يعف الله عنه ، ولم يخذل في النار ، فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم ايمان . لكن معهم أيضاً ما يخالف الايمان من النفاق ، فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين ، لا سيما ان كانوا للكفر اقرب منهم للايمان ، وهؤلاء يدخلون في اسم الايمان في احكام الدنيا . كما يدخل المنافق المحض وأولى ؛ لأن هؤلاء معهم ايمان يدخلون به في خطاب الله بـ (يا أيها الذين آمنوا) ، لان ذلك امر لهم بما ينفعهم ونهي لهم عما يضرهم ، وهم محتاجون الى ذلك ، ثم ان الايمان الذي معهم ان اقتضى شمول لفظ الخطاب لهم فلا كلام ، والا فليسوا بأسوأ حالاً من المنافق المحض ، وذلك المنافق يخاطب بهذه الاعمال وتتفعه في الدنيا ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة ، ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها في الدنيا ، لكن وقت الحقيقة يضرب (بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتمكم الاماني . حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور ، فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) وقد قال تعالى : (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن نجد لهم نصيراً الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين اجراً عظيماً) .

فاذا عمل العبد صالحاً لله : فهذا هو الاسلام الذي هو دين الله ، ويكون

معه من الايمان ما يحشر به مع المؤمنين يوم القيامة ؛ ثم ان كان معه من الذنوب ما يعذب به عذب واخرج من النار ؛ اذا كان في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان وان كان معه نفاق ؛ ولهذا قال تعالى في هؤلاء : (فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين اجراً عظيماً) فلم يقل : انهم مؤمنون بمجرد هذا ، اذ لم يذكر الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بل هم معهم ، وانما ذكر العمل الصالح واخلاصه لله ، وقال : (فأولئك مع المؤمنين) فيكون لهم حكمهم .

وقد بين تفاضل المؤمنين في مواضع آخر ، وانه من آتى بالايمان الواجب استحق الثواب ، ومن كان فيه شعبة نفاق وآتى بالكبائر ، فذاك من اهل الوعيد ، وايمانه ينفعه الله به ؛ ويخرجه به من النار ولو انه مثقال حبة خردل لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب . وتام هذا ان الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الايمان ، وشعبة من شعب الكفر او النفاق ، ويسمى مسلماً ، كما نص عليه احمد .

وتام هذا ان الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الايمان ، وشعبة من شعب النفاق ؛ وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الاسلام بالكلية ، كما قال الصحابة : ابن عباس وغيره : كفر دون كفر . وهذا قول عامة السلف ، وهو الذي نص عليه احمد وغيره ممن قال في السارق ، والشارب ، ونحوهم ممن قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « انه ليس بمؤمن » . انه يقال لهم : مسلمون لا مؤمنون ؛ واستدلوا بالقرآن والسنة على نفي اسم الايمان مع اثبات اسم الاسلام ، وبأن الرجل قد يكون مسلماً ومعه كفر

لا ينقل عن الملة ، بل كفر دون كفر ، كما قال ابن عباس واصحابه في قوله :
(ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون) قالوا : كفر لا ينقل عن الملة ،
وكفر دون كفر ، وفسق دون فسق ، وظلم دون ظلم .

وهذا أيضاً مما استشهد به البخاري في « صحيحه » فان كتاب « الايمان »
الذي افتتح به « الصحيح » قرر مذهب اهل السنة والجماعة ، وضمنه الرد على
المرجئة ، فانه كان من القائلين بنصر السنة والجماعة مذهب الصحابة والتابعين
لهم باحسان .

وقد اتفق العلماء على ان اسم المسلمين في الظاهر يجري على المنافقين ،
لأنهم استسلموا ظاهراً . واتوا بما اتوا به من الأعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة ،
والزكاة الظاهرة ، والحج الظاهر ، والجهاد الظاهر ، كما كان النبي يجري عليهم
أحكام الاسلام الظاهر . واتفقوا على انه من لم يكن معه شيء من الايمان فهو
كما قال تعالى : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) ، وفيها قراءتان (درك
ودرك) قال ابو الحسين ابن فارس : الجنة درجات ، والنار دركات . قال الضحاك :
الدرج : إذا كان بعضها فوق بعض . والدرك : إذا كان بعضها اسفل من بعض ،
فصار المظهرون للاسلام بعضهم في أعلى درجة في الجنة وهو رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، كما قال في الحديث الصحيح : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ،
ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وارجو
ان اكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم

القيامة» وقوله: صلى الله عليه وسلم: «وارجو ان اكون» مثل قوله: «إني لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده» ولا ريب انه اخشى الأمة لله واعلمهم بحدوده .

وكذلك قوله: «اختبأت دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة فهي نائلة ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً». وقوله: «إني لارجو ان تكونوا نصف اهل الجنة» وامثال هذه النصوص ، وكان يستدل به احمد وغيره على الاستثناء في الايمان كما تذكره في موضعه .

والقصد ان خير المؤمنين في اعلى درجات الجنة ، والمنافقون في الذرك الأسفل من النار ، وان كانوا في الدنيا مسلمين ظاهراً تجري عليهم احكام الاسلام الظاهرة ؛ فمن كان فيه ايمان ونفاق يسمى مسلماً ، اذ ليس هو دون المنافق المحض ، واذا كان نفاقه اغلب لم يستحق اسم الايمان ، بل اسم المنافق احق به ، فان ما فيه بياض وسواد وسواده أكثر من بياضه هو باسم الاسود احق منه باسم الابيض ، كما قال تعالى: (م للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان) واما اذا كان ايمانه اغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد ، لم يكن ايضاً من المؤمنين الموعودين بالجنة ، وهذا حجة لما ذكره محمد بن نصر عن احمد ، ولم اره انا فيما بلغني من كلام احمد ولا ذكره الحلال ونحوه . وقال محمد بن نصر: وحكي غير هؤلاء عن احمد انه قال : من آتى هذه الأربعة: الزنا والسرقه وشرب الخمر ، والتهبة التي يرفع الناس فيها ابصارهم اليه ، او مثلهن او فوقهن ، فهو مسلم ولا اسميه

مؤمناً ، ومن أتى دون الكبار نسيه مؤمناً ناقص الإيمان ، فإن صاحب هذا القول يقول : لما نفى عنه النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان ، نفى عنه كما نفاه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم والرسول لم ينفه إلا عن صاحب كبيرة ، والا فالمؤمن الذي يفعل الصغيرة هي مكفرة عنه بفعله للحسنات واجتنابه للكبائر ، لكنه ناقص الإيمان عمن أجنب الصغائر ، فما أتى بالإيمان الواجب ، ولكن خلطه بسيئات كفرت عنه بغيرها ، ونقصت بذلك درجته عمن لم يأت بذلك .

وأما الذين نفى عنهم الرسول الإيمان ، فنفيه كما نفاه الرسول ، واولئك وان كان معهم التصديق واصل الإيمان فقد تركوا منه ما استحقوا لأجله سلب الإيمان ، وقد يجتمع في العبد نفاق وإيمان ، وكفر وإيمان ، فالإيمان المطلق عند هؤلاء ما كان صاحبه مستحقاً للوعد بالجنة .

وطوائف «اهل الأهواء» من الخوارج والمعتزلة ، والجهمية والمرجئة ، كراميتهم وغير كراميتهم يقولون : إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق ، ومنهم من يدعي الاجماع على ذلك ، وقد ذكر ابو الحسن في بعض كتبه الاجماع على ذلك ومن هنا غلطوا فيه وخالفوا فيه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم باحسان مع مخالفة صريح العقول ؛ بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد ، وقالوا : لا يجتمع في الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب ، ومعصية يستحق بها العقاب ولا يكون الشخص الواحد محموداً من وجه مذموماً من

وجه ، ولا محبوباً مدعواً له من وجه مسخوطاً ملعوناً من وجه ، ولا يتصور ان الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جميعاً عندهم بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى عندهم . ولهذا انكروا خروج احد من النار او الشفاعة في احد من اهل النار . وحكى عن غالية المرجئة انهم وافقوهم على هذا الاصل ، لكن هؤلاء قالوا : ان اهل الكبائر يدخلون الجنة ولا يدخلون النار مقابلة لاولئك .

واما اهل السنة والجماعة والصحابة ، والتابعون لهم باحسان : وسائر طوائف المسلمين من اهل الحديث والفقهاء واهل الكلام من مرجئة الفقهاء والكرامية والكلابية والاشعرية ، والشيعية مرجئهم وغير مرجئهم ، فيقولون : ان الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار ثم يدخله الجنة كما نطقت بذلك الاحاديث الصحيحة ، وهذا الشخص الذي له سيئات عذب بها ، وله حسنات دخل بها الجنة ، وله معصية وطاعة بانفاق ، فان هؤلاء الطوائف لم يتنازعا في حكمه ؛ لكن تنازعا في اسمه . فقالت المرجئة : جهيمتهم وغير جهيمتهم : هو مؤمن كامل الايمان . واهل السنة والجماعة على انه مؤمن ناقص الايمان ، ولو لا ذلك لما عذب ، كما انه ناقص البر والتقوى باتفاق المسلمين وهل يطلق عليه اسم مؤمن ؟ هذا فيه القولان ، والصحيح التفصيل . فاذا سئل عن احكام الدنيا كعتقه في الكفارة . قيل : هو مؤمن وكذلك اذا سئل عن دخوله في خطاب المؤمنين .

واما اذا سئل عن حكمه في الآخرة . قيل : ليس هذا النوع من المؤمنين

الموعودين بالجنة، بل معه ايمان يمنعه الخلود في النار ويدخل به الجنة بعد ان يعذب في النار ان لم يغفر الله له ذنوبه، ولهذا قال من قال: هو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته او مؤمن ناقص الايمان، والذين لا يسمونه مؤمناً من اهل السنة ومن المعتزلة يقولون: اسم الفسوق ينافي اسم الايمان لقوله: (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) وقوله: (افمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وعلى هذا الأصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر، ومعه ايمان أيضاً، وعلى هذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في تسمية كثير من الذنوب كفراً، مع ان صاحبها قد يكون معه اكثر من مقال ذرة من ايمان فلا يخلد في النار. كقوله « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، وقوله: « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض » وهذا مستفيض عن النبي صلى الله عليه وسلم في « الصحيح » من غير وجه، فانه امر في حجة الوداع ان ينادى به في الناس، فقد سمي من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفاراً؛ وسمى هذا الفعل كفراً؛ ومع هذا فقد قال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) الى قوله: (انما المؤمنون إخوة) فبين ان هؤلاء لم يخرجوا من الايمان بالكلية، ولكن فيهم ما هو كفر وهي هذه الحصلة. كما قال بعض الصحابة: كفر دون كفر. وكذلك قوله: « من قال لأخيه يا كافر! فقد باء بها احدها » فقد سماه أخاه حين القول؛ وقد أخبر ان أحدها باء بها، فلو خرج احدها عن الاسلام بالكلية لم يكن اخاه، بل فيه كفر .

وكذلك قوله في الحديث الصحيح : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه الا كفر » وفي حديث آخر : « كفر بالله من تبرأ من نسب وان دق » وكان من القرآن الذي نسخ لفظه : « لا ترغبوا عن آبائكم فان كفراً بكم ان ترغبوا عن آبائكم » فان حق الوالدين مقررون بحق الله في مثل قوله : (ان اشكر لي ولوالديك الي المصير) وقوله : (وقضى ربك ان لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً) فالوالد أصله الذي منه خلق ، والولد من كسبه . كما قال : (ما اغنى عنه ماله وما كسب) فالجحد لها شعبة من شعب الكفر ، فانه جحد لما منه خلقه ربه ، فقد جحد خلق الرب إياه ، وقد كان في لغة من قبلنا يسمى الرب أباً ، فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه ، ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية ، وسنتكلم ان شاء الله على سائر الأحاديث .

والمقصود هنا ذكر « اصل جامع » تنبى عليه معرفة النصوص ، ورد ما تنازع فيه الناس الى الكتاب والسنة ، فان الناس كثر نزاعهم في مواضع في مسمى الايمان والاسلام لكثرة ذكرها ، وكثرة كلام الناس فيهما ، والاسم كلما كثر التكلم فيه ، فتكلم به مطلقاً ومقيداً بقيد ، ومقيد بقيد آخر في موضع آخر . كان هذا سبباً لاشتباه بعض معناه ، ثم كلما كثر سماعه كثر من يشتهه عليه ذلك . ومن اسباب ذلك ان يسمع بعض الناس بعض موارد ولا يسمع بعضه ، ويكون ما سمعه مقيداً بقيد أوجه اختصاصه بمعنى ، فيظن معناه في سائر موارد كذلك ؛ فمن اتبع علمه حتى عرف مواقع الاستعمال عامة ، وعلم مأخذ

الشبه اعطى كل ذي حق حقه ، وعلم ان خير الكلام كلام الله ، وانه لا بيان اتم من بيانه ؛ وان ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذي يحتاجون اليه أضعاف اضعاف ما تنازعوا فيه .

فالمسلمون : سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الايمان بالله وملائكته وكتبه ورساله واليوم الآخر ، ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ومتفقون على ان من اطاع الله ورسوله فانه يدخل الجنة ؛ ولا يعذب ، وعلى ان من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه فهو كافر وامثال هذه الأمور التي هي اصول الدين وقواعد الايمان التي اتفق عليها المنتسبون الى الاسلام والايمان ، فتنازعهم بعد هذا في بعض احكام الوعيد او بعض معاني بعض الأسماء أمر خفيف بالنسبة الى ما اتفقوا عليه ، مع ان المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة ؛ مشهود عليهم بالضلالة ؛ ليس لهم في الأمة لسان صدق ولا قبول عام ، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم ، وانما تنازع اهل العلم والسنة في امور دقيقة تخفى على اكثر الناس ؛ ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه الى الله ورسوله . والرد الى الله ورسوله في « مسأله الاسلام ، والايمان » يوجب ان كلامنا من الأسمين وان كان مسماً واجباً لا يستحق احد اللجنة إلا بأن يكون مؤمناً ، مسلماً . فالحق في ذلك ما بينه النبي في حديث جبريل ، فجعل الدين واهله « ثلاث طبقات » : اولها : الاسلام ، واوسطها الايمان ، واعلاها الاحسان ، ومن وصل الى العليا

فقد وصل الى التي تليها . فالحسن مؤمن ، والمؤمن مسلم ؛ واما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمناً .

وهكذا جاء القرآن ، فجعل الأمة على هذه الأصناف الثلاثة . قال تعالى :
(ثم أورتنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فالسلم الذي لم يقم بواجب الايمان هو الظالم لنفسه ، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي ادى الواجب وترك المحرم ؛ والسابق بالخيرات هو الحسن الذي عبد الله كأنه يراه .
وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس في المعاد الى هذه الثلاثة في سورة (الواقعة) و (المطففين) و (هل أتى) وذكر الكفار أيضاً ، واما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عباده .

وقال ابو سليمان الخطابي : ما أكثر ما يغلط الناس في « هذه المسألة »
فأما الزهري فقال : الاسلام الكلمة ، والايمان العمل ، واحتج بالآية ، وذهب غيره الى ان الاسلام والايمان شيء واحد . فاحتج بقوله : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) قال الخطابي : وقد تكلم رجلان من اهل العلم وصار كل واحد منهما الى قول واحد من هذين ورد الآخر منهما على المتقدم ، ووصف عليه كتاباً يبلغ عدد اوراقه المائتين . قال الخطابي : والصحيح من ذلك ، ان يقيد الكلام في هذا ، ولا يطلق ؛ وذلك ان المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال ولا يكون مؤمناً في بعضها ، والمؤمن

مسلم في جميع الأحوال ، فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات ، واعتدل القول فيها ، ولم يختلف شيء منها .

«قلت» : الرجالن اللذان اشار إليهما الخطابي، اظن احدهما- وهو السابق- محمد بن نصر ، فانه الذي علمته بسط الكلام في ان الاسلام والايمان شيء واحد من اهل السنة والحديث ، وما علمت لغيره قبله بسطاً في هذا . والآخر الذي رد عليه أظنه ..^(١) لكن لم اقف على رده ؛ والذي اختاره الخطابي هو قول من فرق بينهما ، كأبي جعفر ، وحماد بن زيد ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وهو قول احمد بن حنبل وغيره ؛ ولا علمت أحداً من المتقدمين خالف هؤلاء ، فجعل نفس الاسلام نفس الايمان ؛ ولهذا كان عامة اهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء كما ذكره الخطابي . .

وكذلك ذكر ابو القاسم التيمي الأصبهاني وابنه محمد شارح « مسلم » وغيرهما ان المختار عند اهل السنة انه لا يطلق على السارق والزاني اسم مؤمن كما دل عليه النص ، وقد ذكر الخطابي : في « شرح البخاري » كلاماً يقتضي تلازمهما مع افتراق اسميهما ، وذكره البغوي في « شرح السنة » فقال : قد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام اسماً لما ظهر من الأعمال ، وجعل الايمان اسماً لما بطن من الاعتقاد وليس كذلك ، لأن الأعمال ليست من الايمان

(١) ياض بالأصا .

او التصديق بالقلب ليس من الاسلام ، بل ذلك تفصيل الجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » والتصديق والعمل يتناولهما اسم الاسلام والايمان جميعاً ؛ يدل عليه قوله تعالى : (ان الدين عند الله الاسلام) وقوله تعالى : (ورضيت لكم الاسلام ديناً) وقوله : (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) فيبين أن الدين الذي رضىه ويقبله من عباده هو الاسلام ، ولا يكون الدين في محل الرضى والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل .

« قلت » : تفريق النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل وإن اقتضى أن الأعلى هو الاحسان والاحسان يتضمن الايمان ، والايمان يتضمن الاسلام ، فلا يدل على العكس ولو قدر انه دل على التلازم فهو صريح بأن مسمى هذا ليس مسمى هذا ، لكن التحقيق ان الدلالة تختلف بالتجريد والاقتران كما قد بيناه ، ومن فهم هذا انحلت عنه اشكالات كثيرة في كثير من المواضع حاد عنها طوائف — « مسألة الايمان » وغيرها — وما ذكره من ان الدين لا يكون في محل الرضى والقبول إلا بانضمام التصديق الى العمل ، يدل على انه لا بد مع العمل من الايمان ؛ فهذا يدل على وجوب الايمان مطلقاً ، لكن لا يدل على ان العمل الذي هو الدين ، ليس اسمه إسلاماً ، واذا كان الايمان شرطاً في قبوله لم يلزم ان يكون ملازماً له ؛ ولو كان ملازماً له لم يلزم ان يكون جزء مسماه .

وقال الشيخ ابو عمرو بن الصلاح : قوله صلى الله عليه وسلم : « الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله » الى آخره ؛ والايمان « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » الى آخره . قال : هذا بيان لأصل الايمان ، وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الاسلام ، وهو الاستسلام والانتقاد الظاهر ، وحكم الاسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين ، وانما أضاف اليهما الأربع لكونها اظهر شعائر الاسلام ومعظمها ، وقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بحل قيد انقياده او انحلاله .

ثم ان اسم الايمان يتناول ما فسر به الاسلام في هذا الحديث ، وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو اصل الايمان ، مقومات ومتممات وحافظات له ، ولهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الايمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين ، والصلاة والزكاة ، والصوم ، واعطاء الخمس من المغنم ؛ ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة او ترك فريضة ، لأن اسم الشيء الكامل يقع على الكامل منه ، ولا يستعمل في الناقص ظاهراً إلا بقيد ، ولذلك جاز اطلاق نفيه عنه في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » .

واسم « الاسلام » يتناول ايضاً ما هو « اصل الايمان » وهو التصديق ويتناول « اصل الطاعات » فان ذلك كله استسلام ، قال : فخرج مما ذكرناه وحققناه ان الاسلام والايمان يجتمعان ويفترقان ؛ وان كل مؤمن مسلم ، وليس

كل مسلم مؤمناً ، قال : فهذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة في الايمان والاسلام التي طالما غلط فيها الخائضون ؛ وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من اهل الحديث وغيرهم .

فيقال : هذا الذي ذكره رحمه الله فيه من الموافقة لما قد بين من اقوال الأئمة ، وما دل عليه الكتاب والسنة ما يظهر به أن الجمهور يقولون : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ، وقوله : ان الحديث ذكر فيه اصل الايمان واصل الاسلام ، قد يورد عليه ان النبي صلى الله عليه وسلم اجاب عن الايمان والاسلام بما هو من جنس الجواب بالحد عن المحدود ؛ فيكون ما ذكره مطابقاً لهما لا لأصلهما فقط ، فالايمان هو الايمان بما ذكره باطنياً وظاهراً ؛ لكن ما ذكره من الايمان تضمن الاسلام ، كما ان الاحسان تضمن الايمان .

وقول القائل : أصل الاستسلام هو الاسلام الظاهر فالاسلام هو الاستسلام لله والانقياد له ظاهراً وباطناً ، فهذا هو دين الاسلام الذي ارتضاه الله كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، ومن اسلم بظاهره دون باطنه فهو منافق يقبل ظاهره ، فانه لم يؤمر ان يشق عن قلوب الناس . وايضاً فاذا كان الاسلام يتناول التصديق الباطن الذي هو أصل الايمان . فيلزم ان يكون كل مسلم مؤمناً ، وهو خلاف ما نقل عن الجمهور ، ولكن لا بد في الاسلام من تصديق يحصل به اصل الايمان ، والا لم يثبت عليه ؛ فيكون

حينئذ مساماً مؤمناً، فلا بد ان يتبين المسلم الذي ليس بمؤمن، ودخوله في الاسلام، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وقوله: « الاسلام هو الأركان الخمسة » لا يعني به من أداها بلا إخلاص لله بل مع النفاق، بل المراد من فعلها كما أمر بها باطناً وظاهراً، وذكر الخمس انها هي الاسلام لأنها هي العبادات المحضة التي تجب لله تعالى على كل عبد مطيق لها. وما سواها إما واجب على الكفاية لمصلحة إذا حصلت سقط الوجوب، وإما من حقوق الناس بعضهم على بعض وان كان فيها قرينة ونحو ذلك. وتلك تابعة لهذه كما قال: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » « وافضل الاسلام ان تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ونحو ذلك: فهذه الخمس هي الأركان والمباني كما في الايمان.

وقول القائل: الطاعات ثمرات التصديق الباطن، يراد به شيان: يراد به أنها لوازم له، فحتى وجد الايمان الباطن وجدت، وهذا مذهب السلف واهل السنة، ويراد به ان الايمان الباطن قد يكون سبباً، وقد يكون الايمان الباطن تاماً كاملاً وهي لم توجد، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم، وقد ذكرنا فيما تقدم أنهم غلطوا في ثلاثة أوجه:

(احدها): ظنهم ان الايمان الذي في القلب يكون تاماً بدون العمل الذي في القلب تصديق بلا عمل للقلب. كمحبة الله وخشيته وخوفه والتوكل عليه والشوق الى لقاءه.

و (الثاني) : ظنهم ان الايمان الذي في القلب يكون تاماً بدون العمل
اظهار ، وهذا يقول به جميع المرجئة .

و (الثالث) : قولهم كل من كفره الشارع فانما كفره لانتفاء تصديق
القلب بالرب تبارك وتعالى ، وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذاهب السلف
واقوال المرجئة والجهمية : لاختلاط هذا بهذا في كلام كثير منهم ممن هو في
باطنه يرى رأي الجهمية والمرجئة في الايمان ، وهو معظم للسلف واهل الحديث
فيظن انه يجمع بينهما ، او يجمع بين كلام امثاله وكلام السلف .

قال ابو عبد الله محمد بن نصر المروزي : وقالت « طائفة ثالثة » وهم الجمهور
الاعظم من اهل السنة والجماعة واصحاب الحديث : الايمان النبي دعا الله العباد
اليه وافترضه عليهم هو الاسلام الذي جعله ديناً وارتضاه لعباده ودعاه اليه ، وهو
ضد الكفر الذي سخطه فقال : (ولا يرضى لعباده الكفر) وقال : (ورضيت
لكم الاسلام ديناً) وقال : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام)
وقال : (ائمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه؟) فمدح الله
الاسلام بمثل ما مدح به الايمان . وجعله اسم تناء وتركية ، فأخبر ان من اسلم
فهو على نور من ربه وهدى ، واخبر انه دينه الذي ارتضاه ، وما ارتضاه فقد
احبه وامتدحه ، ألا ترى ان انبياء الله ورسله رغبوا فيه اليه وسألوه اياه ، فقال
إبراهيم واسماعيل : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك)
وقال يوسف : (توفي مسلماً والحقني بالصالحين) وقال : (ووصى بها ابراهيم

بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا واتم مسلمون)
وقال : (وقل للذين اتوا الكتاب والاميين السلمتم؟ فان اسلموا فقد
اهدوا) وقال في موضع آخر : (قولوا آمنا بالله وما انزل اليه وما انزل الى
ابراهيم واسماعيل واسحاق) الى قوله (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهدوا)
فحكّم الله بأن من اسلم فقد اهتدى ، ومن آمن فقد اهتدى ، فسوى بينهما .

قال : وقد ذكرنا تمام الحجة في ان الاسلام هو الايمان ، وانهمالا يفترقان ،
ولا يتباينان في موضع غير هذا ، فكرهنا إعادته في هذا الموضع كراهة
التطويل والتكرير ، غير انا سنذكر من الحجة ما لم نذكره في غير هذا الموضع ،
ونبين خطأ تأويلهم ، والحجج التي احتجوا بها من الكتاب والخبار على
التفرقة بين الاسلام والايمان .

«قلت» : مقصود محمد بن نصر المروزي - رحمه الله - : ان المسلم الممدوح
هو المؤمن الممدوح ؛ وان المذموم ناقص الاسلام والايمان ، وان كل مؤمن
فهو مسلم ، وكل مسلم فلا بد ان يكون معه ايمان ، وهذا صحيح ، وهو متفق
عليه ، ومقصوده ايضاً ، ان من أطلق عليه الاسلام اطلق عليه الايمان ، وهذا
فيه نزاع لفظي ، ومقصوده ان مسمى احدهما هو مسمى الآخر ، وهذا لا يعرف
عن احد من السلف . وإن قيل : هما متلازمان . فالمتلازمان لا يجب ان يكون
مسمى هذا هو مسمى هذا ، وهو لم ينقل عن احد من الصحابة والتابعين لهم
باحسان ولا أئمة الاسلام المشهورين انه قال : مسمى الاسلام هو مسمى

الإيمان كما نصر : بل ولا عرفت أنا أحداً قال ذلك من السلف ، ولكن المشهور عن الجماعة من السلف والخلف ان المؤمن المستحق لوعده الله هو المسلم المستحق لوعده الله ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف بل وبين فرق الأمة كلهم يقولون : إن المؤمن الذي وعد بالجنة لا بد ان يكون مسلماً ، والمسلم الذي وعد بالجنة لا بد ان يكون مؤمناً ، وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الأولين والآخرين فهو مؤمن مسلم .

ثم ان اهل السنة يقولون : الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة معهم بعض ذلك ، وانما النزاع في إطلاق الاسم ، فالتقول متواترة عن السلف بأن الإيمان قول وعمل ، ولم ينقل عنهم شيء من ذلك في الإسلام ، ولكن لما كان الجمهور الأعظم يقولون : ان الإسلام هو الدين كله ، ليس هو الكلمة فقط خلاف ظاهر ما نقل عن الزهري ، فكانوا يقولون : ان الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من الأفعال المأمور بها هي من الإسلام كما هي من الإيمان ، ظن انهم يجعلونها شيئاً واحداً ، وليس كذلك : فان الإيمان مستلزم للإسلام باتفاقهم ، وليس اذا كان الإسلام داخلياً فيه يلزم ان يكون هو اياه ؛ واما الإسلام فليس معه دليل على انه يستلزم الإيمان عند الاطلاق ، ولكن هل يستلزم الإيمان الواجب او كمال الإيمان ؟ فيه نزاع ، وليس معه دليل على انه مستلزم للإيمان ، ولكن الأنبياء الذين وصفهم الله بالإسلام كلهم كانوا مؤمنين ، وقد وصفهم الله بالإيمان ولو لم يذكر ذلك عنهم فنحن نعلم قطعاً ان الأنبياء كلهم مؤمنون .

وكذلك السابقون الأولون كانوا مسلمين مؤمنين .

ولو قدر ان الاسلام يستلزم الايمان الواجب ، فغاية ما يقال : انهما متلازمان ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وهذا صحيح اذا اريد ان كل مسلم يدخل الجنة معه الايمان الواجب . وهو متفق عليه اذا اريد ان كل مسلم يثاب على عبادته ، فلا بد ان يكون معه اصل الايمان فـامن مسلم الا وهو مؤمن ، وان لم يكن هو الايمان الذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم ، عمن لا يحب لـاخيه ما يحب لنفسه ، وعمن يفعل الكبائر ، وعن الأعراب وغيرهم ، فاذا قيل : ان الاسلام والـايمان التام متلازمان لم يلزم ان يكون احدهما هو الآخر ، كالروح والـبدن ، فلا يوجد عندنا روح الامع البدن ، ولا يوجد بدن حي الامع الروح . وليس احدهما الآخر ، فالـايمان كالروح ، فانه قائم بالروح ومتصل بالـبدن ، والـاسلام كالـبدن ولا يكون البدن حياً الامع الروح ، بمعنى انهما متلازمان لا ان مسمى احدهما هو مسمى الآخر ؛ واسلام المنافقين كـبدن الميت جسد بلا روح ، فما من بدن حي الا وفيه روح ، ولكن الارواح متنوعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجنـدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، وليس كل من صلى يـبدنه يكون قلبه منورا بذكر الله والخشوع وفهم القرآن وان كانت صلـاته يثاب عليها ويسقط عنه الفرض في احكام الدنيا ، فهكذا الاسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة ، والـايمان بمنزلة ما يكون في القلب حين الصلاة من المعرفة بالله والخشوع وتدبر القرآن ، فكل من خشع قلبه

خشعت جوارحه ، ولا ينعكس ، ولهذا قيل : : اياكم وخشوع النفاق ، وهو ان يكون الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع ، فاذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وليس اذا كان الجسد في عبادة يكون القلب قائماً بحقاقتها .

والناس في «الايمان ، والاسلام» على ثلاث مراتب : ظالم لنفسه ، ومقتصد وسابق بالخيرات . فالمسلم ظاهراً وباطناً إذا كان ظالماً لنفسه ، فلا بد ان يكون معه ايمان ؛ ولكن لم يأت بالواجب ولا ينعكس ، وكذلك في الآخر . وسيأتي ان شاء الله .

والآيات التي احتج بها محمد بن نصر تدل على وجوب الاسلام وأنه دين الله ، وان الله يحبه ويرضاه ، وانه ليس له دين غيره ، وهذا كله حق ؛ لكن ليس في هذا ما يدل على انه هو الايمان ؛ بل ولا يدل على ان بمجرد الاسلام يكون الرجل من اهل الجنة ، كما ذكره في حجة القول الأول ، فان الله وعد المؤمنين بالجنة في غير آية ، ولم يذكر هذا الوعد باسم الاسلام وحينئذ ، فدحه وإجابه ومحبة الله له تدل على دخوله في الايمان ؛ وأنه بعض منه ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة كلهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وكل من أتى بالايمان الواجب فقد أتى بالاسلام الواجب لكن النزاع في العكس ؛ وهذا كما ان الصلاة يحبها الله ويأمر بها ويوجبها ويثني عليها وعلى اهلها في غير موضع ، ثم لم يدل ذلك على ان مسمى الصلاة مسمى الايمان ، بل الصلاة تدخل في الايمان ، فكل مؤمن مصل ، ولا يلزم ان يكون كل من صلى وأتى الكبائر مؤمناً .

وجميع ما ذكره من الحجّة عن النبي صلى الله عليه وسلم فإن فيها التفريق بين مسمى الايمان والاسلام اذا ذكرا جميعاً ، كما في حديث جبريل وغيره وفيها ايضاً ان اسم الايمان اذا أطلق دخل فيه الاسلام . قال ابو عبد الله بن حامد في كتابه المصنف في « اصول الدين » :

قد ذكرنا ان الايمان قول وعمل ، فأما الاسلام فكلام احمد يحتمل روايتين : (إحداهما) انه كالايمان . (والثانية) : انه قول بلا عمل . وهو نصه في رواية إسماعيل بن سعيد ، قال : والصحيح ان المذهب رواية واحدة انه قول وعمل ، ويحتمل قوله : ان الاسلام قول يريد به انه لا يجب فيه ما يجب في الايمان من العمل المشروط فيه لأن الصلاة ليست من شرطه ، إذ النقص عنه انه لا يكفر بتركه الصلاة .

قال : وقد قضينا ان الاسلام والايمان اسمان لمعنيين ، وذكّرنا اختلاف الفقهاء ، وقد ذكر قبل ذلك ان الاسلام والايمان اسمان لمعنيين مختلفين ، وبه قال مالك ، وشريك ، وحماد بن زيد ، بالفرقة بين الاسلام والايمان ، قال : وقال أصحاب الشافعي ، وأصحاب ابي حنيفة : إنهما اسمان معناها واحد ، قال : ويفيد هذا ان الايمان قد تنتفي عنه تسميته مع بقاء الاسلام عليه ، وهو باتيان الكبائر التي ذكرت في الخبر ، فيخرج عن تسمية الايمان ، إلا انه مسلم ؛ فاذا تاب من ذلك عاد الى ما كان عليه من الايمان . ولا تنتفي عنه تسمية الايمان بارتكاب الصغائر من الذنوب ، بل الاسم باق عليه ، ثم ذكر ادلة ذلك ، ولكن ما ذكره

فيه أدلة كثيرة على من يقول : الإسلام مجرد الكلمة ، فإن الأدلة الكثيرة تدل على أن الأعمال من الإسلام ؛ بل النصوص كلها تدل على ذلك ، فمن قال : إن الأعمال الظاهرة المأمور بها ليست من الإسلام ، فقوله باطل ، بخلاف التصديق الذي في القلب ، فإن هذا ليس في النصوص ما يدل على أنه من الإسلام ، بل هو من الإيمان ، وإنما الإسلام الدين ، كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسلم وجهه وقلبه لله ، فإخلاص الدين لله إسلام ، وهذا غير التصديق ، ذلك من جنس عمل القلب ، وهذا من جنس علم القلب .

وأحمد بن حنبل ، وإن كان قد قال في هذا الموضع : إن الإسلام هو الكلمة ، فقد قال في موضع آخر : إن الأعمال من الإسلام . وهو أتبع هنا الزهري رحمه الله ، فإن كان مراد من قال ذلك ، إنه بالكلمة يدخل في الإسلام ولم يأت بتام الإسلام ، فهذا قريب . وإن كان مراده أنه أتى بجميع الإسلام وإن لم يعمل فهذا غلط قطعاً ، بل قد أنكر أحمد هذا الجواب ، وهو قول من قال : يطلق عليه الإسلام وإن لم يعمل . متابعة لحديث جبريل ، فكان ينبغي أن يذكر قول أحمد جميعه .

قال إسماعيل بن سعيد : سألت أحمد عن الإسلام والإيمان فقال : « الإيمان » قول وعمل ، والإسلام الإقرار . وقال : وسألت أحمد عن من قال في النبي صلى الله عليه وسلم : إن لم يفعل الذي قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم . فقال قائل : وإن لم يفعل الذي قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مسلم أيضاً ؟ فقال : هذا معاند للحديث .

فقد جعل احمد من جعله مسلماً إذا لم يأت بالتحس معانداً للحديث ، مع قوله :
ان الاسلام الاقرار ، فدل ذلك على ان ذلك اول الدخول في الاسلام ، وانه
لا يكون قائماً بالاسلام الواجب حتى يأتي بالتحس ، واطلاق الاسم مشروط بها ،
فانه ذم من لم يتبع حديث جبريل . وايضاً فهو في أكثر اجوبته يكفر من لم
يأت بالصلاة : بل وبغيرها من المباني . والكافر لا يكون مسلماً باتفاق المسلمين ،
فعلم انه لم يرد ان الاسلام هو مجرد القول بلا عمل ؛ وان قدر انه اراد ذلك ،
فهذا يكون انه لا يكفر بترك شيء من المباني الأربعة . وأكثر الروايات عنه
بخلاف ذلك ، والذين لا يكفرون من ترك هذه المباني يجعلونها من الاسلام ،
كالشافعي ومالك ، وابي حنيفة ، وغيرهم ، فكيف لا يجعلها احمد من الاسلام ؟!
وقوله في دخولها في الاسلام اقوى من قول غيره . وقد روى عنه انه جعل
حديث سعد معارضاً لحديث عمر ، ورجح حديث سعد .

قال الحسن بن علي : سألت احمد بن حنبل عن الايمان اوكد او الاسلام ؛
قال : جاء حديث عمر هذا ، وحديث سعد احب الي . كأنه فهم ان حديث
عمر يدل على ان الأعمال هي مسمى الاسلام ، فيكون مسماه افضل . وحديث
سعد يدل على ان مسمى الايمان افضل ، ولكن حديث عمر لم يذكر الاسلام
الا الأعمال الظاهرة فقط ؛ وهذه لا تكون ايماناً الا مع الايمان الذي
في القلب بالله وملائكته وكتبه ورساله . فيكون حينئذ بعض الايمان ، فيكون
مسمى الايمان افضل كما دل عليه حديث سعد ، فلا منافاة بين الحديثين .

واما تفريق احمد بين الاسلام والايمان ، فكان يقوله تارة . وتارة يحكي

الخلاف ولا يجزم به . وكان إذا قرن بينهما « تارة » يقول الاسلام الكلمة .
« وتارة » لا يقول ذلك وكذلك التكفير بترك المباني ، كان تارة يكفر
بها حتى يغضب ؛ وتارة لا يكفر بها . قال الميموني : قلت : يا أبا عبد الله
تفرق بين الاسلام والايمان ؟ قال : نعم . قلت بأي شيء تحتج ؟ قال : عامة
الأحاديث تدل على هذا ، ثم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا
يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » وقال الله تعالى : (قالت الأعراب
آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) قال : وحماد بن زيد يفرق بين الاسلام
والايمان . قال : وحدثنا ابو سلمة الخزازي قال : قال مالك وشريك ، وذكر
قولهم وقول حماد بن زيد : فرق بين الاسلام والايمان .

قال احمد : قال لي رجل : لو لم يجئنا في الايمان إلا هذا لكان حسناً .
قلت لأبي عبد الله : فتذهب الى ظاهر الكتاب مع السنن ؟ قال : نعم . قلت :
فاذا كانت المرجة يقولون : ان الاسلام هو القول . قال : هم يصيرون هذا كله
واحداً ، ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً على إيمان جبريل ومستكمل
الايمان . قلت : فمن ههنا حججتنا عليهم ؟ قال : نعم . فقد ذكر عنه الفرق مطلقاً
واحتجاه بالنصوص .

وقال صالح بن احمد : سئل ابي عن الاسلام والايمان قال : قال ابن ابي
ذئب : الاسلام : القول ، والايمان : العمل . قيل له : ما تقول انت ؟ قال :
الاسلام غير الايمان ، وذكر حديث سعد ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم .

فهو في هذا الحديث لم يختَر قول من قال : الاسلام : القول ؛ بل اجاب بأن
الاسلام غير الايمان ، كما دل عليه الحديث الصحيح مع القرآن .

وقال حنبل : حدثنا ابو عبد الله بحديث بريدة : كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ان يقول قائلهم : « السلام عليكم اهل
الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا إن شاء الله بكم لا حقون » ... الحديث .
قال : وسمعت ابا عبد الله يقول في هذا الحديث : حجة على من قال : الايمان
قول . فمن قال : انا مؤمن [فقد خالف] قوله : من المؤمنين والمسلمين .
فبين المؤمن من المسلم ، ورد على من قال : انا مؤمن مستكمل الايمان ، وقوله :
« وانا ان شاء الله بكم لا حقون » وهو يعلم انه ميت بشد قول من قال : انا
مؤمن ان شاء الله بالاستثناء في هذا الموضع .

وقال ابو الحارث سألت : ابا عبد الله قلت : قوله : « لا يزني الزاني حين
يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . قال : قدنا أولوه
فأما عطاء فقال : يتنحي عنه الايمان . وقال طاووس : إذا فعل ذلك زال عنه
الايمان . وروى عن الحسن قال : إن رجعا راجعا الايمان . وقد قيل : يخرج
من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرج من الاسلام . وروى هذه المسألة صالح
فان مسائل ابي الحارث يروونها صالح ايضاً . وصالح سأل ابا عن هذه القصة
فقال فيها : هكذا يروى عن ابي جعفر قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو
مؤمن » قال : يخرج من الايمان الى الاسلام ، فالإيمان مقصور في الاسلام ،

فاذا زنى خرج من الايمان الى الاسلام . قال الزهري - يعنى - لما روى حديث سعد : « او مسلم » فرى ان الاسلام الكلمة والايمان العمل قال احمد : وهو حديث متأول والله اعلم .

فقد ذكر اقوال التابعين ولم يرجح شيئاً ، وذلك والله اعلم لأن جميع ما قالوه حق ، وهو يوافق على ذلك كله ، كما قد ذكر في مواضع اخر انه يخرج من الايمان الى الاسلام ، ونحو ذلك . واحمد وامثاله من السلف لا يريدون بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ؛ بل التأويل عندم مثل التفسير ، وبيان ما يؤول اليه اللفظ ، كقول عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ان يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي » يتأول القرآن ، وإلا فما ذكره التابعون لا يخالف ظاهر الحديث بل يوافقه ، وقول احمد يتأوله ، اى يفسر معناه ؛ وإن كان ذلك يوافق ظاهره لئلا يظن مبتدع ان معناه انه صار كافراً لا إيمان معه بحال ؛ كما تقوله الخوارج فان الحديث لا يدل على هذا ؛ والذي نفى عن هؤلاء الايمان كان يجعلهم مسلمين لا يجعلهم مؤمنين .

قال المرودي : قيل لأبي عبد الله : نقول نحن المؤمنون ؟ فقال : نقول : نحن المسلمون . قلت لأبي عبد الله : نقول : انا مؤمنون . قال : ولكن نقول : انا مسلمون . وهذا لأن من اصله الاستثناء في الايمان ، لأنه لا يعلم انه مؤد لجميع ما امره الله به ، فهو مثل قوله : انا بر ، انا تقى ، انا ولي الله ؛ كما يذكر في

موضعه ؛ وهذا لا يمنع ترك الاستثناء اذا اراد : اني مصدق ، فانه يجزم بما في قلبه من التصديق ؛ ولا يجزم بأنه ممثل لكل ما امر به ؛ وكما يجزم بأنه يجب الله رسوله ، فانه يبغض الكفر ، ونحو ذلك مما يعلم انه في قلبه ؛ وكذلك اذا اراد بأنه مؤمن في الظاهر ؛ فلا يمنع ان يجزم بما هو معلوم له ؛ وانما بكره ما كرهه سائر العلماء من قول المرجئة اذ يقولون : الايمان شيء متمثل في جميع اهله ، مثل كون كل انسان له رأس ؛ فيقول احدهم : انا مؤمن حقاً وانا مؤمن عند الله ، ونحو ذلك ؛ كما يقول الانسان : لي رأس حقاً ، وانا لي رأس في علم الله حقاً ؛ فمن جزم به على هذا الوجه ، فقد اخرج الأعمال الباطنة والظاهرة عنه ؛ وهذا منكر من القول وزور عند الصحابة والتابعين ، ومن اتبعهم من سائر المسلمين ؛ وللناس في « مسألة الاستثناء » كلام يذكر في موضعه .

و(المقصود هنا) ان هنا قولين متطرفين : قول من يقول : الاسلام مجرد الكلمة ، والأعمال الظاهرة ليست داخلة في مسمى الاسلام ، وقول من يقول : مسمى الاسلام والايمان واحد ؛ وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل ، وسائر احاديث النبي صلى الله عليه وسلم . ولهذا لما نصر محمد بن نصر المروزي القول الثاني : لم يكن معه حجة على صحته ؛ ولكن احتج بما يبطل به القول الأول ؛ فاحتج بقوله في قصة الأعراب : (بل الله يمن عليكم ان هذا كم للايمان ان كنتم صادقين) قال : فدل ذلك على ان « الاسلام » هو الايمان

فيقال : بل يدل على نقيض ذلك ، لأن القوم لم يقولوا : اسلمنا ؛ بل قالوا : آمنا والله أمرهم ان يقولوا : اسلمنا ، ثم ذكر تسميتهم بالاسلام فقال : (بل الله يمن عليكم ان هذا كم للايمان ان كنتم صادقين) في قولكم : آمنا ، ولو كان الاسلام هو الايمان لم يحتج ان يقول : (ان كنتم صادقين) فانهم صادقون في قولهم : (اسلمنا) مع انهم لم يقولوا ، ولكن الله قال : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم) اي : يمنون عليك ما فعلوه من الاسلام ، فالله تعالى سمي فعلهم إسلاماً ، وليس في ذلك ما يدل على انهم سموه اسلاماً ؛ وإنما قالوا : آمنا ثم اخبر ان المنة تقع بالهداية الى الايمان ؛ فأما الاسلام الذي لا ايمان معه ، فكان الناس يفعلونه خوفاً من السيف ؛ فلا منة لهم بفعله وإذا لم يمن الله عليهم بالايمان كان ذلك كاسلام المنافقين فلا يقبله الله منهم . فأما إذا كانوا صادقين في قولهم : آمنا ، فالله هو المان عليهم بهذا الايمان وما يدخل فيه من الاسلام ، وهو سبحانه نفى عنهم الايمان أولاً ، وهنا علق منة الله به على صدقهم ، فدل على جواز صدقهم .

وقد قيل : إنهم صاروا صادقين بعد ذلك ، ويقال : المعلق بشرط لا يستلزم وجود ذلك الشرط ، ويقال : لأنه كان معهم إيمان ما . لكن ما هو الايمان الذي وصفه ثانياً ؟ بل معهم شعبة من الايمان .

قال محمد بن نصر : وقال الله تعالى : (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) الآية وقال : (إن الدين عند الله الاسلام) فسمى إقام الصلاة وإيتاء

الزكاة ديناً قيماً وسمي الدين إسلاماً ، فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم — الذي اخبر الله أنه عنده الدين وهو الإسلام — بعضاً . قال : وقد جاء معنا هذه الطائفة التي فرقت بين الإسلام والإيمان على أن الإيمان قول وعمل ، وأن الصلاة والزكاة من الإيمان وقد سماها الله ديناً ، واخبر أن الدين عنده الإسلام فقد سمي الله الإسلام بما سمي به الإيمان ، وسمي الإيمان بما سمي به الإسلام ، وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم . فمن زعم أن الإسلام هو الاقرار وان العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ؛ ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الإيمان اقرار بلا عمل .

فيقال : اما قوله إن الله جعل الصلاة والزكاة من الدين ، والدين عنده هو الإسلام ، فهذا كلام حسن موافق لحديث جبريل ، ورد على من جعل العمل خارجاً من الإسلام كلام حسن ، واما قوله : ان الله سمي الإيمان بما سمي به الإسلام وسمي الإسلام بما سمي به الإيمان فليس كذلك ، فان الله إنما قال : (إن الدين عند الله الإسلام) ولم يقل قط ، إن الدين عند الله الإيمان ؛ ولكن هذا الدين من الإيمان ، وليس اذا كان منه يكون هو إياه ؛ فإن الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه ، وقوله ؛ والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمناً الا بهما . وأما الإسلام فهو عمل محض مع قول ، والعلم والتصديق ليس جزء مسماه ، لكن يلزمه جنس التصديق فلا يكون عمل الا بعلم لكن لا يستلزم الإيمان المفصل الذي بينه الله ورسوله ، كما قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم

وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) وقوله : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون) .

وسائر النصوص التي تنفي الايمان عن من لم يتصف بما ذكره ، فان كثيراً من المسلمين مسلم باطناً وظاهراً ومعه تصديق مجمل ، ولم يتصف بهذا الايمان ، والله تعالى قال : (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) وقال : (ورضيت لكم الاسلام ديناً) ولم يقل : ومن يتبع غير الاسلام علماً ومعرفة وتصديقاً وايماناً ، ولا قال : رضيت لكم الاسلام تصديقاً وعلماً ، فان الاسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع ؛ فمن ابتغى غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، والايمان طمأنينة وبقين ، اصله علم وتصديق ومعرفة والدين تابع له ، يقال : آمنت بالله واسلمت لله . قال موسى : (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) فلو كان مساهماً واحداً كان هذا تكريراً ، وكذلك قوله : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) كما قال : والصادقين والصابرين والخاشعين : فالؤمن متصف بهذا كله ، لكن هذه الاسماء لا تطابق الايمان في العموم والخصوص ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت واليك أنبت ، وبك خاصمت واليك حاكت » كما ثبت في « الصحيحين » انه كان يقول ذلك اذا قام من الليل ، وثبت في « صحيح مسلم » وغيره انه كان يقول : في سجوده : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك اسلمت » وفي الركوع يقول : « لك ركعت ولك

اسلمت وبك آمنت» ولما بين النبي صلى الله عليه وسلم خاصة كل منهما قال :
« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من آمنه الناس على دماءهم
واموالهم » ومعلوم ان السلامة من ظلم الانسان غير كونه مأموناً على الدم
والمال ، فان هذا اعلى ، والمؤمن يسلم الناس من ظلمه وليس من سلموا من
ظلمه يكون مأموناً عندهم .

قال محمد بن نصر : فمن زعم ان الاسلام هو الاقرار ، وان العمل ليس
منه ، فقد خالف الكتاب والسنة . وهذا صحيح ؛ فان النصوص كلها تدل على
ان الأعمال من الاسلام . قال : ولا فرق بينه وبين المرجئة اذ زعمت أن
الايمان اقرار بلا عمل .

فيقال : بل بينهما فرق ، وذلك ان هؤلاء الذين قالوه من اهل السنة
كالزهري ومن وافقه يقولون : الأعمال داخلة في الايمان ، والاسلام عندهم
جزء من الايمان والايمان عندهم أكمل ، وهذا موافق للكتاب والسنة .
ويقولون : الناس يتفاضلون في الايمان وهذا موافق للكتاب والسنة ، والمرجئة
يقولون : الايمان بعض الاسلام والاسلام افضل . ؛ ويقولون ايمان الناس متساو
فايمان الصحابة واجر الناس سواء ، ويقولون : لا يكون مع احد بعض الايمان
دون بعض ، وهذا مخالف للكتاب والسنة .

وقد اجاب احمد عن هذا السؤال كما قاله في احدي روايته : ان الاسلام
هو الكلمة . قال الزهري : فانه تارة يوافق من قال ذلك ، وتارة لا يوافقه .

بل يذكر ما دل عليه الكتاب والسنة من ان الاسلام غير الايمان ؛ فلما اجاب بقول الزهري قال له الليموني : قلت يا ابا عبدالله ! تفرق بين الاسلام والايمان ؟ قال : نعم ؛ قلت : بأى شيء تحتج ؟ قال : عامة الأحاديث تدل على هذا ، ثم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . وقال تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) قلت له : فتذهب الى ظاهر الكتاب مع السنن ؟ قال : نعم ، قلت : فاذا كانت المرجئة تقول : ان الاسلام هو القول ، قال : هم يصيرون هذا كله واحداً ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً على ايمان جبريل ، ومستكمل الايمان ؛ قلت : فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم . فقد اجاب احمد : بأنهم يجعلون الفاسق مؤمناً مستكمل الايمان على ايمان جبريل .

واما قوله : يجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً ، فهذا قول من يقول : الدين والايمان شيء واحد ، فالاسلام هو الدين ، فيجعلون الاسلام والايمان شيئاً واحداً ؛ وهذا القول قول المرجئة فيما يذكره كثير من الأئمة ، كالشافعي وابي عبيد وغيرهما ، ومع هؤلاء يناظرون ، فالمعروف من كلام المرجئة : الفرق بين لفظ الدين والايمان ، والفرق بين الاسلام والايمان . ويقولون : الاسلام بعضه ايمان وبعضه اعمال ، والأعمال منها فرض ونفل ، ولكن كلام السلف كان فيما يظهر لهم ويصل إليهم من كلام اهل البدع كما تجدهم في الجهمية ؛ إما يحكون عنهم ان الله في كل مكان ، وهذا قول طائفة منهم كالنجارية ، وهو قول عوامهم

وعبادهم ، واما جمهور نظارهم من الجهمية ، والمعتزلة ، والضرارية ، وغيرهم ، فانما يقولون : هو لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو فوق العالم .

وكذلك كلامهم في «القدرية» يحكون عنهم انكار العلم والكتابة ، وهؤلاء هم القدرية الذين قال ابن عمر فيهم : اذا لقيت اولئك فأخبرهم اني بريء منهم وانهم براء مني ، وهم الذين كانوا يقولون : ان الله امر العباد ونهاهم ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك ، فعلمه بعد ما فعلوه ! ولهذا قالوا : الأمر انف ، اي : مستأنف ؛ يقال : روض انف اذا كانت وافرة لم ترع قبل ذلك ، يعني انه مستأنف العلم بالسعيد والشقي ، وابتدأ ذلك من غير ان يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب ؛ فلا يكون العمل على ما قد قدر فيحتذي به حذو القدر ، بل هو أمر مستأنف مبتدأ ، والواحد من الناس اذا اراد ان يعمل عملاً قدر في نفسه ما يريد عمله ثم عمله كما قدر في نفسه ، وربما اظهر ما قدره في الخارج بصورته ، ويسمى هذا التقدير الذي في النفس خلقاً ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبه ض الناس يخلق ثم لا يفري

يقول : اذا قدرت امرأ امضيته وانفذته ، بخلاف غيرك فانه عاجز عن إمضاء ما يقدره ، وقال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وهو سبحانه يعلم قبل ان يخلق الأشياء كل ما سيكون ، وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريد ، وعلمه وإرادته قائم بنفسه ، وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله : (لأملأن

جهنم منك ومن تبعك منهم اجمعين) وقال : ولولا كلمة سبقت من ربك لكان
 لزاما واجل مسمى) وقال تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم
 لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى : (ولقد آتينا موسى
 الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) وهو سبحانه
 كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه ، كما قال : (ألم تعلم ان الله يعلم ما في السماء والأرض
 ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير) قال ابن عباس : ان الله خلق الخلق وعلم
 ما هم عاملون ثم قال لعلمه : كن كتاباً ؛ فكان كتاباً ، ثم انزل تصديق ذلك في قوله
 (ألم تعلم ان الله يعلم ما في السماء والأرض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير)
 وقال تعالى : (ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب
 من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير) وقال : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد
 الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) وقال : (يحو الله ما يشاء ويثبت
 وعنده ام الكتاب) وقال للملائكة : (إني جاعل في الارض خليفة ، قالوا :
 اجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟
 قال اني اعلم ما لا تعلمون) فللملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد
 وسفك الدماء ، فكيف لا يعلمه الله ، سواء علموه باعلام الله - فيكون هو اعلم
 بما علمهم اياه ، كما قاله اكثر المفسرين : - او قالوه بالقياس على من كان قبلهم ،
 كما قاله : طائفة منهم ، او بغير ذلك والله اعلم بما سيكون من مخلوقاته الذين
 لا علم لهم الا ما علمهم وما اوحاه الى انبيائه وغيرهم مما سيكون هو اعلم به منهم ،
 فانهم لا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء .

وابيضاً فانه قال للملائكة : (اني جاعل في الارض خليفة) قبل ان يأمرهم بالسجود لآدم ، وقبل ان يتمتع ابليس ؛ وقبل ان ينهي آدم عن اكله من الشجرة ، وقبل ان يأكل منها ويكون أكله سبب اهباطه الى الارض ، فقد علم الله سبحانه انه سيستخلفه مع امره له ولا بليس بما يعلم انهما يخالفانه فيه ، ويكون الخلاف سبب امره لهما بالاهباط الى الارض والاستخلاف في الارض .

وهذا يبين انه علم ما سيكون منهما من مخالفة الأمر ، فان ابليس امتنع من السجود لآدم وابتغى فصار عدوه ، فوسوس له حتى يأكل من الشجرة فيذب آدم ايضاً . فانه قد تألى انه ليغوينهم اجمعين ، وقد سأل الانظار الى يوم يبعثون فهو حريص على إغواء آدم وذريته بكل ما يمكنه . لكن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه ربه وهداه بتوبته ، فصار لبني آدم سبيل الى نجاتهم وسعادتهم مما يوقعهم الشيطان فيه بالاغواء ، وهو التوبة ، قال تعالى : (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) .

وقدر الله قد احاط بهذا كله قبل ان يكون ، وابلis اصر على الذنب ، واحتج بالقدر ، وسأل الانظار ليهلك غيره ، وآدم تاب واناب ، وقال هو وزوجته : (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فتاب الله عليه فاجتباه وهداه ، وانزله الى الارض ليعمل فيها بطاعته ؛ فيرفع الله بذلك درجته ، ويكون دخوله الجنة بعد هذا الكمل مما كان ، فمن اذنب من اولاد آدم فاقتدى بأبيه آدم في التوبة كان سعيداً ، واذا تاب وآمن وعمل صالحاً

بدل الله سيئاته حسنات ، وكان بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، كسائر اولياء الله المتقين . ومن اتبع منهم ابليس فأصر على الذنب ، واحتج بالقدر ، واراد ان يغوي غيره كان من الذين قال فيهم : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين) .

والمقصود هنا ذكر القدر ؛ وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ؛ وكان عرشه على الماء » وفي « صحيح البخاري » عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والارض » وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه انه اخبر : ان الله قد علم اهل الجنة من اهل النار ، وما يعملها العباد قبل ان يعملوه .

وفي « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود : « ان الله يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه ؛ فيكتب اجله ورزقه وعمله ، وشقي او سعيد » . وهذه الأحاديث تأتي إن شاء الله في مواضعها . فهذا القدر هو الذي أنكره « القدرية » الذين كانوا في اواخر زمن الصحابة . وقد روى ان اول من ابتدعه بالعراق رجل من اهل البصرة يقال له : سيسويه من ابناء المجوس ، وتلقاه عنه معبد الجهني ، ويقال : اول ما حدث في الحجاز لما احترقت الكعبة ، فقال

رجل : احترقت بقدر الله تعالى . فقال آخر : لم يقدر الله هذا . ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين احد ينكر القدر ؛ فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقي من الصحابة ، كعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، ووائلة بن الأسقع ، وكان اكثره بالبصرة والشام ، وقليل منه بالحجاز ؛ فأكثر كلام السلف في ذم هؤلاء القدرية ؛ ولهذا قال وكيع بن الجراح : القدرية يقولون ؛ الأمر مستقبل ، وإن الله لم يقدر الكتابة والأعمال ؛ والمرجئة يقولون : القول يجزي من العمل ؛ والجهمية يقولون : المعرفة تجزي من القول والعمل . قال وكيع : وهو كله كفر ورواه ابن " .

ولكن لما اشتهر الكلام في القدر ؛ ودخل فيه كثير من اهل النظر والعباد ، صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم ، وإنما ينكرون عموم المشيئة والخلق . وعن عمرو بن عبيد في إنكار الكتاب المتقدم روايتان . وقول أولئك كفرم عليه مالك ، والشافعي ، واحمد وغيرهم . واما هؤلاء فهم مبتدعون ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك ؛ وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم العلم . واخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم ، لكن من كان داعية اليه لم يخرجوا له ، وهذا مذهب فقهاء اهل الحديث كأحمد وغيره ؛ ان من كان داعية الى بدعة فانه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس ، وان كان في الباطن مجتهداً ، وأقل عقوبته أن يهجر ، فلا يكون له مرتبة في الدين

(١) ياض في الأصل .

لا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ، ولا تقبل شهادته ، ونحو ذلك . ومذهب مالك قريب من هذا ، ولهذا لم يخرج اهل الصحيح لمن كان داعية ، ولكن رويوا هم وسائر اهل العلم عن كثير ممن كان يرى في الباطن رأي القدرية ، والمرجة والحوارج ، والشيعية .

وقال احمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا اكثر اهل اليصرة . وهذا لأن « مسألة خلق افعال العباد ، واردة الكائنات » مسألة مشكلة ، وكان القدرية من المعتزلة وغيرهم اخطئوا فيها ، فقد اخطأ فيها كثير ممن رد عليهم او اكثرهم ، فانهم سلكوا في الرد عليهم مسلك جهنم بن صفوان ، واتباعه ، فنفوا حكمة الله في خلقه وامره ، ونفوا رحمته بعباده ، ونفوا ما جعله من الاسباب خلقاً وامراً ، وجحدوا من الحقائق الموجودة في مخلوقاته وشرائعه ما صار ذلك سبباً لنفور اكثر العقلاء الذين فهموا قولهم عما يظنونه السنة ، اذ كانوا يزعمون ان قول اهل السنة في القدر هو القول الذي ابتدعه جهنم ، وهذا البسطه موضع آخر .

وانما المقصود هنا ان «السلف» في ردم على المرجة. والجهمية والقدرية وغيرهم ، يردون من اقوالهم ما يبلغهم عنهم وما سمعوه من بعضهم . وقد يكون ذلك قول طائفة منهم ، وقد يكون نقلاً مغيراً . فلماذا ردوا على المرجة الذين يجعلون الدين والايمان واحداً ؛ ويقولون هو القول . وايضاً فلم يكن حدث في زمنهم من المرجة من يقول : الايمان هو مجرد القول بلا تصديق ولا معرفة

في القلب . فان هذا انما احده ابن كرام ، وهذا هو الذي انفرد به ابن كرام .
ولما سائر ما قاله ، فأقوال قيلت قبله ، ولهذا لم يذكر الاشعري ولا غيره
من يحكي مقالات الناس عنه قولا انفرد به الا هذا .

واما سائر اقواله فيحكونها عن ناس قبله ولا يذكرونه . ولم يكن ابن
كرام في زمن احمد بن حنبل ، وغيره من الأئمة ، فلماذا يحكون اجماع الناس
على خلاف هذا القول ؛ كما ذكر ذلك ابو عبدالله احمد بن حنبل وابو ثور
وغيرهما . وكان قول المرجئة قبله : ان الايمان قول باللسان وتصديق
بالقلب ، وقول جهم : انه تصديق القلب ؛ فلما قال ابن كرام : انه مجرد
قول اللسان . صارت اقوال المرجئة ثلاثة ، لكن احد كان اعلم بمقالات الناس
من غيره ، فكان يعرف قول الجهمية في الايمان ، واما ابو ثور . فلم يكن
يعرفه ، ولا يعرف الا مرجئة الفقهاء ، فلماذا حكى الاجماع على خلاف قول
الجهمية والكرامية .

قال ابو ثور في رده على المرجئة كما روى ذلك ابو القاسم الطبري
اللالكائي وغيره : عن ادريس بن عبد الكريم قال : سألت رجل من اهل
خراسان ابانور عن الايمان وما هو ، ازيد وينقص ؛ وقول هو او قول وعمل ؟
او تصديق وعمل ؟ فأجاب ابو ثور بهذا فقال : سألت رحمك الله وعفا عنا
وعنك عن الايمان ما هو ، ازيد وينقص ؛ وقول هو او قول وعمل او تصديق
وعمل ؟ فأخبرك بقول الطوائف واختلافهم .

اعلم يرحمنا الله واياك : ان الايمان تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، وذلك انه ليس بين اهل العلم خلاف في رجل لو قال : اشهد ان الله عز وجل واحد ، وان ما جاءت به الرسل حق ، واقرب بجميع الشرائع ، ثم قال : ما عقد قلبي على شيء من هذا ؛ ولا اصدق به ؛ انه ليس بمسلم ؛ ولو قال : المسيح هو الله وجحد امر الاسلام ، ثم قال : لم بعقد قلبي على شيء من ذلك انه كافر باظهار ذلك وليس بمؤمن ، فلما لم يكن بالاقرار اذالم يكن معه التصديق مؤمناً ، ولا بالتصديق اذا لم يكن معه الاقرار مؤمناً ، حتى يكون مصداقاً بقلبه مقراً بلسانه . فاذا كان تصديقاً بالقلب واقراراً باللسان ، كان عندهم مؤمناً . وعند بعضهم لا يكون مؤمناً حتى يكون مع التصديق عمل ، فيكون بهذه الاشياء اذا اجتمعت مؤمناً ، فلما نفوا ان يكون الايمان بشيء واحد ، وقالوا : يكون بشيئين في قول بعضهم ، وثلاثة اشياء في قول غيرهم . لم يكن مؤمناً الا بما اجمعوا عليه من هذه الثلاثة الاشياء ؛ وذلك انه اذا جاء بهذه الثلاثة الاشياء . فكلهم يشهد انه مؤمن ؛ فقلنا بما اجمعوا عليه من التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح .

فأما الطائفة التي ذهبت الى ان العمل ليس من الايمان ، فيقال لهم : ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم : اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، الاقرار بذلك او الاقرار والعمل ؟ فان قالت : إن الله اراد الاقرار ولم يرد العمل ؛ فقد كفرت . عند اهل العلم . من قال : ان الله لم يرد من العباد ان يصلوا ولا يؤتوا الزكاة ؟ وإن قالت : أراد منهم الاقرار قيل : فاذا كان اراد منهم الأمرين جميعاً

لم زعمتم انه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر ، وقد ارادها جميعاً ؟ ارايتم لو ان رجلاً قال : اعمل جميع ما امر به الله ولا اقر به ، ايسكون مؤمناً ؟ فان قالوا : لا . قيل لهم : فان قال : اقر بجميع ما امر الله به ، ولا اعمل به : ايسكون مؤمناً ؟ فان قالوا : نعم . قيل ما الفرق ؟ فقد زعمتم ان الله اراد الأمرين جميعاً فان جاز ان يكون بأحدهما مؤمناً اذا ترك الآخر ، جاز ان يكون بالآخر إذا عمل به ولم يقر مؤمناً ، لا فرق بين ذلك . فان احتج فقال : لو ان رجلاً اسلم فأقر بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ايسكون مؤمناً بهذا الاقرار قبل ان يجيء وقت عمل ؟ قيل له : انما يطلق له الاسم بتصديقه ان العمل عليه بقوله : ان يعمل في وقته إذا جاء ، وليس عليه في هذا الوقت الاقرار بجميع ما يكون به مؤمناً ؛ ولو قال : اقر ولا اعمل لم يطلق عليه اسم الايمان .

قلت : يعني الامام ابو ثور - رحمه الله - انه لا يكون مؤمناً إلا اذا التزم بالعمل مع الاقرار ، والا فلو اقر ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمناً . وهذا الاحتجاج الذي ذكره ابو ثور هو دليل على وجوب الأمرين : الاقرار والعمل وهو يدل على ان كلا منهما من الدين ، وانه لا يكون مطيعاً لله ، ولا مستحقاً للثواب ولا ممدوحاً عند الله ورسوله إلا بالأمرين جميعاً ، وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والايمان جميعاً . واما من يقول : انها من الدين ويقول : إن الفاسق مؤمن حيث اخذ بعض الدين وهو الايمان عندم ، وترك بعضه ؛ فهذا يحتاج عليه بشيء آخر ، لكن ابو ثور وغيره من علماء السنة عامة احتجاجهم مع هذا الصنف ، احمد كان اوسع علماً بالأقوال والحجج من

ابي ثور . ولهذا انما حكى الاجماع على خلاف قول السكرامية ؛ ثم انه تورع في النطق على عادته ، ولم يجزم بنفي الخلاف ؛ لكن قال : لا احسب اخداً يقول هذا ، وهذا في رسالته الى ابي عبد الرحيم الجوزجاني ، ذكرها الخلال في كتاب « السنة » - وهو اجمع كتاب يذكر فيه اقوال احمد في مسائل الأصول الدينية وان كان له اقوال زائدة على ما فيه ، كما ان كتابه في العلم اجمع كتاب يذكر فيه اقوال احمد في الأصول الفقهية .

قال المروزي : رأيت ابا عبد الرحيم الجوزجاني عند ابي عبد الله ، وقد كان ذكره ابو عبد الله فقال : كان ابوه مرجئا ، او قال : صاحب رأي . واما ابو عبد الرحيم فأثنى عليه ، وقد كان كتب الى ابي عبد الله من خراسان يسأله عن الايمان وذكر الرسالة من طريقين عن ابي عبد الرحيم ،
وجواب احمد

بسم الله الرحمن الرحيم : احسن الله الينا واليك في الأمور كلها ، وسلمنا واياك من كل شر برحمته ، اتاني كتابك تذكر ما تذكر من احتجاج من احتج من المرجئة . واعلم رحمك الله ان الخصومة في الدين ليست من طريق اهل السنة وان تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما اراد الله منه ، او اثر عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرف ذلك بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، او عن اصحابه ، فهم شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهدوا تنزيله ، وما قصه الله له في القرآن ، وما عني به ، وما اراد به اخاص هو ام

عام ؟ فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا احد من الصحابة ، فهذا تأويل اهل البدع ؛ لأن الآية قد تكون خاصة ويكون حكمها حكماً عاماً ، ويكون ظاهرها على العموم ، وإنما قصدت لشيء بعينه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن كتاب الله وما اراد ، واصحابه اعلم بذلك منا ، لمشاهدتهم الامر وما اريد بذلك ، فقد تكون الآية خاصة ؛ اى معناها مثل قوله تعالى : (يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وظاهرها على العموم ، اى من وقع عليه اسم (ولد) فله ما فرض الله ، فجاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يرث مسلم كافراً .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم - وليس بالثبوت - الا انه عن اصحابه انهم لم يورثوا قاتلاً ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن الكتاب ان الآية انما قصدت للمسلم لا للكافر ، ومن حملها على ظاهرها لزمه ان يورث من وقع عليه اسم الولد كافراً كان او قاتلاً ، وكذلك احكام الوارث من الابوين وغير ذلك مع آي كثير يطول بها الكتاب ، وإنما استعملت الأمة السنة من النبي صلى الله عليه وسلم ومن اصحابه ، الا من دفع ذلك من اهل البدع والحوارج وما يشبههم ، فقد رأيت الى ما خرجوا .

قلت : لفظ الجمل والمطلق والعام كان فى اصطلاح الأئمة ، كالشافعي واحمد ، وابي عبيد واسحاق وغيرهم سواء ، لا يريدون بالجمل ما لا يفهم منه ، كما فسره به بعض المتأخرين وأخطأ فى ذلك ، بل الجمل ما لا يكفي وحده فى

العمل به وان كان ظاهره حقاً ، كما في قوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها) فهذه الآية ظاهرها ومعناها مفهوم ، ليست مما لا يفهم المراد به ؛ بل نفس ما دلت عليه لا يكفي وحده في العمل فان المسأور به صدقة تكون مطهرة مزكية لهم ، وهذا انما يعرف ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال احمد يحنر المتكلم في الفقه هذين « الأصلين » . المجمل والقياس . وقال : اكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل والقياس ، يريد بذلك أن لا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصه ويقده ؛ ولا يعمل بالقياس قبل النظر في دلالة النصوص هل تدفعه ، فان اكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنون من دلالة اللفظ والقياس ؛ فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحثاً يطمئن القلب اليه ، وإلا اخطأ من لم يفعل ذلك ، وهذا هو الواقع في المتمسكين بالظواهر والأقيسة ، ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الاعراض عن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه طريق اهل البدع . وله في ذلك مصنف كبير .

وكذلك التمسك بالأقيسة مع الاعراض عن النصوص والآثار ، طريق اهل البدع . ولهذا كان كل قول ابتدعه هؤلاء قولاً فاسداً ، وانما الصواب من اقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وقوله تعالى : (يوصيكم الله في اولادكم) سماه عاماً وهو مطلق في الأحوال ، يعنها على طريق البدل كما يعم قوله : (فتحري رقية) جميع الرقاب ، لا يعنها كما يعم لفظ الولد

للأولاد . ومن أخذ بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن ، بل اخذ بما ظهر له مما سكت عنه القرآن ، فكان الظهور لسكوت القرآن عنه ، لا لدلالة القرآن على انه ظاهر ، فكانوا متمسكين بظاهر من القول لا بظاهر القول ؛ وعمدتهم عدم العلم بالنصوص التي فيها علم بما قيد ، وإلا فكل ما بينه القرآن وأظهره فهو حق ؛ بخلاف ما يظهر للانسان لمغى آخر غير نفس القرآن يسمى ظاهر القرآن ، كاستدلالات اهل البدع من المرجئة والجهمية والخوارج والشيعة .

قال احمد : واما من زعم ان الايمان الاقرار ، فما يقول في المعرفة ؟ هل يحتاج الى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج ان يكون مصداقاً بما عرف ؟ فان زعم انه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين ، وان زعم انه يحتاج ان يكون مقراً ومصداقاً بما عرف فهو من ثلاثة اشياء ؛ وان جحد وقال : لا يحتاج الى المعرفة والتصديق ، فقد قال قولاً عظيماً ، ولا احسب احداً يدفع المعرفة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الأشياء .

قلت احمد وابو ثور وغيرهما من الأئمة كانوا قد عرفوا أصل قول المرجئة ، وهو ان الايمان لا ينهب بعضه ويبقى بعضه ؛ فلا يكون إلا شيئاً واحداً فلا يكون ذا عدد : اثنين او ثلاثة ، فانه اذا كان له عدد ، أمكن ذهاب بعضه وبقائه بعضه ، بل لا يكون إلا شيئاً واحداً ، ولهذا قالت الجهمية : انه شيء واحد في القلب . وقالت الكرامية : انه شيء واحد على اللسان ، كل ذلك فراراً من

تبعض الايمان وتعدده ، فلهذا صاروا يناظرونهم بما يدل على انه ليس شيئاً واحداً ، كما قلتم . فأبو ثور احتج بما اجتمع عليه « الفقهاء المرجئة » من انه تصديق وعمل ، ولم يكن بلغه قول متكلميهم وجهميتهم ، او لم يعد خلافهم خلافاً ، وأحمد ذكر انه لا بد من المعرفة والتصديق مع الاقرار ، وقال : ان من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولاً عظيماً ، فان فساد هذا القول معلوم من دين الاسلام ! ولهذا لم يذهب اليه أحد قبل الكرامية ، مع ان الكرامية لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق ؛ ولكن تقول : لا يدخل في اسم الايمان حذراً من تبعضه وتعدده ، لأنهم رأوا أنه لا يمكن ان يذهب بعضه ويبقى بعضه ، بل ذلك يقتضي ان يجتمع في القلب ايمان وكبر ، واعتقدوا الاجماع على نفي ذلك . كما ذكر هذا الاجماع الأشعري وغيره .

وهذه الشبهة التي اوقعتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن اسلامه وايمانه ، ولهذا دخل في « ارجاء الفقهاء » جماعة هم عند الأمة اهل علم ودين . ولهذا لم يكفر احد من السلف احداً من « مرجئة الفقهاء » بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال ؛ لا من بدع العقائد ، فان كثيراً من النزاع فيها لفظي ، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب ، فليس لأحد ان يقول بخلاف قول الله ورسوله ، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة الى بدع اهل الكلام من اهل الارزاء وغيرهم والى ظهور الفسق ، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سبباً لخطأ عظيم في العقائد والأعمال ، فلهذا عظم القول في ذم « الارزاء » حتى قال ابراهيم النخعي : لقتنهم - يعني المرجئة - اخوف على هذه الأمة من فتنة

الأزارقة . وقال الزهري : ما ابتدعت في الاسلام بدعة اضر على اهله من الارزاء . وقال الأوزاعي : كان يحيى بن ابي كثير ، وقناة بقولان : ليس شيء من الاهواء اخوف عندهم على الأمة من الارزاء . وقال شريك القاضى - وذكر المرجئة فقال - : هم اخبث قوم ، حسبك بالرافضة خبثاً ، ولكن المرجئة يكذبون على الله . وقال سفيان الثوري : تركت المرجئة الاسلام أرق من ثوب سارى وقال قتادة : انما حدث الارزاء بعد فتنة فرقة ابن الاشعث .

وسئل ميمون بن مهران عن كلام « المرجئة » فقال : أنا أكبر من ذلك وقال سعيد بن جبير لمر الهمداني : ألا تستحي من رأي انت أكبر منه ؟ ! وقال ايوب السخيتاني : انا أكبر من دين المرجئة ، إن اول من تكلم في الارزاء . رجل من اهل المدينة من بنى هاشم يقال له : الحسن . وقال زاذان : اتينا الحسن ابن محمد فقلنا : ما هذا الكتاب الذى وضعت ؟ وكان هو الذى اخرج كتاب المرجئة فقال لي : يا ابا عمر لو ددت اني كنت مت قبل ان اخرج هذا الكتاب او اضع هذا الكتاب ، فان الخطأ في اسم الايمان ليس كالخطأ في اسم محدث ؛ ولا كالخطأ في غيره من الاسماء ، اذ كانت احكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الايمان والاسلام والكفر والنفاق .

واحد - رضي الله عنه - فرق بين المعرفة التي في القلب وبين التصديق الذي في القلب ، فان تصديق اللسان هو الاقرار ؛ وقد ذكر ثلاثة اشياء ، وهذا محتمل « شيئين » محتمل ان يفرق بين تصديق القلب ومعرفته ، وهذا قول

ابن كلاب ، والقلاسي . والاشعري واصحابه يفرقون بين معرفة القلب وبين تصديق القلب ، فان تصديق القلب قوله . وقول القلب عندهم ليس هو العلم ، بل نوعاً آخر ؛ ولهذا قال احمد : هل يحتاج الى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج الى ان يكون مصداقاً بما عرف ؟ فان زعم انه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين ، وان زعم انه يحتاج ان يكون مقراً ومصداقاً بما عرف فهو من ثلاثة اشياء ، فان جحد وقال : لا يحتاج الى المعرفة والتصديق . فقد اتى عظيماً ولا احسب امراً يدفع المعرفة والتصديق .

والذين قالوا : الايمان هو الاقرار . فالاقرار باللسان يتضمن التصديق باللسان . والمرجئة لم تختلف ان الاقرار باللسان فيه التصديق ؛ فعمل انه اراد تصديق القلب ومعرفة مع الاقرار باللسان ؛ إلا ان يقال : اراد تصديق القلب واللسان جميعاً مع المعرفة والاقرار ؛ ومراده بالاقرار الالتزام لا التصديق كما قال تعالى : (واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه : قال أقررتم واخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) فالميثاق المأخوذ على انهم يؤمنون به وينصرونه ، وقد امروا بهذا ، وليس هذا الاقرار تصديقاً ، فان الله تعالى لم يخبرهم بخبر ؛ بل اوجب عليهم اذا جاءهم ذلك الرسول ان يؤمنوا به وينصروه . فصدقوا بهذا الاقرار والتزموه ، فهذا هو اقرارهم . والانسان قد يقر للرسول بمعنى انه يلتزم ما يأمر به مع غير معرفة ، ومن غير تصديق له بأنه رسول الله ، لكن لم يقل احد من المرجئة : ان هذا الاقرار يكون ايماناً .

بل لابد عندم من الاقرار الخبري وهو انه يقر له بأنه رسول الله كما بقر المقر بما يقر به من الحقوق ، ولفظ الاقرار يتناول الالتزام والتصديق ، ولابد منها ، وقد يراد بالاقرار مجرد التصديق بدون التزام الطاعة ؛ والمرجئة تارة يجعلون هذا هو الايمان وتارة يجعلون الايمان التصديق والالتزام معاً ، هذا هو الاقرار الذي يقوله فقهاء المرجئة : إنه ايمان ، وإلا لو قال : انا اطيعه ولا اصدق انه رسول الله ، او اصدقه ولا التزم طاعته ، لم يكن مسلماً ولا مؤمناً عندهم .

واحمد قال : لابد مع هذا الاقرار ان يكون مصدقاً ، وان يكون عارفاً ، وان يكون مصدقاً بما عرف . وفي رواية اخرى : مصدقاً بما اقر ، وهذا يقتضي انه لابد من تصديق باطن ، ويحتمل ان يكون لفظ التصديق عنده يتضمن القول والعمل جميعاً ، كما قد ذكرنا شواهد انه يقال : صدق بالقول والعمل ، فيكون تصديق القلب عنده يتضمن انه مع معرفة قلبه انه رسول الله قد خضع له وانقاد ؛ فصدقه بقول قلبه وعمل قلبه محبة وتعظيماً ، والا فجرد معرفة قلبه انه رسول الله مع الاعراض عن الانقياد له ولما جاء به ، اما حسداً وإما كبراً ، وإما لمحبة دينه الذي يخالفه وإما لغير ذلك ، فلا يكون ايماناً . ولابد في الايمان من علم القلب وعمله فاذا اد احمد بالتصديق انه مع المعرفة به صار القلب مصدقاً له ، تابعاً له ، محباً له معظماً له ، فان هذا لابد منه ، ومن دفع هذا عن ان يكون من الايمان ، فهو من جنس من دفع المعرفة من ان تكون من الايمان ، وهذا اشبه بأن

يحمل عليه كلام احمد؛ لأن وجوب انقياد القلب مع معرفته ظاهر ثابت بدلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل ذلك معلوم بلاضطرار من دين الاسلام، ومن نازع من الجهمية في ان انقياد القلب من الايمان فهو كمن نازع من الكرامية في ان معرفة القلب من الايمان، فكان حمل كلام احمد على هذا هو المناسب لكلامه في هذا المقام.

وابضاً فان الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يحمل قول القلب؛ امر دقيق، واكثر العقلاء ينكرونه وبتقدير صحته لا يجب على كل احد ان يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما. واكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه، ويقولون: ان ما قاله ابن كلاب، والأشعري من الفرق، كلام باطل لا حقيقة له، وكثير من اصحابه اعترف بعدم الفرق، وعمدتهم من الحجّة إنما هو خبر الكاذب، قالوا: ففي قلبه خبر بخلاف علمه، فدل على الفرق. فقال لهم الناس: ذلك بتقدير خبر وعلم ليس هو علماً حقيقياً ولا خبراً حقيقياً، ولما اثبتوه من قول القلب المخالف للعلم والارادة، إنما يعود الى تقدير علوم وإرادات لا الى جنس آخر يخالفها.

ولهذا قالوا: ان الانسان لا يمكنه ان يقوم بقلبه خبر بخلاف علمه؛ وانما يمكنه ان يقول ذلك بلسانه، واما انه يقوم بقلبه خبر بخلاف ما يعلمه، فهذا غير ممكن، وهذا مما استدلوا به على ان الرب تعالى لا يتصور قيام الكذب

بذاته ، لأنه بكل شيء عليم ، ويمتتع قيام معنى بضاد للعلم بذات العالم ، والخبر
النفسي الكاذب بضاد العلم .

فيقال لهم : الخبر النفسي لو كان خلافاً للعلم لجاز وجود العلم مع ضده كما
يقولون مثل ذلك في مواضع كثيرة . وهي من اقوى الحجج التي يحتاج بها
القاضي ابو بكر وموافقوه في مسألة العقل وغيرها ، كلقاضي ابي يعلى ، وابي محمد
ابن اللبان ، وابي علي بن شاذان ، وابي الطيب ، وابي الوليد الباجي ، وابي
الخطاب . وابن عقيل وغيرهم ؛ فيقولون : العقل نوع من العلم ، فانه ليس بضده
فان لم يكن نوعاً منه كان خلافاً له ، ولو كان خلافاً لجاز وجوده مع ضد العقل
وهذه الحجة وان كانت ضعيفة - كما ضعفها الجمهور ، و ابو المعالي الجويني بمن
ضعفها - فان ما كان مستلزماً لغيره لم يكن ضداً له ، إذ قد اجتماعاً ، وليس هو
من نوعه ؛ بل هو خلاف له على هذا الاصطلاح الذي يقسمون فيه كل اثنين
الى ان يكونا مثلين ، او خلافين او ضدين ، فاللزوم كالارادة مع العلم
او كالعلم مع الحياة ، ونحو ذلك ليس ضداً . ولا مثلاً ؛ بل هو خلاف ، ومع
هذا فلا يجوز وجوده مع ضد اللازم ، فان ضد اللازم ينافيه ، ووجود اللزوم
بدون اللازم محال . كوجود الارادة بدون العلم ، والعلم بدون الحياة ، فهذان
خلافان عندم ، ولا يجوز وجود احدهما مع ضد الآخر .

كذلك العلم هو مستلزم للعقل ، فكل عالم عاقل ، والعقل شرط في العلم ،
فليس مثلاً له ولا ضداً ولا نوعاً منه ، ومع هذا لا يجوز وجوده مع ضد العقل ،

لكن هذه الحجة تقال لهم في العلم مع كلام النفس الذي هو الخبر ، فانه ليس ضداً ولا مثلاً ، بل خلافاً ؛ فيجوز وجود العلم مع ضد الخبر الصادق وهو الكاذب ، فبطلت تلك الحجة على امتناع الكذب النفساني من العالم ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا ان الانسان اذا رجع الى نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق وبين تصديق قلبه تصديقاً مجرداً عن انقياد وغيره من اعمال القلب بأنه صادق .

ثم احتج «الامام احمد» على ان الأعمال من الايمان بحجج كثيرة فقال وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : « شهادة ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وان تعطوا خمساً من المقتم ، فجعل ذلك كله من الايمان . قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الايمان » وقال : « اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » . وقال : « ان البذاذة من الايمان » . وقال « الايمان بضع وستون شعبة ، فأدناها امانة الأذى عن الطريق ، وارفها قول لا إله الا الله » مع اشياء كثيرة ، منها : « اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » : وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة المنافق : « ثلاث من كن فيه فهو منافق » مع حجج كثيرة . وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في تارك الصلاة وعن اصحابه من بعده ، ثم ما وصف الله تعالى في كتابه

من زيادة الايمان في غير موضع ، مثل قوله : (هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم) وقال : (ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايماناً) وقال : (واذا نلت عليهم آياته زادتهم ايماناً) وقال تعالى (فمنهم من يقول ابيكم زادته هذه ايماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون) وقال : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله هم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) وقال تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقال تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) وقال : (وما امرنا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) .

قال احمد : ويلزمه ان يقول : هو مؤمن باقراره ، وان اقر بالزكاة في الجملة ولم يجد في كل مائتي درهم خمسة ، انه مؤمن ، فيلزمه ان يقول : اذا اقر ثم شد الزنار في وسطه وصلى للصليب واتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها إلا انه في ذلك مقر بالله ؛ فيلزمه ان يكون عنده مؤمناً ، وهذه الأشياء من اشنع ما يلزمهم .

« قلت » : هذا الذي ذكره الامام احمد من احسن ما احتج الناس به عليهم ، جمع في ذلك جملاً بقول غيره بعضها ، وهذا الالتزام لا محيد لهم عنه . ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه انه لازم التزموه . وقالوا : لو فعل

[مافعل] من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافراً في الباطن ؛ لكن يكون دليلاً على الكفر في احكام الدنيا ، فاذا احتج عليهم بنصوص تقتضي انه يكون كافراً في الآخرة . قالوا : فهذه النصوص تدل على انه في الباطن ليس معه من معرفة الله شيء ، فانها عندم شيء واحد ، مخالفوا صريح المعقول وصرح الشرع .

وهذا القول مع فساده عقلاً وشرعاً ، ومع كونه عند التحقيق لا يثبت إيماناً ؛ فانهم جعلوا الايمان شيئاً واحداً لا حقيقة له ، كما قالت الجهمية ومن وافقهم مثل ذلك في وحدة الرب انه ذات بلا صفات . وقالوا بأن القرآن مخلوق وان الله لا يرى في الآخرة ، وما يقوله [ابن كلاب] من وحدة الكلام وغيره من الصفات .

فقولهم في الرب وصفاته وكلامه والايمان به يرجع الى تعطيل محض ، وهذا قد وقع فيه طوائف كثيرة من المتأخرين المنتسبين الى السنة والفقه والحديث المتبعين للأئمة الأربعة ، المتعصين للجهمية والمعتزلة ؛ بل وللمرجئة أيضاً ؛ لكن لعدم معرفتهم بالحقائق التي نشأت منها البدع يجمعون بين الضدين ؛ ولكن من رحمة الله بعباده المسلمين ان الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق ، مثل الأئمة الأربعة وغيرهم كمالك ، والثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وكالشافعي واحمد ، واسحاق ، وابي عبيد ، وابي حنيفة ، وابي يوسف ، ومحمد ؛ كانوا ينكرون على اهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن والايمان وصفات الرب وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من ان الله يرى في الآخرة ، وان

القرآن كلام الله غير مخلوق ، وان الايمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسان فلو شتم الله ورسوله كان كافراً باطنا وظاهراً عندهم كلهم ، ومن كان موافقاً لقول جهم في الايمان بنسب انتصار ابي الحسن لقوله في الايمان ، يبقى تارة يقول بقول السلف والأئمة ، وتارة يقول بقول المتكلمين الموافقين لجهم؛ حتى في مسألة سب الله ورسوله رأيت طائفة من الحنبلين ، والشافعيين والمالكين ، اذا تكلموا بكلام الأئمة قالوا : ان هذا كفر باطنا وظاهراً .

واذا تكلموا بكلام اولئك قالوا : هذا كفر في الظاهر ، وهو في الباطن يجوز ان يكون مؤمناً تام الايمان ، فان الايمان عندهم لا يتبعض . ولهذا لما عرف القاضي عياض هذا من قول بعض اصحابه ، انكره ونصر قول مالك وأهل السنة ، واحسن في ذلك .

وقد ذكرت بعض ما يتعلق بهذا في كتاب « الصارم المنقول على شاتم الرسول » وكذلك نجد في مسائل الايمان يذكرون اقوال الأئمة ، والسلف ويبحثون بحثاً يناسب قول الجهمية ، لأن البحث أخذوه من كتب اهل الكلام الذين نصروا قول جهم في مسائل الايمان .

والرازي لما صنف « مناقب الشافعي » ذكر قوله في الايمان . وقول الشافعي قول الصحابة والتابعين ، وقد ذكر الشافعي أنه إجماع من الصحابة والتابعين . ومن لقيه استشكل قول الشافعي جداً لأنه كان قد انعقد في نفسه شبهة اهل البدع في الايمان : من الحوارج والمعتزلة والجهمية والكرامية

وسائر المرجئة، وهو ان الشيء المركب اذا زال بعض اجزائه لزم زواله كله؛ لكن هو لم يذكر إلا ظاهر شبهتهم . والجواب عما ذكروه هو سهل ، فانه يسلم له ان الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت ؛ لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء .

والشافعي مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون : إن الذنب يقدر في كمال الايمان ، ولهذا نفى الشارع الايمان عن هؤلاء ، فذلك المجموع الذي هو الايمان لم يبق مجموعاً مع الذنوب ، لكن يقولون بقي بعضه : إما اصله وإما اكثره واما غير ذلك ؛ فيعود الكلام الى انه يذهب بعضه ويبقى بعضه .

ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة ؛ لأنه اذا نقص لزم ذهابه كله عندهم إن كان متبعضاً متعبداً عند من يقول بذلك ، وم الخوارج والمعتزلة . واما الجهمية فهو واحد عندهم لا يقبل التعدد ؛ فيثبتون واحداً لا حقيقة له ؛ كما قالوا مثل ذلك في وحدانية الرب ووحدانية صفاته عند من أثبتها منهم .

ومن العجب ان الأصل الذي اوقعهم في هذا ، اعتقادهم أنه لا يجتمع في الانسان بعض الايمان وبعض الكفر ، او ما هو إيمان وما هو كفر ، واعتقدوا ان هذا متفق عليه بين المسلمين كما ذكر ذلك ابو الحسن وغيره ، فلأجل اعتقادهم هذا الاجماع وقعوا فيما هو مخالف للاجماع الحقيقي ، إجماع

السلف الذي ذكره غير واحد من الأئمة ؛ بل وصرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهنم في الإيمان .

ولهذا نظائر متعددة ؛ يقول الانسان قولاً مغالفاً للنص والاجماع القديم حقيقة ويكون معتقداً انه متمسك بالنص والاجماع . وهذا اذا كان مبلغ علمه واجتهاده ؛ فالثبوت عليه ما اطاع الله فيه من اجتهاده ويفرله ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن ، وهم لما توهموا ان الإيمان الواجب على جميع الناس نوع واحد ؛ صار بعضهم يظن ان ذلك النوع من حيث هو لا يقبل التفاضل . فقال لي مرة بعضهم : الإيمان من حيث هو إيمان لا يقبل الزيادة والنقصان . فقلت له : قولك من حيث هو ؛ كما تقول : الانسان من حيث هو انسان ، والحيوان من حيث هو حيوان ، والوجود من حيث هو وجود ، والسواد من حيث هو سواد وامثال ذلك لا يقبل الزيادة والنقصان والصفات ؛ فتثبت لهذه المسيات وجوداً مطلقاً مجرداً عن جميع القيود والصفات وهذا لا حقيقة له في الخارج ، وانما هو شيء يقدره الانسان في ذهنه كما يقدر موجوداً لا قديماً ولا حادثاً ولا قائماً بنفسه ولا بغيره ، ويقدر انساناً لا موجوداً ولا معدوماً ، ويقول : الماهية من حيث هي هي لا توصف بوجود ولا عدم ، والماهية من حيث هي هي شيء يقدره الذهن ، وذلك موجود في الذهن لا في الخارج . واما تقدير شيء لا يكون في الذهن ولا في الخارج فمتنع ، وهذا التقدير لا يكون إلا في الذهن كسائر تقدير الأمور الممتعة ؛ مثل تقدير صدور العالم عن صانعين ونحو ذلك ؛ فان هذه المقدرات في الذهن .

فهكذا تقدير إيمان لا يتصف به مؤمن ؛ بل هو مجرد عن كل قيد . وتقدير إنسان لا يكون موجوداً ولا معدوماً ؛ بل ما تم إيماناً الامع المؤمنين ، ولا تم انسانية الا ما اتصف بها الانسان ؛ فكل انسان له انسانية تخصه وكل مؤمن له إيمان يخصه ؛ فالسانية زيد تشبه انسانية عمرو وليست هي هي . واذا اشتركوا في نوع الانسانية فمضى ذلك انهما يشتهبان فيما يوجد في الخارج ويشتركان في أمر كلي مطلق يكون في الذهن .

وكذلك اذا قيل : إيمان زيد مثل إيمان عمرو ؛ فإيمان كل واحد يخصه . فلو قدر ان الايمان يتماثل لكان لكل مؤمن إيمان يخصه وذلك الايمان مختص معين ليس هو الايمان من حيث هو هو ؛ بل هو إيمان معين ، وذلك الايمان يقبل الزيادة . والذين ينفون التفاضل في هذه الأمور يتصورون في انفسهم ايماناً مطلقاً او انساناً مطلقاً ، او وجوداً مطلقاً مجرداً عن جميع الصفات المعينة له ثم يظنون ان هذا هو الايمان الموجود في الناس ، وذلك لا يقبل التفاضل ولا يقبل في نفسه التعدد ؛ اذ هو تصور معين قائم في نفس متصوره .

ولهذا يظن كثير من هؤلاء ان الأمور المشتركة في شيء واحد هي واحدة بالشخص والعين ؛ حتى انتهى الأمر بطائفة من علماء وعبادة الى ان جعلوا الوجود كذلك ؛ فتصوروا ان الموجودات مشتركة في مسمى الوجود ، وتصوروا هذا في انفسهم ، فظنوه في الخارج كما هو في انفسهم ، ثم ظنوا انه الله ؛ فجعلوا الرب هو هذا الوجود الذي لا يوجد قط إلا في نفس متصوره ؛ ولا يكون في الخارج .

وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعداداً مجردة وحقائق مجردة وبسومنها المثل الأفلاطونية، وزماناً مجرداً عن الحركة والتحرك، وبعداً مجرداً عن الأجسام وصفاتها ثم ظنوا وجود ذلك في الخارج، وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم ما في الأذهان بما في الأعيان، وهؤلاء قد يجعلون الواحد اثنين والاتنين واحداً؛ فتارة يجيئون إلى الأمور المتعددة المتفاضلة في الخارج فيجعلونها واحدة أو بمثالثة، وتارة يجيئون إلى ما في الخارج من الحيوان والمكان والزمان فيجعلون الواحد اثنين. والمتفلسفة والجهمية وقروا في هذا وهذا، فجهأوا إلى صفات الرب التي هي أنه عالم وقادر، فعملوا هذه الصفة هي عين الأخرى وجعلوا الصفة هي الموصوف.

وهكذا القائلون بأن الإيمان شيء واحد وأنه متماثل في بني آدم، غلطوا في كونه واحداً وفي كونه متمائلاً كما غلطوا في أمثال ذلك من مسائل «التوحيد» و«الصفات» و«القرآن» ونحو ذلك؛ فكان غلط جهم وأتباعه في الإيمان كغلطهم في صفات الرب الذي يؤمن به المؤمنون، وفي كلامه وصفاته سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف؛ بل عامة الصفات التي يتصف بها الموصوفون تقبل التفاضل؛ ولهذا كان العقل يقبل التفاضل، والايجاب والتحرير يقبل التفاضل، فيكون إيجاب أقوى من إيجاب، وتحرير أقوى من تحرير. وكذلك المعرفة التي في القلوب تقبل التفاضل

على الصحيح عند اهل السنة ، وفي هذا كله نزاع ، فطائفة من المنتسبين إلى السنة تنكر التفاضل في هذا كله كما يختار ذلك القاضي ابو بكر وابن عقيل ، وغيرهما .

وقد حكى عن احمد في التفاضل في المعرفة روايتان . وإنكار التفاضل في هذه الصفات هو من جنس اصل قول المرجئة ، ولكن يقوله من يخالف المرجئة ، وهؤلاء يقولون : التفاضل إنما هو في الأعمال ، وأما الإيمان الذي في القلوب فلا يتفاضل ، وليس الأمر كما قالوه ، بل جميع ذلك يتفاضل ، وقد يقولون : إن أعمال القلب تتفاضل ؛ بخلاف معارف القلب ، وليس الأمر كذلك ، بل إيمان القلوب يتفاضل من جهة ما وجب على هذا ، ومن جهة ما وجب على هذا ، فلا يستوون في الوجوب . وأما محمد وإن وجب عليهم جميعهم الإيمان بعد استقرار الشرع ، فوجوب الإيمان بالشيء المعين موقوف على أن يبلغ العبد أن كان خبيراً ، وعلى أن يحتاج إلى العمل به أن كان أمراً ، وعلى العلم به أن كان عالماً ، والأفلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر في الكتاب والسنة ، ويعرف معناه ويعلمه ؛ فإن هذا لا يقدر عليه احد .

فالوجوب يتنوع بتنوع الناس فيه ؛ ثم قدرم في أداء الواجب متفاوتة ؛ ثم نفس المعرفة تختلف بالأجمال والتفصيل ، والقوة والضعف ، ودوام الحضور ، ومع الغفلة ، فليست المفصلة المستحضرة الثابتة التي يثبت الله صاحبها بالقول

الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، كالجملية التي غفل عنها ، وإذا حصل له ما يريه فيها وذكرها في قلبه ثم رغب الى الله في كشف الريب . ثم احوال القلوب واعمالها مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله ، والتوكل عليه ، والصبر على حكمه ، والشكر له والانابة اليه ، واخلاص العمل له مما يتفاضل الناس فيها تفاضلاً لا يعرف قدره الا الله عز وجل ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو اما جاهل لم يتصوره ، واما معاند .

قال الامام احمد : فان زعموا أنهم لا يقبلون زيادة الايمان من أجل أنهم لا يدرون ما زيادته ، وانها غير محدودة ، فبا يقولون في أنبياء الله وكتبه ورسله ؟ هل بقرون بهم في الجملة ؟ ويزعمون انه من الايمان : فاذا قالوا : نعم ؛ قيل لهم : هل تحدونهم وتعرفون عددهم ؟ أليس انما بصيرون في ذلك الى الاقرار بهم في الجملة ثم يكفون عن عددهم ؛ فكذلك زيادة الايمان . وبين احمد ان كونهم لم يعرفوا منتهى زيادته ، لا يمنعهم من الاقرار بها في الجملة ؛ كما أنهم يؤمنون بالأنبياء والكتب وهم لا يعرفون عدد الكتب والرسول .

وهذا الذي ذكره احمد ، وذكره محمد بن نصر ، وغيرها ، يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسول ، وان حديث ابي خري في ذلك لم يثبت عندهم .

واما قول من سوى بين الاسلام والايمان وقال : ان الله سمي الايمان بما سمي به الاسلام ؛ وسمي الاسلام بما سمي به الايمان ، فليس كذلك ، فان الله

ورسوله قد فسر الايمان بأنه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر. وبين ايضاً ان العمل بما امر به يدخل في الايمان، ولم يسم الله الايمان بملائكته وكتبه ورسوله والبحث بعد الموت اسلاماً؛ بل انما سمي الاسلام الاستسلام له بقلبه وقصده واخلاص الدين والعمل بما امر به، كالصلاة والزكاة خالصاً لوجهه فهذا هو الذي سماه الله اسلاماً وجعله ديناً وقال: (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) ولم يدخل فيما خص به الايمان، وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله؛ بل ولا اعمال القلوب، مثل حب الله ورسوله ونحو ذلك، فان هذه جعلها من الايمان، والمسلم المؤمن يتصف بها، وليس اذا اتصف بها للمسلم المؤمن يلزم ان تكون من الاسلام، بل هي من الايمان، والاسلام فرض. والايمان فرض، والاسلام داخل فيه؛ فمن أتى بالايمان الذي امر به، فلا بد ان يكون قد أتى بالاسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة، ومن أتى بما يسمي اسلاماً لم يلزم ان يكون قد أتى بالايمان الا بدليل منفصل، كما علم ان من أتى الله عليه بالاسلام من الأنبياء واتباعهم إلى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين كما كانوا مسلمين، كما قال الحواريون: (آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون) وقال: (واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) ولهذا امرنا الله بهذا وبهذا في خطاب واحد، كما قال: (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق

فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) وقال في الآية الأخرى : (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) .

وهذا يقتضي ان كل من دان بغير دين الاسلام فعمله مردود ، وهو خاسر في الآخرة ، فيقتضي وجوب دين الاسلام وبطلان ما سواه ، لا يقتضي ان مسمى الدين هو مسمى الايمان ؛ بل امرنا ان نقول : (آمنا بالله) و امرنا ان نقول (ونحن له مسلمون) ؛ فأمرنا باتنين ؛ فكيف نجعلهما واحداً !!

واذا جعلوا الاسلام والايمان شيئاً واحداً . فاما ان يقولوا : اللفظ مترادف ، فيكون هذا تكريراً محضاً ثم مدلول هذا اللفظ عين مدلول هذا اللفظ ، واما ان يقولوا : بل احد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى ، كما في أسماء الله واسماء كتابه ؛ لكن هذا لا يقتضي الأمر بهما جميعاً ، ولكن يقتضي ان يذكر تارة بهذا الوصف ، وتارة بهذا الوصف ؛ فلا يقول قائل قد فرض الله عليك الصلوات الخمس ، والصلاة المكتوبة ، وهذا هو هذا . والعطف بالصفات يكون اذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح او النّم ؛ كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى) لا يقال : صل لربك الأعلى ولربك الذي خلق فسوى .

وقال محمد بن نصر المروزي - رحمه الله - فقد بين الله في كتابه وسنة رسوله ان الاسلام والايمان لا يفترقان ، فمن صدق بالله فقد آمن به ، ومن آمن بالله فقد خضع له ، وقد اسلم له ؛ ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهى عما

نهى الله عنه فقد استكمل الايمان والاسلام المقترض عليه ، ومن ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الايمان ولا الاسلام ، الا انه انقص من غيره في الاسلام والايمان من غير نقصان من الاقرار بأن الله حق ، وما قال حق لا باطل وصدق لا كذب ، ولكن ينقص من الايمان الذي هو تعظيم لله وخضوع للهية والجلال والطاعة للمصدق به وهو الله ، فمن ذلك يكون النقصان لا من اقرارهم بأن الله حق ، وما قال صدق .

فيقال : ما ذكره يدل على ان من آتى بالايمان الواجب فقد آتى بالاسلام ؛ وهذا حق ، ولكن ليس فيه ما يدل عن ان من اتى بالاسلام الواجب فقد اتى بالايمان ، فقوله : من آمن بالله فقد خضع له وقد استسلم له حق ؛ لكن اي شيء في هذا يدل على ان من اسلم لله وخضع له ، فقد آمن به وبملائكته وبكتبه ورسوله والبعث بعد الموت ؟ وقوله : إن الله ورسوله قد بين ان الاسلام والايمان لا يفترقان ، إن اراد ان الله اوجهما جميعاً ونهى عن التفريق بينهما ، فهذا حق ؛ وان اراد ان الله جعل مسمى هذا مسمى هذا ، فنصوص الكتاب والسنة تخالف ذلك ، وما ذكر قط نصاً واحداً يدل على اتفاق المسلمين .

وكذلك قوله : من فعل ما امر به واتى عما نهى عنه فقد استكمل الايمان والاسلام ، فهذا صحيح اذا فعل ما امر به باطناً وظاهراً ، ويكون قد استكمل الايمان والاسلام الواجب عليه ، ولا يلزم ان يكون إيمانه واسلامه مساوياً للايمان والاسلام الذي فعله اولوا العزم من الرسل ، كالحليل ابراهيم ، ومحمد

خاتم النبيين ، عليهما الصلاة والسلام ، بل كان معه من الايمان والاسلام مالا يقدر عليه غيره ممن ليس كذلك ولم يؤمر به .

وقوله : من ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الاسلام والايمان إلا انه انقص من غيره في ذلك . فيقال : ان اريد بذلك انه بقى معه شيء من الاسلام والايمان ، فهذا حق كما دلت عليه النصوص ، بخلافاً للخوارج والمعتزلة وان اراد انه يطلق عليه بلا تقييد مؤمن ومسلم في سياق التثاء والوعد بالجنة : فهذا خلاف الكتاب والسنة ، ولو كان كذلك لدخلوا في قوله : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار) وامثال ذلك مما وعدوه بالجنة بلا عذاب .

وأيضاً : فصاحب الشرع قد نفى عنهم الاسم في غير موضع ، بل قال : « قتال المؤمن كفر » ، وقال : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » واذا احتج بقوله : (وان طائفتان من المؤمنين اقتلوا) ونحو ذلك ، قيل : كل هؤلاء انما سماوا به مع التقييد بأنهم فعلوا هذه الأمور ليدكر ما يؤمرون به م وما يؤمر به غيرهم .

وكذلك قوله : لا يكون النقصان من اقرارم بأن الله حق وما قاله صدق ، فيقال : بل النقصان يكون في الايمان الذي في القلوب من معرفتهم ومن علمهم فلا تكون معرفتهم وتصديقهم بالله واسمائه وصفاته ، وما قاله من أمر وهمي ، ووعد ووعيد ، كعرفة غيرهم وتصديقه ؛ لا من جهة الاجمال والتفصيل ، ولا من

جهة القوة والضعف ، ولا من جهة الذكر والغفلة ، وهذه الأمور كلها داخلة في الإيمان بالله وبما أرسل به رسوله ، وكيف يكون الإيمان بالله واسمائه وصفاته متمثالاً في القلوب؟! أم كيف يكون الإيمان بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه غفور رحيم ، عزيز حكيم ، شديد العقاب ؛ ليس هو من الإيمان به؟! فلا يمكن مسلماً أن يقول : إن الإيمان بذلك ليس من الإيمان به ولا يدعى تماثل الناس فيه .

وأما ما ذكره من أن الإسلام ينقص كما ينقص الإيمان ، فهذا أيضاً حق كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ؛ فإن من نقص من الصلاة والزكاة أو الصوم أو الحج شيئاً ، فقد نقص من إسلامه بحسب ذلك . ومن قال : أن الإسلام هو الكلمة فقط ، وأراد بذلك أنه لا يزيد ولا ينقص ، فقوله خطأ . ورد الذين جعلوا الإسلام والإيمان سواء وإنما يتوجه إلى هؤلاء ؛ فإن قولهم في الإسلام يشبه قول المرجئة في الإيمان .

ولهذا صار الناس في الإيمان والإسلام على « ثلاثة أقوال » فالمرجئة يقولون : الإسلام أفضل ؛ فإنه يدخل فيه الإيمان . وآخرون يقولون : الإيمان والإسلام سواء ، وهم المعتزلة والخوارج ، وطائفة من أهل الحديث والسنة وحكاة محمد بن نصر عن جمهورهم ، وليس كذلك . والقول الثالث أن الإيمان أكمل وأفضل ، وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة في غير موضع ، وهو المأثور عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

تم هؤلاء منهم من يقول : الاسلام مجرد القول ، والأعمال ليست من الاسلام . والصحيح ان الاسلام هو الأعمال الظاهرة كلها ، واحداً انما منع الاستثناء فيه على قول الزهري : هو الكلمة . هكذا نقل الأثرم ، والميموني وغيرهما عنه . واما على جوابه الآخر الذي لم يختار فيه قول من قال : الاسلام الكلمة ، فيستثنى في الاسلام كما يستثنى في الايمان ، فان الانسان لا يجزم بأنه قد فعل بكل ما امر به من الاسلام . واذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « بنى الاسلام على خمس » فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما امر كجزمه بايمانه . فقد قال تعالى : (ادخلوا في السلم كافة) اي الاسلام كافة ، اي في جميع شرائع الاسلام .

وتعليل احمد وغيره من السلف ما ذكروه في اسم الايمان بجيء في اسم الاسلام ، فاذا اريد بالاسلام الكلمة فلا استثناء فيه ، كما نص عليه احمد وغيره واذا اريد به من فعل الواجبات الظاهرة كلها ، فلا استثناء فيه كالأستثناء في الايمان ، ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلماً متميزاً عن اليهود والنصارى تجري عليه احكام الاسلام التي تجري على المسلمين . كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه ، فلهذا قال الزهري : الاسلام الكلمة . وعلى ذلك وافقه احمد وغيره ، وحين وافقه لم يرد ان الاسلام الواجب هو الكلمة وحدها ، فان الزهري اجل من ان يخفى عليه ذلك ، ولهذا أحمد لم يجب بهذا في جوابه الثاني خوفاً من ان يظن ان الاسلام ليس هو الا الكلمة ؛ ولهذا لما قال الأثرم

لأحمد : فاذا قال : انا مسلم فلا يستثنى ؟ قال نعم : لا يستثنى اذا قال : انا مسلم . فقلت له اقول : هذا مسلم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وانا اعلم انه لا يسلم الناس منه ، فذكر حديث معمر عن الزهري قال : فترى ان الاسلام الكلمة . والايمان العمل .

فبين احمد ان الاسلام اذا كان هو الكلمة فلا استثناء فيها ، فحيث كان هو المفهوم من لفظ الاسلام فلا استثناء فيه ، ولو اريد بالايمان هذا كما يراد ذلك في مثل قوله : (فتحرير رقبة مؤمنة) فانما اريد من اظهر الاسلام ، فان الايمان الذي عقلت به احكام الدنيا ، هو الايمان الظاهر وهو الاسلام ، فالمسمى واحد في الأحكام الظاهرة . ولهذا لما ذكر الأثرم لاحمد احتجاج المرجئة بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اعتقها فانها مؤمنة » اجابه بأن المراد حكمها في الدنيا حكم المؤمنة ؛ لم يرد انها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار اذا لقيته بمجرد هذا الاقرار ، وهذا هو المؤمن المطلق في كتاب الله ، وهو الموعود بالجنة بلا نار اذا مات على ايمانه ، ولهذا كان ابن مسعود وغيره من السلف يلزمون من شهد لنفسه بالايمان ان يشهد لها بالجنة ؛ يعنون اذا مات على ذلك ، فانه قد عرف ان الجنة لا يدخلها الا من مات مؤمناً .

فاذا قال الانسان : انا مؤمن قطعاً ، وانا مؤمن عند الله . قيل له : فاقطع بأنك تدخل الجنة بلا عذاب اذا مات على هذا الحال ، فان الله اخبر ان المؤمنين

في الجنة . وأذكر احمد بن حنبل حديث ابن عميرة ان عبد الله رجع عن الاستثناء؛ فان ابن مسعود لما قيل له : إن قوماً يقولون : إنا مؤمنون ، فقال : أفلا سألتهم أفي الجنة هم ؟ وفي رواية : أفلا قالوا : نحن اهل الجنة ، وفي رواية قيل له : إن هذا يزعم انه مؤمن ؛ قال : فاسألوه افي الجنة هو او في النار ؟ فسالوه فقال : الله اعلم ، فقال له عبد الله : فهلا و كلت الأولى كما وكلت الثانية ؛ من قال : انا مؤمن فهو كافر ، ومن قال : انا عالم فهو جاهل ، ومن قال : هو في الجنة فهو في النار ، يروي عن عمر بن الخطاب من وجوه مرسلًا من حديث قتادة ونعيم ابن ابي هند وغيرهما .

والسؤال الذي تورده المرجئة على ابن مسعود ويقولون : ان يزيد بن عميرة اورده عليه حتى رجع ، جعل هذا ان الانسان يعلم حاله الآن ، وما يدري ماذا يموت عليه ، ولهذا السؤال صار طائفة كثيرة يقولون : المؤمن هو من سبق في علم الله أنه يختم له بالايان ، والكافر من سبق في علم الله انه كافر ، وانه لا اعتبار بما كان قبل ذلك ، وعلى هذا يجعلون الاستثناء ، وهذا احد قولي الناس من اصحاب احمد وغيرهم وهو قول ابي الحسن واصحابه .

ولكن احمد وغيره من السلف لم يكن هذا مقصودهم وانما مقصودهم ان الايمان المطلق يتضمن فعل المأمورات . فقوله : انا مؤمن . كقوله : انا ولي الله وانا مؤمن تقي ، وانا من الابرار ، ونحو ذلك . وابن مسعود رضي الله عنه لم يكن يخفي عليه ان الجنة لا تكون إلا لمن مات مؤمناً ، وان الانسان لا يعلم على ماذا يموت .

فان ابن مسعود أجل قدراً من هذا ، وإنما أراد : سلوه هل هو في الجنة إن مات على هذه الحال ؟ كأنه قال : سلوه أيبكون من أهل الجنة على هذه الحال ؟ فلما قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أفلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية . يقول : هذا التوقف يدل على أنك لا تشهد لنفسك بفعل الواجبات وترك المحرمات . فانه من شهد لنفسه بذلك شهد لنفسه أنه من أهل الجنة إن مات على ذلك ، ولهذا صار الذين لا يرون الاستثناء لأجل الحال الحاضر ، بل للموافاة ، لا يقطعون بأن الله يقبل توبة تائب ، كما لا يقطعون بأن الله تعالى يعاقب مذنباً ، فانهم لو قطعوا بقبول توبته ، لزمهم أن يقطعوا له الجنة ، وهم لا يقطعون لأحد من أهل القبلة لا بجنة ولا نار ؛ إلا من قطع له النص .

وإذا قيل : الجنة هي لمن أتى بالتوبة النصوح من جميع السيئات . قالوا : ولو مات على هذه التوبة لم يقطع له بالجنة ، وهم لا يستثنون في الأحوال ، بل يجزمون بأن المؤمن مؤمن تام الايمان ، ولكن عندم الايمان عند الله هو ما يوافي به ، فمن قطعوا له بأنه مات مؤمناً لا ذنب له قطعوا له بالجنة ، فلهذا لا يقطعون بقبول التوبة لثلاث لزمهم ان يقطعوا بالجنة ، واما أئمة السلف فانما لم يقطعوا بالجنة لأنهم لا يقطعون بأنه فعل المأمور وترك المحذور ، ولا انه أتى بالتوبة النصوح ، وإلا فهم يقطعون بأن من تاب توبة نصوحاً ، قبل الله توبته .

وجماع الأمر ان الاسم الواحد ينفي ويثبت بحسب الاحكام المتعلقة به ، فلا يجب إذا اثبت او نفي في حكم ان يكون كذلك في سائر الاحكام ، وهذا في

كلام العرب وسائر الأمم ، لأن المعنى مفهوم . مثال ذلك المنافقون قد يجعلون من المؤمنين في موضع ؛ وفي موضع آخر يقال : ما من منهم . قال الله تعالى : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . اشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، اشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) فهناك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو ، الناكلين عن الجهاد ، التاهين لغيرهم ، الزامين للمؤمنين : منهم . وقال في آية أخرى (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما من منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون) وهؤلاء ذنبهم اخف ، فانهم لم يؤذوا المؤمنين لا بنهي ولا سلق بألسنة حداد ، ولكن حلفوا بالله أنهم من المؤمنين في الباطن بقلوبهم ، وإلا فقد علم المؤمنون أنهم منهم في الظاهر ، فكذبهم الله وقال : (وما من منكم) وهناك قال : (قد يعلم الله المعوقين منكم) فالخطاب لمن كان في الظاهر مسلماً مؤمناً وليس مؤمناً ، بأن منكم من هو بهذه الصفة ، وليس مؤمناً بل احبط الله عمله ، فهو منكم في الظاهر لا الباطن .

ولهذا لما استؤذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل بعض المنافقين قال : « لا يتحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه » فانهم من أصحابه في الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور ، وأصحابه الذين هم أصحابه ليس فيهم نفاق

كالذين علموا سنته الناس وبلغوها إليهم وقاتلوا المرتدين بعد موته ، والذين
بايعوه تحت الشجرة واهل بدر وغيرهم ، بل الذين كانوا منافقين غمرتهم
الناس .

وكذلك الأنساب مثل كون الانسان أباً لآخر او اخاه ، يثبت في بعض
الأحكام دون بعض ؛ فانه قد ثبت في « الصحيحين » انه لما اختصم الى النبي
صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة بن الأسود ، في ابن
وليدة زمعة ، وكان عتبة بن أبي وقاص قد فجر بها في الجاهلية وولدت منه ولداً
فقال عتبة لأخيه سعد : إذا قدمت مكة فانظر ابن وليدة زمعة فانه ابني ،
فاختصم فيه هو وعبد بن زمعة الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال سعد :
يا رسول الله ! ابن أخي عتبة ، عهد إليّ اخي عتبة فيه ، اذا قدمت مكة انظر
الى ابن وليدة زمعة فانه ابني ، ألا ترى يا رسول الله شبهه بعتبة ؟ فقال عبد :
يا رسول الله أخي وابن وليدة ابي ؛ ولد علي فراش ابني ، فرأى النبي
صلى الله عليه وسلم شيئاً بيناً بعتبة فقال : « هو لك يا عبد بن زمعة ،
الولد للفراش وللعاهر الحجر ، واحتجني منه يا سودة . » لما رأى من شبهه
البيّن بعتبة .

فقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم ابن زمعة لأنه ولد علي فراشه وجعله
أخاً لولده بقوله : « فهو لك يا عبد بن زمعة » وقد صارت سودة أخته يرثها
وترثه ؛ لأنه ابن ابيها زمعة ولد علي فراشه . ومع هذا فأحمرها النبي صلى الله

عليه وسلم ان تحتجب منه لما رأى من شبهه البين بعتبة ، فانه قام فيه دليلان متعارضان : الفراش والشبه ، والنسب في الظاهر لصاحب الفراش اقوى ، ولأنها امر ظاهر مباح والفجور امر باطن لا يعلم ويجب ستره لإظهاره كما قال : « للعاشر الحجز » كما يقال : بفيك الكئيب وبفيك الأثلب ، اي : عليك ان تسكت عن إظهار الفجور فان الله يبغض ذلك ، ولما كان احتجابها منه ممكناً من غير ضرر ، امرها بالاحتجاب لما ظهر من الدلالة على انه ليس اخاها في الباطن .

فتبين ان الاسم الواحد ينفي في حكم ويثبت في حكم . فهو اخ في الميراث وليس بأخ في المحرمية . وكذلك ولدا الزنا عند بعض العلماء ، وابن الملاعة عند الجميع إلا من شذ ؛ ليس بولد في الميراث ونحوه ، وهو ولد في تحريم النكاح والمحرمية .

ولفظ النكاح وغيره في الأمر ، يتناول الكامل ، وهو العقد والوطء ، كما في قوله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقوله : (حتى تنكح زوجاً غيره) وفي النهي يعم الناقص والكامل ؛ فينبى عن العقد مفرداً وإن لم يكن وطء كقوله : (ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء) وهذا لأن الأمر مقصوده تحصيل المصلحة ، وتحصيل المصلحة إنما يكون بالدخول كما لو قال : اشتر لي طعاماً ؛ فالمقصود ما يحصل إلا بالشراء والقبض ، والناهي مقصوده دفع المفسدة ، فيدخل كل جزء منه ؛ لأن وجوده مفسدة

وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه ، والتحریم معلق بأذى سبب حتى الرضاع .

وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكال ، ينفي تارة باعتبار انتفاء كماله ، ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدئه . فلفظ الرجال يعم الذكور وان كانوا صغاراً في مثل قوله : (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) ولا يعم الصغار في مثل قوله : (والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) فان باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه ، فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن ان الولدان غير داخلين ، لأنهم ليسوا من اهله وهم ضعفاء ، فذكرهم بالاسم الخاص ليين عذرهم في ترك الهجرة ووجوب الجهاد . وكذلك الايمان له مبدأ وكال ، وظاهر وباطن ، فاذا علقته بالأحكام الدنيوية من الحقوق والحدود كحقن الدم والمال والموارث ، والعقوبات الدنيوية ، علقته بظاهره لا يمكن غير ذلك إذ تعليق ذلك بالباطن متعذر ؛ وان قدر احياناً فهو متعسر عاماً وقدرة ؛ فلا يعلم ذلك عاماً يثبت به في الظاهر ، ولا يمكن عقوبة من يعلم ذلك منه في الباطن .

ويهذين المثليين كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمتع من عقوبة المنافقين ؛ فان فيهم من لم يكن يعرفهم كما اخبر الله بذلك ؛ والذين كان يعرفهم لو عاقب بعضهم لغضب له قومه ؛ ولقال الناس : إن محمداً يقتل اصحابه ؛ فكان يحصل بسبب ذلك

نفور عن الاسلام؛ إذ لم يكن الذنب ظاهراً ، يشترك الناس في معرفته . ولما هم بعقوبة من يتخلف عن الصلاة ، منعه من في البيوت من النساء والذرية ، وأما مبدؤه فيتعلق به خطاب الأمر والنهي ، فإذا قال الله : (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم الى الصلاة) ونحو ذلك ، فهو أمر في الظاهر لكل من أظهره ، وهو خطاب في الباطن لكل من عرف من نفسه أنه متصدق للرسول ، وان كان عاصياً ، وان كان لم يقم بالواجبات الباطنة والظاهرة . وذلك أنه ان كان لفظ : (الذين آمنوا) يتناولهم فلا كلام . وان كان لم يتناولهم فذاك لذنوبهم . فلا تكون ذنوبهم مانعة من امرهم بالحسنات التي ان فعلوها كانت سبب رحمتهم ، وان تركوها كان امرهم بها ، وعقوبتهم عليها عقوبة على ترك الايمان ، والكافر يجب عليه ايضاً ، لكن لا يصح منه حتى يؤمن ، وكذلك المنافق المحض لا يصح منه في الباطن حتى يؤمن .

واما من كان معه اول الايمان ، فهذا يصح منه . لان معه اقراره في الباطن بوجوب ما اوجهه الرسول ، وتحريم ما حرمه ، وهذا سبب الصحة ، واما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار ، فان هذا الوعد انما هو لمن فعل المأمور وترك المحذور ، ومن فعل بعضاً وترك بعضاً ، فيثاب على ما فعله ، ويعاقب على ما تركه ، فلا يدخل هذا في اسم المؤمن المستحق للحمد والثناء ، دون النعم والعقاب . ومن نفي عنه الرسول الايمان ، فني الايمان في هذا الحكم ، لانه ذكر ذلك على سبيل الوعيد . والوعيد انما يكون بنفي ما يقتضي الثواب ، ويدفع العقاب ، ولهذا ما في الكتاب والسنة من نفي الايمان

عن اصحاب الذنوب ، فانها هو في خطاب الوعيد والنم ، لافي خطاب الامر والنهي ، ولا في احكام الدنيا .

واسم الاسلام والايمان والاحسان هي اسماء ممدوحة مرغوب فيها لحسن العاقبة لأهلها ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان العاقبة الحسنة لمن اتصف بها على الوجه الذي بينه ؛ ولهذا كان من نفي عنهم الايمان ؛ او الايمان والاسلام جميعاً ، ولم يجعلهم كفاراً ، انما نفي ذلك في احكام الآخرة ، وهو الثواب ، لم ينفه في احكام الدنيا . لكن المعتزلة ظنت انه اذا اتقى الاسم اتفت جميع اجزائه فلم يجعلوا معهم شيئاً من الايمان والاسلام ، فجعلوهم مخلدين في النار ، وهذا خلاف الكتاب والسنة واجماع السلف ، ولو لم يكن معهم شيء من الايمان والاسلام ، لم يثبت في حقهم شيء من احكام المؤمنين والمسلمين ، لكن كانوا كلنفاقين . وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع التفريق بين المنافق الذي يكذب الرسول في الباطن ، وبين المؤمن المذنب ، فالمعتزلة سووا بين اهل الذنوب وبين المنافقين في احكام الدنيا والآخرة في نفي الاسلام والايمان عنهم ، بل قد يثبتونه للمنافق ظاهراً ، وينفونه عن المذنب باطناً وظاهراً .

فان قيل : فاذا كان كل مؤمن مسلماً ، وليس كل مسلم مؤمناً - الايمان الكامل - كما دل عليه حديث جبريل وغيره من الاحاديث مع القرآن ، وكما ذكر ذلك عن ذكر عنه من السلف ، لان الاسلام الطاعات الظاهرة ، وهو الاستسلام والانقياد ، لأن « الاسلام في الاصل » هو الاستسلام والانقياد ،

وهذا هو الانقياد والطاعة ، والايمن فيه معنى التصديق والطمأنينة . وهذا قدر زائد ، فما تقولون فيمن فعل ما امره الله ، وترك ما نهى الله عنه مخلضاً لله تعالى ظاهراً وباطناً ؟ اليس هذا مسلماً باطناً وظاهراً ، وهو من اهل الجنة ، وإذا كان كذلك فالجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة ، فهذا يجب ان يكون مؤمناً .

قلنا : قد ذكرنا غير مرة ، انه لا بد ان يكون معه الايمان الذي وجب عليه ، إذ لو لم يؤد الواجب لكان معرضاً للوعيد ؛ لكن قد يكون من الايمان ما لا يجب عليه اما لكونه لم يخاطب به ، او لكونه كان عاجزاً عنه ، وهذا اولى ، لأن الايمان الموصوف في حديث جبريل ، والاسلام ، لم يكونا واجبين في اول الاسلام ، بل ولا اوجبا على من تقدم قبلنا من الأمم اتباع الأنبياء اهل الجنة ، مع انهم مؤمنون مسلمون ، ومع ان الاسلام دين الله الذي لا يقبل دينا غيره ؛ وهو دين الله في الأولين والآخرين ، لأن الاسلام عبادة الله وحده لا شريك له بما امر ، فقد تنوع اوامره في الشريعة الواحدة ، فضلاً عن الشرائع ، فيصير في الاسلام بعض الايمان بما يخرج عنه في وقت آخر ، كالصلاة الى الصخرة ، كان من الاسلام حين كان الله امر به ، ثم خرج من الاسلام لما نهى الله عنه .

ومعلوم ان الخمس المذكورة في حديث جبريل ، لم تجب في اول الأمر ، بل الصيام والحج وفرائض الزكاة ، انما وجبت بالمدينة ؛ والصلوات الخمس انما

وجبت ليلة المعراج ؛ وكثير من الاحاديث ليس فيها ذكر الحج لتأخر وجوبه إلى سنة تسع او عشر على اصح القولين ؛ ولما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان من اتبعه وآمن بما جاء به ، مؤمناً مسلماً ؛ واذا مات كان من اهل الجنة ، ثم انه بعد هذا زاد « الايمان ، والاسلام » حتى قال تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم) وكذلك الايمان فان هذا الايمان المفصل الذي ذكره في حديث جبريل ، لم يكن مأموراً به في اول الأمر لما انزل الله سورة العلق والمدثر ، بل انما جاء هذا في السور المدنية ، كالبقرة ، والنساء واذا كان كذلك لم يلزم ان يكون هذا الايمان المفصل واجباً على من تقدم قبلنا .

واذا كان كذلك ، فقد يكون الرجل مسلماً يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، ومعه الايمان الذي فرض عليه ، وهو من اهل الجنة وليس معه هذا الايمان المذكور في حديث جبريل ، لكن هذا يقال : معه ما امر به من الايمان والاسلام ، وقد يكون مسلماً يعبد الله كما أمر ، ولا يعبد غيره ويخافه ويرجوه ؛ ولكن لم يخلص الى قلبه ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواها ، ولا ان يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله احب اليه من جميع اهله وماله ؛ وان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وان يخاف الله لا يخاف غيره ؛ وان لا يتوكل إلا على الله ؛ وهذه كلها من الايمان الواجب ؛ وليست من لوازم الاسلام ؛ فان الاسلام هو الاستسلام وهو يتضمن الخضوع لله وحده ؛ والانقياد له ، والعبودية لله وحده ؛ وهذا قد يتضمن خوفه ورجاءه . واما طمأنينة القلب بمحبته وحده ، وان يكون أحب اليه مما سواها ، وبالتوكل عليه وحده ؛ وبأن يحب لأخيه المؤمن ما يحب

لنفسه ؛ فهذه من حقائق الايمان التي تختص به ، فمن لم يتصف بها ، لم يكن من المؤمنين حقاً وان كان مسلماً ، وكذلك وجل قلبه إذا ذكر الله ، وكذلك زيادة الايمان إذا تليت عليه آياته .

فان قيل : ففوات هذا الايمان من الذنوب ام لا ؟ قيل : إذا لم يبلغ الانسان الخطاب الموجب لذلك ، لا يكون تركه من الذنوب واما ان بلغه الخطاب الموجب لذلك فلم يعمل به كان تركه من الذنوب إذا كان قادراً على ذلك ، وكثير من الناس او أكثرهم ليس عندهم هذه التفاصيل التي تدخل في الايمان ، مع أنهم قائمون بالطاعة الواجبة في الاسلام ، واذا وقعت منهم ذنوب تابوا واستغفروا منها ؛ وحقائق الايمان التي في القلوب لا يعرفون وجوبها ؛ بل ولا انها من الايمان بل كثير ممن يعرفها منهم ، يظن انها من النوافل المستحبة ان صدق بوجوبها .

« فالاسلام » يتناول من اظهر الاسلام وليس معه شيء من الايمان ، وهو المنافق المحض ، ويتناول من اظهر الاسلام مع التصديق المحمل في الباطن ولكن لم يفعل الواجب كله لا من هذا ولا هذا ، وهم الفساق يكون في احدى شعبة نفاق ، ويتناول من أتى بالاسلام الواجب وما يلزمه من الايمان ؛ ولم يأت بتمام الايمان الواجب . وهؤلاء ليسوا فساقا تاركون فريضة ظاهرة ، ولا مرتكبون محرماً ظاهراً لكن تركوا من حقائق الايمان الواجبة علماً وعملاً بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين .

وهذا هو «التفاق» الذي كان يخافه السلف على نفوسهم . فان صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق . وبعد هذا ما ميز الله به المقربين على الأبرار أصحاب اليمين من إيمان وتوابعه ، وذلك قد يكون من باب المستحبات ، وقد يكون ايضاً مما فضل به المؤمن إيمان واسلام مما وجب عليه ولم يجب على غيره . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلمه وذلك اضعف الايمان» وفي الحديث الآخر: «ليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل» فان مراده انه لم يبق بعد هذا الانكار ما يدخل في الايمان حتى يفعله المؤمن ؛ بل الانكار بالقلب آخر حدود الايمان ، ليس مراده ان من لم ينكر ذلك لم يكن معه من الايمان حبة خردل ، ولهذا قال : ليس وراء ذلك « فجعل المؤمنين ثلاث طبقات ، وكل منهم فعل الايمان الذي يجب عليه ، لكن الأول لما كان اقدرهم ، كان الذي يجب عليه أكمل مما يجب على الثاني ، وكان ما يجب على الثاني أكمل مما يجب على الآخر ، وعلم بذلك ان الناس يتفاضلون في الايمان الواجب عليهم بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطاب اليهم كلهم .

فصل

وأما « الاستثناء في الإيمان » بقول الرجل : انا مؤمن ان شاء الله ، فالناس فيه على «ثلاثة» أقوال : منهم من يوجب ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجوز الأمرين باعتبارين ؛ وهذا أصح الأقوال . فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم ، بمن يجعل الإيمان شيئاً واحداً يعلمه الانسان من نفسه ، كالصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه ؛ فيقول احدهم : انا أعلم اني مؤمن ، كما أعلم اني تكلمت بالشهادتين ، وكما أعلم اني قرأت الفاتحة ، وكما أعلم اني احب رسول الله ؛ واني ابغض اليهود والنصارى . فقولي : انا مؤمن كقولي : انا مسلم ، وكقولي : تكلمت بالشهادتين ، وقرأت الفاتحة ، وكقولي : انا ابغض اليهود والنصارى ، ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي انا أعلمها واقطع بها ، وكما انه لا يجوز ان يقال : انا قرأت الفاتحة ان شاء الله ، كذلك لا يقول : انا مؤمن ان شاء الله ، لكن اذا كان يشك في ذلك فيقول : فعلته ان شاء الله ، قالوا : فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه وسموم الشكاكة .

والذين اوجبوا الاستثناء لهم مأخذان :

(احدها) ان الإيمان هو ما مات عليه الانسان ؛ والانسان انما يكون

عند الله مؤمناً وكافراً ، باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله انه يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به . قالوا : والايمان الذي يتعقبه الكفر ، فيموت صاحبه كافراً ، ليس بايمان ، كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال ؛ وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب ، وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما يموت عليه ، وكذلك قالوا في الكفر ، وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من السكالية وغيرهم ممن يريد ان ينصر ما اشتهر عن اهل السنة والحديث ، من قولهم : انا مؤمن ان شاء الله ؛ ويريد مع ذلك ان الايمان لا يتفاضل ؛ ولا يشك الانسان في الموجود منه ، وانما يشك في المستقبل ، وانضم الى ذلك انهم يقولون : محبة الله ورضاه وسخطه وبنغضه قديم . ثم هل ذلك هو الارادة ام صفات اخر ؛ لهم في ذلك «قولان» .

واكثر قدمائهم يقولون : ان الرضى والسخط والغضب ونحو ذلك صفات ليست هي الارادة ، كما ان السمع والبصر ليس هو العلم ، وكذلك الولاية والعداوة . هذه كلها صفات قديمة ازلية عند ابي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ومن اتبعه من المتكلمين ، ومن اتباع المذاهب من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم .

قالوا : والله يحب في ازاله من كان كافراً اذا علم انه يموت مؤمناً . فالصحابة ما زالوا محبوبيين لله وان كانوا قد عبدوا الأصنام مدة من الدهر ، وابليس ما زال الله يبنغضه وان كان لم يكفر بعد . وهذا على احد القولين لهم ، فالرضى والسخط

يرجع الى الارادة ، والارادة تطابق العلم . فالمعنى : ما زال الله يريد ان يثيب هؤلاء بعد ايمانهم ، ويعاقب ابليس بعد كفره . وهذا معنى صحيح . فان الله يريد ان يخلق كل ما علم ان سيخلقه . وعلى قول من يثبتها صفات آخر ، يقول : هو ايضاً حبه تابع لمن يريد ان يثيبه . فكل من اراد اثابته فهو يحبه وكل من اراد عقوبته فانه يبغضه ، وهذا تابع للعلم . وهؤلاء عندهم لا يرضى عن احد بعد ان كان ساخطاً عليه ، ولا يفرح بتوبة عبد بعد ان تاب عليه ، بل ما زال يفرح بتوبته . والفرح عندهم اما الارادة واما الرضى . والمعنى ما زال يريد اثابته او يرضى عما يريد اثابته . وكذلك لا يبغض عندهم يوم القيامة دون ما قبله . بل غضبه قديم اما بمعنى الارادة ، واما بمعنى آخر .

فهؤلاء يقولون : اذا علم ان الانسان يموت كافراً ، لم يزل مريداً لعقوبته . فذاك الايمان الذي كان معه باطل لا فائدة فيه ، بل وجوده كعدمه . فليس هذا بمؤمن اصلاً ، واذا علم انه يموت مؤمناً ، لم يزل مريداً لاثابته ، وذاك الكفر الذي فعله وجوده كعدمه . فلم يكن هذا كافراً عندهم اصلاً . فهؤلاء يستنون في الايمان بناء على هذا المأخذ ، وكذلك بعض محققهم يستنون في الكفر ، مثل ابي منصور المارديني ، فان ما ذكروه مطرد فيهما . ولكن جماهير الأئمة على انه لا يستثنى في الكفر ، والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن احد من السلف ، ولكن هو لازم لهم .

والذين فرقوا من هؤلاء قالوا : نستثنى في الايمان رغبة الى الله في ان

يثبتنا عليه الى الموت ، والكفر لا يرغب فيه احد . لكن يقال : اذا كان قولك : مؤمن ، كقولك : في الجنة . فأنت تقول عن الكافر : هو كافر . ولا تقول : هو في النار ، إلا معلقاً بموته على الكفر ، فدل على انه كافر في الحال قطعاً . وإن جاز ان يصير مؤمناً ، كذلك المؤمن . وسواء أخبر عن نفسه او عن غيره . فلو قيل عن يهودي او نصراني : هذا كافر ، قال : ان شاء الله ؛ اذا لم يعلم انه يموت كافراً ؛ وعند هؤلاء لا يعلم احد أحداً مؤمناً الا اذا علم انه يموت عليه ؛ وهذا القول قاله كثير من اهل الكلام اصحاب ابن كلاب ، ووافقهم على ذلك كثير من اتباع الأئمة ، لكن ليس هذا قول احد من السلف ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا كان احد من السلف الذين يستنون في الايمان ، يعالون بهذا ، لا احد ولا من قبله .

ومأخذ هذا القول ، طرده طائفة ممن كانوا في الأصل يستنون في الايمان اتباعاً للسلف ، وكانوا قد اخذوا الاستثناء عن السلف ، وكان اهل الشام شديدين على المرجئة ، وكان محمد بن يوسف الفريابي صاحب الثوري مرابطاً بعسقلان لما كانت معمورة ، وكانت من خيار ثغور المسلمين ، ولهذا كان فيها فضائل لفضيلة الرباط في سبيل الله ، وكانوا يستنون في الايمان اتباعاً للسلف ، واستنوا ايضاً في الأعمال الصالحة ، كقول الرجل : صليت ان شاء الله ونحو ذلك ، بمعنى القبول ، لما في ذلك من الآثار عن السلف . ثم صار كثير من هؤلاء بأخرة يستنون في كل شيء ، فيقول هذا ثوبي ان شاء الله ، وهذا جبل

ان شاء الله . فاذا قيل لأحدم : هذا لا شك فيه ؛ قال : نعم لا شك فيه ؛ لكن اذا شاء الله ان يغيره غيره ؛ فيريدون بقولهم ان شاء الله جواز تغييره في المستقبل ، وان كان في الحال لا شك فيه ؛ كأن الحقيقة عندم التي لا يستثنى فيها ما لم يتبدل ، كما يقوله اولئك في الايمان : ان الايمان ما علم الله انه لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه .

لكن هذا القول . قاله قوم من اهل العلم والدين باجتهاد ونظر ، وهؤلاء الذين يستثنون في كل شيء تلقوا ذلك عن بعض اتباع شيخهم ، وشيخهم الذي ينتسبون اليه يقال له : ابو عمرو عثمان بن مرزوق ، لم يكن ممن يرى هذا الاستثناء ، بل كان في الاستثناء على طريقة من كان قبله ؛ ولكن أحدث ذلك بعض اصحابه بعده ، وكان شيخهم منتسباً الى الامام احمد ، وهو من اتباع عبد الوهاب بن الشيخ ابي الفرج المقدسي ، وابو الفرج من تلامذة القاضي ابي يعلى . وهؤلاء كلهم وان كانوا منتسبين الى الامام احمد ، فهم يوافقون ابن كلاب على اصله الذي كان احمد ينكره على الكلاية ، وامر بهجر الحارث المحاسبي من اجله ، كما وافقه على اصله طائفة من اصحاب مالك ، والشافعي ، وابي حنيفة ، كأبي المعالي الجويني ، وابي الوليد الباجي ، وابي منصور الماتريدي وغيرهم ، وقول هؤلاء في مسائل متعددة من مسائل الصفات ، وما يتعلق بها ، كمسألة القرآن ، هل هو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ؟ ام القرآن لازم لذاته ؟ وقولهم في «الاستثناء» مبني على ذلك الأصل .

وكذلك بناه الأشعري وأتباعه عليه ؛ لأن هؤلاء كلهم كلابية يقولون : إن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يرضى ولا يغضب على أحد بعد إيمانه وكفره ولا يفرح بتوبة التائب بعد توبته . ولهذا وافقوا السلف على ان القرآن كلام الله غير مخلوق : ثم قالوا : إنه قديم لم يتكلم به بمشيئته وقدرته . ثم اختلفوا بعد هذا في القديم ، أهو معنى واحد؟ ام حروف قديمة مع تعاقبها؟ كما بسطت أقوالهم واقوال غيرهم في مواضع اخر .

وهذه الطائفة المتأخرة تنكر ان يقال : قطعاً في شيء من الأشياء ، مع غلوهم في الاستثناء ، حتى صار هذا اللفظ منكراً عندهم ، وان قطعوا بلغى فيجزمون بأن محمد رسول الله ، وان الله ربهم ولا يقولون : قطعاً . وقد اجتمع بي طائفة منهم ، فأنكرت عليهم ذلك ؛ وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا : قطعاً ، واحضروا لي كتاباً فيه احاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه نهى ان يقول الرجل : قطعاً وهي احاديث موضوعة مختلفة ، قد افترها بعض المتأخرين .

والمقصود هنا ان « الاستثناء في الايمان » لما علل بمثل تلك العلة ، طرد اقوام تلك العلة في الأشياء التي لا يجوز الاستثناء فيها باجماع المسلمين ، بناء على ان الأشياء الموجودة الآن إذا كانت في علم الله تبدل احوالها ؛ فيستثنى في صفاتها الموجودة في الحال ويقال : هذا صغير إن شاء الله ، لأن الله قد يجعله كبيراً ويقال : هذا مجنون إن شاء الله ، لأن الله قد يجعله عاقلاً ويقال للمرتد :

هذا كافر إن شاء الله لا مكان ان يتوب . وهؤلاء الذين استثنوا في الإيمان بناء على هذا المآخذ ، ظنوا هذا قول السلف .

وهؤلاء وامثالهم من اهل الكلام ينصرون ما ظهر من دين الاسلام ، كما ينصر ذلك المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين ، فينصرون إثبات الصانع والنبوة والمعاد ونحو ذلك . وينصرون مع ذلك ما ظهر من مذاهب اهل السنة والجماعة ، كما ينصر ذلك الكلاية والكرامية والأشعرية ونحوهم ، ينصرون أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وان الله يرى في الآخرة وان اهل القبلة لا يكفرون بالذنوب ولا يخلدون في النار ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم له شفاعة في اهل الكبائر وان فتنة القبر حق وعذاب القبر حق ، وحوض نبينا صلى الله عليه وسلم في الآخرة حق . وامثال ذلك من الأقوال التي شاع انها من اصول اهل السنة والجماعة . كما ينصرون خلافة الخلفاء الأربعة ، وفضيلة ابي بكر وعمر ونحو ذلك .

وكثير من اهل الكلام في كثير مما ينصره لا يكون عارفاً بحقيقة دين الاسلام في ذلك ، ولا ما جاءت به السنة . ولا ما كان عليه السلف . فينصر ما ظهر من قولهم ، بغير المآخذ التي كانت مآخذهم في الحقيقة بل بما أخذ آخر قد تلقوها عن غيرهم من اهل البدع ، فيقع في كلام هؤلاء من التناقض والاضطراب والخطأ ما ذم به السلف مثل هذا الكلام واهله ، فان كلامهم في ذم مثل هذا الكلام كثير . والكلام المذموم هو المخالف للكتاب والسنة ، وكل ما خالف

الكتاب والسنة فهو باطل وكذب فهو مخالف للشرع والعقل ، (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) .

فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن اهل السنة أنهم يستنون في الايمان ، ورأوا ان هذا لا يمكن إلا اذا جعل الايمان هو ما يموت العبد عليه ، وهو ما يوافي به العبد ربه ، ظنوا ان الايمان عند السلف هو هذا ؛ فصاروا يحكون هذا عن السلف ؛ وهذا القول لم يقل به احد من السلف ؛ ولكن هؤلاء حكوه عنهم بحسب ظنهم : لما راوا ان قولهم لا يتوجه إلا على هذا الأصل ، وهم يدعون ان ما نصروه من اصل جهم في الايمان ، هو قول المحققين والنظار من اصحاب الحديث . ومثل هذا يوجد كثيراً في مذاهب السلف التي خالفها بعض النظار واطهر حجته في ذلك ولم يعرف حقيقة قول السلف ؛ فيقول من عرف حجة هؤلاء دون السلف ، او من يعظمهم ، لما يراه من تميزهم عليه : هذا قول المحققين . وقال المحققون . ويكون ذلك من الأقوال الباطلة ، المخالفة للعقل مع الشرع ؛ وهذا كثيراً ما يوجد في كلام بعض المبتدعين وبعض الملحدين ، ومن آتاه الله علماً وإيماناً ؛ علم انه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق ، إلا ما هو دون تحقيق السلف لا في العلم ولا في العمل ، ومن كان له خبرة بالنظريات والعقليات ، وبالعمليات ، علم ان مذهب الصحابة دائماً ارجح من قول من بعدهم وانه لا يتبدع احد قولاً في الاسلام إلا كان خطأ ، وكان الصواب قد سبق اليه من قبله .

قال ابو القاسم الأنصاري ، فيما حكاه عن ابي اسحاق الاسفرائيني ، لما ذكر قول ابي الحسن واصحابه في الايمان ، وصحح انه تصديق القلب قال : ومن اصحابنا ؛ من قال بالموافاة ، وشرط في الايمان الحقيقي ان يوافي ربه به ، ويختم عليه . ومنهم من لم يجعل ذلك شرطاً فيه في الحال .

قال الأنصاري : لما ذكر ان معظم ائمة السلف ، كانوا يقولون : الايمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح قال : الا كثرون من هؤلاء على القول بالموافاة . ومن قال بالموافاة ، فانما يقوله فيمن لم يرد الخبر بأنه من اهل الجنة . واما من ورد الخبر بأنه من اهل الجنة ، فانه يقطع على ايمانه ، كالعشرة من الصحابة . ثم قال : والذي اختاره المحققون ؛ ان الايمان هو التصديق . وقد ذكرنا اختلاف اقوالهم في الموافاة ؛ وان ذلك هل هو شرط في صحة الايمان وحقيقته في الحال ، وكونه معتداً عند الله به وفي حكمه ، فمن قال : ان ذلك شرط فيه ، يستنون في الاطلاق في الحال ؛ لا انهم يشكون في حقيقة التوحيد والمعرفة ؛ لكنهم يقولون : لا يدري اي الايمان الذي نحن موصوفون به في الحال ، هل هو معتد به عند الله ؟ على معنى انا ننتفع به في العاقبة ، ونجتني من ثماره .

فاذا قيل لهم : امؤمنون اتم حقاً ؟ او تقولون ان شاء الله ؟ او تقولون نرجو ؟ فيقولون نحن مؤمنون ان شاء الله ، يعنون بهذا الاستثناء ، تفويض الامر في العاقبة الى الله سبحانه وتعالى ، وانما يكون الايمان ايماناً معتداً به في حكم

الله . اذا كان ذلك علم الفوز وآية النجاة ، واذا كان صاحبه — والعياذ بالله —
في حكم الله من الاشقياء ، يكون ايمانه الذي تحلى به في الحال عارية . قال : ولا
فرق عند الصائرين الى هذا المذهب ، بين ان يقول : أنا مؤمن من اهل الجنة
قطعاً ؛ وبين ان يقول انا مؤمن حقاً .

قلت : هذا انما يجيء على قول من يجعل الايمان متناولاً لأداء الواجبات
وترك المحرمات ؛ فمن مات على هذا كان من اهل الجنة ، واما على قول الجهمية
والمرجئة ، وهو القول الذي نصره هؤلاء الذين نصروا قول جهنم ؛ فانه يموت
على الايمان قطعاً ، ويكون كامل الايمان عندهم ، وهو مع هذا عندهم من اهل
الكبائر الذين يدخلون النار ، فلا يلزم اذا وافى بالايمان ، ان يكون من اهل
الجنة . وهذا اللازم لقولهم يدل على فساده ، لأن الله وعد المؤمنين بالجنة .
وكذلك قالوا : لا سيما والله سبحانه وتعالى يقول : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات
جنات) الآية . قال : فهؤلاء — يعني القائلين بلوفاة جعلوا الثبات على هذا
التصديق ، والأيمان الذي وصفناه الى العاقبة والوفاء به في المال شرطاً في
الايمان شرعاً ، لا لغة ، ولا عقلاً . قال : وهذا مذهب سلف اصحاب الحديث
والأكثرين ؛ قال : وهو اختيار الامام ابي بكر بن فورك ؛ وكان الامام محمد
ابن اسحاق بن خزيمة يعلو فيه ، وكان يقول : من قال : أنا مؤمن حقاً
فهو مبتدع .

واما مذهب سلف اصحاب الحديث ، كابن مسعود واصحابه ، والثوري

وابن عيينة ، واكثر علماء الكوفة ، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء اهل البصرة . واحمد بن حنبل وغيره من ائمة السنة ، فكانوا يستثنون في الايمان . وهذا متواتر عنهم ، لكن ليس في هؤلاء من قال : انا استثنى لأجل الموافقة ، وان الايمان ، انما هو اسم لما يوافق به العبد ربه : بل صرح ائمة هؤلاء بأن الاستثناء انما هو لأن الايمان يتضمن فعل الواجبات . فلا يشهدون لأنفسهم بذلك ، كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى : فان ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم : كما سندكر أقوالهم ان شاء الله في ذلك .

وأما الموافقة : فما علمت احداً من السلف علل بها الاستثناء ولكن كثير من المتأخرين ، يعلل بها من اصحاب الحديث من اصحاب احمد ومالك والشافعي وغيرهم : كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري واكثر اصحابه ، لكن ليس هذا قول سلف اصحاب الحديث . ثم قال :

فان قال قائل : اذا قلتم ان الايمان المأمور به في الشريعة ، هو ما وصفتموه بشرائطه ، وليس ذلك متلقى من اللغة ، فكيف يستقيم قولكم ان الايمان لغوي ؟ قلنا الايمان هو التصديق لغة وشرعا ، غير ان الشرع ضم الى التصديق اوصافا وشرائط : مجموعها يصير مجزياً مقبولاً كما قلنا في الصلاة والصوم والحج ونحوها ، والصلاة في اللغة : هي الدعاء غير ان الشرع ضم اليها شرائط .

فيقال : هذا يناقض ما ذكره في مسمى الايمان ، فانهم لما زعموا أنه في اللغة التصديق ، والشرع لم يغيره ، أوردوا على أنفسهم .

فان قيل : أليس الصلاة والحج والزكاة معدولة عن اللغة ، مستعملة في غير مذهب أهلها . قلنا : قد اختلف العلماء في ذلك ، والصحيح انها مقررة على استعمال أهل اللغة ، ومبقة على مقتضياتها ، وليست منقولة ، الا انها زيد فيها امور . فلو سلمنا للخصم كون هذه الألفاظ منقولة ، او محمولة على وجه من الحجاز بدليل مقطوع به ، فعليه اقامة الدليل على وجود ذلك في الايمان . فانه لا يجب إزالة ظواهر القرآن بسبب إزالة ظاهر منها .

فيقال : أتم في الايمان جعلتم الشرع زاد فيه وجعلتموه كالصلاة والزكاة مع انه لا يمكن احداً ان يذكر شيئاً من الشرع دليلاً على ان الايمان لا يسمى به ، إلا الموافاة به وبتقدير ذلك ، فمعلوم ان دلالة الشرع على ضم الأعمال اليه اكثر واشهر ، فكيف لم تدخل الأعمال في مسماه شرعاً؟ وقوله : لا بد من دليل مقطوع به عنه جوابان :

(احدهما) : النقض بالموافاة ، فانه لا يقطع فيه .

(الثاني) : لا نسلم ، بل نحن نقطع بأن حب الله ورسوله وخشية الله ونحو ذلك ، داخل في مسمى الايمان في كلام الله ورسوله اعظم مما نقطع ببعض أفعال الصلاة والصوم والحج ، كمسائل النزاع . ثم ابو الحسن ، وابن فورك وغيرها من القائلين بالموافاة ، هم لا يجعلون الشرع ضم اليه شيئاً ، بل عندهم كل من سلبه الشرع اسم الايمان ، فَقَدْ فَقِدَ من قلبه التصديق .

قال : ومن اصحابنا لم يجعل الموافاة على الايمان شرطاً في كونه إيماناً

حقيقياً في الحال ، وان جعل ذلك شرطاً في استحقاق الثواب عليه ، وهذا مذهب المعتزلة والكرامية ، وهو اختيار ابي اسحاق الاسفرائيني ، وكلام القاضي يدل عليه ، قال : وهو اختيار شيخنا ابي المعالي ، فانه قال : الايمان ثابت في الحال قطعاً لاشك فيه ، ولكن الايمان الذي هو علم الفوز وآية النجاة ايمان الموافاة . فاعتنى السلف به وقرنوه بالاستثناء ، ولم يقصدوا الشك في الايمان الناجز .

قال : ومن صار إلى هذا يقول : الايمان صفة يشتق منها اسم المؤمن وهو المعرفة والتصديق ؛ كما ان العالم مشتق من العلم ، فاذا عرفت ذلك من نفسى قطعت به كما قطعت بأنى عالم وعارف ومصدق ، فان ورد في المستقبل ما يزيله خرج اذ ذاك عن استحقاق هذا الوصف . ولا يقال : نينا انه لم يكن ايماناً مأموراً به ، بل كان ايماناً مجزياً ، فتغير وبطل . وليس كذلك قوله : انا من اهل الجنة ، فان ذلك مغيب عنه ، وهو مرجو . قال : ومن صار الى القول الاول يتمسك بأشياء . منها ان يقال : الايمان عبادة العمر ، وهو كطاعة واحدة فيتوقف صحة اولها على سلامة آخرها . كما نقول في الصلاة والصيام والحج . قالوا : ولا شك انه لا يسمى في الحال ولياً ، ولا سعيداً ، ولا مرضياً عند الله . وكذلك الكافر لا يسمى في الحال عدواً لله ، ولا شقياً ، إلا على معنى انه تجري عليه احكام الأعداء في الحال لاظهاره من نفسه علامتهم .

قلت : هذا الذي قالوه ، انه لاشك فيه هو قول ابن كلاب والأشعري

واصحابه ، ومن وافقهم من اصحاب احمد ومالك والشافعي وغيرهم . واما اكثر الناس فيقولون : بل هو اذا كان كافراً . فهو عدو لله ، ثم اذا آمن واتقى صار ولياً لله . قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم) إلى قوله : (عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) وكذلك كان ، فان هؤلاء اهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح ، آمن اكثرهم ، وصاروا من أولياء الله ورسوله ، وابن كلاب واتباعه بنوا ذلك على ان الولاية صفة قديمة لذات الله ، وهي الارادة والمحبة والرضا ونحو ذلك . فعناها ارادة اثابته بعد الموت ؛ وهذا المعنى تابع لعلم الله فمن علم انه يموت مؤمناً ، لم يزل ولياً لله ؛ لأنه لم يزل الله مريداً لادخاله الجنة ، وكذلك العداوة .

وأما الجمهور فيقولون : الولاية والعداوة وان تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه ، فهو سبحانه يرضي عن الانسان ويحبه ، بعد ان يؤمن ويعمل صالحاً ؛ وانما يسخط عليه ويغضب ، بعد ان يكفر ، كما قال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه) ؛ فأخبر ان الاعمال اسخطته ؛ وكذلك قال : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ، قال المفسرون : اغضبونا وكذلك قال الله تعالى : (وان تشكروا يرضه لكم) . وفي الحديث الصحيح الذي في البخاري عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : يقول الله تعالى : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ؛ ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل ، حتى احبه ؛ فاذا احببته ، كنت سمعه الذي

يسمع به . وبصره الذي يبصر به . ويده التي يبطش بها . ورجله التي يمشي بها ،
فبي بسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ؛ ولئن سألتني لأعطينه . ولئن
استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي
المؤمن ، يكره الموت واكره مساءته ، ولا بدله منه .

فأخبر انه : لا يزال يتقرب اليه بالنوافل حتى يحبه ، ثم قال : فاذا احببته :
كنت كذا ، وكذا . وهذا يبين ان حبه لعبده انما يكون بعد ان يأتي بحبابه .
والقرآن قد دل على مثل ذلك ، قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
يحبيكم الله) ، فقوله : (يحبيكم) ، جواب الامر في قوله : فاتبعوني ، وهو بمنزلة
الجزاء مع الشرط . ولهذا جزم ، وهذا ثواب عملهم ، وهو اتباع الرسول ،
فأثابهم على ذلك بأن احبهم ؛ وجزاء الشرط ، وثواب العمل ، ومسبب السبب
لا يكون إلا بعده ، لا قبله ، وهذا كقوله تعالى : (ادعوني استجب لكم) وقوله
تعالى : (يا قومنا أجيئوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من
عذاب أليم) ؛ وقوله تعالى : (اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم
ويغفر لكم ذنوبكم) . ومثل هذا كثير ، وكذلك قوله : (فأتموا إليهم عهدهم
إلى مدتهم ان الله يحب المتقين) ، وقوله : (لم تقولون ما لا تفعلون ؛ كبر مقتاً
عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون ، ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً
كأنهم بانيان مرصوص) ؛ وكانوا قد سألوه : لو علمنا اي العمل احب الى الله
لعملناه .

وقوله : (ان الذين كفروا ينادون لمقت الله اكبر من مقتكم أنفسكم إذ

تدعون الى الايمان فتكفرون) ، فهذا يدل على ان حبه ومقته ، جزاء لعملهم
وانه يحبهم اذا التقوا وقتلوا ؛ ولهذا رغبتهم في العمل بذلك ؛ كما يرغبهم بسائر
ما يعدم به ؛ وجزاء العمل بعد العمل ، وكذلك قوله : (اذ تدعون الى الايمان
فتكفرون) ؛ فانه سبحانه يمتقهم اذ يدعون الى الايمان فيكفرون ؛ ومثل هذا
قوله : (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحب الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم
فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) ؛ فقوله : (لقد رضي الله عن المؤمنين
اذ يبايعونك) ؛ بين أنه رضي عنهم هذا الوقت ، فان حرف (اذ) ظرف لما مضى
من الزمان ؛ فعلم انه ذلك الوقت رضي عنهم بسبب ذلك العمل ، وأثابهم عليه ،
والمسبب لا يكون قبل سببه ، والموقت بوقت لا يكون قبل وقته ؛ واذا كان
راضياً عنهم من جهة ، فهذا الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن الا حينئذ ، كما
ثبت في الصحيح ، انه يقول لأهل الجنة : « يا أهل الجنة هل رضيتم ؛ فيقولون :
ياربنا ومآلنا لا نرضى وقد اعطينا ما لم تعط احداً من خلقك ، فيقول : الا اعطيكم
ما هو افضل من ذلك ، فيقولون : ياربنا واي شيء افضل من ذلك ؛ فيقول :
احل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده ابداً » ؛ وهذا يدل على انه
في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان ، الذي لا يتعقبه سخط ابداً ؛
ودل على ان غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط .

« وفي الصحيحين » في حديث الشفاعة يقول : كل من الرسل
« ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده
مثله » ، وفي « الصحاح » : عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من غير وجه

انه قال : « لله اشد فرحاً بتوبة عبده ، من رجل اضل راحلته بأرض دوية مهلكة ، عليها طعامه وشرابه ، فطلبها فلم يجدها ؛ فاضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ ، إذا دابته عليها طعامه وشرابه — وفي رواية — كيف تجدون فرحه بها ؛ قالوا : عظيماً يارسول الله ؛ قال : لله اشد فرحاً بتوبة عبده ، من هذا براحلته » ، وكذلك ضحكك الى رجلين يقتل احدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة ؛ وضحكك الى النبي يدخل الجنة آخر الناس ، ويقول أنسخر بي وانت رب العالمين ؛ فيقول : لا ولكني على ما أشاء قادر . وكل هذا في « الصحيح » .

وفي دعاء القنوت : (تولي فيمن توليت) ، والقديم لا يتصور طلبه ، وقد قال تعالى : (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) ؛ وقال : (والله ولي المتقين) ؛ فهذا التولي لهم ، جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه ، فلا يكون متقدماً عليه ، وان كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله واحسانه ؛ لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين ، فدل على ان هذا التولي هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأيدته ؛ ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين ، وهكذا الرحمة ، قال صلى الله عليه وسلم : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء) ، قال الترمذي حديث صحيح . وكذلك قوله : (وان تشكروا يرضه لكم) ؛ علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب ، والجزاء انما يكون بعد الشرط

وكذلك قوله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين) . يدل على انه يشاء ذلك فيما بعد . وكذلك قوله : (انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) : « فاذا » ظرف لما يستقبل من الزمان . فدل على انه اذا أراد كونه . قال له : كن . فيكون . وكذلك قوله : (وقل اعملوا فسيري الله عملكم) : فيبين فيه انه سيرى ذلك في المستقبل اذا عملوه .

والمأخذ الثاني في الاستثناء ، أن الايمان المطلق ، يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله ؛ وترك المحرمات كلها ؛ فاذا قال الرجل : أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه ، بأنه من الأبرار المتقين ، القائمين بفعل جميع ما أمروا به ؛ وترك كل ما نهوا عنه . فيكون من أولياء الله ؛ وهذا من تزكية الانسان لنفسه ، وشهادته لنفسه بما لا يعلم ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة ، لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال ، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة ؛ فشهادته لنفسه بالايمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال ؛ وهذا مأخذ عامة السلف ، الذين كانوا يستثنون ، وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر ، كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

قال الخلال في « كتاب السنة » : حدثنا سليمان بن الأشعث ، يعني أبا داود السجستاني ، قال : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، قال له رجل : قيل لي مؤمن أنت ؟ قلت نعم ؛ هل علي في ذلك شيء ؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر ؟ فغضب أحمد ، وقال : هذا كلام الارجاء ؛ قال الله تعالى : (وآخرون مرجون

لأمر الله) من هؤلاء ، ثم قال أحمد : أليس الإيمان قولاً وعملاً ، قال له
الرجل : بلى . قال فحُتْنَا بالقول . قال : نعم قال : فحُتْنَا بالعمل . قال : لا . قال :
فكيف تعيب أن يقول : إن شاء الله ويستثني .

قال أبو داود : أخبرني أحمد بن أبي شريح ، أن أحمد بن حنبل ، كتب
إليه في هذه المسألة ، أن الإيمان قول وعمل ، فحُتْنَا بالقول ولم نجيء بالعمل ،
فنحن نستثني في العمل . وذكر الحلال ، هذا الجواب ، من رواية الفضل بن
زياد . وقال : زاد الفضل : سمعت أبا عبد الله يقول : كان سليمان بن حرب ،
يحمل هذا على التقبل ؛ يقول : نحن نعمل ولا ندري يتقبل منا أم لا ؟

قلت : والقبول متعلق بفعله كما أمر . فكل من اتقى الله في عمله ، ففعله
كما أمر ، فقد تقبل منه . لكن هو لا يجزم بالقبول ، لعدم جزمه بكل الفعل .
كما قال تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة) ؛ قالت عائشة :
يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : لا يا بنت
الصديق ، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه .

وروى الحلال ، عن أبي طالب قال : سمعت أبا عبد الله يقول : لا نجد بدأ
من الاستثناء ، لأنهم إذا قالوا : مؤمن ، فقد جاء بالقول . فأنما الاستثناء بالعمل
لا بالقول .

وعن اسحاق بن ابراهيم قال : سمعت أبا عبد الله يقول : أذهب الى حديث

ابن مسعود في الاستثناء في الايمان ، لأن الايمان قول وعمل ، والعمل الفعل ، فقد جئنا بالقول ، ونخشى ان نكون فرطنا في العمل ؛ فيعجبني أن يستثني في الايمان بقول : انا مؤمن ان شاء الله ، قال : وسمعت أبا عبد الله وسئل عن قول النبي صلي الله عليه وسلم « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » الاستثناء ههنا على أي شيء يقع ؛ قال : على البقاع ، لا يدري أيدفن في الموضع الذي سلم عليه أم في غيره .

وعن اليموني انه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه في : مؤمن ان شاء الله . قال : اقول : مؤمن ان شاء الله ، ومؤمن أرجو ، لأنه لا يدري كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه ام لا . ومثل هذا كثير في كلام أحمد وأمثاله ، وهذا مطابق لما تقدم من ان المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات ، المستحق للجنة اذا مات على ذلك ، وان المفرط بترك المأمور او فعل المحذور لا يطلق عليه انه مؤمن ؛ وان المؤمن المطلق هو البر التقي ولي الله ، فاذا قال : انا مؤمن قطعاً ، كان كقوله : انا برتقي ولي الله قطعاً .

وقد كان احمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره : مؤمن انت ؟ ويكرهون الجواب ؛ لأن هذه بدعة احدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم ؛ فان الرجل يعلم من نفسه انه ليس بكافر ؛ بل يجد قلبه مصدقاً باجاء به الرسول ، فيقول : انا مؤمن ، فيثبت ان الايمان هو التصديق ، لأنك تجزم بأنك مؤمن ، ولا تجزم ؛ بأنك فعلت كل ما أمرت به ؛ فلما علم السلف

مفصدم ، صاروا يكرهون الجواب او يفصلون في الجواب - وهذا لأن لفظ « الايمان » فيه اطلاق وتقييد . فكانوا يحيون بالانيمان المقيد الذي لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال ، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال : أنا مؤمن بلا استثناء اذا أراد ذلك ، لكن ينبغي ان يقرن كلامه بما يبين انه لم يرد الايمان المطلق الكامل ، ولهذا كان احمد يكره ان يحب الى المطلق بلا استثناء يقدمه .

وقال المروزي : قيل لأبي عبد الله يقول نحن المؤمنون ؛ فقال يقول : نحن المسلمون ، وقال ايضاً : قلت لأبي عبد الله يقول إن مؤمنون ؛ قال : ولكن نقول : إنا مسلمون ؛ ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء اذا لم يكن قصده قصد المرجئة ان الايمان مجرد القول ، بل يكره تركه لما يعلم ان في قلبه ايماناً ، وان كان لا يجزم بكمال ايمانه ؛

قال الحلال : اخبرني احمد بن اصرم المزني ، ان ابا عبد الله قيل له : اذا سألتني الرجل فقال : امؤمن انت ؟ قال سؤالك إياي بدعة ، لا يشك في ايمانه ، او قال لا نشك في ايمانا .

قال المزني : وحفظني ان ابا عبد الله قال : اقول كما قال طاووس : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورساله .

وقال الحلال : اخبرني حرب بن اسماعيل ، وأبو داود ، قال ابو داود : سمعت احمد : قال : سمعت سفیان — يعني ابن عيينة — يقول : اذا سئل امؤ من انت ؛ لم يجبه ، ويقول : سؤالك اياي بدعة ، ولا اشك في ايماني ، وقال : ان قال ان شاء الله ، فليس يكره ، ولا يداخل الشك ، فقد اخبر عن احمد انه قال : لان شك في ايماننا ، وان السائل لا يشك في ايمان المسؤول ، وهذا ابلغ ، وهو انما يجزم ، بانه مقر مصدق ، بما جاء به الرسول ، لا يجزم بانه قائم بالواجبات .

فعلم ان احمد وغيره من السلف . كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلب ، من الايمان في هذه الحال ، ويجعلون الاستثناء عائداً الى الايمان المطلق المتضمن فعل للمأمور ، ويحتجون ايضاً بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه ، وهذا « مأخذ ثان » ، وان كنا لانشك فيما في قلوبنا من الايمان ، فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة ، لما فيه من الحكمة .

وعن محمد بن الحسن بن هارون قال : سألت أبا عبد الله عن الاستثناء في الايمان فقال : نعم ، الاستثناء على غير معنى شك ، مخافة واحتياطاً للعمل ، وقد استثنى ابن مسعود وغيره ، وهو مذهب الثوري . قال الله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « اني لأرجو أن أكون أتقاكم لله » . وقال في الميت : « وعليه تبعث ان شاء الله » فقد بين احمد انه يستثنى مخافة واحتياطاً للعمل ، فانه يخاف ان لا يكون قد كمل المأموره ، فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك ؛ يعني من غير

شك مما يعلمه الانسان من نفسه ، والافهو بشك في تكميل العمل الذي خاف ان لا يكون كمله ؛ فيخاف من نقصه ، ولا يشك في اصله .

قال الحلال : وأخبرني محمد بن أبي هارون : أن حيش بن سندي ، حدثهم في هذه المسألة . قال أبو عبد الله قول النبي صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر فقال : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وقد نعت إليه نفسه ، وعلم أنه صائر الى الموت ، وفي تصة صاحب القبر « وعليه حيت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله » وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم « إني اخبأت دعوتي ، وهي نائمة ان شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً » وفي مسألة الرجل النبي صلى الله عليه وسلم : احدنا يصبح جنباً ، يصوم ؟ فقال : « اني أفعل ذلك ثم اصوم » فقال : انك لست مثلنا انت قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : « والله اني لأرجو ان اكون اخشاكم لله » . وهذا كثير ، وأشباهه على اليقين .

قال : ودخل عليه شيخ فسأله عن الايمان ، فقال له : قول وعمل ، يزيد وينقص . فقال له : اقول : مؤمن ان شاء الله ؟ قال : نعم . فقال له : انهم يقولون لي انك شاك ؛ قال : بئس ما قالوا ، ثم خرج فقال : ردوه فقال : أليس يقولون : الايمان قول وعمل يزيد وينقص ؟ قال : نعم ، قال : هؤلاء يستنون . قال له : كيف يا أبا عبد الله ؟ قال : قل لهم : زعمتم ان الايمان قول وعمل ، فالقول قد انتمت به ، والعمل لم تأتوا به ، فهذا الاستثناء لهذا العمل ، قيل له

يستتي في الايمان ؟ قال : نعم ، اقول : أنا مؤمن ان شاء الله ، استتري على اليقين لا على الشك ؛ ثم قال : قال الله : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين) فقد اخبر الله تعالى انهم داخلون المسجد الحرام .

فقد بين احمد في كلامه انه يستتي مع يقينه بما هو الآن موجود فيه ، يقوله بلسانه وقلبه . لايسك في ذلك ، ويستتي لكون العمل من الايمان ؛ وهو لا يتيقن انه اكمله بل يشك في ذلك ، فنفي الشك وأثبت اليقين ، فيما ليقنه من نفسه ، وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده ، وبين ان الاستثناء مستحب لهذا الثاني الذي لا يعلم هل آتى به ام لا . وهو جائز ايضاً لما يتيقنه ، فلو اسثنى لنفس الموجود في قلبه جاز ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « والله ابي لأرجو ان اكون اخشاكم لله » وهذا امر موجود في الحال ليس بمستقبل . وهو كونه اخشانا ؛ فانه لا يرجو ان يصير اخشانا لله ؛ بل هو يرجو ان يكون حين هذا القول اخشانا لله . كما يرجو المؤمن اذا عمل عملاً ان يكون الله تقبله منه ويخاف ان لا يكون تقبله منه . كما قال تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم ورجلة انهم الى ربهم راجعون) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ان لا يقبل منه » والقبول هو امر حاضر او ماض وهو يرجوه ويخافه ، وذلك ان ماله عاقبة مستقبلة محمودة او مذمومة ، والانسان يجوز وجوده وعدمه . يقال : انه يرجوه وانه يخافه . فتعلق الرجاء والخوف بالحاضر والماضي لأن عاقبته المطلوبة والمكروهة مستقبلة . فهو يرجو ان يكون الله تقبل عمله فيثيبه عليه فيرحمه في المستقبل . ويخاف ان لا يكون

تقباه فيحرم ثوابه . كما يخاف ان يكون الله قد سخط عليه في معصيته فيعاقبه عليها .

وإذا كان الانسان يسعى فيما يطلبه كتاجر او يريد أرسله في حاجته يقضيها في بعض الاوقات فاذا مضى ذلك الوقت بقول ارجو ان يكون فلان قد قضى ذلك الامر ، وقضاؤه ماض ، لكن ما يحصل لهذا من الفرح والسرور وغير ذلك من مقاصده مستقبل . ويقول الانسان في الوقت الذي جرت عادة الحاج بدخولهم الى مكة : ارجو ان يكونوا دخلوا ، ويقول في سرية بعثت الى الكفار : رجو ان يكون الله قد نصر المؤمنين وغنمهم ، ويقال في نيل مصر عند وقت ارتفاعه : رجو ان يكون قد سعد النيل ، كما يقول الحاضر في مصر مثل هذا الوقت : رجو ان يكون النيل في هذا العام نبلاً مرتفعاً ، ويقال لمن له ارض يجب ان تمطر : اذا مطرت بعض النواحي ارجو ان يكون المطر عاماً ، وارجو ان تكون قد مطرت الارض الفلانية ، وذلك لأن المرجو هو ما يفرح بوجوده ويسره ، فالمكروه ما يتألم بوجوده .

وهذا يتعلق بالعلم ، والعالم بذلك مستقبل ، فاذا علم ان المسلمين انتصروا ، والحاج قد دخلوا ، او المطر قد نزل ، فرح بذلك وحصل به مقاصد آخر له ، واذا كان الأمر بخلاف ذلك ، لم يحصل ذلك المحبوب المطلوب فيقول : ارجو واخاف ، لأن المحبوب والمكروه متعلق بالعلم بذلك وهو مستقبل ، وكذلك المطلوب بالايمان من السعادة والنجاة ، هو امر مستقبل فيستثنى في الحاضر بذلك ، لأن المطلوب به مستقبل ، ثم كل مطلوب مستقبل ، تعلق بمشيئة الله

وان جزم بوجوده ، لأنه لا يكون مستقبلاً إلا بمشيئة الله .

فقولنا : يكون هذا ان شاء الله ، حق ، فانه لا يكون الا ان شاء الله ، والشك واللفظ ليس فيه الا التعليق ، وليس من ضرورة التعليق الشك . بل هذا بحسب علم المتكلم ، فتارة يكون شاكاً . وتارة لا يكون شاكاً ؛ فلما كان الشك يصحها كثيراً لعدم علم الانسان بالعواقب ، ظن الظان ان الشك داخل في معناها ، وليس كذلك . فقوله : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) لا يتصور فيه شك من الله ؛ بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين ، ولهذا قال ثعلب : هذا استثناء من الله وقد علمه ، والخلق يستنون فيما لا يعلمون . وقال ابو عبيدة وابن قتيبة إن إن بمعنى إذ . اي : اذ شاء الله ، ومقصوده بهذا تحقيق الفعل بـ (ان) كما يتحقق مع اذ . والا فاذا ، ظرف توقيت ، و (ان) حرف تعليق .

فان قيل : فالعرب تقول : اذا احمر البسر فأتني ، ولا تقول : ان احمر البسر .

قيل : لأن المقصود هنا توقيت الاثيان بحين احمراره ، فأتوا بالظرف المحقق ، ولفظ : (ان) لا يدل على توقيت ، بل هي تعليق محض تقتضي ارتباط الفعل الثاني بالاول ، ونظير ما نحن فيه ان يقولوا : البسر يحمر ويطيب ان شاء الله ، وهذا حق ، فهذا نظير ذلك .

فان قيل : فطائفة من الناس فروا من هذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه ، فقال الزجاج : (لتدخلن المسجد الحرام) . اي : امرهم

الله به ، وقيل : الاستثناء يعود الى الامن والحرف . اي : لتدخله آمنين .
فأما الدخول فلا شك فيه . وقيل : لتدخلن جميعكم او بعضكم ، لأنه علم ان
بعضهم يموت . فالاستثناء لأنهم لم يدخلوا جميعهم . قيل : كل هذه الاقوال
وقع اصحابها فيما فروا منه ؛ مع خروجهم عن مدلول القرآن ، فخر فود تحريفاً
لم ينتفعوا به ، فان قول من قال : اي : امركم الله به ، هو سبحانه قد علم ،
هل يأمرهم او لا يأمرهم ، فعلمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بان سيدخلوا ، فعلقوا
الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ ، وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعاً وكذلك
امنهم وخوفهم ، هو يعلم أنهم يدخلون آمنين او خائفين ، وقد اخبر أنهم يدخلون
آمنين مع علمه بأنهم يدخلون آمنين ، فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله : بل ولا
عند رسوله . وقول من قال : جميعهم او بعضهم ، يقال : المعلق بالمشيئة دخول
من اريد باللفظ ، فان كان اراد الجميع ، فالجميع لا بد ان يدخلوه ، وان اريد
الاكثر ، كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة ، وما لم يرد لا يجوز ان يعلق بـ (إن)
وإنما علق بـ (إن) ما سيكون ؛ وكان هذا وعداً مجزوماً به . ولهذا لما قال عمر للنبي صلى الله
عليه وسلم عام الحديبية : ألم تكن تحدثنا انا نأتي البيت ونطوف به ؟ قال :
« بلى ، قلت لك : انك تأتيه هذا العام ؟ » قال : لا ، قال : « فانك آتية
ومطوف به » .

فان قيل : لم لم يعلق غير هذا من مواعيد القرآن ؟

قيل : لأن هذه الآية نزلت بعد مرجع النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه

من الحديدية ، وكانوا قد اعتمروا ذلك العام ، واجتهدوا في الدخول ، فصدع
المشركون فرجعوا وبهم من الألم ما لا يعلمه الا الله ، فكانوا منتظرين لتحقيق
هذا الوعد ذلك العام ، اذ كان النبي صلى الله عليه وسلم وعدم وعداً مطلقاً .
وفد روي انه رأى في المنام قائلاً يقول : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله)
فأصبح فحدث الناس برؤياه . وأحرم بالحروج الى العمرة فلم تحصل لهم العمرة
ذلك العام . فنزل هذه الآية ، واعدة لهم بما وعدم به الرسول من الأمر الذي
كانوا يظنون حصوله ذلك العام .

وكان قوله : (ا شاء الله) هنا تحقيقاً لدخوله وأن الله يحقق ذلك
لكم ؛ كما يقول الرجل فيما عزم على ان يفعله لا محالة : والله لأفعلن
كذلك سواء شاء الله ، لا يفولها لشك في ارادته وعزمه ، بل تحقيقاً لعزمه
وارادته ، فانه يخاف اذا لم يقل : ان شاء الله ، ان ينقض الله عزمه ، ولا يحصل
ما طلبه ، كما في « الصحيحين » أن سليمان عليه السلام قال : والله لأطوفن الليلة
على مائة امرأة ، كل منهن تأتي بفارس يقاقل في سبيل الله ، فقال له صاحبه :
قل : ان شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل منهن الا امرأة جاءت بشق رجل . قال
النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لو قال : ان شاء الله لجاهدوا في
سبيل الله فرساناً أجمعون » فهو اذا قال : ان شاء الله لم يكن لشك في طلبه
وارادته ، بل لتحقيق الله ذلك له ، اذ الأمور لا تحصل الا بمشيئة الله ، فاذا تألى
العبد عليه من غير تعليق بمشيئته ، لم يحصل مراده ، فانه من يتألى على الله يكذبه ،
ولهذا يروى : « لا آتمت لمقدر امرأ » .

وقيل لبعضهم : بماذا عرفت ربك ؟ قال . بفسخ العزائم ونقض الهمم ،
وقد قال تعالى : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله) فان
قوله : لأفعلن ، فيه معنى الطلب والخبر ، وطلبه جازم ، وأما كون مطلوبه يقع .
فهذا يكون ان شاء الله . وطلبه للفعل يجب ان يكون من الله بحوله وقوته .
ففي الطلب عليه ان يطلب من الله ، وفي الخبر لا يخبر الا بما علمه الله : فاذا جزم
بلا تعليق ، كان كالتألي على الله ، فيكذبه الله ، فالمسلم في الامر الذي هو عازم
عليه ومريد له وطالب له طلباً لا تردد فيه يقول : ان شاء الله ، لتحقيق مطلوبه ،
وحصول ما أقسم عليه لكونه لا يكون الا بمشيئة الله ، لا لتردد في ارادته ،
والرب تعالى مريد لانجاز ما وعدمه به ارادة جازمة لا مثوية فيها ، وما شاء
فعل ، فانه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ليس كالعبد الذي يريد ما لا
يكون ، ويكون ما لا يريد .

فقوله سبحانه : (ان شاء الله) تحقيق ان ما وعدتكم به يكون لا محالة
بمشيئتي وارادتي ، فان ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ؛ فكان الاستثناء هنا
لقصد التحقيق ، لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وعدوا به ذلك العام ، واما
سائر ما وعدوا به فلم يكن كذلك .

ولهذا تنازع الفقهاء فيمن اراد باستثنائه في اليمين هذا المعنى وهو
التحقيق في استثنائه لا التعليق : هل يكون مستثنياً به ، ام تلزمه الكفارة اذا
حنت ؟ بخلاف من ترددت ارادته فانه يكون مستثنياً بلا نزاع ، والصحيح انه

يكون في الجميع مستثنياً ، لعموم المشيئة ، ولأن الرجل وإن كانت ارادته
للسلوف به جازمة ، فقد علقه بمشيئة الله ، فهو يجزم بارادته له ، لا يجزم بحصول
مراده ، ولا هو ايضاً حر يد له بتقدير ان لا يكون ؛ فان هذا تمييز لا ارادة ، فهو
انما التزمه اذا شاء الله ، فاذا لم يشأه لم يلتزمه بيمينه ، ولا حلف انه يكون : وان
كانت ارادته له جازمة ، فليس كل ما اريد التزم باليمين فلا كفارة عليه .

وقد تبين بما ذكرناه ان قول القائل : (ان شاء الله) يكون مع كمال
ارادته في حصول المطلوب ، وهو يقولها لتحقيق المطلوب ؛ لاستعانته بالله في
ذلك ، لا لشك في الارادة ، هذا فيما يحلف عليه ويريده ، كقوله تعالى :
(لتدخلن المسجد الحرام) فانه خبر عما اراد الله كونه وهو عالم بأن سيكون ،
وقد علقه بقوله : (إن شاء الله) فكذلك ما يخبر به الانسان عن مستقبل امره
مما هو جازم بارادته وجازم بوقوعه فيقول فيه : ان شاء الله ، لتحقيق وقوعه ،
لا للشك لا في ارادته ولا في العلم بوقوعه .

ولهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة في المعلق ، وقوة ارادة الانسان له .
فتبقي خواطر الخوف تعارض الرجاء ؛ فيقول : ان شاء الله ، لتحقيق رجائه مع
علمه بأن سيكون ؛ كما يسأل الله ويدعوه في الأمر الذي قد علم انه يكون ، كما
كان النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر قد اخبرهم بمصارع المشركين ، ثم هو
بعد هذا يدخل الى العريش يستغيث ربه ويقول : « اللهم انجز لي ما وعدتني » ؛
لأن العلم بما يقدره لا ينافي ان يكون قدره بأسباب ، والدعاء من اعظم

اسبابه . كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من اعظم الاسباب في النجاة من عذابه وحصول رحمته .

والاستثناء بالمشيئة يحصل في الخبر المحض ، وفي الخبر الذي معه طلب ؛ فالاول اذا حلف على جملة خبرية لا يقصد به حصاً ولا منعاً ، بل تصديقاً او تكذيباً . كقوله : والله ليكون كذا ان شاء الله ، او لا يكون كذا . والمستثنى قد يكون عالماً بأن هذا يكون او لا يكون كما في قوله : (لتدخلن) فان هذا جواب غير محذوف .

والثاني : ما فيه معنى الطلب ، كقوله : والله لأفعلن كذا ، او لا افعله ان شاء الله ؛ فالصيغة صيغة خبر ضمن الالب . ولم يقل : والله اني لمريد هذا ولا عازم عليه ، بل قال : والله ليكون . فانا لم يكن فقد حث لوقوع الامر ، بخلاف ما حلف عليه فحث ، فاذا قل ان شاء الله فاننا حلف عليه بتقدير : ان يشاء الله ، لا مطلقاً .

ولهذا ذهب كثير من الائمة الى انه متى لم يوجد المحلوف عليه حث ، او متى وجد المحلوف عليه انه لا فعل ، حث ، سواء كان ناسياً او مخطئاً او جاهلاً ، فانهم لاحظوا ان هذا في معنى الخبر ، فاذا وجد بخلاف خبره فقد حث وقال الآخرون : بل هذا مقبولة الخبر والنوع ، كالأمر والنهي ، ومتى نهي الانسان عن شيء ففعله ناسياً او مخطئاً لم يكن مخالفاً ، فكذلك هذا .

قال الأولون : فقد يكون في معنى التصديق والتكذيب ، كقوله : والله ليقعن المطر ، اولا يقع ، وهذا خبر محض ، ليس فيه حض ولا منع ولو حلف على اعتقاده فكان الأمر بخلاف ما حلف عليه ، حث ، وبهذا يظهر الفرق بين الحلف على الماضي والحلف على المستقبل ، فان اليمين على الماضي غير منعقدة ، فاذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة ، كالغموس ، بخلاف المستقبل . وليس عليه ان يستثني في المستقبل اذا كان فعلاه . قال تعالى : (زعم الذين كفروا ان لن يعنوا . قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم وذلك على الله يسير) فأمره ان يقسم على ما سيكون ، وكذلك قوله : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) كما أمره ان يقسم على الحاضر في قوله : (ويستنبئونك احق هو ؟ قل اي وربي إنه لحق) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وانني نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكما عدلاً واماماً مقسطاً » . وقال : « والنبي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري التامل نياماً تمتن ، ولا المقتول فيما قتل » وقال : « اذا هلك كسرى او ليهلك كسرى ، ثم لا يكون كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . والنبي نفسي بيده لتتفقن كنوزها في سبيل الله » ، وكلاهما في « الصحيح » .

فاقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل في مواضع كثيرة بلا استثناء ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وقال الشيخ العالم العامل

. الورع الناسك ؛ شيخ الاسلام ، بقية السلف الكرام « ابو العباس احمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام الشامي - رحمه الله - :^(١)

فصل

تضمن حديث سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن « الاسلام » ، و « الايمان » ، و « الاحسان » ، و جوابه عن ذلك ، وقوله في آخر الحديث : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

فجعل هذا كله من الدين .

وللناس في « الاسلام » ، و « الايمان » من الكلام الكثير : مختلفين تارة ، و متفقين أخرى . ما يحتاج الناس معه الى معرفة الحق في ذلك ؛ وهذا يكون بان تبين الأصول المعلومة المتفق عليها . ثم بذلك يتوصل الى معرفة الحقيقة المتبازع فيها ؛

فنقول : ما علم الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، وهو من المنقول نقلا متواترا

(١) هذا « كتاب الايمان الاوسط » .

عن النبي صلى الله عليه وسلم : بل هو من المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام
- دين النبي صلى الله عليه وسلم - ان الناس كانوا على عهده بالمدينة « ثلاثة
اصناف » : مؤمن ، وكافر مظهر للكفر ، ومنافق ظاهره الاسلام وهو في
الباطن كافر

ولهذا التقسيم أنزل الله في اول سورة البقرة ذكر الأصناف الثلاثة، فأُنزل
اربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين . وبضع عشرة آية في
صفة المنافقين .

فقوله تعالى : (هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيّمون الصلاة
ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك
وبالآخرة هم يوقنون . اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) : في
صفة المؤمنين .

وقوله : (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)
الآيتين : في صفة الكفار الذين يموتون كفاراً .

وقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) .
الآيات ، في صفة المنافقين ؛ الى ان ضرب لهم مثلين : احدها بالنار ، والآخر
بالماء ؛ كما ضرب المثل بهذين للمؤمنين في قوله تعالى : (أنزل من السماء ماء
فسالت اودية بقدرها) الآية .

واما قبل الهجرة فلم يكن الناس إلا مؤمن او كافر ، لم يكن هناك منافق
فان المسلمين كانوا مستضعفين ، فكان من آمن باطنا وظاهراً ، ومن لم
يؤمن فهو كافر . فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، وصار للمؤمنين
بها عز وانصار ، ودخل جمهور اهلها في الاسلام طوعا واختياراً : كان بينهم من
اقاربهم ومن غير اقاربهم من اظهر الاسلام موافقة ، رهبة او رغبة وهو في
الباطن كافر . وكان رأس هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول ، وقد نزل فيه
وفي امثاله من المنافقين آيات .

والقرآن يذكر المؤمنين والمنافقين في غير موضع ، كما ذكرهم في سورة
البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، وسورة العنكبوت ، والأحزاب . وكان
هؤلاء في اهل المدينة والبادية كما قال تعالى : (ومن حولكم من الأعراب
منافقون ، ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) . وكان
في المنافقين من هو في الاصل من المشركين ، وفيهم من هو في الاصل من
اهل الكتاب .

وسورة الفتح ، والقتال ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والمنافقين . بل
عامة السور المدنية : يذكر فيها المنافقين . قال تعالى في سورة آل عمران :
(يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لاخوانهم - اذا
ضربوا في الأرض او كانوا غزى - لو كانوا عندنا ما ماتوا
وما قتلوا) الى قوله : (وليعلم المؤمنون ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا

قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا) الايات . وقال فيها ايضاً : (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا بآلؤكم خبلا ودوا ما عنتم) ، الى قوله : (واذا لقوكم قالوا : آمنا . واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل : موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ان تمسسكم حسنة تسؤم ، وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط) .

وقال تعالى في سورة النساء : (ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به — ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالاً بعيداً . واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) الى قوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً) وقال : (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون ان تهتدوا من اضل الله ؟ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً . ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم اولياء ؛ حتى يهاجروا في سبيل الله ، فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ، الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) الآيات .

رقال : (بشر المنافقين بان لهم عذابا اليبا . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ايتبعون عندهم العزة ؟ فان العزة لله جميعاً) الى قوله :

(ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم ؛ فان كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وان كان للكافرين نصيب ، قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ ؛ فالله يحكم) الى قوله : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم . واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ، مذنبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سيلاً .) الى قوله : (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . الا الذين تابوا ، واصلحوا ، واعتصموا بالله ؛ واخلصوا دينهم لله ؛ فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً .

وقال تعالى في سورة المائدة : (يا ايها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا : آمنا بافواههم ، ولم تؤمن قلوبهم . ومن الذين هادوا ؛ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك .) وقال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ؛ بعضهم اولياء بعض . ومن يتولهم منهم ، فانه منهم) الى قوله : (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون : نخشى ان تصيننا دائرة ، فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده ، فيصحبوا على ما اسروا في انفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا : اهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم ، حبطت اعمالهم فأصبحوا خاسرين) .

وقال تعالى : (واذا جاءكم قالوا : آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . والله اعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيراً منهم يسارعون في الامم والعدوان واكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون) وقال تعالى : (يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) ، الى قوله : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم انفسهم . ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ؛ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون) .

واما «سورة براءة» فأكثرها في وصف المنافقين وذمهم ولهذا سميت : الفاضحة ، والمبعثرة ، وهي نزلت عام تبوك . وكانت تبوك سنة تسع من الهجرة ، وكانت غزوة تبوك آخر مغازي النبي صلى الله عليه وسلم ، التي غزاها نفسه . وتميز فيها من المنافقين من تميز . فذكر الله من صفاتهم ما ذكره في هذه السورة . وقد قال تعالى في سورة النور : (ويقولون : آمنا بالله وبالرسول واطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما اولئك بالمؤمنين) الى قوله : (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا ، واولئك هم المفلحون) الآيات .

وقال تعالى في سورة العنكبوت : (ومن الناس من يقول : آمنا بالله فاذا اودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . ولئن جاء نصر من ربك

ليقولن : انا كنا معكم . اوليس الله باعلم بما في صدور العالمين ؟ ! وليعلمن الله
الذين آمنوا ، وليعلمن المنافقين).

وقال تعالى في سورة الاحزاب : (يا ايها النبي اتق الله ولا تطع
الكافرين والمنافقين ، ان الله كان عليا حكيا .) وذكر فيه شأنهم في الاحزاب .
وذكر من اقوال المنافقين وجبنهم وهلمهم ، كما قال تعالى : (واذ يقول
المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) الى قوله
(قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون بالبأس
الا قليلا . اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم
كالذي يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد . اشحة
على الخير ؛ اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم ؛ وكان ذلك على الله يسيرا
يحسبون الاحزاب لم يذهبوا ، وان يأت الاحزاب يودوا لو اتهم بادون في
الاعراب ، يسألون عن أنبائكم ؛ ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا .) وقال تعالى :
(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لتغرينك بهم ثم
لا يجاورونك فيها الا قليلا . ملعونين اينما تقفوا أخذوا وقتلو اتقتيلا .) الى قوله : (ليعذب
الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) .

وقال تعالى في سورة القتال : (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن
لن يخرج الله اضغانهم . ولو نشاء لاريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم
في لحن القول . والله يعلم اعمالكم) الى ما في السورة من نحو ذلك .

وقال تعالى في سورة الفتح : (هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم . والله جنود السماوات والارض ، وكان الله عليا حكيمًا . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدن فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً . ويعذب المنافقين والمنافقات . والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ، ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً)

وقال تعالى في سورة الحديد : (يوم تري المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار ، خالدن فيها ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا ورائكم ، فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم . ألم نكن معكم؟ قالوا بلى؟ ولكنكم فتتم انفسكم وتربصتم واربتتم وغرتكم الاماني حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم) .

وقال في سورة المجادلة : (ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ، ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالاثم والعدوان ، ومعصية الرسول ، واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) . الى قوله : (ألم تر الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون

اعد الله لهم عذاباً شديداً : انهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلمهم عذاب مهين) . الى آخر السورة . وقوله : (مام منكم ولا منهم) كقوله : (مذنبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) وقال النبي صل الله عليه وسلم : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير الى هذه مرة والى هذه مرة » .

وقال تعالى : (الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطبع فيكم احداً ابداً ، وان قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد انهم لكاذبون . لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون . لأتسم اشد رهبة في صدورهم من الله) ، الآية . وقد ذكر في سورة المنافقين في قوله : (اذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد انك لرسول الله ، ويعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) الى آخر السورة .

و (المقصود) بيان كثرة ما في القرآن من ذكر المنافقين و اوصافهم . و « المنافقون » هم في الظاهر مسلمون وقد كان المنافقون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم : يلتزمون احكام الاسلام الظاهرة لاسيا في آخر الأمر مالم يلتزمه كثير من المنافقين الذين من بعدهم ؛ لعز الاسلام و ظهوره اذ ذلك بالحجة والسيف تحقيقاً لقوله تعالى : (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق

ليظهره على الدين كله) ولهذا قال حذيفة بن اليمان : — وكان من اعلم الصحابة بصفات المنافقين واعيانهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اسر اليه عام تبوك اسماء جماعة من المنافقين بأعيانهم ، فلماذا كان يقال : هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره . و يروى ان عمر بن الخطاب لم يكن يصلى على احد حتى يصلى عليه حذيفة ؛ لئلا يكون من المنافقين الذين نهى عن الصلاة عليهم . قال حذيفة رضي الله عنه — النفاق اليوم اكثر منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية : كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يسرونه ، واليوم يظهرونه . وذكر البخارى فى صحيحه عن ابن ابي مليكة قال : ادركت ثلاثين من اصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وقد اخبر الله عن المنافقين انهم يصلون ويزكون وانه لا يقبل ذلك منهم .

وقال تعالى : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ؛ يراءون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليلاً) . وقال تعالى : (قل أنفقوا طوعاً او كرها ، لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين . وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون .) وقد كانوا يشهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم مغازيه ، كما شهد عبد الله بن ابي ابن سلول وغيره من المنافقين « الغزوة » التى قال فيها عبد الله بن ابي : (لئن رجعنا الى المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل). وأخبر بذلك زيد بن أرقم النبي صلى الله عليه وسلم،
وكذبه قوم، حتى أنزل الله القرآن بتصديقه.

والمقصود ان الناس ينقسمون في الحقيقة الى: « مؤمن » و « منافق »
كافر في الباطن مع كونه مسلماً في الظاهر، والى كافر باطناً وظاهراً.

ولما كثرت الأعاجم في المسلمين تكلموا بلفظ « الزنديق » وشاعت في
لسان الفقهاء، وتكلم الناس في الزنديق: هل تقبل توبته؟ في الظاهر: اذا
عرف بالزندقة، ودفع الى ولي الأمر قبل توبته، فذهب مالك وأحمد في
اشهر الروايتين عنه، وطائفة من أصحاب الشافعي، وهو احد القولين في
مذهب أبي حنيفة: ان توبته لا تقبل. والمشهور من مذهب الشافعي: قبولها،
كالرواية الاخرى عن أحمد، وهو القول الآخر في مذهب أبي حنيفة. ومنهم
من فصل.

والمقصود هنا: أن « الزنديق » في عرف هؤلاء الفقهاء، هو المنافق الذي
كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. وهو أن يظهر الاسلام ويبطن غيره،
سواء أبطن ديناً من الأديان: كدين اليهود والنصارى او غيرهم. او كان معطلاً
جاحداً للصانع، والمعاد، والأعمال الصالحة.

ومن الناس من يقول: « الزنديق » هو الجاحد المعطل. وهذا يسمى

الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامّة ، ونقطة مقالات الناس ؛ ولكن الزنديق الذي تكلم الفقهاء في حكمه : هو الأول ؛ لأن مقصودهم هو التمييز بين الكافر وغير الكافر ، والمرند وغير المرند ، ومن أظهر ذلك إرساؤه . وهذا الحكم يشترك فيه جميع أنواع الكفار والمرتدين ، وإن تفاوتت درجاتهم في الكفر والردة فإن الله أخبر بزيادة الكفر كما أخبر بزيادة الإيمان ، بقوله : (إنما النسيء زيادة في الكفر) وتارك الصلاة وغيرها من الأركان ، أو مرتكب الكبائر ، كما أخبر بزيادة عذاب بعض الكفار على بعض في الآخرة بقوله : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، زدناهم عذاباً فوق العذاب) .

فهذا « اصل » ينبغي معرفته فإنه مهم في هذا الباب . فإن كثيراً ممن تكلم في « مسائل الإيمان والكفر » — لتكفير أهل الأهواء — لم يلاحظوا هذا الباب ؛ ولم يميزوا بين الحكم الظاهر والباطن ، مع أن الفرق بين هذا وهذا ثابت بالنصوص المتواترة ، والاجماع المعلوم ؛ بل هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام . ومن تدبر هذا ، علم أن كثيراً من أهل الأهواء والبدع : قد يكون مؤمناً مخطئاً جاهلاً ضالاً عن بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون منافقاً زنديقاً يظهر خلاف ما يبطن .

وهنا « اصل آخر » وهو أنه قد جاء في الكتاب والسنة وصف اقوام بالإسلام دون الإيمان . فقال تعالى : (قالت ، الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ،

ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً ، ان الله غفور رحيم) وقال تعالى في قصة قوم لوط :
 (فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)
 وقد ظن طائفة من الناس ان هذه الآية تقتضي ان مسمى الايمان والاسلام واحد . وعارضوا بين الآيتين ؛ وليس كذلك ؛ بل هذه الآية توافق الآية الاولى لأن الله اخبر انه اخرج من كان فيها مؤمناً ، وانه لم يجد إلا اهل بيت من المسلمين .

وذلك لأن امرأة لوط كانت في اهل البيت الموجودين ، ولم تكن من المخرجين الذين نجوا ؛ بل كانت من الغابرين ، الباقين في العذاب ، وكانت في الظاهر مع زوجها على دينه ، وفي الباطن مع قومها على دينهم ، خاتمة لزوجها تدل قومها على اضيافه . كما قال الله تعالى فيها : (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخثتاها) . وكانت خياتتهما لهما في الدين لا في الفراش . فانه ما بغت امرأة نبي قط ؛ إذ « نكاح الكافرة » قد يجوز في بعض الشرائع ، ويجوز في شريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات واما « نكاح البغي » فهو : ديانة . وقد صان الله النبي عن ان يكون ديوتاً . ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء : بتحريم نكاح البغي حتى تتوب .

و (المقصود) ان امرأة لوط لم تكن مؤمنة ، ولم تكن من الناجين المخرجين ، فلم تدخل في قوله : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) وكانت من اهل البيت المسلمين ومن وجد فيه ، ولهذا قال تعالى : (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) . وبهذا تظهر حكمة القرآن حيث ذكر الايمان لما اخبر بالاخراج وذكر الاسلام لما اخبر بالوجود . وايضاً فقد قال تعالى : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) ففرق بين هذا وهذا . فهذه ثلاثة مواضع في القرآن .

و « ايضاً » فقد ثبت في الصحيحين عن سعد بن ابي وقاص قال : « اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ، ولم يعط رجلاً . فقلت : يا رسول الله ! اعطيت فلاناً ، وتركت فلاناً ، وهو مؤمن . فقال : او مسلم ؟ قال : ثم غلبني ما اجد ، فقلت : يا رسول الله ! اعطيت فلاناً وفلاناً ، وتركت فلاناً وهو مؤمن ! فقال او مسلم ؟ مرتين او ثلاثاً ، وذكر في تمام الحديث انه يعطى رجلاً ، ويدع من هو احب اليه منهم ؛ خشية ان يكبهم الله في النار على مناخرهم » .

قال الزهري : فكانوا يزورون ان الاسلام الكلمة ، والايمان العمل ، فأجاب سعداً بجوابين ، « أحدهما » : ان هذا الذي شهدت له بالايمان ، قد يكون مسلماً لا مؤمناً . « الثاني » : ان كان مؤمناً ، وهو أفضل من أولئك فأنا قد أعطى من هو أضعف ايماناً ؛ لئلا يحمله الحرمان على الردة ، فيكبه الله في

النار على وجهه . وهذا من اعطاء المؤلف قلوبهم .

وحينئذ فهؤلاء الذين اثبت لهم القرآن والسنة الاسلام ؛ دون الايمان هل هم المنافقون الكفار في الباطن ؟ ام يدخل فيهم قوم فيهم بعض الإيمان ؟ هذا مما تنازع فيه اهل العلم على اختلاف اصنافهم . فقالت طائفة من اهل الحديث والكلام وغيرهم : بل هم المنافقون الذين استسلموا ، وانقادوا في الظاهر ولم يدخل الى قلوبهم شيء من الايمان .

واصحاب هذا القول قد يقولون الاسلام المقبول هو الايمان ؛ ولكن هؤلاء أسلموا ظاهراً لا باطناً فلم يكونوا مسلمين في الباطن ولم يكونوا مؤمنين . وقالوا : إن الله سبحانه يقول : (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) . بيانه كل مسلم مؤمن فما ليس من الاسلام ، فليس مقبولاً يوجب ان يكون الايمان منه . وهؤلاء يقولون : كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، اذا كان مسلماً في الباطن . واما الكافر المنافق في الباطن فانه خارج عن المؤمنين المستحقين للثواب بانفاق المسلمين

ولا يسمون بمؤمنين عند احد من سلف الأمة وأئمتها ، ولا عند احد من طوائف المسلمين . إلا عند طائفة من المرجئة ، وهم الكرامية الذين قالوا ان الايمان هو مجرد التصديق في الظاهر . فاذا فعل ذلك : كان مؤمناً وان كان مكذباً في الباطن ، وسلموا انه معذب مخلد في الآخرة . فنازعوا في اسمه لاني

حكّمه . ومن الناس من يحكي عنهم أنهم جعلوهم من أهل الجنة ، وهو غلط عليهم . ومع هذا فتسميتهم له مؤمناً : بدعة ابتدعوها مخالفة للكتاب والسنة واجماع سلف الأمة ، وهذه البدعة الشنعاء هي التي انفرد بها الكرامية ، دون سائر مقالاتهم .

قال الجمهور من السلف والخلف : بل هؤلاء الذين وصفوا بالاسلام دون الايمان ، قد لا يكونون كفاراً في الباطن بل معهم بعض الاسلام المقبول . وهؤلاء يقولون : الاسلام اوسع من الايمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً . ويقولون : في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق - حين يسرق - وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر - حين يشربها - وهو مؤمن » انه يخرج من الايمان الى الاسلام ، ودوروا للاسلام دارة ودوروا للايمان دارة اصغر منها في جوفها وقالوا : إذا زنى خرج من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرج من الاسلام الى الكفر .

ودليل ذلك ان الله تبارك وتعالى قال : (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا . ولكن قولوا : اسلمنا . ولما يدخل الايمان في قلوبكم . وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً ، ان الله غفور رحيم ، أما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله : هم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ،

اولئك هم الصادقون . قل : اتعلمون الله بدينكم ؟ ! والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم . يمتنون عليك ان اسلموا ، قل : لا تمنوا علي اسلامكم . بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ، ان كنتم صادقين) .

فقد قال تعالى : (لم تؤمنوا ولكن قولوا : اسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم) ، وهذا الحرف - اي (لما) - ينفى به ما قرب وجوده ، وانتظر وجوده ، ولم يوجد بعد . فيقول لمن ينتظر غائباً اي « لما » . ويقول قد جاء لما يجيء بعد . فلما قالوا : (آمنا) قيل : (لم تؤمنوا) بعد ، بل الايمان مرجو منتظر منهم . ثم قال : (وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم) اي : لا ينقصكم من اعمالكم المثبتة (شيئاً) ، اي : في هذه الحال ؛ فانه لو ارادوا طاعة الله ورسوله بعد دخول الايمان في قلوبهم لم يكن في ذلك فائدة لهم ولا لغيرهم ؛ اذ كان من المعلوم ان المؤمنين يثابون على طاعة الله ورسوله وهم كانوا مقرين به . فاذا قيل لهم : المطاع يثاب والمراد به المؤمن الذي يعرف انه مؤمن لم يكن فيه فائدة جديدة .

و « ايضاً » فالخطاب لهؤلاء المخاطبين قد اخبر عنهم لما يدخل في قلوبهم وقيل لهم : (ان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً) ؛ فلو لم يكونوا في هذه الحال مثابين على طاعة الله ورسوله لكان خلاف مدلول الخطاب ، فبين ذلك انه وصف المؤمنين الذين اخرج هؤلاء منهم فقال تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم

في سبيل الله أولئك هم الصادقون) ، وهذا نعت محقق الإيمان ؛ لا نعت من معه
 مثقال ذرة من إيمان، كما في قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت
 قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون
 الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا) ، وقوله تعالى : (إنما
 المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى
 يستأذنه ، ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) ، ومنه
 قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » .
 وامثال ذلك .

فدل البيان على ان الإيمان المنفي عن هؤلاء الأعراب : هو هذا الإيمان
 الذي نفي عن فساق اهل القبلة الذين لا يخلدون في النار ، بل قد يكون مع
 اقدم مثقال ذرة من إيمان ، ونفي هذا الإيمان لا يقتضي ثبوت الكفر الذي
 يخلد صاحبه في النار .

ويتحقق « هذا المقام » يزول الاشتباه في هذا الموضع ، ويعلم ان في
 المسلمين قسما ليس هو منافقا محضاً في الدرك الاسفل من النار ، وليس هو
 من المؤمنين الذين قيل فيهم : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم
 يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) .
 ولا من الذين قيل فيهم : (أولئك هم المؤمنون حقا) فلام منافقون ، ولا من

من هؤلاء الصادقين المؤمنين حقاً ، ولا من الذين يدخلون الجنة بلا عقاب . بل له طاعات ومعاص وحسنات وسيئات ، ومعهم من الإيمان مالا يخلد معه في النار ، وله من الكبائر ما يستوجب دخول النار . وهذا القسم قد يسميه بعض الناس : الفاسق الملي وهذا مما تنازع الناس في اسمه وحكمه . والخلاف فيه اول خلاف ظهر في الاسلام في مسائل «اصول الدين» .

فنقول : لما قتل امير المؤمنين عثمان بن عفان ، وسار على بن ابي طالب الى العراق ، وحصل بين الامة من الفتنة والفرقة يوم الجمل ، ثم يوم صفين ، ماهو مشهور : خرجت (الخوارج) المارقون على الطائفتين جميعاً ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اخبر بهم وذكر حكمهم ، قال الامام احمد : صح الحديث في الخوارج من عشرة اوجه ، وهذه العشرة اخرجها مسلم في صحيحه موافقة لاحمد ، وروى البخاري منها عدة اوجه ، وروى احاديثهم اهل السنن والمسانيد من وجوه آخر .

ومن اصح حديثهم حديث علي بن ابي طالب وابي سعيد الخدري في الصحيحين عن علي بن ابي طالب انه قال : اذا حدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فوالله لأن آخر من السماء الى الارض احب إلي من ان اكذب عليه ، وان حدثكم فيما بيني وبينكم ، فان الحرب خدعة ، واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نسيخرج قوم في آخر الزمان

احداث الاسنان ، سفهاء الاحلام ، يقولون من خير قول البرية ، لايجاوز
إيمانهم خارجهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . فأينما
لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم اجراً . عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال : بعث علي بن ابي طالب الى النبي
صلى الله عليه وسلم من اليمن بنهية في ادم مقروض لم تحصل من ترابها
فقال : فقسمها بين اربعة نفر ، فقال رجل من اصحابه كنا احق بهذا من
هؤلاء قال : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « الاتأمنوني وانا ، ابن
من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً » قال : فقام رجل غائر العينين
مشرف الوجنتين ، ناشز الجهة ، كث اللحية ، مخلوق الرأس ، مشمر الازار ،
فقال : يا رسول الله ! اتق الله ، فقال : « وبلك ! اولست احق اهل الارض
ان يتقي الله ؟ ! » قال : ثم ولى الرجل ، فقال خالد بن الوليد ، يا رسول الله !
الا اضرب عنقه ؟ فقال : « لا : لعله ان يكون يصلي » قال خالد : وكم من مصل
يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « اني لم
اوحرا ان انقب عن قلوب الناس ؛ ولا اشق بطونهم » قال ثم نظر اليه وهو
مقف فقال : « انه يخرج من ضئىء هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز
خارجهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قال : اظنه قال : لأن
ادركهم لأقتلهم قتل غاد » . اللفظ لمسلم .

ولسلم في بعض الطرق عن ابي سعيد « ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر قوماً يكونون في امته يخرجون في فرقة من الناس سيام التحليق ثم قال شر الخلق او من شر الخلق يقتلهم ادنى الطائفتين الى الحق » قال ابو سعيد: انتم قتلتموهم يا اهل العراق ، وفي لفظ له : « تقتلهم اقرب الطائفتين الى الحق » وهذا الحديث مع ما ثبت في الصحيح عن ابي بكر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للحسن بن علي : « ان ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين » فبين ان كلا الطائفتين كانت مؤمنة وان اصطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان احب الى الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم من اقتالهما ، وان اقتالهما وإن لم يكن مأموراً به ، فعلى بن ابي طالب وأصحابه اقرب الى الحق من معاوية واصحابه ، وان قتال الخوارج مما امر به صلى الله عليه وسلم ، ولذلك انفق على قتالهم الصحابة والأئمة .

وهؤلاء الخوارج لهم اسماء ، يقال لهم : « الحرورية » لأنهم خرجوا بمكان يقال له حروراء ، ويقال لهم (اهل النهروان) : لأن علياً قاتلهم هناك ومن اصنافهم « الاباضية » اتباع عبد الله بن اباض ، و « الأزارقة » اتباع نافع بن الأزرق ، و « النجدات » أصحاب نجدة الحرورى .

وهم اول من كفر أهل القبلة بالذنوب بل بما يرونه هم من الذنوب واستحلوا دماء اهل القبلة بذلك ، فكانوا كما نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم

«يقتلون اهل الاسلام ويدعون اهل الاوثان» وكفروا علي بن ابي طالب .
 وعثمان بن عفان ومن والاها ، وقتلوا علي بن ابي طالب
 مستحلين لقتله ، قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي منهم ، وكان هو وغيره
 من الخوارج مجتهدين في العبادة ، لكن كانوا جهالاً فارقوا السنة والجماعة ؛
 فقال هؤلاء : ما الناس إلا مؤمن او كافر ؛ والمؤمن من فعل جميع الواجبات
 وترك جميع المحرمات ؛ فمن لم يكن كذلك فهو كافر ؛ مخلص في النار . ثم
 جعلوا كل من خالف قولهم كذلك ، فقالوا : ان عثمان وعلياً ونحوهما حكموا
 بغير ما انزل الله ، وظلموا فصاروا كفاراً .

ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة ، فان الله
 سبحانه امر بقطع يد السارق دون قتله ، ولو كان كافراً مرتدأ لوجب قتله ؛
 لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من بدل دينه فاقتلوه » . وقال « لا يحل
 دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد اسلام ، وزنا بعد احسان ، او قتل
 نفس يقتل بها » وامر سبحانه ان يجلد الزاني والزانية مائة جلدة ، ولو كانا
 كافرين لأمر بقتلها ، وامر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة ، ولو
 كان كافراً لأمر بقتله ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلد شارب الخمر ولم يقتله ،
 بل قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح البخارى وغيره : ان رجلاً كان
 يشرب الخمر وكان اسمه عبد الله حمارا وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم وكان
 كلما أتى به اليه جلده فأتى به اليه مرة فلغنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم

« لا تلغنه ، فإنه يحب الله ورسوله » فنهى عن لعنه بعينه وشهد له بحب الله ورسوله مع انه قد لعن شارب الخمر عفوماً .

وهذا من اجود ما يحتج به على ان الامر بقتل الشارب في « الثالثة » و « الرابعة » منسوخ ؛ لان هذا آتى به ثلاث مرات ، وقد اعيب الأئمة الكبار جواب هذا الحديث ؛ ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز ، فيجوز ان يقال : يجوز قتله إذا رأى الامام المصلحة في ذلك ، فان ما بين الأربعين الى الثمانين ليس حداً مقدراً في اصح قولي العلماء ، كما هو مذهب الشافعي واحمد في إحدى الروايتين ؛ بل الزيادة على الأربعين الى الثمانين ترجع الى اجتهاد الامام في فعلها عند المصلحة ، كغيرها من انواع التغير ، وكذلك صفة الضرب فإنه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال واطراف الثياب بخلاف الزاني والقاذف فيجوز ان يقال : قتله في الرابعة من هذا الباب .

و « ايضاً » فان الله سبحانه قال : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فاصلحوا بينهما ، فإن بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ، فان قامت فأصلحها بينهما بالعدل واقتطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم) . فقد وصفهم بالايان والأخوة و امرنا بالاصلاح بيده .

فلما شاع في الامة امر « الخوارج » تكلمت الصحابة فيهم ، ورووا عن

النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث فيهم، وبينوا ما في القرآن من الرد عليهم،
 وظهرت بدعتهم في العامة؛ فجاءت بعدم «المعتزلة» — الذين اعتزلوا الجماعة
 بعد موت الحسن البصري وهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء الغزال،
 وأتباعهما — فقالوا: أهل الكبار مخلدون في النار، كما قالت الخوارج، ولا
 نسميهم لا مؤمنين ولا كفاراً؛ بل فاسق، نزلهم منزلة بين منزلتين.
 وأنكروا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبار من أمته، وأن يخرج
 من النار بعد أن يدخلها. قالوا: ما الناس إلا رجلان: سعيد لا يعذب،
 أو شقي لا ينعم، والشقي نوعان: كافر، وفاسق، ولم يوافقوا الخوارج على
 تسميتهم كفاراً.

وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به على الخوارج. فيقال لهم كما أنهم قسموا
 الناس إلى مؤمن لا ذنب له، وكافر لا حسنة له، قسمتم الناس إلى مؤمن لا ذنب
 له، وإلى كافر وفاسق لا حسنة له، فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو
 مخلد في النار، لاستحق المعادة المحضة بالقتل والأسترقاق، كما يستحقها المرتد؛
 فإن هذا قد اظهر دينه بخلاف المنافق. وقد قال تعالى في كتابه: (إن الله لا يغفر
 أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فجعل ما دون ذلك الشرك
 معلقاً بمشيئته.

ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب؛ فإن التائب لا فرق في حقه بين

الشرك وغيره . كما قال سبحانه في الآية الأخرى : (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فهنا عمم واطلق ، لأن المراد به التائب ، وهناك خص وعلق .

وقال تعالى : (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها ، يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا : الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذي احلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها الغوب) .

فقد قسم سبحانه الامة التي اورثها الكتاب واصطفاها « ثلاثة اصناف » : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل : « الاسلام » و « الايمان » و « الاحسان » . كما سنده إن شاء الله . ومعلوم ان الظالم لنفسه إن اريد به من اجتب الكبار والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد او سابق ، فانه ليس احد من بني آدم مخلوع عن ذنب ؛ لكن من تاب كان مقتصداً ، او سابقاً ؛ كذلك من اجتب الكبار كفرت عنه السيئات ؛ كما قال تعالى : (إن تجتنبوا كبار ما نهون عنه كفر عنكم سيئاتكم) فلا بد ان يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر : ان ما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب مما يجزى به ، ويكفر عنه خطاياه ، كما في الصحيحين

عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا غم ، ولا اذى حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياها » وفي المسند وغيره انه لما نزلت هذه الآية : (من يعمل سوءاً يجزيه) قال ابو بكر : يا رسول الله ! جاءت قاصمة الظهر ، وأينا لم يعمل سوءاً ، فقال : « يا ابا بكر ! أأنت تصعب ؟ أأنت تحزن ؟ أأنت تصيبك اللأواء ؟ فذلك مما تجزون به ».

و « أيضاً » فقد تواترت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في انه يخرج اقوام من النار بعد ما دخلوها ، وان النبي صلى الله عليه وسلم يشفع في اقوام دخلوا النار . وهذه الاحاديث حجة على الطائفتين : « الوعيدية » الذين يقولون : من دخلها من اهل التوحيد لم يخرج منها ، وعلى « المرجئة الواقفة » الذين يقولون : لاندري هل يدخل من اهل التوحيد النار احد ، ام لا ؟ كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية ، كالقاضي ابي بكر وغيره . واما ما يذكر عن « غلاة المرجئة » انهم قالوا : لن يدخل النار من اهل التوحيد احد ، فلا نعرف قائلاً مشهوراً من المنسويين الى العلم يذكر عنه هذا القول .

و « أيضاً » فان النبي صلى الله عليه وسلم قد شهد لشارب الخمر المجلود مرات بأنه يحب الله ورسوله ، ونهى عن لعنته ، ومعلوم ان من احب الله ورسوله احبه الله ورسوله بقدر ذلك . وايضاً فان الذين قذفوا عائشة ام

المؤمنين كان فيهم مسطح بن اثانة ، وكان من اهل بدر ، وقد انزل الله فيه لما حلف ابو بكر ان لا يصله : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ان يؤتوا أولى القربى والمساكين ، والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون ان يغفر الله لكم؟!) . وان قيل : إن مسطحاً وامثاله تابوا لكن الله لم يشترط في الأمر بالعتق عنهم ، والصفح والاحسان اليهم التوبة . وكذلك حاطب بن ابي بلتعنة كاتب المشركين باخبار النبي صلى الله عليه وسلم فلما اراد عمر قتله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انه قد شهد بدرأً ، وما يدريك ان الله قد اطلع على اهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟ » .

وكذلك ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح انه قال : « لا يدخل النار احد بايع تحت الشجرة » وهذه النصوص تقتضي : أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات ولم يشترط مع ذلك توبة ؛ والا فلا اختصاص لأولئك بهذا ؛ والحديث يقتضي المغفرة بذلك العمل . وإذا قيل : ان هذا لأن احداً من أولئك لم يكن له إلا صغار ، لم يكن ذلك من خصائصه ايضاً . وان هذا يستلزم تجويز الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم ، و« ايضاً » قد دلت نصوص الكتاب والسنة : على ان عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة اسباب .

« احدها » التوبة ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، قال تعالى :

(قل يا عبادي : الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم) وقال تعالى : (الم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ، يأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم .) وقال تعالى : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .) وامثال ذلك « السبب الثاني » الاستغفار كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اذا اذنب عبد ذنباً فقال : اي رب ! اذنبت ذنباً فاغفر لي ، فقال : علم عبدي ان له رباً يغفر الذنب ، يأخذ به قد غفرت لعبدي ، ثم اذنب ذنباً آخر فقال اي رب ! اذنبت ذنباً آخر . فاغفره لي ، فقال ربه : علم عبدي ان له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي ، فليفعل ماشاء ، قال ذلك : في الثالثة ، او الرابعة » وفي صحيح مسلم عنه انه قال : « لو لم تذبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم » .

وقد يقال على هذا الوجه الاستغفار هو مع التوبة كما جاء في حديث « ما اصر من استغفر وان عاد في اليوم مائة مرة » وقد يقال : بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع ، وبسط هذا له موضع آخر ، فان هذا الاستغفار اذا كان مع التوبة مما يحكم به ، عام في كل تائب ، وان لم يكن مع التوبة فيكون في حق بعض المستغفرين ، الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الحشية والانابة ما يمحو الذنوب ، كما في حديث البطاقة بأن قول : لا إله

إلا الله ثقلت بتلك السيئات؛ لما قالها بنوع من الصدق والاخلاص الذي يمحو السيئات،
وكما غفر للبغي بسقي الكلب لما حصل في قلبها اذذاك من الايمان، وامثال ذلك كثير.

« السبب الثالث » : الحسنات الماحية كما قال تعالى : (اقم الصلاة طرفي
النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات .) وقال صلى الله عليه
وسلم : « الصلوات الخمس ، والجمعة الى الجمعة ، ورمضان الى رمضان ،
مكفرات لما بينهن ، اذا اجتنبت الكبائر » وقال : « من صام رمضان ايمانا
واحسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال : « من قام ليلة القدر ايمانا واحسابا
غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق
رجع من ذنوبه كيوم ولدته امه » وقال : « فتنة الرجل في اهله وماله وولده
تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . »
وقال : « من اعتق رقبة مؤمنة ، اعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار
حتى فرجه بفرجه » وهذه الاحاديث وامثالها في الصحاح . وقال : « الصدقة
تطفئ الحطية كما يطفئ الماء النار ، والحسديا كل الحسنات كما تأكل
النار الحطب » .

وسؤالهم على هذا الوجه ان يقولوا الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط
فأما الكبائر فلا تغفر إلا بالتوبة كما قد جاء في بعض الأحاديث : « ما اجتنبت
الكبائر » فيجيب عن هذا بوجوه .

(أحدها) : ان هذا الشرط جاء في الفرائض . كالصلوات الخمس ، والجمعة ، وصيام شهر رمضان ، وذلك ان الله تعالى يقول : (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات ، واما الاعمال الزائدة من التطوعات فلا بد ان يكون لها ثواب آخر ، فان الله سبحانه يقول : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

(الثاني) : انه قد جاء التصريح في كثير من الاحاديث بان المغفرة قد تكون مع الكبائر ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « غفر له وان كان فر من الزحف » وفي السنن « أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد اوجب . فقال : اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار . » وفي الصحيحين في حديث ابي ذر « وان زنا وان سرق . » .

(الثالث) : ان قوله لأهل بدر ونحوهم « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ان حمل على الصغار ، او على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم . فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر ، لما قد علم ان الكفر لا يغفر إلا بالتوبة ، لا يجوز حمله على مجرد الصغار المكفرة باجتناب الكبائر .

(الرابع) : انه قد جاء في غير حديث « ان اول ما يحاسب عليه العبد من

عمله يوم القيامة الصلاة ، فان أكملها وإلا قيل : انظروا هل له من تطوع ، فان كان له تطوع أكملت به الفريضة ، ثم يصنع بسائر أعماله كذلك . . ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب : فان ترك المستحب لا يحتاج الى جيران ، ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول ، فعلم انه يكمل نقص الفرائض من التطوعات . وهذا لا ينافي من ان الله لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة ، مع ان هذا لو كان معارضاً للأول لوجب تقديم الأول لانه أثبت وأشهر ، وهذا غريب رفعه ، وانما المعروف أنه في وصية أبي بكرٍ لعمر : وقد ذكره احمد في « رسالته في الصلاة » .

وذلك لان قبول النافلة يراد به الثواب عليها. ومعلوم انه لا يثاب على النافلة حتى تؤدي الفريضة فانه اذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كانت جبراً لها وإكمالاً لها. فلم يكن فيها ثواب نافلة، ولهذا قال بعض السلف: النافلة لا تكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره يحتاج إلى المغفرة. وتأول على هذا قوله : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) وليس إذا فعل نافلة وضع فريضة تقوم النافلة مقام الفريضة مطلقاً ، بل قد تكون عقوبته على ترك الفريضة أعظم من ثواب النافلة .

فان قيل : العبد إذا نام عن صلاة او نسيها كان عليه ان يصلها إذا ذكرها بالنص والاجماع . فلو كان لها بدل من التطوعات لم يجب القضاء . قيل : هذا خطأ ، فان قيل هذا يقال في جميع مسقطات العقاب . فيقال : إذا كان العبد

يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم ينه عن الفعل ، ومعلوم ان العبد عليه أن يفعل
المأمور ويترك المحذور ؛ لان الاخلال بذلك سبب للذم والعقاب وان جاز مع
اخلاله ان يرتفع العقاب بهذه الاسباب ، كما عليه ان يحتمي من السموم القاتلة
وان كان مع تناوله لها يمكن رفع ضررها بأسباب من الادوية . والله عليم حكيم
رحيم - أمرهم بما يصلحهم ، ونهاهم عما يفسدهم ، ثم اذا وقعوا في أسباب الهلاك
لم يؤيهم من رحمة ، بل جعل لهم أسباباً يتوصلون بها إلى رفع الضرر عنهم ،
ولهذا قيل : إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ، ولا يجرحهم
على معاصي الله . ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب ، قال بعضهم لشيخه : إني
أذنب ، قال : تب ، قال : ثم اعود ، قال : تب ، قال : ثم أعود ، قال : تب ،
قال : إلى متى ؟ ! قال : إلى ان تحزن الشيطان . وفي المسند عن علي عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال : « إن الله يحب العبد المقتن التواب » .

وايضاً فان من نام عن صلاة ، او نسيها فصلاته إذا استيقظ او ذكرها
كفارة لها ، تبرأ بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الذم والعقاب ، ويستوجب
بذلك المدح والثواب ، واما ما يفعله من التطوعات ، فلا نعلم القدر الذي يقوم
ثوابه بمقام ذلك ، ولو علم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات ، ثم إذا قدر انه
أمر بما يقوم مقام ذلك صار واجباً ، فلا يكون تطوعاً والتطوعات شرعت لمزيد
التقرب الى الله كما قال تعالى . في الحديث الصحيح : « ما تقرب الي عبدي بمثل
اداء ما افترضت عليه . ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه » ، الحديث

فاذا لم يكن العبد قد ادى الفرائض كما امر، لم يحصل له مقصود النوافل، ولا يظلمه الله، فان الله لا يظلم مثقال ذرة، بل يقيمها مقام نظيرها من الفرائض كمن عليه ديون لأناس يريد ان يتطوع لهم بأشياء: فان وفاهم وتطوع لهم كان عادلاً محسناً. وان وفاهم ولم يتطوع كان عادلاً، وان اعطاهم ما يقوم مقام دينهم وجعل ذلك تطوعاً كان غالطاً في جعله: بل يكون من الواجب الذي يستحقونه.

ومن العجب ان «المعتزلة» يفتخرون بأنهم اهل «التوحيد»، و«العدل»! وهم في توحيدهم نفوا الصفات نفياً يستلزم التعطيل والاشراك. واما «العدل» الذي وصف الله به نفسه، فهو ان لا يظلم مثقال ذرة وانه: من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وهم يجعلون جميع حسنات العبد وایمانه حابطاً بذنوب واحد من الكبار، وهذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه، فكان وصف الرب سبحانه بالعدل الذي وصف به نفسه اولى، من جعل العدل هو التكذيب بقدر الله.

(الخامس): ان الله لم يجعل شيئاً يحب جميع الحسنات، إلا الكفر، كما انه لم يجعل شيئاً يحب جميع السيئات الا التوبة. و«المعتزلة» مع الحوارج يجعلون الكبار محبطة لجميع الحسنات حتى الايمان، قال الله تعالى: ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة، واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (فعلق الحبوط بالموت على الكفر، وقد ثبت ان هذا ليس بكافر، والمعلق بشرط يعدم عند عدمه. وقال تعالى

(ومن يكفر بالايان فقد حبط عمله) وقال تعالى لما ذكر الانبياء : (ومن آباؤهم وذرياتهم واخوانهم ، واجتيناكم ، وهديناكم الى صراط مستقيم ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال : (لئن اشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين) مطابق لقوله تعالى : (ان الله لا يغفر ان يشرك به) . فان الاشراك اذا لم يغفر وانه موجب للخلود في النار ، لزم من ذلك حبوط حسنات صاحبه ، ولما ذكر سائر الذنوب غير الكفر لم يعلق بها حبوط جميع الاعمال . وقوله : (ذلك بأثمهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط اعمالهم) . لان ذلك كفر وقوله تعالى : (لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم واتم لا تشعرون) لان ذلك قد يتضمن الكفر فيقتضي الحبوط وصاحبه لا يدري كراهية ان يحبط او خشية ان يحبط ، فهام عن ذلك لانه يفضي الى الكفر . المقتضى للحبوط .

ولا ريب ان المعصية قد تكون سبباً للكفر ، كما قال بعض السلف المعاصي يزيد الكفر ؛ فينهاي عنها خشية ان تفضي الى الكفر المحبط ؛ كما قال تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة — وهي الكفر — او يصيبهم عذاب اليم) وابليس خالف امر الله فصار كافراً ؛ وغيره اصابه عذاب اليم .

وقد احتجت الحوارج والمعتزلة بقوله تعالى : (إنما يتقبل الله من المتقين)

قالتوا : فصاحب الكبيرة ليس من المتقين ، فلا يتقبل الله منه عملاً ، فلا يكون له حسنة ، وأعظم الحسنات الايمان ، فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود في النار ، وقد اجابتهم المرجئة : بأن المراد بالمتقين ، من يتقى الكفر ، فقالوا لهم : اسم المتقين في القرآن يتناول المستحقين للثواب ، كقوله تعالى : (إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر) وأيضاً فابنا آدم حين قربا قربانا لم يكن المقرب المرود قربانه حينئذ كافرأ ، وإنما كفر بعد ذلك ؛ إذ لو كان كافرأ لم يتقرب ، وأيضاً فما زال السلف يخافون من هذه الآية ، ولو اريد بها من يتقى الكفر لم يخافوا ، وأيضاً فاطلاق لفظ المتقين ، والمراد به من ليس بكافر ، لا اصل له في خطاب الشارع فلا يجوز حمله عليه .

و « الجواب الصحيح » : ان المراد من اتقى الله في ذلك العمل كما قال الفضيل ابن عياض في قوله تعالى : (ليلوكم ايكم احسن عملاً) قال : اخلصه ، واصوبه ، قيل : يا ابا علي ! ما اخلصه ، واصوبه ، قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ان يكون لله ، والصواب ان يكون على السنة ، فمن عمل لغير الله — كأهل الرياء — لم يقبل منه ذلك . كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل : « انا اغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً اشرك معي فيه غيبي فأنا بريء منه ، وهو كله للذي اشركه » . وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غلول » وقال : « لا يقبل الله صلاة

حائض الإبخار» وقال في الحديث الصحيح: «من عمل عملاً ليس عليه امرنا فهو رد» أي فهو مردود غير مقبول. فمن اتقى الكفر وعمل عملاً ليس عليه امر النبي صلى الله عليه وسلم، لم يقبل منه، وإن صلى بغير وضوء لم يقبل منه، لأنه ليس متقياً في ذلك العمل، وإن كان متقياً للشرك.

وقد قال تعالى: (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة انهم الى ربهم راجعون) وفي حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انها قالت: «يارسول الله! اهو الرجل يزني، ويسرق، ويشرب الخمر، ويخاف ان يعذب؟ قال: لا، يا ابنة الصديق! ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق، ويخاف ان لا يقبل منه».

وخوف من خاف من السلف ان لا يتقبل منه، لخوفه ان لا يكون آتى بالعمل على وجه المأمور؛ وهذا اظهر الوجوه في استثناء من استثنى منهم في الايمان، وفي اعمال الايمان كقول احدكم: انا مؤمن — إن شاء الله — وصليت — إن شاء الله — لخوف ان لا يكون آتى بالواجب على الوجه المأمور به، لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق؛ لا يجوز ان يراد بالآية: ان الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقى الذنوب كلها، لأن الكافر والفاسق حين يريد ان يتوب ليس متقياً، فان كان قبول العمل مشروطاً بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له، امتنع قبول التوبة. بخلاف ما إذا اشترط التقوى في العمل، فان التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة، وهو حين شروعه في التوبة منتقل من الشر الى الخير.

لم يخلص من الذنب ، بل هو متق في حال تخلصه منه .

و « ايضاً » فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ، ثم تاب لوجب ان تسقط سيئاته بالتوبة ، وتقبل منه تلك الحسنات ، وهو حين أتى بها كان فاسقاً .

و « ايضاً » فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل ، وغصب ، وقذف — وكذلك الذمي إذا أسلم — قبل اسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه ؛ فلو كان العمل لا يقبل الا من لا كبيرة عليه لم يصح اسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم ؛ بل يكون مع اسلامه مخلداً ، وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات ، فيقبل اسلامهم ، ويتوبون الى الله سبحانه من التبعات . كما ثبت في الصحيح « ان المغيرة بن شعبة لما أسلم وكان قد رافق قوماً في الجاهلية فغدر بهم ، واخذ اموالهم وجاء فأسلم ، فاما جاء عمرو بن مسعود عام الحديبية والمغيرة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف ، دفعه المغيرة بالسيف فقال : من هذا ! فقالوا : ابن اختك المغيرة ، فقال يا غدر ! أأنت اسعى في غدرتك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اما الاسلام فأقبله ، واما المال فلست منه في شيء » وقد قال تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شيء . وما من حسابك عليهم من شيء . فتطردم فتكون من الظالمين) وقالوا

لنوح : (انؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون : ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون) . ولا نعرف احداً من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له لا يصح اسلامك حتى لا يكون عليك ذنب ، وكذلك سائر اعمال البر من الصلاة والزكاة .

(السبب الرابع) الدافع للعقاب : دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم على جنازته ، فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « مامن ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة ، كلهم يشفعون إلا شفعا فيه » . وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئاً ، إلا شفعم الله فيه » رواها مسلم . وهذا دعاء له بعد الموت . فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن التقي الذي اجتب الكبار ، وكفرت عنه الصغار وحده ، فان ذلك مغفور له عند المتنازعين . فعلم ان هذا الدعاء من اسباب المغفرة للميت .

(السبب الخامس) : ما يعمل للميت من أعمال البر ؟ كالصدقة ونحوها ، فان هذا ينتفع به بنصوص السنة الصحيحة الصريحة ، وانفاق الأئمة وكذلك العتق ، والحج . بل قد ثبت عنه في الصحيحين انه قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » و ثبت مثل ذلك في الصحيح من صوم النذر من

وجوه اخرى ، ولا يجوز ان يعارض هذا بقوله : (وان ليس للانسان
إلا ماسعى) لوجهين .

(احدها) انه قد ثبت بالنصوص المتواترة وإجماع سلف الامة ان
المؤمن ينتفع بما ليس من سعيه ، كدعاء الملائكة ، واستغفارهم له ، كما في
قوله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم
ويؤمنون به . ويستغفرون للذين آمنوا) الآية . ودعاء النبيين والمؤمنين
واستغفارهم كما في قوله تعالى : (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله
سبحانه : (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق
قربات عند الله وصلوات الرسول) وقوله عز وجل : (واستغفر لذنوبك
وللمؤمنين والمؤمنات) ، وكدعاء المصلين للميت ، ولمن زاروا قبره
- من المؤمنين - .

(الثاني) : ان الآية ليست في ظاهرها إلا انه ليس له إلا سعيه ، وهذا
حق فانه لا يملك ولا يستحق إلا سعي نفسه ، واما سعي غيره فلا يملكه ولا
يستحقه ؛ لكن هذا لا يمنع ان ينفعه الله ويرحمه به ؛ كما انه دائماً يرحم عباده
بأسباب خارجة عن مقدورهم . وهو سبحانه بحكمته ورحمته يرحم العباد
بأسباب يفعلها العباد ليثيب أولئك على تلك الاسباب ، فيرحم الجميع كما في
الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : (ما من رجل يدعو لأخيه
بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به : آمين ولك

بمثل « وكما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح انه قال : « من صلى على جنازة فله قيراط ؛ ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان ؛ اصغرهما مثل احد » فهو قد يرحم المصلي على الميت بدعائه له ويرحم الميت ايضاً بدعاء هذا الحي له .

(السبب السادس) : شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره في اهل الذنوب يوم القيامة كما قد تواترت عنه احاديث الشفاعة مثل قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « شفاعتى لأهل الكبار من امتى » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « خيرت بين ان يدخل نصف امتى الجنة ؛ وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها اعم واكثر ؛ اترونها للمتقين ؟ لا . ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين » .

(السبب السابع) : المصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ؛ ولا نصب ؛ ولا م ؛ ولا حزن ؛ ولا غم ؛ ولا اذى - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياها » ،

(السبب الثامن) : ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعنة فان هذا مما يكفر به الخطايا .

(السبب التاسع) . احوال يوم القيامة وكرهها وشداؤها .

(السبب العاشر) : رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد .
فاذا ثبت ان الذم والعقاب قد يدفع عن اهل الذنوب بهذه الاسباب العشرة
كان دعواهم ان عقوبات اهل الكبار لا تندفع إلا بالتوبة مخالف لذلك .

فصل

« فهذان القولان » : قول الخوارج الذين يكفرون بمطلق الذنوب ،
ويخلدون في النار ؛ وقول من يخدم في النار ويجزم بأن الله لا يفر لهم إلا
بالتوبة ، ويقول ليس معهم من الايمان شيء ، لم يذهب اليها احد
من أئمة الدين أهل الفقه ، والحديث بل هما من الأقوال المشهورة عن
اهل البدع .

وكذلك قول من وقف في اهل الكبار من غلاة المرجئة وقال لا اعلم
ان احداً منهم يدخل النار ، هو ايضاً من الأقوال المبتدعة ؛ بل السلف
والأئمة متقون على ما تواترت به النصوص من انه لا بد ان يدخل النار قوم من
اهل القبلة ، ثم يخرجون منها . واما من جزم بأنه لا يدخل النار احد من

اهل القبلة فهذا لانعرفه قولاً لأحد . وبعده قول من يقول : ما تم عذاب اصلا وإنما هو تخويف لاحقيقة له، وهذا من اقوال الملاحدة وا لكفار .

وربما احتج بعضهم بقوله : (ذلك يخوف الله به عباده) فيقال لهذا : التخويف إنما يكون تخويفاً إذا كان هناك مخوف يمكن وقوعه بالخوف ، فان لم يكن هناك ما يمكن وقوعه امتنع التخويف ، لكن يكون حاصله إيها م الخائفين بما لا حقيقة له ، كما توهم الصبي الصغير . ومعلوم ان مثل هذا لا يحصل به تخويف للعقلاء المميزين . لأنهم اذا علموا انه ليس هناك شيء مخوف زال الخوف ، وهذا شبيه بما تقول « الملاحدة » المتفلسفة والقرامطة ونحوهم : من ان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم : خاطبوا الناس باظهار امور من الوعد والوعيد لاحقيقة لها في الباطن ، وإنما هي امثال مضرورة لتفهم حال النفس بعد المفارقة ، وما اظهروه لهم من الوعد والوعيد وإن كان لاحقيقة له فانما يعلق لمصلحتهم في الدنيا ، إذ كان لا يمكن تقويمهم إلا بهذه الطريقة .

و « هذا القول » مع انه معلوم الفساد بالضرورة من دين الرسل ؛ فلو كان الامر كذلك لكان خواص الرسل الاذكياء يعلمون ذلك ، واذا علموه زالت محافظتهم على الامر والنهي ، كما يصيب خواص ملاحدة المتفلسفة والقرامطة : من الاسماعيلية والنصيرية ونحوهم ، فان البارع منهم في العلم

والمعرفة يزول عنه عندم الأمر والهي ، وتباح له المحظورات ، وتسقط عنه
 الواجبات ، فتظهر اضعافهم ، وتنكشف اسرارهم ، ويعرف عموم الناس حقيقة
 دينهم الباطن ، حتى سموهم باطنية ؛ لباطنهم خلاف ما يظهرون . فلو كان
 – والعياذ بالله – دين الرسل كذلك لكان خواصه قد عرفوه ، واظهروا باطنه .
 وكان عند اهل المعرفة والتحقيق من جنس دين الباطنية ، ومن المعلوم
 بالاضطرار ان الصحابة الذين كانوا اعلم الناس بباطن الرسول وظاهره ،
 واخبر الناس بمقاصده ومراداته ، كانوا اعظم الأمة لزوماً لطاعة امره – سرّاً
 وعلانية – ومحافظة على ذلك إلى الموت ، وكل من كان منهم اليه وبه اخص
 وبباطنه أعلم – كابي بكر وعمر – كانوا اعظمهم لزوماً للطاعة سرّاً وعلانية ، ومحافظة
 على أداء الواجب ، واجتناب المحرم ، باطناً وظاهراً ، وقد أشبه هؤلاء في بعض
 الأمور ملاحدة المتصوفة : الذين يجعلون فعل المأمور وترك المحذور واجباً
 على السالك حتى يصير عارفاً محققاً في زعمهم ؛ وحينئذ يسقط عنه التكليف ،
 ويتأولون على ذلك قوله تعالى : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) زاعمين
 ان اليقين هو ما يدعونه من المعرفة ، واليقين هنا الموت وما بعده . كما قال
 تعالى عن اهل النار : (وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم
 الدين حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .

قال الحسن البصري ان الله لم يجعل لعباده المؤمنين اجلا دون الموت ،

وتلا هذه الآية . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لما توفي عثمان بن مظعون :
« أما عثمان بن مظعون فقد أتاه اليقين من ربه » وهؤلاء قديشهدون القدر
أولاً ، وهي الحقيقة الكونية ، ويظنون ان غاية العارف ان يشهد القدر ،
وبغنى عن هذا الشهود ، وذلك المشهد لا تميز فيه بين المأمور والمحذور ،
ومحوبات الله ومكروهاته وأوليائه وأعدائه .

وقد يقول احدهم : العارف شهد أولاً الطاعة والمعصية ، ثم شهد طاعة
بلا معصية — يريد بذلك طاعة القدر — كقول بعض شيوخهم : أنا كافر
رب بعضى ، وقيل له عن بعض الظالمين : هذا ماله حرام ، فقال :
إن كان عصى الامر ، فقد اطاع الارادة . ثم ينتقلون « الى المشهد
الثالث » لاطاعة ولا معصية ، وهو مشهد اهل الوحدة القائلين بوحدة
الوجود ، وهذا غاية الحاد المتدعة جهمية الصوفية ، كما ان القرمطة آخر الحاد
الشيعة ، وكلا الاحادين يتقاربان . وفيها من الكفر ما ليس في دين اليهود
والنصارى ومشركي العرب ، والله اعلم .

فصل

ثم بعد ذلك تنازع الناس في اسم المؤمن والايان نزاعاً كثيراً منه لفظي،

و كثير منه مغنوي ، فان أئمة الفقهاء لم ينازعوا في شيء مما ذكرناه من الأحكام ، وان كان بعضهم أعلم بالدين وأقوم به من بعض ، ولكن تنازعوا في الأسماء كتنازعهم في الايمان ، هل يزيد وينقص ؛ وهل يستثنى فيه ام لا ؛ وهل الأعمال من الايمان ام لا ؛ وهل الفاسق الملى مؤمن كامل الايمان ام لا ؛ والمأثور عن الصحابة ، وأئمة التابعين ، وجمهور السلف ، وهو مذهب أهل الحديث ، وهو المنسوب الى أهل السنة ، ان الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وانه يجوز الاستثناء فيه ، كما قال عمير بن حبيب الخطمي وغيره من الصحابة : الايمان يزيد وينقص ، فقليل له : وما زيادته ونقصانه ؛ فقال : إذا ذكرنا الله ، وحمدناه ، وسبحناه ، فتلك زيادته . وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا ، فذلك نقصانه . فهذه الألفاظ المأثورة عن جمهورهم .

وربما قال بعضهم وكثير من المتأخرين : قول وعمل ونية ، وربما قال آخر : قول وعمل ونية واتباع السنة ؛ وربما قال : قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، أي بالجوارح . وروى بعضهم هذا مر فوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم في النسخة المنسوبة الى ابي الصلت الهروي عن علي بن ابي موسى الرضا ، وذلك من الموضوعات على النبي صلى الله عليه وسلم ، باتفاق أهل العلم بحديثه . وليس بين هذه العبارات اختلاف مغنوي ، ولكن القول المطلق ، والعمل المطلق ؛ في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، فقول اللسان

بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين ، وهذا لا يسمى قولاً الا بالتقييد . كقوله تعالى : (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب ، هي من اعمال المنافقين ؛ التي لا يتقبلها الله . فقول السلف : يتضمن القول والعمل الباطن والظاهر ؛ لكن لما كان بعض الناس قد لا يفهم دخول النية في ذلك ؛ قال بعضهم : ونية . ثم بين آخرون : أن مطلق القول والعمل والنية لا يكون مقبولاً الا بموافقة السنة . وهذا حق ايضاً فان اولئك قالوا قول وعمل ليينوا اشتغاله على الجنس ، ولم يكن مقصودهم ذكر صفات الأقوال والاعمال ؛ وكذلك قول من قال : اعتقاد بالقلب ؛ وقول باللسان ، وعمل بالجوارح . جعل القول والعمل اسماً لما يظهر ؛ فاحتاج ان يضم الى ذلك اعتقاد القلب ، ولا بد ان يدخل في قوله : اعتقاد القلب اعمال القلب المقارنة لتصديقه ، مثل حب الله ؛ وخشية الله ؛ والتوكل على الله ، ونحو ذلك . فان دخول أعمال القلب في الايمان اولى ، من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها .

وكان بعض الفقهاء من اتباع التابعين لم يوافقوا في اطلاق النقصان عليه لانهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن ، ولم يجدوا ذكر النقص ، وهذا احدى الروايتين عن مالك ، والرواية الاخرى عنه ؛ وهو المشهور عند أصحابه كقول سائرهم : انه يزيد وينقص ؛ وبعضهم عدل عن لفظ الزيادة والنقصان الى لفظ التفاضل ، فقال أقول : الايمان يتفاضل ويتفاوت ، وپروى هذا عن ابن المبارك

وكان مقصوده الاعراض عن لفظ وقع فيه النزاع الى معنى لا ريب في ثبوته .
وأنكر حماد بن ابى سليمان ومن اتبعه تفاضل الايمان ودخول الاعمال فيه
والاستثناء فيه ؛ وهؤلاء من مرجئة الفقهاء واما ابراهيم النخعي — امام اهل
الكوفة شيخ حماد بن ابى سليمان — وامثاله ؛ ومن قبله من اصحاب ابن مسعود :
كعلقمة ، والاسود ؛ فكانوا من اشد الناس مخالفة للمرجئة ، وكانوا يستنون
في الايمان ؛ لكن حماد بن ابى سليمان خالف سلفه ؛ واتبعه من اتبعه ودخل في
هذا طوائف من اهل الكوفة ، ومن بعدهم .

ثم ان « السلف والائمة » اشتد انكارهم على هؤلاء وتبديعهم وتغليظ
القول فيهم ؛ ولم اعلم احداً منهم نطق بتكفيرهم ؛ بل هم متفقون على انهم
لا يكفرون في ذلك ؛ وقد نص احمد وغيره من الائمة : على عدم تكفير هؤلاء
المرجئة . ومن نقل عن احمد او غيره من الائمة تكفيراً لهؤلاء ؛ او جعل هؤلاء
من اهل البدع المتنازع في تكفيرهم ، فقد غلط غلطاً عظيماً ؛ والمحفوظ عن احمد
وامثاله من الائمة ؛ إنما هو تكفير الجهمية المشبهة ، وامثال هؤلاء . ولم يكفر احمد
« الحوارج » ولا « القدرية » إذا اقرؤا بالعلم ؛ وانكروا خلق الافعال ، وعموم
المشيئة ؛ لكن حكى عنه في تكفيرهم روايتان .

وأما « المرجئة » فلا يختلف قوله في عدم تكفيرهم ؛ مع ان احمد لم يكفر
اعيان الجهمية ، ولا كل من قال إنه جهمي كفره ، ولا كل من وافق الجهمية في

بعض بدعهم ؛ بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا الى قولهم ، وامتنحوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة ، لم يكفرهم احمد وامثاله ؛ بل كان يعتقد إيمانهم ، وإمامتهم ؛ ويدعو لهم ؛ ويرى الاتمام بهم في الصلوات خلفهم ، والحج ، والغزو معهم ، والمنع من الخروج عليهم ما يراه لامثالهم من الأئمة . وينكر ما احدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم ، وان لم يعلموا هم انه كفر ؛ وكان ينكره ويجاهد على رده بحسب الامكان ؛ فيجمع بين طاعة الله ورسوله في إظهار السنة والدين ، وانكار بدع الجهمية الملحدين ؛ وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والامة ؛ وإن كانوا جهالا مبتدعين ؛ وظلمة فاسقين .

وهؤلاء المعروفون مثل حماد بن ابى سليمان وابى حنيفة وغيرها من فقهاء الكوفة كانوا يجعلون قول اللسان ؛ واعتقاد القلب من الايمان ؛ وهو قول ابى محمد بن كلاب وامثاله ، لم يختلف قولهم في ذلك ، ولا نقل عنهم انهم قالوا الايمان مجرد تصديق القلب .

لكن هذا القول حكوه عن « الجهم بن صفوان » ذكروا انه قال : الايمان مجرد معرفة القلب ، وان لم يقر بلسانه واشتد نكيره لذلك حتى اطلق وكيع بن الجراح ، واحمد بن حنبل وغيرها كفر من قال ذلك ؛ فانه من اقوال الجهمية ؛ وقالوا : ان فرعون وابليس وابطال اليهود وامثالهم ؛ عرفوا بقلوبهم وجحدوا بالستهم ؛ فقد كانوا مؤمنين . وذكروا قول الله : (وجحدوا

بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) . وقوله : (الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم) وقوله : (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقالوا : ابليس لم يكذب خبراً ، ولم يجحد ، فان الله أمره بلارسول ، ولكن عصى واستكبر ؛ وكان كافراً من غير تكذيب في الباطن ، وتحقيق هذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وحدث بعد هؤلاء قول « الكرامية » : ان الايمان قول اللسان ، دون تصديق القلب ، مع قولهم ان مثل هذا يعذب في الآخرة ويخلد في النار . وقال ابو عبد الله الصالحى : ان الايمان مجرد تصديق القلب ومعرفة ، لكن له لوازم فاذا ذهبت دل ذلك على عدم تصديق القلب ، وان كل قول او عمل ظاهر دل الشرع على انه كفر كان ذلك لأنه دليل على عدم تصديق القلب ومعرفة ، وليس الكفر إلا تلك الحصة الواحدة ، وليس الايمان إلا مجرد التصديق الذي في القلب والمعرفة ، وهذا أشهر قولي أبي الحسن الأشعري ، وعليه أصحابه كالقاضي أبي بكر وأبي المعالي وأمثالهما ، ولهذا عدم أهل المقالات من « المرجئة » ، والقول الآخر عنه كقول السلف وأهل الحديث : إن الايمان قول وعمل ، وهو اختيار طائفة من أصحابه ، ومع هذا فهو وجمهور أصحابه على قول أهل الحديث في الاستثناء في الايمان .

والايمان المطلق عنده ما يحصل به الموافاة ، والاستثناء عنده يعود الى ذلك ؛

لا إلى الكمال والنقصان والحال . وقد منع أن يطلق القول بأن الايمان مخلوق او غير مخلوق ، وصنف في ذلك مصنفاً معروفاً عند أهل السنة ، في « كتاب المقالات » . وقال انه يقول بقولهم .

وقد ذهب طائفة من متأخري اصحاب أبي حنيفة — كأبي منصور الماتريدي وأمثاله — إلى نظير هذا القول في الاصل ، وقالوا إن الايمان هو ما في القلب ، وأن القول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا ؛ لكن هؤلاء يقولون بالاستثناء ونحو ذلك كما عرف من أصلهم وأصل نزاع هذه الفرق في الايمان من الحوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم ، انهم جعلوا الايمان شيئاً واحداً إذا زال بعضه زال جميعه ، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه ، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من الايمان » .

ثم قالت « الحوارج ، والمعتزلة » الطاعات كلها من الايمان فاذا ذهب بعضها ذهب بعض الايمان ، فذهب سائرهم فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الايمان . وقالت « المرجئة ، والجهمية » : ليس الايمان الا شيئاً واحداً لا يتبعض إيماناً تصديق القلب كقول الجهمية او تصديق القلب واللسان كقول المرجئة ، قالوا : لأننا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءاً آمنه ، فاذا ذهب ذهب بعضه ، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الايمان ، وهو قول المعتزلة والحوارج ، لكن قد يكون له لوازم ودلائل

فيستدل بعدمه على عدمه .

وكان كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضين ، حيث قالوا : الإيمان قول وعمل ، وقالوا مع ذلك لا يزول بزوال بعض الأعمال حتى ان ابن الخطيب ، وأمثاله جعلوا الشافعي متناقضاً في ذلك ، فان الشافعي كان من أئمة السنة ، وله في الرد على المرجئة كلام مشهور ، وقد ذكر في كتاب الطهارة من « الأم » إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم على قول أهل السنة . فلما صنف ابن الخطيب تصنيفاً فيه ، وهو يقول في الإيمان بقول جهم والصالحى استشكل قول الشافعي ورآه متناقضاً .

وجماع شبهتهم في ذلك ان الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها ، كالعشرة فانه إذا زال بعضها لم تبقى عشرة ؛ وكذلك الاجسام المركبة كالسكنجيين اذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه سكنجيناً . قالوا فاذا كان الإيمان مركباً من أقوال وأعمال ، ظاهرة وباطنة ، لزم زواله بزوال بعضها . وهذا قول الخوارج والمعتزلة ، قالوا : ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمناً بما فيه من الإيمان ، كافراً بما فيه من الكفر ، فيقوم به كفر وإيمان ، وادعوا أن هذا خلاف الاجماع ، ولهذا الشبهة — والله أعلم — امتنع من امتنع من أئمة الفقهاء أن يقول بنقصه ؛ كأنه ظن : اذا قال ذلك يلزم ذهابه كله ؛ بخلاف ما اذا زاد .

ثم ان « هذه الشبهة » هي شبهة من منع ان يكون في الرجل الواحد طاعة ومعصية لأن الطاعة جزء من الايمان والمعصية جزء من الكفر ، فلا يجتمع فيه كفر وإيمان ، وقالوا ما ثم الا مؤمن محض او كافر محض ، ثم نقلوا حكم الواحد من الأشخاص الى الواحد من الأعمال ، فقالوا : لا يكون العبد الواحد محبوباً من وجه مكروها من وجه ، وغلا فيه ابو هاشم فنقله الى الواحد بالنوع فقال : لا يجوز ان يكون جنس السجود او الركوع او غير ذلك من الأعمال بعض أنواعه طاعة ، وبعضها معصية ؛ لأن الحقيقة الواحدة لا توصف بوصفين مختلفين ، بل الطاعة والمعصية تتعلق بأعمال القلوب ، وهو قصد الساجد دون عمله الظاهر . واشتد نكير الناس عليه في هذا القول وذكروا من مخالفته للاجماع وجحده للضروريات شرعا وعقلا ، ما يتبين به فساده .

وهؤلاء منتهى نظرهم ان يروا حقيقة مطلقة مجردة تقوم في أنفسهم ، فيقولون : الايمان من حيث هو هو ، والسجود من حيث هو هو ، لا يجوز أن يتفاضل ، ولا يجوز أن يختلف وأمثال ذلك ؛ ولو اهتمدوا لعلموا أن الأمور الموجودة في الخارج عن الذهن متميزة بخصائصها ، وان الحقيقة المجردة المطلقة لا تكون إلا في الذهن ، وأن الناس إذا تكلموا في التفاضل والاختلاف ، فانما تكلموا في تفاضل الأمور الموجودة واختلافها ؛ لا في تفاضل أمر مطلق مجرد في الذهن لا وجود له في الخارج ، ومعلوم ان السواد مختلف فبعضه أشد من بعض ، وكذلك البياض وغيره من الألوان . وأما اذا قدرنا السواد المجرد المطلق

الذي يتصوره الذهن فهذا لا يقبل الاختلاف والتفاضل ، لكن هذا هو في
الاذهان لا في الاعيان .

ومثل هذا الغلط وقع فيه كثير من الخائضين في اصول الفقه ، حيث
أنكروا تفاضل العقل او الايجاب او التحريم ، وانكار التفاضل في ذلك قول
القاضي أبي بكر وابن عقيل وأمثالهما ، لكن الجمهور على خلاف ذلك ، وهو
قول ابي الحسن التيمي ، وابي محمد البربهاري ، والقاضي ابي يعلى ، وابي
الخطاب وغيرهم . وكذلك وقع نظير هذا لاهل المنطق والفلسفة ولن تابعم
من اهل الكلام ، والانحداد في توحيد واجب الوجود ووحدته ، حتى أخرجهم
الامر الى ما يستلزم التعطيل المحض كما بيناه في غير هذا الموضوع .

واهل المنطق اليونان مضطربون في هذا المقام ، يقول احدم القول ، ويقول
نقيضه ، كما هو مذكور في موضعه ، ونحن نذكر ما يتعلق بهذا الموضوع فنقول
— ولا حول ولا قوة الا بالله — الكلام في « طرفين » .

(احدهما) : ان شعب الايمان هل هي متلازمة في الاتفاء ؟؟

و (الثاني) : هل هي متلازمة في الثبوت ؟؟

« اما » الاول

فان الحقيقة الجامعة لامور — سواء كانت في الاعيان او الاعراض — اذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول ، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها ، وسواء سميت مركبة او مؤلفة او غير ذلك ، لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها . وما مثلوا به من العشرة والسكنجيين مطابق لذلك ، فان الواحد من العشرة اذا زال لم يلزم زوال التسعة ، بل قد تبقى التسعة ، فاذا زال احد جزئي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر ؛ لكن اكثر ما يقولون زالت الصورة المجتمعة ، وزالت الهيئة الاجتماعية ، وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب ، كما يزول اسم العشرة والسكنجيين .

فيقال : أما كون ذلك المجتمع المركب مابقي على تركيبه فهذا لا ينازع فيه عاقل ، ولا يدعى عاقل ان الايمان ، او الصلاة ، او الحج ، او غير ذلك من العبادات المتناولة لأموال ، إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه ، ولا يقول احد ان الشجرة او الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت ، ولا ان الانسان او غيره من الحيوان إذا زال بعض

أعضائه بقي مجموعا .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » فالجمعة الحلق بعد الجذع لا تبقى مجتمعة ، ولكن لا يلزم زوال بقية الاجزاء .

وأما زوال الاسم فيقال لهم هذا : «أولا» بحث لفظي ، إذا قدر ان الايمان له ابعاض وشعب : كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول : لا إله إلا الله ، وادناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » كما أن الصلاة والحج له اجزاء وشعب ، ولا يلزم من زوال شعبة من شعبه زوال سائر الأجزاء والشعب ؛ كما لا يلزم من زوال بعض اجزاء الحج والصلاة زوال سائر الاجزاء . فدعواهم انه اذا زال بعض المركب زال البعض الآخر ليس بصواب ، ونحن نسلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله ، وان الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كانت .

يبقى النزاع هل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الاجزاء ، فيقال لهم : المركبات في ذلك على وجهين ، منها : ما يكون التركيب شرطاً في اطلاق الاسم ومنها : ما لا يكون كذلك ، فالاول كاسم العشرة ، وكذلك السكنجيين ، ومنها

ما يبقى الاسم بعد زوال بعض الأجزاء؛ وجميع المركبات المتشابهة الأجزاء من هذا الباب، وكذلك كثير من المختلفة الأجزاء، فإن المكيلات والموزونات تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة، وكذلك التراب والماء ونحو ذلك .

وكذلك لفظ العبادة، والطاعة، والخير، والحسنة، والاحسان، والصدقة، والعلم، ونحو ذلك، مما يدخل فيه أمور كثيرة، يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها، وعند زوال بعض الأجزاء وبقاء بعض، وكذلك لفظ « القرآن » فيقال على جميعه وعلى بعضه، ولو نزل قرآن أكثر من هذا لسمي قرآنا، وقد تسمى الكتب القديمة قرآنا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « خفف على داود القرآن » وكذلك لفظ القول والكلام والمنطق ونحو ذلك، يقع على القليل من ذلك وعلى الكثير .

وكذلك لفظ الذكر والدعاء يقال للقليل والكثير، وكذلك لفظ الجبل يقال على الجبل وان ذهب منه أجزاء كثيرة .

ولفظ البحر والنهر يقال عليه وان نقصت أجزاءه . وكذلك المدينة والدار والقرية والمسجد ونحو ذلك يقال على الجملة المجتمعة، ثم ينقص كثير من أجزائها والاسم باق، وكذلك أسماء الحيوان والنبات كلفظ الشجرة يقال على جملتها، فيدخل فيها الأغصان وغيرها ثم يقطع منها ما يقطع والاسم باق وكذلك لفظ الانسان والفرس والحمار يقال على الحيوان المجتمع الخلق، ثم

يذهب كثير من أعضائه والاسم باق ، وكذلك أسماء بعض الأعلام : كزيد وعمرو
يتناول الجملة المجتمعة ، ثم يزول بعض أجزائها والاسم باق . وإذا كانت
المركبات على نوعين ، بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولهم ، إنه إذا زال
جزؤه لزم أن يزول الاسم ، إذا أمكن أن يبقى الاسم مع بقاء الجزء الباقي .

ومعلوم أن اسم « الإيمان » من هذا الباب ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة
الأذى عن الطريق والحياة شعبة من الإيمان » ثم من المعلوم أنه إذا زالت
الإمطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان .

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيحين أنه قال : « يخرج من النار
من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان » فأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه ، وأن ذلك
من الإيمان ، فلم أن بعض الإيمان يزول ويبقى بعضه ، وهذا ينقض ما أخذهم
الفاسدة ، ويبين أن اسم الإيمان مثل اسم القرآن ، والصلاة ، والحج ، ونحو
ذلك ، أما الحج ونحوه ففيه أجزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا
يبطل كرمي الجمار ، والمبيت بتمى ، ونحو ذلك ، وفيه أجزاء ينقص بزوالها
من كماله المستحب ، كرفع الصوت بالاهلال ، والرمل والاضطباع في
الطواف الأول .

وكذلك « الصلاة » فيها أجزاء تنقص بزوالها عن كمال الاستحباب ، وفيها

أجزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمال الواجب مع الصحة ، في مذهب ابي حنيفة وأحمد ومالك ، وفيها ما له أجزاء إذا زالت جبر نقصها بسجود السهو ، وأمور ليست كذلك . فقد رأيت اجزاء الشيء تختلف أحكامها شرعاً وطبعاً ، فاذا قال المعترض: هذا الجزء داخل في الحقيقة ، وهذا خارج من الحقيقة ، قيل له : ماذا تريد بالحقيقة ، فان قال : اريد بذلك ما إذا زال صار صاحبه كافراً ، قيل له : ليس للايمان حقيقة واحدة ، مثل حقيقة مسمى «مسلم» في حق جميع المكلفين في جميع الأزمان بهذا الاعتبار ، مثل حقيقة السواد والياض ؛ بل الايمان والكفر يختلف باختلاف المكلف وبلوغ التكليف له ، وبزوال الخطاب الذي به التكليف ونحو ذلك .

وكذلك الايمان والواجب على غيره مطلق ؛ لامثل الايمان الواجب عليه في كل وقت ، فان الله لما بعث محمداً رسولاً الى الخلق ، كان الواجب على الخلق تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما امر ، ولم يأمرهم حينئذ بالصلوات الخمس ، ولا صيام شهر رمضان ، ولا حج البيت ، ولا حرم عليهم الخمر والربا ، ونحو ذلك ، ولا كان اكثر القرآن قد نزل ، فمن صدقه حينئذ فيما نزل من القرآن وأقر بما امر به من الشهادتين وتوابع ذلك ، كان ذلك الشخص حينئذ مؤمناً تام الايمان الذي وجب عليه ، وإن كان مثل ذلك الايمان لو أتى به بعد الهجرة لم يقبل منه ، ولو اقتصر عليه كان كافراً .

قال الامام احمد : كان بسوء الايمان ناقصاً ، فجعل يزيد حتى كمل ، ولهذا

قال تعالى عام حجة الوداع : (اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي) .

و « أيضاً » فبعد نزول القرآن وإكمال الدين اذا بلغ الرجل بعض الدين دون بعض ، كان عليه ان يصدق بما جاء به الرسول جملة ، وما بلغه عنه مفصلاً ، واما ما لم يبلغه ولم يمكنه معرفته ، فذلك إنما عليه ان يعرفه مفصلاً اذا بلغه ، و « ايضاً » فالرجل اذا آمن بالرسول ايماناً جازماً ، ومات قبل دخول وقت الصلاة او وجوب شيء من الأعمال ، مات كامل الايمان الذي وجب عليه ، فاذا دخل وقت الصلاة فعليه ان يصلي ، وصار يجب عليه ما لم يجب عليه قبل ذلك . وكذلك القادر على الحج والجهاد يجب عليه ما لم يجب على غيره من التصديق المفصل ، والعمل بذلك .

فصار ما يجب من الايمان يختلف باختلاف حال نزول الوحي من السماء ، وبحال المكلف في البلاغ وعدمه ، وهذا مما يتنوع به نفس التصديق ، ويختلف حاله باختلاف القدرة والعجز وغير ذلك من اسباب الوجوب ، وهذه يختلف بها العمل ايضاً . ومعلوم ان الواجب على كل من هؤلاء لا يماثل الواجب على الآخر . فاذا كان نفس ما وجب من الايمان في الشريعة الواحدة يختلف ويتفاضل — وان كان بين جميع هذه الأنواع قدر مشترك موجود في الجميع : كالاقرار بالخالق ، وإخلاص الدين له والاقرار برسله واليوم الآخر على وجه الاجمال — فمن المعلوم ان بعض الناس إذا أتى ببعض ما يجب عليه دون بعض كان قد تبعض ما أتى فيه من الايمان . كتبعض سائر الواجبات .

يبقى ان يقال : فالبعض الآخر قد يكون شرطاً في ذلك البعض ، وقد لا يكون شرطاً فيه ، فالشرط كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه ، او آمن ببعض الرسل وكفر ببعضهم ، كما قال تعالى : (ان الذين يكفرون بالله ورسوله ، ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسوله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً . اولئك هم الكافرون حقاً ، واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً) . وقد يكون البعض المتروك ليس شرطاً في وجود الآخر ولا قبوله .

وحينئذ فقد يجتمع في الانسان ايمان ونفاق . وبعض شعب الايمان وشعبة من شعب الكفر ، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث لذب ، واذا ائتمن خان ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة نفاق » وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لأبي ذر : « إنك امرؤ فيك جاهلية » وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال : « اربع في امتي من امر الجاهلية ، لن يدعوهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالنجوم » .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « سباب المسلم فسوق »

وقتاله كفر» وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت» وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم» وهذا من القرآن الذي نسخت تلاوته: (لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم). وفي الصحيحين عن أبي ذر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه — وهو يعلمه — إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوا مقعده من النار، ومن رمي رجلاً بالكفر أو قال ياعدو الله وليس كذلك، الأرجع عليه».

وفي لفظ البخاري «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه، إلا كفر بالله، ومن ادعى قوماً ليس منهم، فليتبوا مقعده من النار» وفي الصحيحين من حديث جرير وابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ورواه البخاري من حديث ابن عباس: وفي البخاري عن أبي هريرة «عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر! فقد باه بها أحدهما». وفي الصحيحين عن زيد بن خالد قال: «صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، أقبل على الناس فقال: أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من

عبادي مؤمن بي وكافر ، فاما من قال مطربا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، واما من قال : مطرنا بنؤكذا وكذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

وفي صحيح مسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الم تروا إلى ما قال ربكم ؟! قال : ما انعمت على عبادي من نعمة ؛ إلا أصبح فريق منهم بها كافرين ، يقولون : بالكواكب ، وبالكواكب » ونظائر هذا موجودة في الاحاديث . وقال ابن عباس وغير واحد من السلف ، في قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون .) (فأولئك هم الفاسقون) ؛ (الظالمون) ، كفر دون كفر ؛ وفسق دون فسق ، وظلم دون ظلم . وقد ذكر ذلك احمد والبخاري وغيرها .

الاصل الثاني

ان شعب الايمان قد تتلازم عند القوة ، ولا تتلازم عند الضعف ، فاذا قوي مافي القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله ، أوجب بغض أعداء الله . كما قال تعالى : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ، وما انزل اليه ما اتخذوهم أولياء) وقال : (لانجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم أو عشيرتهم ، اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروج منه) . وقد تحصل للرجل موادتهم

لرحم او حاجة فتكون ذنباً ينقص به إيمانه ، ولا يكون به كافراً ، كما حصل من حاطب بن ابي بلتعة ، لما كاتب المشركين ببعض اخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، وانزل الله فيه (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء ، تلقون اليهم بالموودة) .

وكما حصل لسعد بن عباد لما اتصر لابن ابي في قصة الافك . فقال : لسعد ابن معاذ : كذبت والله ؛ لانقلته ولا تقدر على قتله ؛ قالت عائشة : وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية . ولهذا الشبهة سمي عمر حاطباً منافقاً فقال دعني يارسول الله اضرب عنق هذا المنافق فقال « إنه شهد بدرأ » فكان عمر متأولاً في تسميته منافقاً للشبهة التي فعلها .

وكذلك قول اسيد بن حضير لسعد بن عباد ؛ كذبت لعمر الله ! لنقتله ؛ انما انت منافق ، تجادل عن المنافقين ؛ هو من هذا الباب . وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم : منافق ، وان كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين .

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعاً واحداً ، بل فيهم المنافق المحض ؛ وفيهم من فيه ايمان ونفاق ؛ وفيهم من ايمانه غالب ، وفيه شعبة من النفاق . وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الايمان ؛ ولما قوي الايمان وظهر الايمان وقوته عام تبرك ؛ صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك ؛

ومن هذا الباب ، ما يروى عن الحسن البصري وبحوه من استسب : بهم مو ،
 الفساق منافقين ؛ فجعل اهل المقالات هذا قولاً مخالفاً للجمهور ؛ اذا حكوا
 تنازع الناس في الفاسق الملى ، هل هو كافر ؟ او فاسق ليس معه ايمان ؟ او
 مؤمن كامل الايمان ؟ او مؤمن بما معه من الايمان ، فاسق بما معه من الفسق ؟
 او منافق ، والحسن — رحمه الله تعالى — لم يقل ما خرج به عن الجماعة ، لكن
 سماه منافقاً على الوجه الذي ذكرناه .

والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق ، ولهذا كثيراً ما يقال : كفر ينقل عن
 الملة ، وكفر لا ينقل ، ونفاق أكبر ، ونفاق أصغر ، كما يقال : الشرك شركان
 أصغر ، وأكبر ؛ وفي صحيح ابي حاتم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم
 انه قال : «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل» فقال ابو بكر : يا رسول
 الله ! كيف تتجوا منه ، وهو اخفى من ديب النمل ؟ فقال : «الا اعلمك كلمة
 إذا قلتها نجوت من دقه وجهه ؟ قل : اللهم إني اعوذ بك ان اشرك بك ، وانا
 اعلم ، واستغفرك لما لا اعلم» . وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم
 انه قال : «من حلف بغير الله ، فقد اشرك» قال الترمذي حديث حسن .

وبهذا تبين ان الشارع ينفي اسم الايمان عن الشخص ؛ لاتفاء كما له
 الواجب ، وان كان معه بعض اجزائه ، كما قال : «لا يزني الزانى حين يزنى وهو
 مؤمن ؛ ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ؛ ولا يشرب الخمر حين
 يشربها وهو مؤمن» ومنه قوله : «من غشنا فليس منا ، ومن حمل علينا

السلاح فليس منا». فان صيغة «انا» و «نحن» ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك ، يتناول النبي صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين معه — الايمان المطلق — الذي يستحقون به الثواب . بلا عقاب ، ومن هنا قيل ان الفاسق الملي يجوز ان يقال : هو مؤمن باعتبار ، ويجوز ان يقال : ليس مؤمناً باعتبار .

وبهذا تبين ان الرجل قد يكون مسالماً لا مؤمناً ، ولا منافقاً مطلقاً ، بل يكون معه اصل الايمان دون حقيقته الواجبة . ولهذا انكر احمد وغيره من الأئمة على من فسر قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا » ليس مثلنا ، اوليس من خيارنا وقال هذا تفسير « المرجئة » وقالوا : لو لم يفعل هذه الكبيرة ، كان يكون مثل النبي صلى الله عليه وسلم . وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة ، بأنه يخرج من الايمان بالكلية ، ويستحق الخلود في النار ؛ تأويل منكر كما تقدم ، فلا هذا ولا هذا .

ومما يبين ذلك انه من المعلوم ان ، معرفة الشيء المحبوب تقتضي حبه ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه ؛ ومعرفة الخوف تقتضي خوفه فنفس العلم والتصديق بالله وماله من الأسماء الحسنی ، والصفات الحملى يوجب محبة القلب له وتعظيمه . وخشيته ؛ وذلك يوجب إرادة نلها وكراهية مصيبته . والارادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود المراد ووجود المقهور عليه منه ؛ فالعبد إذا كان مریداً

للصلاة إرادة جازمة مع قدرته عليها ؛ صلى ، فإذا لم يصل مع القدرة دل ذلك على ضعف الإرادة .

وهذا يزول الاشتباه في « هذا المقام » . فان الناس تنازعوا في الإرادة بلا عمل ؛ هل ، يحصل بها عقاب ؟ . وكثر النزاع في ذلك . فمن قال : لا يعاقب احتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم الذي في الصحيحين « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به او تعمل به » وبما في الصحيحين من حديث ابي هريرة وابن عباس رضي الله نه « ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا عم العبد بسنة لم تكتب عليه ، فان عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، واذا عم بحسنة كتبت له حسنة كاملة؛ فان عملها كتبت له عشر حسنات الى سبعمائة ضعف» وفي رواية « فان تركها فكتبوها له حسنة ؛ فانما تركها من جرائي » .

ومن قال : يعاقب احتج بما في الصحيح « عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما . فالقاتل والمقتول في النار ؛ قيل : يارسول الله ! هذا القاتل فما بال المقتول ؛ قال : انه اراد قتل صاحبه » ؛ وبالحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن ابي كبشة الانباري عن النبي صلى الله عليه وسلم : « في الرجلين الذين اوتى احدهما علما ومالا فهو ينفقه في طاعة الله ؛ ورجل اوتى علما ولم يؤت مالا ؛ فقال : لو ان لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان قال : فهما في الاجر سواء ؛ ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معصية الله ؛ ورجل لم يؤته الله علما ولا مالا فقال : لو ان لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان ؛ قال فهما في الوزر سواء » .

و « الفصل في ذلك » أن يقال : فرق بين الهم ، والارادة ، « فالهم » قد لا يقترن به شيء من الأعمال الظاهرة ، فهذا لاعتقوبة فيه محال ، بل إن تركه الله ، كما ترك يوسف همه ، اثيب على ذلك كما أثيب يوسف ، ولهذا قال احمد : الهم هان : هم خطرات ، وهم إصرار ، ولهذا كان الذي دل عليه القرآن أن يوسف لم يكن له في هذه القضية ذنب أصلاً ، بل صرف الله عنه السوء والفحشاء انه من عباده المخلصين ؛ مع ما حصل من المرادة ، والكذب ، والاستعانة عليه بالنسوة ، وحبسه ، وغير ذلك من الأسباب التي لا يكاد بشر يصبر معها عن الفاحشة ، ولكن يوسف اتقى الله وصبر ، فأثابه الله برحمته في الدنيا . (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) .

وأما « الارادة الجازمة » فلا بد ان يقترن بها مع القدرة ، فعل المقدر ولو بنظرة ، او حركة رأس ، او لفظة ، او خطوة او تحريك بدن ؛ وبهذا يظهر معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار » . فان المقتول اراد قتل صاحبه فعمل ما يقدر عليه من القتال ، وعجز عن حصول المراد ، وكذلك الذي قال : لو ان لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان ، فانه اراد فعل ما يقدر عليه وهو الكلام ، ولم يقدر على ذلك ، ولهذا كان من دعا الى ضلالة ، كان عليه مثل اوزار من اتبعه ، من غير ان ينقص من اوزارهم شيئاً ، لأنه اراد ضلالهم ففعل ما يقدر عليه من دعائهم ، إذ لا يقدر إلا على ذلك .

وإذا تبين هذا في « الإرادة ، والعمل » : فالصدق الذي في القلب وعلمه يقتضي عمل القلب ، كما يقتضي الحس الحركة الإرادية ، لأن النفس فيها قوتان : قوة الشعور بالملأئم والمنافى والاحساس بذلك ، والعمل والتصديق به ، وقوة الحب للملأئم ، والبغض للمنافى ، والحركة عن الحس بالخوف والرجاء والموالاتة والمعاداة . وإدراك الملأئم يوجب اللذة ، والفرح والسرور ، وإدراك المنافى ، يوجب الألم والغم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » .

فالقلوب مفسورة على الاقرار بالله تصديقاً به وديناً له ، لكن بعرض لها ما يفسدها ، ومعرفة الحق تقتضي محبته ، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه ؛ لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل ، لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق ، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه ، ولهذا امرنا الله ان نقول في الصلاة : (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » ؛ لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون ابناءهم ، ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته . والنصارى لهم عبادة ، وفي قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ، لكن بلا علم ، فهم ضلال . هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح ، وهؤلاء

لهم قصد في الخير بلا معرفة له ، وينضم الى ذلك الظن ، واتباع الهوى ؛ فلا يبقى في الحقيقة معرفة نافعة ؛ ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن مشركي اهل الكتاب : (وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير) وقال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم اعين لا يبصرون بها ؛ ولهم آذان لا يسمعون بها ؛ اولئك كالانعام بل هم اضل ؛ اولئك هم الغافلون) .

فالإيمان في القلب لا يكون إيماناً بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك ؛ كما انه لا يكون إيماناً بمجرد ظن وهوى ؛ بل لابد في اصل الإيمان من قول القلب ، وعمل القلب ،

وليس لفظ الإيمان مرادفاً للفظ التصديق ، كما يظنه طائفة من الناس ؛ فان التصديق يستعمل في كل خبر ، فيقال لمن اخبر بالامور المشهورة مثل : الواحد نصف الاثنين ، والسماء فوق الارض ، مجيئاً : صدقت ، وصدقنا بذلك ؛ ولا يقال : آمنالك ، ولا آمنابهذا ، حتى يكون الخبر به من الامور الغائبة ، فيقال للمخبر آمناله ، وللمخبر به آمنابه ، كما قال اخوة يوسف : (وما انت بمؤمن لنا) اي بمقر لنا ، ومصديق لنا ، لأنهم اخبروه عن غائب ومنه قوله تعالى : (انؤمن لك واتبعك الارذلون) وقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) وقوله تعالى : (انؤمن لبشرين مثلنا ، وقومها لنا عابدون) وقوله تعالى : (فان لم تؤمنوا لي فاعترزلون) (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) اي : اقرله .

وذلك ان الايمان يفارق التصديق ، اي : لفظاً ومعنى ؛ فانه ايضاً يقال : صدقته ، فيتعدى بنفسه الى المصدق ، ولا يقال امنت ، الا من الامان الذي هو ضد الاخافة ، بل آمنت له ، واذا ساغ ان يقال : ما انت بمصدق لفلان ، كما يقال : هل انت مصدق له . لأن الفعل المتعدى بنفسه اذا قدم مفعوله عليه ، او كان العامل اسم فاعل ، ونحوه مما يضعف عن الفعل ، فقد يعدونه باللام تقوية له ، كما يقال : عرفت هذا ، وانا به عارف ، وضربت هذا ، وانا له ضارب ، وسمعت هذا ورأيت ، وأنا له سامع ، وراء ، كذلك يقال صدقته وانا له مصدق ، ولا يقال صدقت له به ، وهذا خلاف آمن ، فانه لا يقال اذا اردت التصديق آمنت كما يقال اقررت له ، ومنه قوله آمنت له كما يقال اقررت له فهذا فرق في اللفظ .

و « الفرق الثاني » : ماتقدم من ان الايمان لا يستعمل في جميع الاخبار ، بل في الاخبار عن الأمور الغائبة ، ونحوها مما يدخلها الريب . فاذا اقر بها المستمع قيل آمن ، بخلاف لفظ التصديق ، فانه عام متناول لجميع الاخبار .

واما « المعنى » : فان الايمان مأخوذ من الامن ، الذي هو الطمأنينة ؛ كما ان لفظ الاقرار : مأخوذ من قريقر ، وهو قريب من آمن يأمن ؛ لكن الصادق يطمئن الى خبره ؛ والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة ؛ فالؤمن دخل في الأمن كما ان المقر دخل في الاقرار ، ولفظ الاقرار يتضمن الالتزام ثم انه يكون على وجهين :

(احدهما) : الاخبار ، وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق ؛ والشهادة ونحوهما . وهذا معنى الاقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الاقرار .

و (الثاني) : انشاء الالتزام كما في قوله تعالى : (أقررتم واخذتم على ذلكم اصرى ؛ قالوا اقررنا ، قال : فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) . وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فانه سبحانه قال : (واذا اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ؛ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ؛ قال أقررتم واخذتم على ذلكم اصرى) . فهذا الالتزام للإيمان والنصر للرسول وكذلك « لفظ الإيمان » فيه اخبار وانشاء والتزام ؛ بخلاف لفظ التصديق المجرد فمن اخبر الرجل بخبر لا يتضمن طمأنينة الى الخبر ؛ لا يقال فيه آمن له بخلاف الخبر الذي يتضمن طمأنينة الى الخبر والخبر قد يتضمن خبره طاعة المستمع له ، وقد لا يتضمن الا مجرد الطمأنينة الى صدقه ، فاذا تضمن طاعة المستمع لم يكن مؤمناً لمخبر ؛ الا بالتزام طاعته مع تصديقه ؛ بل قد استعمل لفظ الكفر - المقابل للإيمان - في نفس الامتناع عن الطاعة والانقياد ؛ فقياس ذلك ان يستعمل لفظ الإيمان كما استعمل لفظ الاقرار في نفس التزام الطاعة والانقياد ؛ فان الله امر ابليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين .

و « ايضاً » فلفظ التصديق انما يستعمل في جنس الاخبار ، فان التصديق

اخبار بصدق المخبر ؛ والتكذيب اخبار بكذب المخبر؛ فقد يصدق الرجل الكاذب تارة [وقد يكذب الرجل] الصادق اخرى فالصدق والتكذيب نوعان من الخبر وهما خبر عن الخبر فالحقائق الثابتة في نفسها التي قد تعلم بدون خبر لا يكاد يستعمل فيها لفظ التصديق والتكذيب ان لم يقدر مخبر عنها بخلاف الايمان والاقرار والانكار والجحود ، ونحو ذلك فانه يتناول الحقائق والاخبار عن الحقائق ايضاً .

وايضاً فالذوات التي تحب تارة وتبغض اخرى ، وتوالي تارة وتعادى اخرى وتطواع تارة وتعصى اخرى ويذل لها تارة ويستكبر عنها اخرى تختص هذه المعاني فيها بلفظ الايمان والكفر ونحو ذلك ؛ واما لفظ التصديق والصدق ونحو ذلك فيتعلق بمتعلقها كالحب والبغض فيقال : حب صادق . وبغض صادق فكما ان الصدق والكذب في اثبات الحقائق ونفيها متعلق بالخبر النافي والمثبت دون الحقيقة ابتداء . فكذلك في الحب والبغض ونحو ذلك يتعلق بالحب والبغض . دون الحقيقة ابتداء بخلاف لفظ الايمان والكفر فانه يتناول الذوات بلا واسطة إقرار أو انكار أو حب أو بغض أو طمأنينة أو نفور .

ويشهد لهذا الدعاء المأثور المشهور عند استلام الحجر « اللهم ايماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم » فقال ايماناً بك، ولم يقل تصديقاً بك ، كما قال تصديقاً بكتابك وقال تعالى عن

سريم : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) فجعل التصديق بثنكلمات والكتب ،
ومنه الحديث الذي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « تكفل الله لمن
خرج في سبيله لا يخرجه الا ايمان بي ، وتصديق بكلماتي » ، وروى « ايمان بي
وتصديق برسلي » ، وروى « لا يخرجه الا جهاد في سبيل الله وتصديق كلماته »
ففي جميع الالفاظ جعل لفظ التصديق بالكلمات والرسل .

وكذلك قوله في الحديث الذي في الصحيح ، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم
منازل عالية في الجنة فقيل له : يارسول الله : تلك منازل لا يبلغها الا الانبياء ،
فقال : « بلى ! والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . وما
يحصى الآن الاستعمال المعروف في كلام السلف ، صدقت بالله ، او فلان يصدق
بالله ، او صدق بالله ونحو ذلك ، كما جاء فلان يؤمن وآمن بالله وإيماناً بالله
وتؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، وتؤمن بالله وحده ونحو ذلك . فان القرآن
والحديث وكلام الخاصة والعامة مملوء من لفظ الايمان بالله وآمن بالله وتؤمن بالله
ويا ايها الذين آمنوا ، وما اعلم قيل التصديق بالله ، او صدقوا بالله او يا ايها
الذي صدق الله ونحو ذلك ، اللهم الا ان يكون في ذلك شيء لا يحضرنى
الساعة ، وما اظنه .

ولفظ « الايمان » يستعمل في الخبر ايضاً كما يقال : (كل آمن بالله) : اي
أقر له والرسول يؤمن له من جهة انه مخبر ، ويؤمن به من جهة ان رسالته مما
اخبر بها ، كما يؤمن بالله وملائكته وكتبه . « فالايان » متضمن للاقرار بما اخبر

به ، والكفر « تارة » يكون بالنظر الى عدم تصديق الرسول والايمان به، وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما اخبر به. و « تارة » بالنظر الى عدم الاقرار بما اخبر به ، والاصل في ذلك هو الاخبار بالله وبأسمائه ، ولهذا كان جحد ما يتعلق بهذا الباب اعظم من جحد غيره. وان كان الرسول أخبر بكليهما ثم مجرد تصديقه في الخبر والعلم بثبوت ما اخبر به ، اذا لم يكن معه طاعة لأمره ، لاباطنا ولا ظاهراً ولا محبة لله ولا تعظيم له لم يكن ذلك ايماناً .

وكفر ابليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن اصله من جهة عدم التصديق والعلم ؛ فان ابليس لم يخبره احد بخبر ، بل امره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر ، وكان من الكافرين ، فكفره بالاباء والاستكبار وما يتبع ذلك ؛ لا لأجل تكذيب . وكذلك فرعون وقومه جحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلوا وقال له موسى : (لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض) ، فالذي يقال هنا احد امرين .:

اما ان يقال الاستكبار والاباء والحسد ونحو ذلك مما الكفر به مستلزم لعدم العلم ، والتصديق الذي هو الايمان ، وإلا فمن كان علمه وتصديقه تاماً أوجب استسلامه وطاعته مع القدرة كما ان الارادة الجازمة تستلزم وجود المراد مع القدرة ، فعلم ان المراد اذا لم يوجد مع القدرة ، دل على انه ما في القلب همة ولا إرادة ؛ فكذلك اذا لم يوجد موجب التصديق والعلم من حب القلب وانقياده ، دل على ان الحاصل في القلب ليس بتصديق ولا علم ، بل هنا شبهة

وريب ، كما يقول ذلك طوائف من الناس ، وهو اصل قول جهم والصالحي
والاشعري في المشهور عنه وأكثر اصحابه كالقاضي ابي بكر ومن اتبعه ، ممن يجعل
الاعمال الباطنة والظاهرة من موجبات الايمان لامن نفسه ، ويجعل ما ينتفي الايمان
بانتفائه من لوازم التصديق لا يتصور عنده تصديق باطن مع كفر قط .

أو ان يقال : قد يحصل في القلب علم بالحق وتصديق به ، ولكن ما في القلب
من الحسد والكبر ونحو ذلك مانع من استسلام القلب وانقياده ومحبه ؛ وليس
هذا كالارادة مع العمل ؛ لأن الارادة مع القدرة مستلزمة للمراد ، وليس العلم
بالحق والتصديق به مع القدرة على العمل بموجب ذلك العمل ، بل لا بد مع ذلك
من ارادة الحق والحب له .

فاذا قال القائل : القدرة التامة بدون الارادة الجازمة ، مستلزمة لوجود
المراد المقدر موجبة لحصول المقدر لم يكن مصيباً ؛ بل لا بد من الارادة .
وبهذا يتبين خطأ من قال : إن مجرد علم الله بالمخلوقات موجب لوجودها ، كما
يقول ذلك من يقوله من أهل الفلسفة ؛ كما يغلط الناس من يقول إن مجرد
إرادة الممكنات بدون القدرة موجب وجودها ، وكما خطرنا من قال : إن مجرد القدرة
كافية ، بل لا بد من العلم والقدرة والارادة في وجود المقدر والمراد ؛ والارادة
مستلزمة لتصور المراد ، والعلم به ؛ والعلم والارادة والقدرة ، ونحو ذلك ؛ وان
كان قد يقال : أنها متلازمة في الحي ، او أن الحياة مستلزمة لهذه الصفات ،
او أن بعض الصفات مشروط بالبعض ، فلا ريب انه ليس كل معلوم مراداً

محبوباً ولا مقدوراً ، ولا كل مقدور حراداً محبوباً ، وإذا كان كذلك لم يلزم من كون الشيء معلوماً مصداقاً به ان يكون محبوباً معبوداً ، بل لا بد من العلم ؛ وامر آخر به يكون هذا محباً وهذا محبوباً .

فقول من جعل مجرد العلم والتصديق في العبد هو الايمان ، وأنه موجب لأعمال القلب ، فاذا انتفت دل على انتفاء العلم ؛ بمنزلة من يقول : مجرد علم الله بنظام العالم موجب لوجوده ؛ بدون وجود إرادة منه ، وهو شبيه بقول المتفلسفة : ان سعادة النفس في مجرد أن تعلم الحقائق ، ولم يقرنوا ذلك بحب الله تعالى وعبادته التي لا تتم السعادة إلا بها ؛ وهو نظير من يقول : كمال الجسم او النفس في الحب من غير اقتران الحركة الارادية به ، ومن يقول : اللذة في مجرد الادراك والشعور . وهذا غلط باتفاق العقلاء ، بل لا بد من إدراك الملائم ؛ والملائمة لا تكون إلا بمحبة بين المدرك والمدرك ، وتلك المحبة والموافقة والملائمة ليست نفس إدراكه والشعور به .

وقد قال كثير من الناس من الفلاسفة والأطباء ومن اتبعهم ، ان « اللذة » إدراك الملائم وهذا تقصير منهم ، بل اللذة حال يعقب إدراك الملائم ؛ كالانسان الذي يحب الحلو ويشتهي فيدركه بالنوق والأكل ؛ فليست اللذة مجرد ذوقه ، بل أمر يجده من نفسه يحصل مع النوق ، فلا بد « أولاً » من امرين ؛ و« آخرأ » من امرين : لا بد « أولاً » : من شعور بالمحبوب ؛ ومحبة له ؛ فالاشعور به لا يتصور ان يشتهي ، وما يشع به وليس في النفس محبة له لا يشتهي ، ثم إذا

حصل إدراكه بالمحجوب نفسه ، حصل عقيب ذلك اللذة والفرح مع ذلك .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء المأثور : « اللهم إني أسألك لذة النظر الى وجهك ، والشوق الى لقائك ؛ من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة » وفي الحديث الصحيح « اذا دخل اهل الجنة الجنة : نادى مناد يا اهل الجنة ! ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ الم بيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ، ويخرجنا من النار ؟ ! قال : فيكشف الحجاب ، فينظرون اليه ؛ فما اعطام شيئاً احب اليهم من النظر اليه » رواه مسلم وغيره . فاللذة مقرونة بالنظر اليه ؛ ولا احب اليهم من النظر اليه ، لما يقترن بذلك من اللذة ؛ لا ان نفس النظر هو اللذة .

وفي « الجملة » فلا بد في الايمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله ، وحب الله ورسوله ، والا فجرد التصديق مع البغض لله ورسوله ؛ ومعاداة الله ورسوله ، ليس ايماناً باتفاق المسلمين ؛ وليس مجرد التصديق والعلم يستلزم الحب ، الا اذا كان القلب سليماً من المعارض ، كالحسد والكبر ، لأن النفس مفطورة على حب الحق ، وهو الذي يلائمها . ولا شيء احب الى القلوب السليمة من الله ، وهذا هو الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام الذي اتخذ الله خليلاً . وقد قال تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) فليس مجرد

العلم موجبا لحب المعلوم ؛ ان لم يكن في النفس قوة اخرى تلامم المعلوم ، وهذه القوة موجودة في النفس .

وكل من القوتين تقوى بالآخرى ، فالعلم يقوي العمل ، والعمل يقوي العلم ، فمن عرف الله وقلبه سليم احبه ؛ وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له ؛ وكلما ازداد حبه له ازداد ذكره له ، ومعرفة بأسمائه وصفاته ؛ فان قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب ؛ كما ان البغض يوجب الاعراض عن ذكر المبغض ، فمن عادى الله ورسوله وحاد الله ورسوله كان ذلك مقتضياً لاعراضه عن ذكر الله ورسوله بالخير ؛ وعن ذكر ما يوجب المحبة ، فيضعف علمه به حتى قد ينساه . كما قال تعالى : (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم) وقال تعالى : (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً) وقد يحصل مع ذلك تصديق وعلم مع بغض ومعاداة ، لكن تصديق ضعيف ، وعلم ضعيف ؛ ولكن لولا البغض والمعاداة لأوجب ذلك من محبة الله ورسوله ما يصير به مؤمناً .

فمن شرط الايمان وجود العلم التام ، ولهذا كان الصواب ، ان الجهل ببعض اسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافراً ، اذا كان مقراً بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفره اذا لم يعلمه كحديث الذي امر اهله بتحريقه ثم تدريته ؛ بل العلماء بالله يتفاضلون في العلم به . ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه ، بالجهل وعدم العلم . قال تعالى : (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) قال ابو العالية :

سألت اصحاب محمد عن هذه الآية ؛ فقالوا لي : كل من عصى الله فهو جاهل ؛ وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب . ومنه قول ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً . وكفى بالاغترار بالله جهلاً . وقيل للشعبي : ايها العالم ! فقال : العالم من يخشى الله ، وقد قال تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) .

وقال ابو حيان التميمي : « العلماء ثلاثة » : عالم بالله ؛ وبأمر الله ؛ وعالم بالله ليس علماً بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس علماً بالله . فالعالم بالله الذي يخشاه . والعالم بأمر الله الذي يعلم حدوده وفرائضه . وقد قال تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) . وهذا يدل على ان كل من خشي الله فهو عالم . وهو جوق ولا يدل على ان كل عالم يخشاه ؛ لكن لما كان العلم به موجبا للخشية عند عدم المعارض كان عدمه دليلاً على ضعف الأصل ، اذ لو قوى لدفع المعارض .

وهكذا لفظ « العقل » يراد به الغريزة التي بها يعلم ، ويراد بها انواع من العلم . ويراد به العمل بموجب ذلك العلم ؛ وكذلك لفظ « الجهل » يعبر به عن عدم العلم ، ويعبر به عن عدم العمل بموجب العلم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا كان احدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل فان امرؤ شاتم او قائله ، فليقل اني امرؤ صائم » والجهل هنا هو الكلام الباطل ، بمنزلة الجهل المركب ومنه قول الشاعر :

ألا لا يجهن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا سميت « الجاهلية » جاهلية ، وهي متضمنة لعدم العلم او لعدم العمل به ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : « انك امرؤ فيك جاهلية » لما ساب رجلا وعيره بأمه ، وقد قال تعالى : (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية) . فان الغضب والحمية تحمل المرء على فعل ما يضره وترك ما ينفعه ، وهذا من الجهل الذي هو عمل بخلاف العلم حتى يقدم المرء على فعل ما يعلم انه يضره ، وترك ما يعلم انه ينفعه ؛ لما في نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال ، وهو في هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية ، لكنه لما في نفسه من بغض وحسد غلب موجب ذلك لموجب العلم ، فدل على ضعف العلم لعدم موجبه ومقتضاه ، ولكن ذلك الموجب والنتيجة لا توجد عنه وحده ، بل عنه وعمما في النفس من حب ما ينفعها ، وبغض ما يضرها ، فاذا حصل لها مرض ففسدت به ، أحبت ما يضرها ، وأبغضت ما ينفعها ، فتصير النفس كالمريض الذي يتناول ما يضره لشهوة نفسه له ، مع علمه انه يضره .

« قلت » : هذا معنى ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات»
رواه البيهقي مرسلا . وقد قال تعالى ، (واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدي والابصار) فوصفهم بالقوة في العمل والبصيرة في العلم ، وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر ، فان المؤمن قوته في قلبه ، وضعفه في جسمه والنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه فالإيمان لا يبد

فيه من هذين الاصلين : التصديق بالحق والمحبة له ، فهذا أصل القول ، وهذا أصل العمل .

ثم الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر ، والعمل الظاهر ضرورة كما تقدم ، فمن جعل مجرد العلم والتصديق موجباً لجميع ما يدخل في مسمى الايمان ، وكل ماسمي إيماناً فقد غلط بل لأبد من العلم والحب . والعلم شرط في محبة المحبوب ، كما ان الحياة شرط في العلم ؛ لكن لا يلزم من العلم بالشيء والتصديق بثبوت محبته إن لم يكن بين العالم والمعلوم معنى في الحب أحب لأجله ولهذا كان الانسان يصدق بثبوت أشياء كثيرة ويعلمها وهو يبغضها كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم ونفس التصديق بوجود الشيء لا يقتضي محبته : لكن الله سبحانه يستحق لذاته أن يحب ويعبد ، وأن يحب لأجله رسوله ، والقلوب فيها معنى يقتضي حبه وطاعته كما فيها معنى يقتضي العلم والتصديق به : فمن صدق به ورسوله ولم يكن محباً له ولرسوله لم يكن مؤمناً حتى يكون فيه مع ذلك الحب له ولرسوله .

وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الاقوال الظاهرة ؛ والاعمال الظاهرة فما يظهر على البدن من الاقوال والاعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ؛ ودليله ومعلوله كما ان ما يقوم بالبدن من الاقوال والاعمال له أيضاً تأثير فيما في القلب . فكل منها يؤثر في الآخر لكن القلب هو الاصل والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله والاصل يثبت ويقوى بفرعه . كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الايمان . قال

تعالى: (و ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصاها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) وهي كلمة التوحيد، والشجرة كلها قوي أصلها وعرق ووروي قويت فروعها . وفروعها أيضاً إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها .

وكذلك « الايمان » في القلب و « الاسلام » علانية ولما كانت الأقوال والاعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والاعمال الباطنة كان يستدل بها عليها: كما في قوله تعالى: (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأبدهم بروح منه) فأخبر أن من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله . بل نفس الايمان ينافي مودتهم . فإذا حصلت المادة دل ذلك على خلل الايمان وكذلك قوله: (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء) .

وكذلك قوله: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فأخبر تعالى ان هؤلاء هم الصادقون في قولهم: آمنا ، ودل ذلك على ان الناس في قولهم: آمنا صادق وكاذب ، والكاذب فيه نفاق بحسب لذبه . قال تعالى في المنافقين :

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين - الى قوله -
ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) وفي يكذبون قرأتان مشهورتان .

وفي الحديث « اساس النفاق الذي يبني عليه الكذب » وقال تعالى : (اذا
جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله والله يشهد
ان المنافقين لكاذبون) وقال تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله
لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم
معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما عدهوه وبما
كانوا يكذبون) وقال : (ومنهم من يلزك في الصدقات) ومثل هذا كثير .

و « بالجملة » فلا يستريب من تدبر ما يقول في ان الرجل لا يكون مؤمناً
بمجرد تصديق في القلب مع بغضه لله ولرسوله ، واستكباره عن عبادته ومعاداته
له ولرسوله ، ولهذا كان جماهير المرجئة على ان عمل القلب داخل في الايمان
كما نقله اهل المقالات عنهم ، منهم الاشعري فانه قال في كتابه في « المقالات » :
اختلف المرجئة في الايمان ما هو ؟ وم « اثنتا عشرة فرقة » .

« الفرقة الأولى » منهم : يزعمون ان الايمان بالله هو المعرفة بالله وبرسوله
وبجميع ما جاء من عند الله فقط ، وان ما سوى المعرفة من الاقرار باللسان ،
والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله ، والتعظيم لهما والخوف والعمل بالجوارح
فليس بايمان ، وزعموا ان الكفر بالله هو الجهل به وهذا قول يحكى عن الجهم

ابن صفوان ، قال : وزعمت الجهمية ان الانسان اذا اتى بالمعرفة ، ثم جحد بلسانه انه لا يكفر بجمده . وان الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل اهله فيه ، وان الايمان والكفر لا يكونان إلا في القلب دون الجوارح ، قال :

و « الفرقة الثانية » من المرجئة : يزعمون ان الايمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر به هو الجهل به فقط ، فلا ايمان بالله الا المعرفة به ، ولا كفر بالله إلا الجهل به ، وان قول القائل : (ان الله ثالث ثلاثة) ليس بكفر ولكنه لا يظهر إلا من كافر ، وذلك ان الله كفر من قال ذلك واجمع المسلمون انه لا يقوله الا كافر وزعموا ان معرفة الله هي المحبة له وهي الخضوع لله . واصحاب هذا القول لا يزعمون ان الايمان بالله ايمان بالرسول ، ويقولون : انه لا يؤمن بالله إلا من آمن بالرسول ، ليس ذلك لأن ذلك مستحيل ، ولكن الرسول قال « من لم يؤمن بي فليس بمؤمن بالله » وزعموا ايضاً ان الصلاة ليست بعبادة لله ، وانه لا عبادة إلا الايمان به ، وهو معرفته والايمان عندهم لا يزيد ولا ينقص ، وهو خصلة واحدة وكذلك الكفر والقائل بهذا القول ابو الحسين الصالحى ، وقد ذكر الأشعري في كتابه « الموجز » قول الصالحى هذا وغيره ، ثم قال : والذي اختاره في الأسماء قول الصالحى ، وفي الخصوص والعموم إنى لا اقطع بظاهر الخبر على العموم ، ولا على الخصوص إذ كان يحتمل في اللغة ان يكون خاصاً ، ويحتمل ان يكون عاماً . واقف في ذلك ولا اقطع على عموم ولا على خصوص الا بتوقيف او اجماع . ثم قال في « المقالات » :

و « الفرقة الثالثة من المرجئة » : يزعمون ان الايمان هو المعرفة بالله

والخضوع له ، وهو ترك الاستكبار عليه والمحبة لله ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال ، فهو مؤمن وزعموا ان ابليس كان عارفاً بالله غير انه كفر باستكباره على الله ، وهذا قول قوم من اصحاب يونس السمرى .

و « الفرقة الرابعة » : وهم أصحاب ابى شمرو يونس يزعمون ان الايمان المعرفة بالله والمحبة له والخضوع له بالقلب والاقرار به انه واحد ليس كمثل شىء ما لم تقم عليه حجة الأنبياء ، وان كانت قد قامت عليه حجة الانبياء فالايان [الاقرار] بهم والتصديق لهم والمعرفة لما جاء من عند الله عنهم داخل في الايمان ولا يسمون كل خصلة من هذه الخصال ايماناً ولا بعض ايمان ، حتى تجتمع هذه الخصال ، فاذا اجتمعت سموها ايماناً لاجتماعها ، وشبهوا ذلك بالبياض اذا كان في دابة لم يسموها بقاء الامع السواد وجعلوا ترك كل خصلة من هذه الخصال كفراً ولم يجعلوا الايمان متبعضاً ولا محتملاً لازيادة والنقصان .

وذكر عن « الخامسة » اصحاب ابى ثوبان : ان الايمان هو الاقرار بالله وبرسله وما لا يجوز في العقل الا ان يفعله .

وذكر عن « الفرقة السادسة » : ان الايمان هو المعرفة بالله وبرسله وفرائضه المجمع عليها والخضوع له بجميع ذلك والاقرار باللسان ، وزعموا ان خصال الايمان كل منها طاعة ، وان كل واحدة اذا فعلت دون الاخرى لم تكن طاعة كالمعرفة بلا اقرار ، وان ترك كل خصلة من ذلك معصية ؛ وان الانسان لا يكفر

بترك خصلة واحدة ، وان الناس يتفاضلون في ايمانهم ، ويكون بعضهم اعلم
واكثر تصديقاً له من بعض ، وان الايمان يزيد ولا ينقص وهذا قول الحسين
ابن محمد النجار واصحابه .

و « الفرقة السابعة » الغيلانية اصحاب غيلان يزعمون : ان الايمان المعرفة
بالله الثانية^(١) ، والمحبة والخضوع والاقرار بما جاء به الرسول وبما جاء من عند الله ؛
وذلك ان المعرفة الاولى عنده اضطرار فلذلك لم يجعلها من الايمان وكل هؤلاء
الذين حكينا قولهم : من « الشمرية » و « الجهمية » و « الغيلانية » و « النجارية »
ينكرون ان يكون في الكفار ايمان وان يقال فيهم بعض ايمان اذ كان الايمان
لا يتبع عندهم .

قال : و « الفرقة الثامنة » من المرجئة اصحاب محمد بن شيب يزعمون :
ان الايمان الاقرار بالله والمعرفة بأنه واحد ليس كمثل شيء . والاقرار
والمعرفة بأنبيائه وبرسوله وبجميع ما جاءت به من عند الله مما نص عليه
المسلمون ونقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة والصيام ونحو ذلك
لا نزاع بينهم فيه ، والخضوع لله وهو ترك الاستكبار عليه ، وزعموا أن إبليس
قد عرف الله وأقر به ، وإنما كان كافراً لأنه استكبر ، ولولا استكباره ما كان
كافراً ، وأن الايمان يتبع ويتنازل أهله ، وأن الخصلة من الايمان قد
تكون طاعة وبعض ايمان ، ويكون صاحبها كافراً بترك بعض الايمان ولا
يكون مؤمناً إلا باصابة الكل ، وكل رجل يعلم أن الله واحد ليس كمثل شيء

(١) نسخة « الثامنة »

شيء ويجحد الأنبياء فهو كافر يجحد الأنبياء وفيه خصلة من الإيمان ، وهي معرفته بالله سبحانه .

« الفرقة التاسعة » : من المرجئة المنتسبين الى ابي حنيفة وأصحابه يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله وبالرسول والاقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير .

« الفرقة العاشرة » : من المرجئة أصحاب ابي معاذ التومني يزعمون : أن الإيمان ترك ما عظم من الكبائر وهو اسم لحصل إذا تركها او ترك خصلة منها كان كافراً ، فتلك الخصلة التي يكفر بتركها إيمان ، وكل طاعة إذا تركها التارك لم يجمع المسلمون على تكفيره فتلك الطاعة شريعة من شرائع الإيمان تاركها إن كانت فريضة يوصف بالفسق ، فيقال له انه يفسق ولا يسمى بالفسق ، ولا يقال فاسق وليست تخرج الكبائر من الإيمان إذا لم تكن كفراً ، وتارك الفرائض مثل الصلاة والصيام والحج على الجحود بها ، والرد لها ، والاستخفاف بها كافر بالله ، وإنما كفر بالاستخفاف والرد والجحود ، وإن تركها غير مستحل لتركها متشاغلاً مسوفاً يقول : الساعة أصلي ، واذا فرغت من لهوي وعملي فليس بكافر ، وإن كان يصلي يوماً ووقتاً من الأوقات . ولكن نفسه . وكان ابو معاذ يقول : من قتل نبياً او لطمه كفر ، وليس من اجل اللطمة كفر ، ولكن من اجل الاستخفاف والعداوة والبغض له .

والفرقة «الحادية عشر» من المرجئة: أصحاب بشر المريسي، يقولون: إن الإيمان هو التصديق لأن الإيمان في اللغة هو التصديق وما ليس بتصديق فليس بإيمان، ويزعم أن التصديق يكون بالقلب وباللسان جميعاً، وإلى هذا القول كان يذهب ابن الراوندي، وكان ابن الراوندي يزعم أن الكفر هو الجحد، والانكار والستر والتغطية، وليس يجوز أن يكون الكفر إلا ما كان في اللغة كفرةً، ولا يجوز إيمان إلا ما كان في اللغة إيماناً، وكان يزعم أن السجود للشمس ليس بكفر، ولا السجود لغير الله كفر، ولكنه علم على الكفر، لأن الله بين أنه لا يسجد للشمس إلا كافر.

قال و «الفرقة الثانية عشر» من المرجئة: الكرامية أصحاب محمد بن كرام يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً. فهذه الأقوال التي ذكرها الأشعري عن المرجئة يتضمن أكثرها أنه لا بد في الإيمان من بعض أعمال القلوب عندم وإنما نازع في ذلك فرقة يسيرة: كجهم والصالحي.

وقد ذكر أيضاً في «المقالات» جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة. قال: جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة؛ الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يردون من ذلك شيئاً؛ وإن الله إله واحد فرد صمد، لم يتخذ صاحبة

ولا ولدأ ، وان محمداً عبده ورسوله ، وان الجنة حق والنار حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور ، وان الله على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وان له يدين بلا كيف كما قال : (خلقت يدي) وكما قال : (بل يدها مبسوطتان) وان له عينين كما قال : (تجري بأعيننا) وان له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) . وان اسماء الله لا يقال انها غير الله كما قالت المعتزلة والحوارج .

الى ان قال : ويقولون القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ بدعة ، من قال بالوقف او اللفظ فهو مبتدع عندهم ، لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ، ولا يقال غير مخلوق . الى ان قال : ولا يكفرون احداً من اهل القبلة بذنوب يرتكبوها : كنجس الزنا والسرقه وما اشبه ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وان ارتكبوا الكبائر ، والايمان عندهم : هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره ، وان ما اخطأتم لم يكن ليصيبهم ، وما اصابهم لم يكن ليخطئهم ، والايمان هو : ان تشهد ان لا اله الا الله على ما جاء في الحديث ، والايمان عندهم غير الايمان .

الى ان قال : ويقولون بأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق . وذكر كلاماً طويلاً ثم قال في آخره : وبكل ما ذكرناه

من قولهم نقول : واليه نذهب. فهذا قوله في هذا الكتاب وافق فيه اهل السنة واصحاب الحديث بخلاف القول الذي نصره في الموجز .

والمقصود هنا ان عامة فرق الأمة تدخل ما هو من اعمال القلوب ، حتى عامة فرق المرجئة تقول بذلك ، واما المعتزلة والخوارج واهل السنة واصحاب الحديث فقولهم في ذلك معروف ، وانما نازع في ذلك من اتباع جهم بن صفوان من المرجئة وهذا القول شاذ ، كما ان قول الكرامية الذين يقولون هو مجرد قول اللسان شاذ ايضاً .

وهذا ايضاً مما ينبغي الاعتناء به ، فان كثيراً ممن تكلم في « مسألة الايمان » هل تدخل فيه الأعمال ؟ وهل هو قول وعمل ؟ يظن ان النزاع انما هو في اعمال الجوارح ، وان المراد بالقول قول اللسان ، وهذا غلط ؛ بل القول المجرد عن اعتقاد الايمان ليس ايماناً باتفاق المسلمين ؛ فليس مجرد التصديق بالباطن هو الايمان عند عامة المسلمين الا من شذ من اتباع جهم والصالحى ، وفي قولهم من السفسطة العقلية والمخالفة في الاحكام الدينية اعظم مما في قول ابن كرام الا من شذ من اتباع ابن كرام ، وكذلك تصديق القلب الذي ليس معه حب لله ولا تعظيم بل فيه بغض وعداوة لله ورسوله ليس ايماناً باتفاق المسلمين .

وقول ابن كرام فيه مخالفة في الاسم دون الحكم فانه — وإن سمي المنافقين مؤمنين — يقول إنهم مخلدون في النار ، فيخالف الجماعة في الاسم دون الحكم ، واتباع جهم يخالفون في الاسم والحكم جميعاً .

فصل

إذا عرف ان أصل الايمان في القلب ، فاسم « الايمان » تارة يطلق على ما في القلب من الأقوال القلبية والأعمال القلبية من التصديق والمحبة والتعظيم ونحو ذلك ، وتكون الأقوال الظاهرة والأعمال لوازمه وموجبانه ودلائله . وتارة على ما في القلب والبدن جعلاً لموجب الايمان ومقتضاه داخلاً في مساهمته وبهذا يتبين ان الأعمال الظاهرة تسمى اسلاماً ، وانها تدخل في مسمى الايمان تارة ولا تدخل فيه تارة .

وذلك ان الاسم الواحد يختلف دلالته بالافراد والاقتران . فقد يكون عند الافراد فيه عموم لمعنيين ، وعند الاقتران لا يدل الاعلى أحدهما ، كلفظ الفقير والمسكين ، إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا جمع بينهما كان لكل واحد مسمى يخصه ، وكذلك لفظ المعروف والمنكر إذا أطلقا كما في قوله تعالى (يا أحرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) دخل فيه الفحشاء والبغي ، وإذا قرن بالمنكر أحدهما كما في قوله : (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، أو كلاهما كما في قوله تعالى : (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) كان اسم المنكر مختصاً بما خرج من ذلك على قول ، أو متناولاً للجميع على قول — بناء على

ان الخاص المعطوف على العام هل يمنع شمول العام له ؟ او يكون قد ذكر مرتين فيه .
نزاع — والأقوال والأعمال الظاهرة (نتيجة) الأعمال الباطنة ولازمها .

وإذا افرد اسم «الايان» فقد يتناول هذا وهذا ، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » . وحيثئذ فيكون الإسلام داخلًا في مسمى الايمان وجزءًا منه ، فيقال حينئذ : ان « الايمان » اسم لجميع الطاعات الباطنة والظاهرة . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لو فد عبد القيس « أمركم بالايان بالله ، اندرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا اله الا الله ؛ وان محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة وإتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وتؤدوا خمس المغنم » اخرجاه في الصحيحين .

ففسر الايمان هنا بما فسر به الإسلام لانه اراد بالشهادتين هنا ان يشهد بها باطنًا وظاهرًا ، وكان الخطاب لو فد عبد القيس ، وكانوا من خيار الناس وهم اول من صلى الجمعة ببلدهم بعد جمعة اهل المدينة : كما قال ابن عباس : اول جمعة جمعت في الإسلام بعد جمعة المدينة جمعة بجواثي — قرية من قرى البحرين — وقالوا يا رسول الله ! ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، وانا لانصل اليك إلا في شهر حرام ، فمرنا بأمر فصل نعمل به وندعو اليه من وراءنا ، وأرادوا بذلك « اهل نجد » من تميم وأسد وغطفان وغيرهم كانوا كفارًا ؛ فهؤلاء كانوا صادقين راغبين في طلب الدين ، فاذا امرهم النبي صلى الله عليه

وسلم بأقوال واعمال ظاهرة فعلوها باطناً وظاهرأ فكانوا بهامؤمنين .

واما اذا قرن الايمان بالاسلام : فان الايمان في القلب والاسلام ظاهر كما في « المسند » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الاسلام علانية والايمان في القلب ، والايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره » ومتى حصل له هذا الايمان ، وجب ضرورة ان يحصل له الاسلام الذي هو الشهادتان ، والصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لأن ايمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله . والانقياد له ، والا فمن الممتع ان يكون قد حصل له الاقرار والحب والانقياد باطناً ولا يحصل ذلك في الظاهر ، مع القدرة عليه كما يتمتع وجود الارادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد .

وبهذا تعرف ان من آمن قلبه ايماناً جازماً امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الايمان القلبي التام ؛ وبهذا يظهر خطأ جههم ومن اتبعه في زعمهم ان مجرد ايمان بدون الايمان الظاهر ينفع في الآخرة ؛ فان هذا ممتنع ، اذ لا يحصل الايمان التام في القلب الا ويحصل في الظاهر موجه بحسب القدرة ، فان من الممتع ان يحب الانسان غيره حباً جازماً وهو قادر على مواصلته ، ولا يحصل منه حركة ظاهرة الى ذلك .

وابو طالب انما كانت محبته للنبي صلى الله عليه وسلم لقربته منه ، والله وانما

نصره وذب عنه لحمية النسب والقراة ؛ ولهذا لم يتقبل الله ذلك منه ، والا فلو كان ذلك عن ايمان في القلب لتكلم بالشهادتين ضرورة ، والسبب الذي اوجب نصره للنبي صلى الله عليه وسلم — وهو الحمية — هو الذي اوجب امتناعه من الشهادتين بخلاف أبي بكر الصديق ونحوه قال الله تعالى (وسيجنبها الاثقى . الذي يؤتى ماله بتركي وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى . ولسوف يرضى) ومنشأ الغلط في هذه المواضع من وجوه .

(احدها) أن العلم والتصديق مستلزم لجميع موجبات الايمان .

(الثاني) : ظن الظان ان مافي القلوب لايتفاضل الناس فيه .

(الثالث) ؛ ظن الظان أن مافي القلب من الايمان المقبول يمكن تخلف

القول الظاهر والعمل الظاهر عنه .

(الرابع) : ظن الظان ان ليس في القلب الا التصديق وأن ليس

الظاهر الا عمل الجوارح . والصواب أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر

قول ظاهر وعمل ظاهر ، وكلاهما مستلزم للباطن . و « المرجئة » اخرجوا

العمل الظاهر عن الايمان ؛ فمن قصد منهم اخراج اعمال القلوب ايضاً وجعلها

هي التصديق فهذا ضلال بين ، ومن قصد اخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل

الظاهر لازم للعمل الباطن لاينفك عنه ، وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن ،

فبقى النزاع في ان العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه
بالنضمن ، او لازم لمسمى الايمان .

و « التحقيق » انه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازماً للمسمى
- بحسب افراد الاسم واقتترانه - فاذا قرن الايمان بالاسلام كان مسمى
الاسلام خارجاً عنه ، كما في حديث جبريل ، وان كان لازماً له ، وكذلك اذا
قرن الايمان بالعمل كما في قوله : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقد
يقال : اسم الايمان لم يدخل فيه العمل وان كان لازماً له ؛ وقد يقال : بل
دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام ؛ وبكل حال فالعمل تحقيق
لمسمى الايمان وتصديق له ، ولهذا قال طائفة من العلماء - كالشيخ أبي اسماعيل
الأنصاري ، وغيره - : الايمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل
واللسان يصدق ما في القلب ، والعمل يصدق القول ، كما يقال : صدق عماله
قوله . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « العينان تزنيان وزناها النظر ،
والاذنان تزنيان وزناها السمع ، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني
وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »
والتصديق يستعمل في الخبر ، وفي الارادة ، يقال : فلان صادق العزم وصادق
المحبة ، وحملوا حملة صادقة .

و « السلف » اشتد تكريمهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الأيمان ،
وقالوا إن الايمان يتأثر الناس فيه ، ولا ريب ان قولهم بتساوي ايمان الناس

من افش الخطأ ، بل لا يتساوى الناس في التصديق ، ولا في الحب ، ولا في الحشية ، ولا في العلم ؛ بل يتفاضلون من وجوه كثيرة .

و « ايضاً » فخرجهم العمل بشعرانهم اخرجوا اعمال القلوب ايضاً ، وهذا باطل قطعاً ، فان من صدق الرسول وابقضه وعاداه بقلبه وبدنه فهو كافر قطعاً بالضرورة ، وان ادخلوا اعمال القلوب في الايمان اخطأوا ايضاً ؛ لامتناع قيام الايمان بالقلب من غير حركة بدن .

وليس المقصود هنا ذكر عمل معين ؛ بل من كان مؤمناً بالله ورسوله بقلبه هل يتصور إذا رأى الرسول واعداه يقاتلونه ، وهو قادر على ان ينظر اليهم ويحض على نصر الرسول بما لا يضره هل يمكن مثل هذا في العادة إلا ان يكون منه حركة ما الى نصر الرسول ؟ فمن المعلوم ان هذا ممتنع ؛ فلماذا كان الجهاد المتعين بحسب الامكان من الايمان ، وكان عدمه دليلاً على انتفاء حقيقة الايمان ، بل قد ثبت في الصحيح عنه « من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة نفاق » وفي الحديث دلالة على انه يكون فيه بغض شعب النفاق ، مع ما معه من الايمان ، ومنه قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) .

و « ايضاً » فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وفي رواية « وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل ». فهذا يبين أن القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كان عادماً للإيمان، والبغض والحب من أعمال القلوب . ومن المعلوم أن إبليس ونحوه يعلمون أن الله عز وجل حرم هذه الأمور ولا يبغضونها بل يدعون إلى ما حرم الله ورسوله .

و « أيضاً » فهؤلاء القائلون بقول جهنم والصالحي قد صرحوا بأن سب الله ورسوله ؛ والتكلم بالتثليث وكل كلمة من كلام الكفر ليس هو كفراً في الباطن ولكنه دليل في الظاهر على الكفر ويجوز مع هذا أن يكون هذا الساب الشاتم في الباطن عارفاً بالله موحداً له مؤمناً به فإذا أقيمت عليهم حجة بنص أو إجماع أن هذا كافر باطنياً وظاهراً . قالوا : هذا يقتضي أن ذلك مستلزم للتكذيب الباطن وأن الإيمان يستلزم عدم ذلك ؛ فيقال لهم : معنا امران معلومان .

(أحدهما) : معلوم بالاضطرار من الدين . و (الثاني) ، معلوم بالاضطرار من أنفسنا عند التأمل .

أما « الأول » : فإنا نعلم أن من سب الله ورسوله طوعاً بغير كره ؛ بل من تكلم بكلمات الكفر طائفاً بغير كره ، ومن استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو

كافر باطنياً وظاهراً ، وان من قال : ان مثل هذا قد يكون في الباطن مؤمناً بالله وإنما هو كافر في الظاهر ، فانه قال قولاً معلوم الفساد بالضرورة من الدين . وقد ذكر الله كلمات الكفار في القرآن وحكم بكفرهم واستحقاقهم الوعيد بها ، ولو كانت أقوالهم الكفرية بمنزلة شهادة الشهود عليهم ، او بمنزلة الاقرار الذي يغلط فيه المقر لم يجعلهم الله من اهل الوعيد بالشهادة التي قد تكون صدقاً ، وقد تكون كذباً ، بل كان ينبغي ان لا يعذبهم الا بشرط صدق الشهادة وهذا كقوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) وأمثال ذلك .

وأما « الثاني » : فالقلب اذا كان معتقداً صدق الرسول ، وانه رسول الله ، وكان محباً لرسول الله معظماً له ، امتنع مع هذا ان يلغنه ويسبه فلا يتصور ذلك منه إلا مع نوع من الاستخفاف به وبجرمته ، فعلم بذلك ان مجرد اعتقاد انه صادق لا يكون إيماناً إلا مع محبته وتعظيمه بالقلب .

و « ايضاً » فان الله سبحانه قال : (ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) وقال : (ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) فتبين ان الطاغوت يؤمن به ويكفر به . ومعلوم ان مجرد التصديق بوجوده وما هو عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر ؛ فان الأصنام والشيطان والسحر يشترك في العلم بحاله المؤمن والكافر . وقد قال الله تعالى في السحر : (حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون

منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه) الى قوله : (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) فهؤلاء الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، يعلمون انه لا خلاق لهم في الآخرة ومع هذا فيكفرون .

وكذلك المؤمن بالجيت والطاغوت إذا كان عالماً بما يحصل بالسحر من التفريق بين المرء وزوجه ونحو ذلك من الجيت ، وكان عالماً بأحوال الشيطان والأصنام وما يحصل بها من الفتنة لم يكن مؤمناً بها مع العلم بأحوالها . ومعلوم انه لم يعتقد احد فيها انها تخلق الأعيان ؛ وانها تفعل ما تشاء ونحو ذلك من خصائص الربوبية ، ولكن كانوا يعتقدون انه يحصل بعبادتها لهم نوع من المطالب ، كما كانت الشياطين تخاطبهم من الأصنام وتخبرهم بأمر . وكما يوجد مثل ذلك في هذه الأزمان في الأصنام التي يعبدها اهل الهند والصين والترك وغيرهم ، وكان كفرهم بها الخضوع لها والدعاء والعبادة واتخاذها وسيلة ونحو ذلك ، لا مجرد التصديق بما يكون عند ذلك من الآثار ، فان هذا يعلمه العالم من المؤمنين ويصدق بوجوده ، لكنه يعلم ما يترتب على ذلك من الضرر في الدنيا والآخرة فيغيضه ؛ والكافر قد يعلم وجود ذلك الضرر لكنه يحمله حب العاجلة على الكفر .

يبين ذلك قوله : (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم .

ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وان الله لا يهدي القوم الكافرين. اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون. لاجرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون) فقد ذكر تعالى من كفر بالله من بعد ايمانه وذكر وعيده في الآخرة ، ثم قال (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) . وبين تعالى ان الوعيد استحقوه بهذا. ومعلوم ان باب التصديق والتكذيب والعلم والجهل ليس هو من باب الحب والبغض ، وهؤلاء يقولون إنما استحبوا الوعيد لزوال التصديق والايان من قلوبهم ، وان كان ذلك قد يكون سببه حب الدنيا على الآخرة ، والله سبحانه وتعالى جعل استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران ، واستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر في الآخرة ، وبأنه ماله في الآخرة من خلاق .

و « ايضاً » فانه سبحانه استثنى المكروه من الكفار ، ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكروه ؛ لأن الاكراه على ذلك ممتنع فعلم ان التكلم بالكفر كفر لا في حال الاكراه .

وقوله تعالى : (ولكن من كفر صدراً) أي : لاستحبابه الدنيا على الآخرة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » والآية نزلت في عمار بن ياسر ، وبلال بن رباح ، وأمثالهما من المؤمنين .

المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من اجاب بلسانه كعمار ، ومنهم من صبر على المحنة كبلال ، ولم يكره احد منهم على خلاف ما في قلبه بل أكرهوا على التكلم ، فمن تكلم بدون الاكراه . لم يتكلم إلا وصدرة منشرح به .

وأيضاً فقد جاء نفر من اليهود الى النبي ، فقالوا : نشهد انك لرسول ، ولم يكونوا مسلمين بذلك ؛ لأنهم قالوا ذلك على سبيل الاخبار عما في أنفسهم أي نعلم ونجزم أنك رسول الله ، قال : «فلم لاتبعوني» ؛ قالوا : نخاف من يهود فعلم أن مجرد العلم والخبر عنه ليس بايمان حتى يتكلم بالايمان على وجه الانشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الاخبار عما في انفسهم .

فالنافقون قالوا مخبرين كاذبين ، فكانوا كفاراً في الباطن ، وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين ، فكانوا كفاراً في الظاهر والباطن ؛ وكذلك ابو طالب قد استفاض عنه انه كان يعلم بنبوته محمد وأنشد عنه :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دنيا

لكن امتنع من الاقرار بالتوحيد والنبوة جأ لدين سلفه ، وكراهة ان يعيره قومه ، فلما لم يقتزن بعلمه الباطن الحب والانقياد الذي يمنع ما يصاد ذلك من حب الباطل وكراهة الحق لم يكن مؤمناً .

واما ابليس وفرعون واليهود. ونحوهم فسا قام بأنفسهم من الكفر وإرادة
العلو والحسد منع من حب الله . بعبادة القلب له الذي لا يتم الايمان إلا به
وصار في القلب من كراهية رضوان الله واتباع ما اسخطه ما كان كفراً
لاينفع معه العلم .

فصل

والتفاضل في الايمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من
وجوه متعددة :

(احدها) الأعمال الظاهرة : فان الناس يتفاضلون فيها ، وتزيد وتنقص
وهذا مما اتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان ، لكن نزاعهم في دخول
ذلك في مسمى الايمان . فالنفاة يقولون هو من ثمرات الايمان ، ومقتضاه فأدخل
فيه مجازاً بهذا الاعتبار وهذا معنى زيادة الايمان عندهم ونقصه ، اي زيادة ثمراته
ونقصاتها ، فيقال قد تقدم ان هذا من لوازم الايمان وموجباته ، فانه يمتنع ان
يكون ايمان تام في القلب بلا قول ولا عمل ظاهر ، واما كونه لازماً او جزءاً
منه فهذا يختلف بحسب حال استعمال لفظ الايمان مفرداً او مقروناً بلفظ
الاسلام ، والعمل كما تقدم .

واما قولهم الزيادة في العمل الظاهر لا في موجبه ومقتضيه فهذا غلط ،

فان التفاضل معلول الأشياء . ومقتضاها يقتضى تفاضلها فى انفسها ، وإلا فاذا تماثلت الأسباب الموجبة لزم تماثل موجبها ومقتضاها ، فتفاضل الناس فى الأعمال الظاهرة يقتضى تفاضلهم فى موجب ذلك ، ومقتضيه ومن هذا يتبين :

- (الوجه الثانى) : فى زيادة الايمان ونقصه : وهو زيادة اعمال القلوب ونقصها فانه من المعلوم بالنزوق الذى يجده كل مؤمن ، ان الناس يتفاضلون فى حب الله ورسوله وخشية الله والانابة اليه والتوكل عليه والاخلاص له ، وفى سلامة القلوب من الرياء ، والكبر والعجب ، ونحو ذلك ، والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الاخلاق الايمانية ، وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، من كان الله ورسوله احب اليه مما سواها ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار » وقال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وابناؤكم وازواجكم واهوانكم وازواجكم وعشيرتكم) الى قوله : (احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله انى لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده » وقال : « لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » وقال له عمر يارسول الله ! لانت احب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، قال : لا يا عمر ! حتى اكون احب إليك من نفسك ، قال : فلانت احب إلي من نفسي ، قال : الآن يا عمر ! » .

وهذه الاحاديث ونحوها في الصحاح ، وفيها بيان تفاضل الحب والخشية وقد قال تعالى : (والذين آمنوا اشد حباً لله) وهذا امر يمجده الانسان في نفسه فانه قد يكون الشيء الواحد يحبه نارة أكثر مما يحبه نارة ، ويخافه نارة أكثر مما يخافه نارة ، ولهذا كان اهل المعرفة من اعظم الناس قولاً بدخول الزيادة والنقصان فيه ، لما يجدون من ذلك في انفسهم ، ومن هذا قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم . فزادهم ايماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) وإنما زادهم طمأنينة وسكوناً .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً » .

(الوجه الثالث) : ان نفس التصديق والعلم في القاب يتفاضل باعتبار الاجمال والتفصيل ، فليس تصديق من صدق الرسول مجملاً من غير معرفة منه بتفاصيل اخباره ، كمن عرف ما اخبر به عن الله واسمائه وصفاته ، والجنة والنار والأمم وصدته في ذلك كله ، وليس من التزم طاعته مجملاً ، ومات قبل ان يعرف تفصيل ما امره به كمن عاش حتى عرف ذلك مفصلاً واطاعه فيه .

(الوجه الرابع) : ان نفس العلم والتصديق يتفاضل ويتفاوت كما يتفاضل سائر صفات الحي من القدرة ، والارادة ، والسمع والبصر ، والكلام ، بل سائر الاعراض من الحركة والسواد والبياض ونحو ذلك ؛ فاذا كانت القدرة على الشيء تتفاوت فكذلك الاخبار عنه يتفاوت ، واذا قال القائل العلم بالشيء

الواحد لا يتفاضل كان بمنزلة قوله القدرة على المقدور الواحد لا يتفاضل وقوله ورؤية الشيء الواحد لا يتفاضل ومن المعلوم ان الهلال المرئي يتفاضل الناس في رؤيته ، وكذلك سمع الصوت الواحد يتفاضلون في إدراكه ، وكذلك الكلمة الواحدة يتكلم بها الشخصان ويتفاضلون في النطق بها ، وكذلك شم الشيء الواحد وذوقه يتفاضل الشخصان فيه .

فما من صفة من صفات الحي وانواع ادراكاته ، وحركاته ، بل وغير صفات الحي ، إلا وهي تقبل التفاضل والتفاوت الى ما لا يحصره البشر ، حتى يقال : ليس احد من المخلوقين يعلم شيئاً من الأشياء مثل ما يعلمه الله من كل وجه ، بل علم الله بالشيء اكمل من علم غيره به كيف ما قدر الأمر ، وليس تفاضل العلمين من جهة الحدوث والتقدم فقط ؛ بل من وجوه اخرى ، والانسان يجد في نفسه ان علمه بمعلومه يتفاضل حاله فيه كما يتفاضل حاله في سماعه لمسموعه ؛ ورؤيته لمرئيه ، وقدرته على مقدوره ، وجهه لمحبوبه ، وبغضه لبيغضه ، ورضاه بمرضيه ، وسخطه لمسخوطه وإرادته لمراده وكرهيته لمكروهه ومن انكر التفاضل في هذه الحقائق كان مسفطاً .

(الوجه الخامس) : ان التفاضل يحصل من هذه الأمور من جهة الأسباب المقتضية لها ؛ فمن كان مستند تصديقه ومحجته أدلة توجب اليقين ، وتبين فساد الشبهة العارضة ، لم يكن بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك ، بل من جعل له علوم ضرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمنزلة من تعارضه

الشبه ويريد إزالتها بالنظر والبحث ، ولا يستريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها ، وبفساد الشبه المعارضة لذلك ، وبيان بطلان حجة المحتج عليها ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له ؛ فإن الشيء كلما قويت أسبابه وتعددت وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكأله ، وقوته وتمامه .

(الوجه السادس) : أن التفاضل يحصل في هذه الأمور من جهة دوام ذلك وثباته وذكره واستحضاره ، كما يحصل بغض من جهة الغفلة عنه والاعراض والعلم والتصديق والحب والتعظيم وغير ذلك ، فما في القلب هي صفات وأعراض وأحوال تدوم وتحصل بدوام أسبابها وحصول أسبابها . والعلم وإن كان في القلب فالغفلة تنافي تحققه ، والعالم بالشيء في حال غفلته عنه دون العالم بالشيء في ذكره له . قال عمير بن حبيب الخطمي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : الإيمان يزيد وينقص ، قالوا : وما زيادته ونقصه ؟ قال : إذا حمدنا الله وذكرناه وسبحناه فذلك زيادته ، فإذا غفلنا ونسينا وضعنا فذلك نقصانه .

(الوجه السابع) أن يقال : ليس فيما يقوم بالإنسان من جميع الأمور أعظم تفضلاً وتفاوتاً من الإيمان ، فكلمة تقرر اثباته من الصفات والافعال مع تفضله ، فالإيمان أعظم تفضلاً من ذلك . مثال ذلك أن الإنسان يعلم من نفسه تفاضل الحب الذي يقوم بقلبه ، سواء كان حباً لولده أو لامرأته

او لرياسته او وطنه او صديقه او صورة من الصور او خيله او بستانه او ذهبه او فضته وغير ذلك من أمواله ، فكما ان الحب اوله علاقة لتعلق القلب بالمحروب ، ثم صباية لانصباب القلب نحوه ، ثم غرام للزومه القلب كما يلزم الغريم غريمه ، ثم يصير عشقاً الى ان يصير تيمماً — والتتيم التبعيد وتيم الله عبد الله — فيصير القلب عبداً للمحروب مطيعاً له لا يستطيع الخروج عن امره ، وقد آل الامر بكثير من عشاق الصور الى ماهو معروف عند الناس ، مثل من حمّله ذلك على قتل نفسه وقتل معشوقه او الكفر والردة عن الاسلام او افضى به الى الجنون وزوال العقل ، او اوجب خروجه عن المحبوبات العظيمة من الاهل والمال والرياسة او أمراض جسمه واسنانه .

فمن قال الحب لا يزيد ولا ينقص كان قوله من اظهر الاقوال فساداً ، ومعلوم ان الناس يتفاضلون في حب الله أعظم من تفاضلهم في حب كل محبوب ، فهو سبحانه اتخذ ابراهيم خليلاً ، واتخذ محمداً ايضاً خليلاً ، كما استفاض عنه انه قال : « لو كنت متخذاً خليلاً من اهل الارض لاتخذت ابا بكر خليلاً ؛ ولكن صاحبكم خليل الله » يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم . وقال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً » والحلّة أخص من مطلق المحبة ، فان الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين يحبون الله ويحبهم الله ، كما قال : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) الآية . وقال تعالى : (والذين آمنوا اشد حباً لله) وقد اخبر الله انه يحب المتقين ، ويحب المقسطين ، ويحب التوايين ، ويحب المتطهرين ، ويحب

الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بحبه لغير واحد كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح انه قال للحسن واسامة : « اللهم اني احبها فأحبها وأحب من يحبها » وقال له عمرو بن العاص أي الناس احب إليك؟ قال : عائشة ، قال فمن الرجال؟ قال : أبوها . وقال : « والله إني لأحبكم » .

والناس في حب الله يتفاوتون ما بين افضل الخلق محمد و ابراهيم إلى ادنى الناس درجة ، مثل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وما بين هذين الحدين من الدرجات لا يحصيه إلا رب الارض والسماوات ، فانه ليس في أجناس المخلوقات ما يتفاضل بعضه على بعض كبنى آدم فان الفرس الواحدة ما تبلغ ان تساوي ألف ألف ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابي ذر انه كان جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ مر به رجل من اشراف الناس ، فقال : « يا ابا ذر اتعرف هذا؟ » قلت : نعم يا رسول الله ! هذا حرى إن خطب ان ينكح ، وان قال ان يسمع لقوله ، وإن غاب ان يسأل عنه ، ثم مر برجل من ضعفاء المسلمين ، فقال : « يا ابا ذر ! اتعرف هذا؟ » قلت : نعم يا رسول الله ! هذا رجل من ضعفاء الناس ، هذا حرى إن خطب ان لا ينكح ، وان قال ان لا يسمع لقوله ، وان غاب ان لا يسأل عنه ، فقال : « يا ابا ذر ! لهذا خير من ملء الارض مثل هذا » .

فقد اخبر الصادق الذي لا يجاوز فيما يقول : ان الواحد من بنى آدم

يكون خيراً من ملء الارض من الآدميين ، وإذا كان الواحد منهم افضل من الملائكة ، والواحد منهم شر من البهائم كان التفاضل الذي فيهم اعظم من تفاضل الملائكة . واصل تفاضلهم إنما هو بمعرفة الله ومحبه ، فعلم ان تفاضلهم في هذا لا يضبطه الا الله ، وكل ما يعلم من تفاضلهم في حب الشيء من محبوباتهم فتفاضلهم في حب الله اعظم .

وهكذا تفاضلهم في خوف ما يخافونه ، وتفاضلهم في الذل والخضوع لما يذلون له ويخضعون ، وكذلك تفاضلهم فيما يعرفونه من المعروفات ، وصدقون به ويقرون به ، فان كانوا يتفاضلون في معرفة الملائكة وصفاتهم ، والتصديق بهم فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته ، والتصديق به اعظم .

وكذلك إن كانوا يتفاضلون في معرفة روح الانسان وصفاتها والتصديق بها ، او في معرفة الجن وصفاتهم وفي التصديق بهم ، او في معرفة ما في الآخرة من النعيم والعذاب — كما اخبروا به من المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمسكنات — فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به اعظم من تفاضلهم في معرفة « الروح » التي هي النفس الناطقة . ومعرفة ما في الآخرة من النعيم والعذاب ؛ بل ان كانوا متفاضلين في معرفة ابدانهم وصفاتها وصحتها ومرضاها وما يتبع ذلك فتفاضلهم في معرفة الله اعظم واعظم ؛ فان كل ما يعلم ويقال يدخل في معرفة الله ، إذ لا موجود الا وهو خلقه وكل ما في المخلوقات من الصفات والأسماء والأقدار والأفعال فانها شواهد ودلائل على

ما لله سبحانه من الاسماء الحسنى والصفات العلى ، اذ كل كمال فى المخلوقات فمن اثر كماله ، وكل كمال ثبت لمخلوق فالخالق احق به ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق احق بتنزيهه عنه ، وهذا على طريق كل طائفة واصطلاحها . فهذا يقول كمال المعلول من كمال علته ، وهذا يقول كمال المصنوع المخلوق من كمال صانعه وخالقه .

وفى الحديث الذي رواه احمد فى المسند ورواه ابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما اصاب ببدأم ولا حزن فقال : اللهم انى عبدك ، ابن امتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، او انزلته فى كتابك ، او علمته احداً من خلقك ، او استأثرت به فى علم الغيب عندك ، ان تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري وجلاء حزني ، وذهب همي الا اذهب الله همه وحزنه وابدله مكانه فرحاً » . قالوا : يارسول الله ! الا تتعلمهن ؟ قال : « بلى ينبغى لمن سمعن ان يتعلمهن » .

فقد اخبر فى هذا الحديث ان لله اسما استأثر بها فى علم الغيب عنده ، واسماء الله متضمنة لصفاته ليست اسما اعلام محضة ، بل اسماؤه تعالى : كالعليم والقدير والسميع والبصير والرحيم والحكيم ونحو ذلك كل اسم يدل على ما لم يدل عليه الاسم الآخر من معانى صفاته مع اشتراكها كلها فى الدلالة على ذاته ، واذا كان من اسمائه ما اختص هو بمعرفته ، ومن اسمائه ما خص به

من شاء من عباده ، علم ان تفاضل الناس في معرفته اعظم من تفاضلهم في معرفة كل ما يعرفونه .

وبهذا يتبين لك ان من زعم من اهل الكلام والنظر انهم عرفوا الله بحق معرفته ، بحيث لم يبق له صفة الا عرفوها ، وان ما لم يعرفوه ولم يقيم لهم دليل على ثبوته كان معدوماً منتفياً في نفس الامر ، قوم غالطون مخطئون مبتدعون ضالون وحجتهم في ذلك داحضة ، فان عدم الدليل القطعي والظني على الشيء دليل على انتفائه إلا أن يعلم ان ثبوته مستلزم لذلك الدليل . مثل ان يكون الشيء لو وجد لتوفرت الهمم والدواعي على نقله ، فيكون هذا لازماً لثبوته ، فيستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم ؛ كما يعلم انه لو كان بين الشام والحجاز مدينة عظيمة مثل بغداد ومصر لكان الناس ينقلون خبرها ، فاذا نقل ذلك واحد واثنان وثلاثة علم كذبهم .

وكما يعلم انه لو ادعى النبوة أحد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مثل مسلمة والعنسي وطلحة وسجاح لنقل الناس خبره كما نقلوا أخبار هؤلاء ، ولو عارض القرآن معارض أتى بما يظن الناس انه مثل القرآن ، لنقل كما نقل قرآن مسلمة الكذاب ، وكما نقلوا الفصول والغايات لأبي العلاء المعري وكما نقلوا غير ذلك من اقوال المعارضين لو بخرافات لا يظن عاقل انها مثله ، فكان النقل لما تظهر فيه المشابهة والمماثلة أقوى . في العادة والطبع في ذلك وأرغب — سواء كانوا محيين او مبغضين — هذا امر جبل عليه بنوا آدم .

كما يعلم ان علي بن ابي طالب لو طلب الخلافة على عهد ابي بكر وعمر
وعثمان وقاتل عليها لنقل ذلك الناس كما نقلوا ما جرى بعد هؤلاء ؛ كما يعلم
ان النبي صلى الله عليه وسلم لو امره ان يصلي بالناس صلاتهم لنقلوا ذلك ، كما نقلوا
امرهم لابي بكر وصلاته بالناس ، وكما يعلم انه لو عهد له بالخلافة لنقلوا ذلك كما
نقلوا ما دونه ؛ بل كما يعلم انه لم يكن يجتمع هو واصحابه على استماع دف او كف
ولا على رقص وزمر ؛ بل كما يعلم انه لم يكن بعد الصلوات يجتمع هو وهم على
دعاء ورفع أيد ، ونحو ذلك ، إذ لو فعل ذلك لنقلوه ، بل كما يعلم انه لم يصل في
السفر الظهر والعصر والعشاء اربعا ، وانه لو صلى في السفر اربعا بعض الاوقات
لنقل الناس ذلك كما نقلوا جمعه بين الصلاتين بعض الاوقات .

بل كما يعلم انه لم يكن يصلي المكتوبات وحده بل انما كان يصليهن في
الجماعة ؛ بل كما يعلم انه لم يكن هو واصحابه يحملون التراب في السفر للتميم ،
ولا يصلون كل ليلة على من يموت من المسلمين ، ولا ينوون الاعتكاف كلما
دخلوا مسجدا للصلاة ؛ بل كما يعلم انه لم يصل على غائب غير النجاشي ؛ بل كما
يعلم انه لو كان دائما يقنت في الفجر او غيرها بقنوت مسنون يجهر به لنقل الناس
ذلك — كما نقلوا قنوته العارض الذي دعا فيه لقوم وعلى قوم ، وكان نقلهم
لذلك اوكد — وكما يعلم انه لما صلى بعرفة ومزدلفة قصرأ وجعلوا امر احدأ
خلفه ان يتم صلاته او ان لا يجمع معه لنقل الناس ذلك كما نقلوا ما هو
دون ذلك .

وكما يعلم انه لم يأمر الحيض في زمانه المتبتدآت بالحيض ان يغتسلن عند انقضاء يوم وليلة ، وانه لم يأمر أصحابه ان يغسلوا ما يصيب ابدانهم وثيابهم من المني ، وانه لم يوقت للناس لفظاً معيناً لا في نكاح ولا في بيع ولا إجارة ولا غير ذلك ولما حج حجة الوداع لم يعتمر عقيب الحج ، وانه لما افاض من منى الى مكة يوم النحر ما طاف وسعى اولاً ثم طاف ثانياً الى غير ذلك مما يطول ذكره . ومن تتبع كتب الصحيحين ونحوها من الكتب المعتمدة ، ووقف على اقوال الصحابة والتابعين ومن قفا منهاجهم من الأئمة المرضيين — قديماً وحديثاً — علم صحة ما اوردناه في هذا الباب .

و (المقصود هنا) ان المدلول اذا كان وجوده مستلزماً لوجود دليله كان انتفاء دليله دليلاً على انتفائه ، اما اذا امكن وجوده وامكن ان لا نعلم نحن دليل ثبوته لم يكن عدم علمنا بدليل وجوده دليلاً على عدمه ، فأسماء الله وصفاته اذا لم يكن عندنا ما يدلنا عليها لم يكن ذلك مستلزماً لانتفائها اذ ليس في الشرع ولا في العقل ما يدل على ان لا بد ان نعلم كل ما هو ثابت له تعالى من الأسماء والصفات ، بل قد قال افضل الخلق واعلمهم بالله في الحديث الصحيح « لا احصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك » وفي الحديث الصحيح حديث الشفاعة « فأخر ساجداً فأحمد ربي بمحمد يفتحها علي لا احصيها الآن » .

فاذا كان افضل الخلق لا يحصى ثناء عليه ، ولا يعرف الآن محامده التي يحمده بها عند السجود للشفاعة ؛ فكيف يكون غيره عارفاً بجميع محامد الله

والثناء عليه وكل ما له من الأسماء الحسنى ، فإنه داخل في محامده وفيما يثنى عليه به وإذا كان كذلك فمن كان بماله من الأسماء والصفات اعلم واعرف كان بالله اعلم واعرف ؛ بل من كان بأسماء النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته اعلم ، كان بالنبي صلى الله عليه وسلم اعلم ، فليس من علم أنه نبي كمن علم أنه رسول ولا من علم أنه رسول كمن يعلم أنه خاتم الرسل ، ولا من علم أنه خاتم الرسل كمن علم أنه سيد ولد آدم ، ولا من علم ذلك كمن علم ما خصه الله به من الشفاعة والحوض والمقام المحمود والملة وغير ذلك من فضائله صلى الله عليه وسلم ، وليس كل من جهل شيئاً من خصائصه يكون كافراً ، بل كثير من المؤمنين لم يسمع بكثير من فضائله وخصائصه ، فكذلك ليس كل من جهل بعض أسماء الله وصفاته يكون كافراً ، اذ كثير من المؤمنين لم يسمع كثيراً مما وصفه به رسوله ، واخبر به عنه .

فهذه الوجوه ونحوها مما تبين تفاضل الايمان الذي في القلب ؛ واما تفاضلهم في الاقوال والاعمال الظاهرة فلا نشبهه على احد والله اعلم .

فصل

إذا تبين هذا وعلم ان الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الامور الظاهرة من الاقوال الظاهرة، والاعمال الظاهرة؛ كما ان القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد، وانه يتمتع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه، زالت « الشبه العلمية » في هذه المسألة، ولم يبق الا « نزاع لفظي » في ان موجب الإيمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مساهم فيكون لفظ الإيمان دالا عليه بالتضمن والعموم؛ او هو لازم للإيمان، ومعلول له وثمره له، فتكون دلالة الإيمان عليه بطريق اللزوم؟

و « حقيقة الامر » ان اسم الإيمان يستعمل نارة هكذا ونارة هكذا، كما قد تقدم؛ فاذا قرن اسم الإيمان بالاسلام او العمل كان دالا على الباطن فقط. وان افراد اسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظاهر، وبهذا تألف النصوص. فقوله: « الإيمان بضع وسبعون شعبة: اعلاها قول لا إله إلا الله، وادناها الماطة الأذى عن الطريق والحياة شعبة من الأيمان ». افرد لفظ الأيمان فدخل فيه الباطن والظاهر، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل: « الإيمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » ذكره مع قوله صلى الله عليه وسلم: « الاسلام ان تشهد الا اله الا الله وأن محمداً رسول

الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت « فلما افزده عن اسم الاسلام ذكر ما يخصه الاسم في ذلك الحديث مجرداً عن الاقتران . وفي هذا الحديث مقرون باسم الاسلام ، وقوله تعالى : (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) دخل فيه الباطن فلو أتى بالعمل الظاهر دون الباطن لم يكن ممن اتى بالدين الذي هو عند الله الاسلام .

واما اذا قرن الاسلام بالايمان كما في قوله تعالى : (قالت الاعراب آمنا قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : اسلمنا) وقوله : (فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وقوله تعالى : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) فقد يراد بالاسلام الأعمال الظاهرة كما في حديث انس الذي في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الاسلام علانية والايمان في القلب » . ومن علم ان دلالة اللفظ تختلف بالافراد والاقتران ، كما في اسم الفقير والمسكين والمعروف والمنكر والبغي وغير ذلك من الأسماء ، وكما في لغات سائر الأمم ؟ عربها وعجمها ، زاحت عنه الشبهة في هذا الباب والله اعلم .

فان قال قائل : اسم « الايمان » إنما يتناول الأعمال مجازاً ، قيل : « أولاً » ليس هذا بأولى ممن قال : انما تخرج عنه الأعمال مجازاً ، بل هذا اقوى لأن خروج العمل عنه انما هو اذا كان مقروناً باسم الاسلام والعمل ، وما دخل العمل فيه فاذا افرد كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبة

اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياة
شعبة من الايمان « فاما يدل مع الاقتران اولى باسم المجاز مما يدل عند
التجريد والاطلاق .

وقيل له « ثانياً » لانزاع في ان العمل الظاهر هو فرع عن الباطن وموجب
له ومقتضاه ؛ لكن هل هو داخل في مسمى الاسم وجزء منه ، او هو لازم للمسمى
كالشرط المفارق ، والموجب التابع ؛ ومن المعلوم ان الأسماء الشرعية
والدينية : كاسم « الصلاة » و « الزكاة » و « الحج » ونحو ذلك هي بانطاق
الفقهاء اسم لمجموع الصلاة الشرعية والحج الشرعي ، ومن قال ان الاسم إنما
يتناول ما يتناوله عند الاطلاق في اللغة . وأما زاده الشارع إنما هو زيادة في
الحكم وشرط فيه لا داخل في الاسم ، كما قال ذلك القاضي ابو بكر بن الطيب
والقاضي ابو يعلى ، ومن وافقها ، على ان الشرع زاد احكاماً شرعية جعلها
شروطاً في القصد ، والأعمال والدعاء ؛ ليست داخلة في مسمى الحج والصيام ،
والصلاة ، فقولهم مرجوح عند الفقهاء وجاهير المنسويين الى العلم ؛ ولهذا كان
الجمهور من اصحاب الأئمة الأربعة على خلاف هذا القول .

فاذا قال قائل : ان اسم « الايمان » انما يتناول مجرد ما هو تصديق ، واما
كونه تصديقاً بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، وكون ذلك مستلزمياً لحب الله
ورسوله ونحو ذلك هو شرط في الحكم لادخال في الاسم ان لم يكن أضعف
من ذلك القول فليس دونه في الضعف ، فكذلك من قال : الأعمال الظاهرة

لوازم للباطن ، لا تدخل في الاسم عند الاطلاق يشبه قوله قول هؤلاء ،
والشارع اذا قرن بالايان العمل فكما يقرن بالحج ماهو من تمامه ، كما اذا قال
من حج البيت وطاف وسعى ووقف بعرفة ورمى الجمار ؛ ومن صلى فقرأ
وركع وسجد ، كما قال من صام رمضان ايماناً واحتساباً ، ومعلوم انه لم يكن
صوماً شرعياً ان لم يكن ايماناً واحتساباً .

وقال : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم
ولدته امه » ومعلوم ان الرفث الذي هو الجماع يفسد الحج والفسوق ينقص
ثوابه ، وكما قال صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل
ذبيحتنا » . فلا يكون مصلياً أن لم يستقبل قبلتنا في الصلاة ، كما قال صلى الله
عليه وسلم : « خمس صلوات كتبهن الله على العبد في اليوم واللييلة ، من حافظ
عليهن كان له عهد عند الله ان يدخله الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند
الله عهد ، ان شاء عذبه وان شاء غفر له » فذكر المحافظ عليها ومعلوم
انه لا يكون مصلياً لها على الوجه الامور الا بالمحافظة عليها . ولكن بين ان
الوعيد مشروط بذلك ، ولهذا لا يانزم من عدم المحافظة ان لا يصلحها بعد الوقت
فلا يكون محافظاً عليها . اذ المحافظة تستلزم فعلها كما قال : (حافظوا على
الصلوات والصلاة الوسطى) نزلت لما اخرت العصر عام الخندق ، قال النبي
صلى الله عليه سلم : « ملأ الله اجوافهم وقيورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة
الوسطى حتى غابت الشمس » .

وبهذا يظهر ان الاحتجاج بذلك على ان تارك الصلاة لا يكفر حجة ضعيفة ، لكنه يدل على ان تارك المحافظة لا يكفر ، فاذا صلاها بعد الوقت لم يكفر ؛ ولهذا جاءت في « الأمراء » الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها قيل : يارسول الله ! ألا نقاتلهم ؟ قال : « لا ، ما صلوا » وكذلك لما سئل ابن مسعود عن قوله تعالى : (اضاعوا الصلاة) قال هو تأخيرها عن وقتها ، فقيل له : كنا نظن ذلك تركها ، فقال : لو تركوها كانوا كفاراً .

والمقصود انه قد يدخل في « الاسم المطلق » امور كثيرة ، وان كانت قد تخص بالذكر .

وقيل لمن قال : دخول الأعمال الظاهرة في اسم الايمان مجاز نزاعك لفظي ؛ فانك اذا سلمت ان هذه لوازم الايمان الواجب الذي في القلب وموجباته كان عدم اللازم موجباً لعدم الملزوم ، فيلزم من عدم هذا الظاهر عدم الباطن ، فاذا اعترفت بهذا كان النزاع لفظياً وان قلت : ماهو حقيقة قول جهنم وأتباعه من انه يستقر الايمان التام الواجب في القلب مع اظهار ماهو كفر ، وترك جميع الواجبات الظاهرة ، قيل لك : فهذا يناقض قولك ان الظاهر لازم له وموجب له ، بل (قيل) : حقيقة قولك ان الظاهر يقارن الباطن تارة ويفارقه اخرى فليس بلازم له ولا موجب ومعلول له ، ولكنه دليل اذا وجد دل على وجود الباطن ، واذا عدم لم يدل عدمه على العدم ، وهذا حقيقة قولك .

وهو أيضاً خطأ عقلاً كما هو خطأ شرعاً ، وذلك ان هذا ليس بدليل قاطع اذ هذا يظهر من المناقق فإما يبقى دليلاً في بعض الامور المتعلقة بدار الدنيا كدلالة اللفظ على المعنى ، وهذا حقيقة قولك ، فيقال لك : فلا يكون ما يظهر من الأعمال ثمرة للإيمان الباطن ولا موجباً له ومن مقتضاه ، وذلك ان المقتضي لهذا الظاهر ان كان هو نفس الإيمان الباطن لم يتوقف وجوده على غيره ، فان ما كان معلولاً للشيء وموجباً له لا يتوقف على غيره ، بل يلزم من وجوده وجوده ، فلو كان الظاهر موجب الإيمان الباطن لوجب ان لا يتوقف على غيره ، بل اذا وجد الموجب وجد الموجب .

وأما إذا وجد معه تارة وعدم أخرى امكن ان يكون من موجب ذلك الغير ، وأمکن أن يكون موقوفاً عليها جميعاً ، فان ذلك الغير إما مستقل بالإيمان أو مشارك للإيمان ، وأحسن أحواله أن يكون الظاهر موقوفاً عليها معاً : على ذلك الغير ، وعلى الإيمان ؛ بل قد علم أنه يوجد بدون الإيمان ؛ كما في أعمال المناقق ، فحينئذ لا يكون العمل الظاهر مستلزماً للإيمان ، ولا لازماً له ، بل يوجد معه تارة ومع نقيضه تارة ، ولا يكون الإيمان علة له ولا موجباً ولا مقتضياً ، فيبطل حينئذ أن يكون دليلاً عليه ، لأن الدليل لا بد أن يستلزم المدلول ، وهذا هو الحق فان مجرد التكلم بالشهادتين ليس مستلزماً للإيمان النافع عند الله .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : لسعد لما قال : هو مؤمن . قال « أو

مسلم ؟ » وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن الى الكفار) فذل ذلك على أن مجرد إظهار الاسلام لا يكون دليلاً على الايمان في الباطن ، إذ لو كان كذلك لم تحتج المهاجرات اللاتي جئن مسلمات الى الامتحان ، ودل ذلك على أنه بالامتحان والاختبار يتبين باطن الانسان فيعلم أهو مؤمن أم ليس بمؤمن ؛ كما في الحديث المرفوع : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايان ، فان الله يقول : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله) الآية .»

فاذا قيل : الأعمال الظاهرة تكون من موجب الايمان تارة ، وموجب غيره أخرى ؛ كالتكلم بالشهادتين : تارة يكون من موجب ايمان القلب ، وتارة يكون تقية كايان المنافقين ، قال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) . ونحن اذا قلنا : هي من ثمرة الايمان اذا كانت صادرة عن ايمان القلب لا عن نفاق ، قيل : فاذا كانت صادرة عن ايمان ، اما أن يكون نفس الايمان موجباً لها ، واما ان تقف على أمر آخر ، فاذا كان نفس الايمان موجباً لها ثبت انها لازمة لايمان القلب معلولة لاتفك عنه ، وهذا هو المطلوب ؛ وان توقفت على أمر آخر كان الايمان جزء السبب جعلها ثمرة للجزء الآخر ومعلولة له ، اذ حقيقة الأمر انها معلولة لها وثمرتها لها .

فتبين ان الأعمال الظاهرة الصالحة لا تكون ثمرة للايمان الباطن ومعلولة

له ، الا اذا كان موجباً لها ومقتضياً لها ، وحينئذ فالواجب لازم لموجبه والمعلول لازم لعلته ، واذا نقصت الاعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الايمان ، فلا يتصور مع كمال الايمان الواجب الذي في القلب ان تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة ؛ بل يلزم من وجود هذا كاملاً [وجود هذا كاملاً] كما يلزم من نقص هذا نقص هذا؛ اذ تقدير ايمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه ، وعلّة تامة بلا معلولها ، وهذا ممتنع .

وبهذا وغيره يتبين فساد قول جهم والصالحي ومن اتبعهما في « الايمان » كالأشعري في اشهر قوله ، وأكثر أصحابه ، وطائفة من متأخري اصحاب ابي حنيفة : كالمآريدي ونحوه حيث جعلوه مجرد تصديق في القلب يتساوى فيه العباد ، وانه اما ان يعدم واما ان يوجد لا يتبعض ، وانه يمكن وجود الايمان تاماً في القلب مع وجود التكلم بالكفر والسب لله ورسوله طوعاً من غير اكرام ، وان ما علم من الأقوال الظاهرة ان صاحبه كافر ؛ فلأن ذلك مستلزم عدم ذلك التصديق الذي في القلب ، في الأفعال ” وان الأعمال الصالحة الظاهرة ليست لازمة للايمان الباطن الذي في القلب ؛ بل يوجد ايمان القلب تاماً بدونها فان هذا القول فيه خطأ من وجوه :

(احدها) : أنهم اخرجوا ما في القلوب من حب الله وخشيته ونحو ذلك

(١) بياض في الأصل .

ان يكون من نفس الايمان .

و (ثانيها) جعلوا ما علم ان صاحبه كافر — مثل ابليس وفرعون واليهود و ابي طالب ، وغيرهم — انه انما كان كافراً ؛ لأن ذلك مستلزم لعدم تصديقه في الباطن ، وهذا مكابرة للعقل والحس ، وكذلك جعلوا من يبغض الرسول ويحسده كراهة دينه مستلزماً لعدم العلم بأنه صادق ونحو ذلك .

و (ثالثها) : انهم جعلوا ما يوجد من التكلم بالكفر من سب الله ورسوله والتثليث وغير ذلك قد يكون مجامعاً لحقيقة الايمان الذي في القلب ، ويكون صاحب ذلك مؤمناً عند الله حقيقة . سعيداً في الدار الآخرة ، وهذا يعلم فسادُه بالاضطرار من دين الاسلام .

و (رابعها) : انهم جعلوا من لا يتكلم بالايمان قط مع قدرته على ذلك ، ولا اطاع الله طاعة ظاهرة مع وجوب ذلك عليه وقدرته ، يكون مؤمناً بالله تام الايمان سعيداً في الدار الآخرة . وهذه الفضائح تختص بها الجهمية دون المرجئة من الفقهاء وغيرهم .

و (خامسها) : وهو يلزمهم ويلزم المرجئة . انهم قالوا : ان العبد قد يكون مؤمناً . تام الايمان ، ايمانه مثل ايمان الأنبياء والصديقين ، ولولم يعمل خيراً لا صلاة ولا صلة ولا صدق حديث ، ولم يدع كبيرة الاركها . فيكون

الرجل عندهم ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتّمن خان ، وهو مصر على دوام الكذب والحيانة ونقض العهود لا يسجد لله سجدة ، ولا يحسن إلى احد حسنة ، ولا يؤدي أمانة ، ولا يدع ما يقدر عليه من كذب وظلم وفاحشة إلا فعلها ، وهو مع ذلك مؤمن تام الايمان ، ايمانه مثل ايمان الأنبياء ، وهذا يلزم كل من لم يقل ان الأعمال الظاهرة من لوازم الايمان الباطن ، فاذا قال : إنها من لوازمه ، وأن الايمان الباطن يستلزم عملاً صالحاً ظاهراً كان بعد ذلك قوله : ان تلك الأعمال لازمة لمسمى الايمان ، او جزءاً منه (نزاعاً لفظياً) كما تقدم .

و (سادسها) : أنه يلزمهم ان من سجد للصليب والأوثان طوعاً ، وألقى المصحف في الحش عمداً ، وقتل النفس بغير حق ، وقتل كل من رآه يصلى ، وسفك دم كل من يراه يحج البيت ، وفعل ما فعلته القرامطة بالمسلمين ، يجوز أن يكون مع ذلك مؤمناً ولياً لله ، ايمانه مثل ايمان النبيين والصدّيقين ؛ لأن الايمان الباطن إما ان يكون منافياً لهذه الأمور ، وإما ان لا يكون منافياً ؛ فان لم يكن منافياً أمكن وجودها معه فلا يكون وجودها الا مع عدم الايمان الباطن .

وإن كان منافياً للايمان الباطن كان ترك هذه من موجب الايمان . ومقتضاه ولازمه ، فلا يكون مؤمناً في الباطن الايمان الواجب الا من ترك هذه الأمور فمن لم يتركها دل ذلك على فساد ايمانه الباطن ، واذا كانت الأعمال والتروك

الظاهرة لازمة للإيمان الباطن كانت من موجهه ومقتضاه ، وكان من المعلوم انها تقوى بقوته ، وزيد زيادته ، وتنقص بنقصانه ، فان الشيء المعلول لا يزيد الا بزيادة موجهه ومقتضيه ، ولا ينقص الا بنقصان ذلك ؛ فاذا جعل العمل الظاهر موجب الباطن ومقتضاه لزم ان تكون زيادته لزيادة الباطن فيكون دليلاً على زيادة الايمان الباطن ونقصه لنقص الباطن ، فيكون نقصه دليلاً على نقص الباطن ، وهو المطلوب .

وهذه الأمور كلها اذا تدبرها المؤمن بعقله تبين له ان مذهب السلف هو المذهب الحق ؛ الذي لا عدول عنه ؛ وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح العقول ، وصحيح المنقول كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السلف والأئمة والله أعلم .

وقول جهم ومن وافقه : ان الايمان مجرد العلم والتصديق ، وهو بذلك وحده يستحق الثواب والسعادة ، يشبه قول من قال من الفلاسفة المشائين وأتباعهم : ان سعادة الانسان في مجرد ان يعلم الوجود على ما هو عليه ؛ كما أن قول الجهمية وهؤلاء الفلاسفة في « مسائل الاسماء والصفات » و « مسائل الجبر » والقدر « متقاربان » ، وكذلك في « مسائل الايمان » وقد بسطنا الكلام على ذلك وبيننا بعض ما فيه من الفساد في غير هذا الموضع ، مثل ان العلم هو احد قوتي النفس ، فان النفس لها « قوتان » : قوة العلم والتصديق ، وقوة الارادة والعمل ، كما ان الحيوان له « قوتان » : قوة الحس ، وقوة الحركة بالارادة .

وليس صلاح الانسان في مجرد أن يعلم الحق ، دون ان لا يحبه ويريده ويتبعه ، كما انه ليس سعادته في ان يكون عالماً بالله ، مقرأ بما يستحقه ، دون ان يكون محباً لله ، عابداً لله ، مطيعاً لله ، بل اشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ؛ فاذا علم الانسان الحق وابعضه وعاداه ، كان مستحقاً من غضب الله وعقابه مالا يستحقه من ليس كذلك ؛ كما ان من كان قاصداً للحق طالباً له — وهو جاهل بالمطلوب وطريقه — كان فيه من الضلال ، وكان مستحقاً من اللعنة — التي هي البعد عن رحمة الله — مالا يستحقه من ليس مثله ؛ ولهذا امرنا الله ان نقول : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

و « المغضوب عليهم » علموا الحق فلم يحبوه ولم يتبعوه ، و « الضالون » قصدوا الحق لكن بجهد وضلال به وبطريقه ، فهذا بمنزلة العالم الفاجر ، وهذا بمنزلة العابد الجاهل ، وهذا حال اليهود فانه مغضوب عليهم ، وهذا حال النصارى فانهم ضالون . كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » .

و « المتفلسفة » أسوأ حالاً من اليهود والنصارى ، فانهم جمعوا بين جهل هؤلاء وضلالهم ، وبين فجور هؤلاء وظلمهم ، فصار فيهم من الجهل والظلم ما ليس في اليهود ولا النصارى حيث جعلوا السعادة في مجرد ان يعلموا الحقائق حتى يصير الانسان عالماً معقولاً مطابقاً للعالم الموجود ، ثم لم ينالوا من معرفة الله

واسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وخلقه وامره إلا شيئاً زراً قليلاً ،
فكان جهلهم اعظم من علمهم . وضلالهم اكبر من هدايم ، وكانوا مترددين بين
الجهل البسيط ، والجهل المركب ؛ فان كلامهم في الطبيعات والرياضيات لا يفيد
كمال النفس وصلاحها ، وانا يحصل ذلك بالعلم الالهي ، وكلامهم فيه : لحم جمل
غث على رأس جبل وعمر ، لاسهل فيرتقى ، ولا سهين فينتقل .

فان كلامهم في « واجب الوجود » ما بين حق قليل ، وباطل فاسد كثير ،
وكذلك في « العقول » و « النفوس » التي تزعم اتباعهم من اهل الملل ، انها
الملائكة التي اخبرت بها الرسل ؛ وليس الامر كذلك ، بل زعمهم ان هؤلاء هم
الملائكة من جنس زعمهم ان « واجب الوجود » هو الوجود المطلق بشرط الاطلاق
مع اعترافهم بأن المطلق بشرط الاطلاق لا يكون إلا في الأذهان ، وكذلك
كلامهم في العقول والنفوس يعود عند التحقيق الى امور مقدرة في الأذهان
لا حقيقة لها في الاعيان ، ثم فيه من الشرك بالله وإثبات رب مبدع لجميع العالم
سواء — لكنه معلول له — وإثبات رب مبدع لكل ما تحت فلك القمر هو
معلول الرب ؛ فوجه ذلك الرب معلول لرب فوقه ، ما هو اقبح من كلام
النصارى في قولهم : ان المسيح بن الله بكثير كثير ، كما بسط في غير
هذا الموضوع .

وليس لمقدميهم كلام في « النبوات » ألينة ، ومتأخروهم حارون فيها ، منهم
من يكذب بها ؛ كما فعل ابن زكريا الرازي وامثاله مع قولهم بحدوث العالم .

اثبتوا القدماء الخمسة واخذوا من المذاهب ما هو من شرها وافسدها ؛ ومنهم من يصدق بها مع قوله بقدم العالم ، كابن سينا ، وامثاله ، لكنهم يجعلون النبي بمنزلة ملك عادل ، فيجعلون النبوة كلها من جنس ما يحصل لبعض الصالحين من الكشف والتأثير والتخيل ، فيجعلون خاصة النبي « ثلاثة اشياء » : قوة الحدس الصائب ، التي يسمونه القوة القدسية ، وقوة التأثير في العالم ، وقوة الحدس ، التي بها يسمع ويبصر العقولات متخيلة في نفسه ، فكلام الله عندهم هو ما في نفسه من الأصوات ، وملائكته هي ما في انفسهم من الصور والأنوار وهذه الخصال تحصل لغالب اهل الرياضة والصفاء ؛ فلهذا كانت النبوة عندهم مكتسبة .

وصار كل من سلك سبيلهم — كالسهروردي المقتول وابن سبعين المغربي وامثالهما — يطلب النبوة ويطمع ان يقال له قم فانذر ، هذا يقول : لا اموت حتى يقال لي : (قم فانذر) وهذا يجاور بمكة ويعمد الى غار حراء ، ويطلب ان ينزل عليه فيه الوحي ، كما نزل على المزمل والمدثر مثله ، وكل منها ومن امثالهما يسعى بأنواع السيمياء التي هي من السحر ، ويتوهم ان معجزات الأنبياء كانت من جنس السحر السبائي .

ومن لم يمكنه طلب النبوة وادعائها — لعلمه بقول الصادق المصدوق : « لانبي بعدي » او غير ذلك — كابن عربي وامثاله طلب ما هو اعلا من النبوة وان خاتم الأولياء اعظم من خاتم الأنبياء ، وان الولي يأخذ عن الله بلا واسطة ،

والنبي يأخذ بواسطة الملك ، وبنى ذلك على اصل متبوعيه الفلاسفة فان عدم ما يتصور في نفس النبي او الولي هي الملائكة : من الأشكال النورانية الخيالية ، « فالملائكة » عدم ما يتخيله في نفسه ، و« النبي » عدم ما يتلقى بواسطة هذا التخيل ، و« الولي » يتلقى المعارف العقلية بدون هذا التخيل ، ولا ريب ان من تلقى المعارف بلا تخيل ، كان اكمل ممن تلقاها بتخيل .

فلما اعتقدوا في النبوة ما يعتقد هؤلاء المتفلسفة صاروا يقولون : ان الولاية أعظم من النبوة ، كما يقول كثير من الفلاسفة : ان الفيلسوف أعظم من النبي ؛ فان هذا قول الفارابي ، ومبشر بن فاتك وغيرها ، وهؤلاء يقولون النبوة أفضل الأمور عند الجمهور ؛ لا عند الخاصة . ويقولون خاصة النبي جودة التخيل والتخيل ، فجاء هؤلاء الذين اخرجوا الفلسفة في قالب الولاية ، وغبروا عن المتفلسف بالولي ، وأخذوا معاني الفلاسفة وأبرزوها في صورة المكاشفة والمخاطبة وقالوا : ان الولي أعظم من النبي ، لأن المعاني المجردة يأخذها عن الله بلا واسطة تخيل لشيء في نفسه والنبي يأخذها بواسطة ما يتخيل في نفسه من الصور والاصوات ، ولم يكفهم هذا البهتان ، حتى ادعوا ان جميع الانبياء والرسل يستفيدون العلم بالله من مشكاة خاتم هؤلاء الأولياء الذي هو من أجهل الخلق بالله وأبعدهم عن دين الله والعلم بالله هو عدم بأنه « الوجود المطلق » الساري في الكائنات ، فوجود كل موجود هو عين وجود واجب الوجود .

وحقيقة هذا القول قول الدهرية الطبيعية الذين ينكرون ان يكون للعالم

مبدع ابدعه ، هو واجب الوجود بنفسه ؛ بل يقولون : العالم نفسه واجب الوجود بنفسه. فحقيقة قول هؤلاء شرم من قول الدهرية الالهيين ، وهو يعود عند التحقق الى قول الدهرية الطبيعيين ، وقد حدثونا : أن ابن عربي تنازع هو والشيخ ابو حفص السهروردي : هل يمكن وقت تجلي الحق لعبد مخاطبة له أم لا؟ فقال الشيخ ابو حفص السهروردي : نعم يمكن ذلك . فقال ابن عربي : لا يمكن ذلك . واثن الكلام كان في غيبة كل منها عن صاحبه ، فقيل لابن عربي : ان السهروردي يقول كذا ، وكذا . فقال : مسكين ! نحن تكلمنا في مشاهدة الذات ، وهو يتكلم في مشاهدة الصفات .

وكان كثير من أهل التصوف والسلوك والطلالين لطريق التحقيق والعرفان — مع أنهم يظنون أنهم متابعون للرسول ، وانهم متقون للبدع المخالفة له — يقولون هذا الكلام ويعظمونه ويعظمون ابن عربي لقوله مثل هذا ، ولا يعلمون ان هذا الكلام بناء على اصله الفاسد في الأحاد ، الذي يجمع بين التعطيل والاتحاد ؛ فان حقيقة الرب عنده وجود مجرد لا اسم له ولا صفة ، ولا يمكن ان يرى في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا له كلام قائم به ولا علم ولا غير ذلك ، ولكن يرى ظاهرا في المخلوقات متجليا في المصنوعات ، وهو عنده غير وجود الموجودات وشبهه ، وتارة بظهور الكلى في جزئياته كظهور الجنس في انواعه والنوع في الخاصة ، كما تظهر الحيوانية في كل حيوان ، والانسانية في كل انسان .

وهذا بناء على غلط أسلافه « المنطقيين اليونانيين » حيث ظنوا ان

الموجودات العينية يقارنها جواهر عقلية بحسب ما تحمل لها من الكليات .
فيظنون ان في الانسان المعين انساناً عقلياً وحيواناً عقلياً وناطقاً عقلياً وحساساً
عقلياً وجسماً عقلياً ، وذلك هو الماهية التي يعرض لها الوجود ، وتلك الماهية
مشتركة بين جميع المعينات وهذا الكلام له وقع عند من لم يفهمه وتبدره .

فاذا فهم حقيقته تبين له انه بكلام المجانين أشبه منه بكلام العقلاء . وإنما
ذلك لمخالفته للحس والعقل ، وإنما اتى فيه هؤلاء من حيث انهم تصوروا في انفسهم
معانى « كلية مطلقة » فظنوا انها موجودة في الخارج . فضالهم في هذا عكس
ضالهم في امر الانبياء ، شاهدت اموراً خارجة عن انفسهم ، فزعم هؤلاء الملاحدة
ان تلك كانت في انفسهم .

وهؤلاء الملاحدة شهدوا في انفسهم اموراً « كلية مطلقة » فظنوا انها في
الخارج ، وليست إلا في انفسهم فجعلوا ما في انفسهم في الخارج وليس فيه
وجعلوا ما اخبرت به الانبياء في انفسهم وإنما هو في الخارج ، فلهذا كانوا مكذبين
بالغيب الذي أخبرت به الانبياء ، ثم جعلوا وجود الرب الخالق للعالمين البآن
عن مخلوقاته أجمعين هو من جنس وجود الانسانية في الاناسي ، والحيوانية في
الحيوان او ما أشبه ذلك ، كوجود الوجود في الثبوت — عند من بقول
المعدوم شيء — فأنهم أرادوا ان يجعلوه شيئاً موجوداً في المخلوقات مع مغايرته
لها ، فضربوا له مثلاً تارة بالكليات ، وتارة بالمادة والصورة ، وتارة بالوجود المغاير
لثبوت ، وإذا مثلوه بالمحسوسات مثلوه بالشعاع في الزجاج ، او بالهواء في الصوفة ،

فَضَرَبُوا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ الْأَمْثَالَ ؛ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ؛ وَهُمْ فِي هَذِهِ الْأَمْثَالَ ضَالُونَ مِنْ وَجْهِهِ .

(أحدها) : أَنَّمَا مَثَلُوا بِهِ مِنَ الْمَادَّةِ مَعَ الصُّورَةِ ، وَالْكَلِمَاتِ مَعَ الْجُزْئِيَّاتِ ، وَالْوُجُودِ مَعَ الثَّبُوتِ : كُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ عِنْدَ التَّحْقِيقِ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا شَيْئَيْنِ ، فَجَعَلُوا الْوَاحِدَ اثْنَيْنِ ، كَمَا جَعَلُوا الْاِثْنَيْنِ وَاحِدًا فِي مِثْلِ صِفَاتِ اللَّهِ ، يَجْعَلُونَ الْعِلْمَ هُوَ الْعَالَمُ ، وَالْعِلْمَ هُوَ الْمَعْلُومُ ، وَالْعِلْمَ هُوَ الْقُدْرَةُ ، وَالْعِلْمَ هُوَ الْإِرَادَةُ ، وَأَنْوَاعُ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي إِذَا تَدَبَّرَهَا الْعَاقِلُ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِالْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَأَعْظَمِ النَّاسِ قَوْلًا لِلْبَاطِلِ ؛ مَعَ مَا فِي نَفْسِهِمْ وَنَفُوسِ اتِّبَاعِهِمْ مِنَ الدَّعَاوِي الْمَهَائِلَةِ ، الطَّوِيلَةِ ، الْعَرِيضَةِ ، كَمَا يَدْعَى إِخْوَانَهُمُ الْقَرَامِطَةَ الْبَاطِنِيَّةَ ، أَنَّهُمْ أُمَّةٌ مَعْصُومُونَ مِثْلَ الْإِنْبِيَاءِ ، وَهُمْ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ وَأَضْلَمِهِمْ وَأَكْفَرِهِمْ .

(الثاني) : أَنَّهُمْ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ مِنْ هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ يَجْعَلُونَ وَجُودَهُ مَشْرُوطًا بِوُجُودِ غَيْرِهِ ، الَّذِي لَيْسَ هُوَ مَبْدَعًا لَهُ ؛ فَإِنَّ وَجُودَ الْكَلِمَاتِ فِي الْخَارِجِ مَشْرُوطٌ بِالْجُزْئِيَّاتِ ، وَوُجُودُ الْمَادَّةِ مَشْرُوطٌ بِالصُّورَةِ ، وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ ، وَوُجُودُ الْأَعْيَانِ مَشْرُوطٌ بِثَبُوتِهَا الْمُسْتَقَرِّ فِي الْعَدَمِ ؛ فَيَلْزِمُهُمْ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ أَنْ يَكُونَ وَاجِبَ الْوُجُودِ مَشْرُوطًا بِمَا لَيْسَ هُوَ مِنْ مَبْدَعَاتِهِ ، وَمَا كَانَ وَجُودَهُ مَوْقُوفًا عَلَى غَيْرِهِ الَّذِي لَيْسَ هُوَ مَصْنُوعًا لَهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِبَ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ ، وَهَذَا بَيْنَ .

(الثالث) أن هذا الكلام يعود عند التحقيق الى ان يكون وجود الخالق عين وجود المخلوقات ، وهم يصرحون بذلك ؛ لكن يدعون المغايرة بين الوجود والثبوت ؛ او بين الوجود والماهية ؛ وبين الكل والجزء ، وهو المغايرة بين المطلق والمعين ؛ فلماذا كانوا يقولون : بالحلول . تارة يجعلون الخالق حلاً في المخلوقات ، وتارة محلاً لها ، واذا حقق الامر عليهم بعدم المغايرة . كان حقيقة قولهم ان الخالق هو نفس المخلوقات فلا خالق ولا مخلوق ، وانما العالم واجب الوجود بنفسه .

(الرابع) : أنهم يقرون بما يزعمونه من « التوحيد » عن التعدد في صفاته الواجبة ؛ وأسمائه ؛ وقيام الحوادث به ، وعن كونه جسماً ؛ او جوهرأ ؛ ثم هم عند التحقيق يجعلونه عين الاجسام الكائنة الفاسدة المستقدرة ، وبصفونه بكل نقص كما صرحوا بذلك ، قالوا : الا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ؛ واخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص ؛ وبصفات الهم ، وقالوا : العلى لذاته هو الذي يكون له الكمال ، الذي يستغرق به جميع الامور الوجودية والنسب العدمية . سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً ؛ او مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، وليس ذلك الا لسمى الله خاصة فهو متصف عندهم بكل صفة مذمومة كما هو متصف بكل صفة محمودة ، وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع . فان احرم اعظم من ان يبسط هنا .

ولكن (المقصود) التنبية على تشابه رؤوس الضلال ، حتى اذا فهم المؤمن

قول احدهم ، اعانه على فهم قول الآخر ؛ واحترز منهم وبين ضلالهم لكثرة ما أوقعوا في الوجود من الضلالات .

فابن عربي بزعمه : انما تجلى الذات عنده شهود مطلق ؛ هو وجود الموجودات ؛ مجرداً مطلقاً ، لا اسم له ولا نعت ، ومعلوم ان من تصور هذا لم يمكن ان يحصل له عنه خطاب ؛ فلماذا زعم ان عند تجلى الذات لا يحصل خطاب . وأما ابو حفص السهروردي فكان اعلم بالسنة ، واتبع للسنة من هذا وخير منه ؛ وقد رأى ان ما جاءت به الأحاديث من ان الله يتجلى لعباده ويخاطبهم حين تجليه لهم فآمن بذلك ؛ لكن ابن عربي في فلسفته اشهر من هذا في سنته .

ولهذا كان اتباعها يعظمون ابن عربي عليه ، مع اقرارهم بأن السهروردي اتبع للسنة ، كما حدثني الشيخ الملقب بحسام الدين القادم ، السالك طريق ابن حمويه الذي يلقبه اصحابه «سلطان الاقطاب» ؛ وكان عنده من التعظيم لابن عربي ، وابن حمويه ؛ والغلو فيها امر عظيم ، فينت له كثيراً مما يشتمل عليه كلامها من الفساد والاحاد ، والأحاديث المكذوبة على النبي صلى الله عليه وسلم وجرى في ذلك فصول ؛ لما كان عنده من التعظيم مع عدم فهم حقيقة اقوالهما وما تضمنته من الضلالات .

وكان ممن حدثني عن شيخه الطاووسي الذي كان بهمدان عن سعد الدين

ابن حمويه انه قال : محيي الدين ابن عربي بحر لا تكدره الدلاء ؛ لكن نور المتابعة النبوية على وجه الشيخ شهاب الدين السهروردي شيء آخر ، فقلت له : هذا كما يقال : كان هؤلاء اوتوا [من] ملك الكفار ملكا عظيماً . لكن نور الاسلام الذي على شهاب غازي صاحب «ميافا رقين» شيء آخر . فانهم كانوا يعظمون ابن عربي ؛ وذلك لان الشيخ شهاب الدين لم يكن متمكناً من معرفة السنة ومتابعتها ، وتحقيق ما جاءت به الرسل ؛ كتمكن ابن عربي في طريقه التي سلكها وجمع فيها بين الفلسفة والتصوف .

وهؤلاء انما يقطع دابرهم المباشرة بين الخالق والمخلوق ، واثبات تعينه منفصلاً عن المخلوق ترفع اليه الايدي بالدعاء ، واليه كان معراج خاتم الانبياء ، وقد ذكر السهروردي في عقيدته المشهورة قوله : « بلا اشارة ولا تعيين » وهذه هي التي استطال بها عليه هؤلاء ؛ فانه متى نفيت الاشارة والتعيين لم يبق الا العدم المحض ؛ والتعطيل او الالحاد والوحدة والحلول .

وابن سبعين وأمثاله من هؤلاء الملاحدة يقولون هكذا : لا اشارة ولا تعيين ، بل عين ما ترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى ، ويقولون في اذكارهم : ليس الا الله ، بدل قول المسلمين : لا اله الا الله ، لأن معتقد ان وجود كل موجود ؛ فلا موجود الا هو ؛ والمسلمون يعلمون ان الله خالق كل شيء ، وربهم ومليكه ؛ وانه ليس هو المخلوقات ، ولا جزءاً منها ؛ ولا صفة لها ؛ بل هو بائن عنها ، ويقولون انه هو الاله الذي يستحق العبادة دون ما سواه من

الموجودات ، فلا اله الا هو؛ كما قال تعالى : (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من
المعذبين) وكما قال تعالى : (قل اغير الله تأمروني اعبدا ايها الجاهلون) وقال :
(قل : اغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض) .

وهؤلاء الملاحنة ما عندهم غير يمكن ان يعبد ، ولا غير يمكن ان يتخذ
ولياً ، ولا الها؛ بل هو العابد والمعبود ؛ والمصلي والمصلى له ؛ كما قال شاعرهم ابن
الفارض في قصيدته « نظم السلوك » :

لها صلواتي باللقام اقيمها وأشهد فيها انها لي صلتى
كلانا وصل واحد ساجد الى حقيقته بالجمع في كل سجدة

الى قوله :

وما كان لي صلى سواي ولم تكن صلاتي لغيري في ادا كل ركعة
الي رسولا كنت مني مرسلأ وذاتي باياتى علي استدلت

وقوله :

وما زلت اياها واياي لم تزل ولا فرق بل ذاتي لذاتي احبت

فهؤلاء « الجهمية » من المتكلمة والصوفية في قولهم : ان الايمان هو مجرد
المعرفة والتصديق ، يقولون : المعروف هو الموجود الموصوف بالسلب والنفي ،
كقولهم : لا هو داخل العالم ؛ ولا خارجه ، ولا مابين العالم ولا محايث ، ثم

يعودون فيجعلونه حالاً في المخلوقات او محلاً لها او هو عينها؛ او يعطلونه بالكلية؛ فهم في هذا نظير المتفلسفة المشائين: الذين يجعلون كمال الانسان بالعلم؛ و « العلم الاعلى » — عندما — و « الفلسفة الاولى » — عندما — النظر في الوجود ولو احقه، ويجعلون واجب الوجود وجوداً مطلقاً بشرط الاطلاق، لكن أولئك يغيرون العبارات ويعبرون بالعبارات الاسلامية القرآنية عن الاحداث الفلسفية واليونانية، وهذا كله قد قرر؛ وبسط القول فيه في غير هذا الموضع.

فصل

اول ما في الحديث سؤاله عن « الاسلام »؛ فأجابه بأن « الاسلام أن تشهد ان لا إله الا الله، وان محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت » وهذه الخمس هي المذكورة في حديث ابن عمر المتفق عليه « بني الاسلام على خمس: شهادة ان لا إله الا الله، وان محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع اليه سبيلاً ». وهذا قاله النبي صلى الله عليه وسلم بعد ان فرض الله الحج، فلماذا ذكر الخمس: واكثر الأحاديث لا يوجد فيها ذكر الحج، في حديث وفد عبد القيس « آمركم بالايان بالله وحده. أتدرون ما الايمان بالله وحده؛ شهادة ان لا إله الا الله، وان محمداً رسول الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان، وان تعطوا من المنعم الخمس ».

وحديث وفد عبد القيس من اشهر الأحاديث واصحها . وفي بعض طرق البخاري لم يذكر الصيام ، لكن هو مذكور في كثير من طرقه ، وفي مسلم ، وهو ايضا مذكور في حديث ابي سعيد الذي ذكر فيه قصة وفد عبد القيس رواه مسلم ، في صحيحه عنه ، وانفقا على حديث ابن عباس وفيه انه امرهم بايتاء الخمس من المغنم ؛ والخمس انما فرض في غزوة بدر وشهر رمضان فرض قبل ذلك .

وفد عبد القيس من خيار الوفد الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقدمهم على النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل فرض الحج ، وقد قيل قدموا سنة الوفود : سنة تسع ، والصواب انهم قدموا قبل ذلك ، فانهم قالوا ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر - يعنون اهل نجد - وانا لانصل اليك إلا في شهر حرام ، وسنة تسع كانت العرب قد ذلت وتركت الحرب ، وكانوا بين مسلم او معاهد خائف ، لما فتح الله مكة ثم هزموا هوازن يوم حنين ، وانما كانوا ينتظرون باسلامهم فتح مكة ، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم ابا بكر رضي الله عنه اميراً على الحج سنة تسع ، واردفه بعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ؛ لتنفيذ العهد التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين العرب ، الا انه اجلهم اربعة اشهر من حين حجة ابي بكر ، وكانت في ذي القعدة .

وقد قال تعالى : (فاذا انسلكوا الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) الآية .
وهذه الأربعة التي اجلوها الأربعة الحرم .

ولهذا غزا النبي صل الله عليه وسلم النصارى بأرض الروم ، عام تبوك سنة تسع ، قبل ارسال ابي بكر اميراً على الموسم ، وإنما امكنه غزو النصارى لما اطمان من جهة مشركي العرب ، وعلم انه لاخوف على الاسلام منهم ؛ ولهذا لم يأذن لأحد ممن يصلح للقتال في التخلف ، فلم يتخلف إلا منافق : او الثلاثة الذين تيب عليهم ، او معذور ، ولهذا لما استخلف عليا على المدينة عام تبوك طعن المنافقون فيه لضعف هذا الاستخلاف ، وقالوا : إنما خلننه لأنه يغضه . فاتبعه علي وهو يبكي ، فقال : اتخلفني مع النساء والسيار ؟ فقال : « اما ترى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ ! الا انه لا نبي بعدي » . وكان قبل ذلك يستخلف على المدينة من يستخلفه ، وفيها رجال من اهل القتال ، وذلك لأنه لم يكن حينئذ بأرض العرب لاجمعة ولا بنجد ونحوها من يقاتل اهل دار الاسلام - مكة والمدينة ، وغيرها - ولا يخيفهم : ثم لما رجع من تبوك اقر ابا بكر على الموسم ، بقيم الحج والصلاة ، وبأمر ان لا يبيع بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، واتبعه بعلي لأجل نقض العهود ؛ اذ كانت عادة العرب ان لا يقبلوا الا من المطاع الكبير ، او من رجل من اهل بيته .

و(المقصود) : ان هذا بين ان قدوم وفد عبد القيس كان قبل ذلك . واما حديث ضام ، فرواه مسلم في صحيحه عن انس بن مالك : « ثمينا ان نسأل رسول الله عن شيء فكان يعجبنا ان يجيء الرجل من اهل البادية العاقل يسأله ونحن نسمع فجاء رجل من اهل البادية فقال : يا محمد! انا رسولك فزعم انك تزعم ان الله ارسلك ، قل : صدق ،

قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله قال : فمن ، خلق الأرض ؟ قال : الله ، قال :
 فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله قال : فبالذي خلق
 السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال ، آله ارسلك ؟ ! قال : نعم ، قال
 وزعم رسولك ان علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ، قال : صدق . قال :
 فبالذي ارسلك ، آله امرك بهذا ؟ قال : نعم قال : وزعم رسولك ان علينا
 زكاة في اموالنا ، قال : صدق ، قال : فبالذي ارسلك آله امرك بهذا ؟ !
 قال : نعم ، قال : وزعم رسولك ان علينا حج البيت من استطاع اليه سبيلاً
 قال : صدق ، ثم ولى الرجل ، وقال : والذي بعثك بالحق لا ازيد عليهن ،
 ولا انقص منهن فقال : رسول الله صلى عليه وسلم لئن صدق ليدخلن الجنة .

وعن أنس قال : « بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في
 المسجد اذ دخل رجل على جمل ، فأناخه في المسجد ثم عقله ؛ ثم قال لهم :
 أيكم محمد ؟ — والنبي صلى الله عليه وسلم متكئ بين ظهرانيهم — فقلنا :
 هذا الرجل الأبيض المتكئ ؟ فقال له الرجل : ابن عبد المطلب ؟ فقال له :
 النبي صلى الله عليه وسلم قد اجبتك فقال الرجل : للنبي صلى الله عليه وسلم اني
 سائلك فشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك ؛ فقال : سل عما بدالك ؟
 فقال : اسألك بربك ورب من قبلك ؟ آله ارسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال :
 اللهم نعم ، وذكر انه سأله عن الصلاة والزكاة ؛ ولم يذكر الصيام والحج ،
 فقال : الرجل آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورأى من قومي ؛ وأنا ضام

ابن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر . هذان الطريقان في الصحيحين ، لكن البخاري لم يذكر في الأول الحج ؛ بل ذكر الصيام ؛ والسباق الأول أتم ؛ والناس يجعلون الحديثين حديثاً واحداً .

ويشبهه — والله اعلم — ان يكون البخاري رأى ان ذكر الحج فيه وهما لأن سعد بن أبي بكر ؛ ثم من هوأزن وم اصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهوأزن كانت معهم وقعة خنين بعد فتح مكة فأسلموا كلهم بعد الوقعة ودفع اليهم النبي صلى الله عليه وسلم النسياء والسيان بعد ان قسمها على المعسكر ، واستطاب انفسهم في ذلك ، فلا تكون هذه الزيارة إلا قبل فتح مكة والحج لم يكن فرض اذ ذلك .

وحديث طلحة بن عبيد الله ليس فيه الا الصلاة والزكاة والصيام ، وقد قيل : انه حديث ضام ، وهو في الصحيحين عن طلحة بن عبيد الله قال : « جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم من اهل نجد ، ثائر الرأس ، نسمع دوي صوته ولا نفقه مايقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو يسأل عن الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات في اليوم والليلة ، قال : هل علي غير ذلك ؟ قال : لا إلا ان تطوع . قال : وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة قال : هل علي غيرها ، قال : لا الا ان تطوع قال ، فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ، ولا انقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح ان صدق » وليس في شيء من

طرقه ذكر الحج ، بل فيه ذكر الصلاة والزكاة والصيام ، كما في حديث وفد عبد القيس .

وفي الصحيحين ايضا « عن ابي هريرة ان اعرابيا جاء إلى رسول صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة ، فقال تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ، قال : والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئا أبداً ، ولا انقص منه ، فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم : من سره ان ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » وهذا يحتمل ان يكون ضامما ، وقد جاء في بعض الأحاديث ذكر الصلاة والزكاة فقط ، كما في الصحيحين عن ابي ايوب الأنصاري « ان اعرابيا عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته او بزمامها ، ثم قال : يا رسول الله ! او يا محمد ! . اخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار ، قال : فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نظر في اصحابه ، ثم قال : لقد وفق او لقد هدي ، ثم قال : كيف قلت ؟ قال : فاعاد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة وتصل الرحم ، فلما أدبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان تمسك بما أمر به ، دخل الجنة » هذه الألفاظ في مسلم .

وقد جاء ذكر الصلاة والصيام في حديث النعمان بن قوقل رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أرأيت إذا

صليت الصلوات المكتوبات ، وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحرام ولم ازد على ذلك شيئاً ، أدخل الجنة؟ قال : نعم ، قال : والله لا ازيد على ذلك شيئاً . وفي لفظ « آى النبي صلى الله عليه وسلم النعمان بن قوقل . وحديث النعمان هذا قديم : فان النعمان بن قوقل قتل قبل فتح مكة . قتله بعض بني سعد بن العاص ، كما ثبت ذلك في الصحيح فهذه الاحاديث خرجت جوابا لسؤال سائلين .

اما حديث ابن عمر فانه مبتدأ واجاديت الدعوة والقتال فيها الصلاة والزكاة كما في الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله ، وان محمداً رسول الله وبقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك ، عصوا مني دماءهم واموالهم إلا بحق الاسلام ، وحسابهم على الله » . وقد اخرجاه في الصحيحين من حديث ابي هريرة رواه مسلم عن جابر « قال : امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله ، فاذا قالوها عصوا مني دماءهم واموالهم إلا بحقها » . فقال ابو بكر : والله ! لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال .

فكان من فقه ابي بكر انه فهم من ذلك الحديث المتحصر ان القتال على الزكاة قتال على حق المال ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مراده بذلك في اللفظ المبسوط الذي رواه ابن عمر . والقرآن صريح في موافقة حديث ابن عمر كما قال تعالى : (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) .

وحدث معاذ لما بعثه الى اليمن لم يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم
إلا الصلاة والزكاة .

فلما كان في بعض الأحاديث ذكر بعض الأركان دون بعض اشكل ذلك
على بعض الناس . فأجاب بعض الناس بأن سبب هذا ان الرواة إختصر بعضهم
الحديث الذي رواه ؛ وليس الأمر كذلك ؛ فان هذا طعن في الرواة ، ونسبة
لهم الى الكذب ، إذ هذا الذي ذكره انما يقع في الحديث الواحد مثل حديث
وفد عبد القيس حيث ذكر بعضهم الصيام ، وبعضهم لم يذكره ، وحديث ضمام
حيث ذكر بعضهم الخمس ، وبعضهم لم يذكره ، وحديث النعمان بن قوقل حيث
ذكر بعضهم فيه الصيام وبعضهم لم يذكره ، فهذا يعلم ان احد الراويين اختصر
البعض او غلط في الزيادة .

فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيها كذلك ، لاسيما والأحاديث
قد تواترت بكون الأجوبة كانت مختلفة وفيهما ما بين قطعا ان النبي صلى الله
عليه وسلم تكلم بهذا تارة وبهذا تارة ، والقرآن يصدق ذلك ، فان الله
علق الأخوة الايمانية في بعض الآيات بالصلاة والزكاة فقط كما في قوله تعالى : (فان
تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) كما انه علق ترك القتال
على ذلك في قوله تعالى : (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)
وقد تقدم حديث ابن عمر الذي في الصحيحين موافقا لهذه الآية . و « أيضاً »
فان في حديث وفد عبد القيس ذكر خمس المغنم لأهم كانوا طائفة ممتعة يقاثلون

ومثل هذا لا يذكر جواب سؤال سائل بما يجب عليه في حق نفسه ، ولكن
عن هذا « جوابان » :

(احدهما) : ان النبي صلى الله عليه وسلم اجاب بحسب نزول الفرائض ،
واول ما فرض الله الشهادتين ، ثم الصلاة ، فانه امر بالصلاة في اول اوقات
الوحي ؛ بل قد ثبت في الصحيح ان اول ما نزل عليه : (اقرأ باسم ربك الذي
خلق ، خلق الانسان من علق — الى قوله — علم الانسان ما لم يعلم) ثم انزل
عليه بعد ذلك (يا ايها المدثر ! قم فأندر) فهذا الخطاب إرسال له إلى الناس
والإرسال بعد الإنشاء ؛ فان الخطاب الاول ليس فيه إرسال ، وآخر سورة اقرأ
(اسجد واقرب) . فأول السورة امر بالقراءة ، وآخرها امر بالسجود ،
والصلاة مؤلفة من أقوال واعمال ، فأفضل اقوالها القراءة ، وأفضل اعمالها
السجود والقراءة اول اقوالها المقصودة ، وما بعده تبع له .

وقد روى ان الصلاة اول ما فرضت كانت ركعتين بالعادة وركعتين بالعشي
ثم فرضت الخمس ليلة المعراج ، وكانت ركعتين ركعتين ؛ فلما هاجر أقرت صلاة
السفر ؛ وزيد في صلاة الحضر ، وكانت الصلاة تكمل شيئاً بعد شيء ، فكانوا
اولاً يتكلمون في الصلاة ولم يكن فيها تشهد ، ثم أمروا بالتشهد ؛ وحرم عليهم
الكلام ؛ وكذلك لم يكن بمكة لهم اذان ، وإنما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة ؛
وكذلك صلاة الجمعة ، والعيد ؛ والكسوف ؛ والاستسقاء ، وقيام رمضان ، وغير
ذلك . . وإنما شرع بالمدينة بعد الهجرة .

وأمرُوا بالزكاة؛ والاحسان في مكة أيضاً؛ ولكن فرائض الزكاة ونصها
إنما شرعت بالمدينة .

وأما « صوم شهر رمضان » فهو إنما فرض في السنة الثانية من الهجرة ،
وإدراك النبي صلى الله عليه وسلم تسع رمضانات .

وأما « الحج » فقد تنازع الناس في وجوبه ؛ فقالت طائفة فرض سنة
ست من الهجرة عام الحديبية باتفاق الناس ، قالوا : وهذه الآية تدل على وجوب
الحج ووجوب العمرة أيضاً لأن الأمر بالانتماء يتضمن الأمر بابتداء الفعل
وانتماءه . وقال الأكثرون : إنما وجب الحج متأخراً ، قيل سنة تسع ؛ وقيل سنة
عشر ، وهذا هو الصحيح ؛ فإن آية الإيجاب إنما هي قوله تعالى : (والله على
الناس حج البيت) وهذه الآية في آل عمران في سياق مخاطبته لأهل الكتاب ،
وصدر آل عمران ، وما فيها من مخاطبة أهل الكتاب نزل لما قدم على النبي صلى
الله عليه وسلم وفد نجران النصارى ، وناظروه في أمر المسيح ؛ وهم أول من
أدى الجزية من أهل الكتاب ، وكان ذلك بعد انزال سورة براءة التي شرع فيها
الجزية ، وأمر فيها بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ،
وغزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك التي غزا فيها النصارى لما أمر الله
بذلك في قوله : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون
ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا

ويذكر تارة ما يجب على السائل ، فمن اجابه بالصلاة والصيام لم يكن عليه زكاة يؤديها ، ومن اجابه بالصلاة والزكاة والصيام : فاما ان يكون قبل فرض الحج ، وهذا هو الواجب في مثل حديث عبد القيس ونحوه ، وإما ان يكون السائل ممن لا حج عليه .

واما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ؛ ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما ؛ لأنهما عبادتان ؛ بخلاف الصوم فانه امر باطن وهو مما اتتمن عليه الناس ، فهو من جنس الوضوء والاختسال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد ؛ فان الانسان يمكنه ان لا ينوي الصوم وان يأكل سراً كما يمكنه ان يكتم حديثه وجنابته ، واما الصلاة والزكاة فأمر ظاهر لا يمكن الانسان بين المؤمنين ان يمتنع من ذلك .

وهو صلى الله عليه وسلم يذكر في الاسلام الأعمال الظاهرة التي يقابل عليها الناس ، ويصيرون مسلمين بفعلها ؛ فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيام ، وان كان الصوم واجباً كما في آيتي براءة ، فان براءة نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذ بن جبل الى اليمن قال له : « انك تأتي قوماً اهل كتاب ؛ فليكن اول ما تدعوم إليه : شهادة ان لا اله الا الله ، وأنى رسول الله ، فان هم اجابوك لذلك ، فأعلمهم ان الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فان هم اطاعوك لذلك ؛ فأعلمهم ان الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فتد على فقرائهم ؛ فان هم اطاعوك لذلك ،

الجزية عن يد وهم صاغرون) ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الاحاديث وإنما جاء في الاحاديث المتأخرة .

وقد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس ، وكان قدومهم قبل فتح مكة على الصحيح كما قد بيناه ، وقالوا : يا رسول الله ! ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر يعنون بذلك اهل نجد : من تميم واسد وخطفان لانهم بين البحرين وبين المدينة ، وعبد القيس م من ربيعة ليسوا من مضر ، ولما فتحت مكة زال هذا الخوف ، ولما قدم عليه وفد عبد القيس امرهم بالصلاة ، والزكاة ؛ وصيام رمضان ؛ وخمس المنعم ؛ ولم يأمرهم بالحج ، وحديث ضمام قد تقدم ان البخاري لم يذكر فيه الحج كما لم يذكره في حديث طلحة وابي هريرة وغيرهما مع قولهم : ان هذه الاحاديث هي من قصة ضمام ، وهذا ممكن ؛ مع ان تاريخ قدوم ضمام هذا ليس متيقناً .

واما قوله : (واتموا الحج والعمرة لله) فليس في هذه الآية الا الامر باتمام ذلك وذلك يوجب اتمام ذلك على من دخل فيه ، فنزل الامر بذلك لما احرموا بالعمرة عام الحديبية ، ثم احصروا فأمروا بالانعام ، وبين لهم حكم الاحصار ، ولم يكن حينئذ قد وجب عليهم لاعمرة ولا حج .

(الجواب الثاني) : انه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه ، فيذكر تارة الفرائض الظاهرة ، التي تقايل على تركها الطائفة المتتعة كالصلاة والزكاة .

فيايك وكرائم اموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب»
اخرجاه في الصحيحين .

ومعاذ ارسله الى اليمن في آخر الامر ، بعد فرض الصيام ؛ بل بعد فتح
مكة ، بل بعد تبوك ، وبعد فرض الحج والجزية ، فان النبي صلى الله عليه وسلم
مات ومعاذ باليمن ، وإنما قدم المدينة بعد موته ؛ ولم يذكر في هذا الحديث
الصيام ، لانه تبع وهو باطن ، ولا ذكر الحج ؛ لأن وجوبه خاص ليس بعام ،
وهو لا يجب في العمر الا مرة .

ولهذا تنازع العلماء في تكفير من يترك شيئاً من هذه « الفرائض
الاربع » بعد الاقرار بوجوبها ؛ فأما « الشهادتان » إذا لم يتكلم بهما مع القدرة
فهو كافر باتفاق المسلمين ، وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الامة وأئمتها ،
وجماهير علمائها ، وذهبت طائفة من المرجئة ، وهم جهمية المرجئة : كجهم ،
والصالحى واتباعهما ، الى انه اذا كان مصدقاً بقلبه كان كافراً فى الظاهر دون
الباطن ، وقد تقدم التنبيه على اصل هذا القول ، وهو قول مبتدع فى الاسلام
لم يقله احد من الأئمة ، وقد تقدم ان الايمان الباطن يستلزم الاقرار الظاهر ؛
بل وغيره ، وان وجود الايمان الباطن تصديقاً وجباً ، وانقياداً بدون الاقرار
الظاهر ممتنع .

واما « الفرائض الاربع » فاذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجّة

فهو كافر ، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها كالفواحش والظلم والكذب والخمر ونحو ذلك ، واما من لم تقم عليه الحججة مثل ان يكون حديث عهد بالاسلام ، او نشأ ببادية بعيدة ، لم تبلغه فيها شرائع الاسلام ونحو ذلك ، او غلط فظن ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستثنون من تحريم الخمر ، كما غلط في ذلك الذين استتابهم عمر . وامثال ذلك ، فانهم يستتابون وتقام الحججة عليهم ، فان اصرروا كفروا حينئذ ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك ؛ كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مظعون . واصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل .

واما مع الاقرار بالوجوب إذا ترك شيئاً من هذه الاركان الأربعة ففي التكفير اقوال للعلماء هي روايات عن احمد :

(احدها) : انه يكفر بترك واحد من الأربعة حتى الحج ، وإن كان في جواز تأخيره نزاع بين العلماء ، فحتى عزم على تركه بالكلية كفر ، وهذا قول طائفة من السلف ، وهي إحدى الروايات عن احمد اختارها ابو بكر ،

و (الثاني) : انه لا يكفر بترك شيء من ذلك مع الاقرار بالوجوب ، وهذا هو المشهور عند كثير من الفقهاء من أصحاب ابي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وهو إحدى الروايات عن احمد اختارها ابن بطه وغيره .

و (الثالث) لا يكفر الا بترك الصلاة ، وهي الرواية الثالثة عن احمد ،
وقول كثير من السلف، وطائفة من اصحاب مالك ، والشافعي ، وطائفة من
اصحاب احمد .

و (الرابع) : يكفر بتركها ، وترك الزكاة فقط .

و (الخامس) : بتركها ، وترك الزكاة اذا قاتل الامام عليها دون ترك
الصيام والحج . وهذه المسألة لها طرفان .

(احدهما) في اثبات الكفر الظاهر .

و (الثاني) في اثبات الكفر الباطن .

فأما « الطرف الثاني » فهو مبنى على مسألة كون الايمان قولاً وعملاً كما
تقدم ، ومن الممتنع ان يكون الرجل مؤمناً ايماناً ثابتاً في قلبه ، بأن الله فرض
عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ، ولا
يصوم من رمضان ، ولا يؤدي لله زكاة ، ولا يحج الى بيته ، فهذا ممتنع ، ولا
يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة ، لا مع ايمان صحيح ؛ ولهذا انما
يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار ، كقوله : (يوم يكشف عن ساق
ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا
يدعون الى السجود وهم سالمون) .

وقد ثبت في الصحيحين وغيرها ، من حديث ابي هريرة و ابي سعيد وغيرها ، في الحديث الطويل ، حديث التجلي « انه اذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة ، سجد له المؤمنون و بقي ظهر من كان يسجد في الدنارياء و سمعة ، مثل الطبق لا يستطيع السجود » فاذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط؟! و ثبت ايضا في الصحيح « ان النار تأكل من ابن آدم كل شيء الا موضع السجود ، فان الله حرم على النار ان تأكله » فعلم ان من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله ، وكذلك ثبت في الصحيح « ان النبي صلى الله وسلم يعرف امته يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » فدل ذلك على ان من لم يكن غراً محجلاً لم يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يكون من امته .

وقوله تعالى : (كلوا و تمتعوا قليلاً انكم مجرمون . و بل يومئذ للمكذبين و اذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . و بل يومئذ للمكذبين) و قوله تعالى : (فما لهم لا يؤمنون؟! و اذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون . بل الذين كفروا يكدبون و الله اعلم بما يعون) . و كذلك قوله تعالى : (فلا صدق و لا صلى . ولكن كذب و تولى) . و كذلك قوله تعالى (ما سلككم في سقر؟ قالوا : لم نك من المسلمين و لم نك نطعم المسكين . و كنا نخونض مع الخائضين ، و كنا نكذب بيوم الدين ، حتى اتانا اليقين) فوصفه بترك الصلاة ، كما وصفه بترك التصديق ، و وصفه بالكذب و التولي ، و «التولي» هو العاصي المتمتع من الطاعة . كما قال

تعالى : (ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله اجراً حسناً . وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً ألياً) . وكذلك وصف اهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين ، وكذلك قرن التكذيب بالتولي في قوله : (ارأيت الذي نهى عبداً اذا صلى ؟ ! ارأيت ان كان على الهدى ؟ ! او امر بالتقوى ، ارأيت ان كذب وتولى ؟ ! الم يعلم بأن الله يرى ؟ ! كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة) .

و « ايضاً » في القرآن علق الاخوة في الدين على نفس اقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما علق ذلك على التوبة من الكفر ، فاذا اتفتى ذلك اتفتت الاخوة ، و « ايضاً » فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » . وفي المسند « من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه الذمة » .

و « ايضاً » فان شعار المسلمين الصلاة، ولهذا يعبر عنهم بها فيقال : اختلف اهل الصلاة ، واختلف اهل القبلة ، والمصنفون لمقالات المسلمين يقولون : «مقالات الاسلاميين ، واختلف المصلين» وفي الصحيح « من صلى صلاتنا ؛ واستقبل قبلتنا ؛ وأكل ذبيحتنا ؛ فذلك المسلم له مالنا ؛ وعليه ما علينا » وامثال هذه النصوص كثيرة في الكتاب والسنة .

واما الذين لم يكفروا بترك الصلاة ونحوها ؛ فليست لهم حجة الا وهي

متأولة للجاحد كتناولها للتارك ، فما كان جوابهم عن الجاحد كان جواباً لهم عن التارك ؛ مع ان النصوص علقت الكفر بالتولي كما تقدم ؛ وهذا مثل استدلالهم بالعمومات التي يحتج بها المرجئة كقوله « من شهد ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله وان عيسى عبد الله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه... أدخله الله الجنة » ونحو ذلك من النصوص .

واجود ما اعتمدوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات كتبهن الله على العباد في اليوم والليلة . فمن حافظ عليهن كان له عند الله عهد ان يدخله الجنة ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد ، إن شاء عذبه . وإن شاء أدخله الجنة » . قالوا : فقد جعل غير المحافظ تحت المشيئة . والكافر لا يكون تحت المشيئة ولا دلالة في هذا ؛ فان الوعد بالمحافظة عليها ، والمحافظة فعلها في اوقاتها كما امر ، كما قال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) وعدم المحافظة يكون مع فعلها بعد الوقت ، كما اخر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق ، فأنزل الله آية الامر بالمحافظة عليها وعلى غيرها من الصلوات .

وقد قال تعالى : (فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) فقيل لابن مسعود وغيره : ما اضاعتها ؟ فقال : تأخيرها عن وقتها ، فقالوا : ما كنا نظن ذلك إلا تركها ، فقال : لو تركوها لكانوا كفاراً . وكذلك قوله : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون)

ذمهم مع انهم يصلون ؛ لأنهم سهوا عن حقوقها الواجبة من فعلها في الوقت و اتمام افعالها المفروضة ، كما ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر اربعا لا يذكر الله فيها الا قليلا » فجعل هذه صلاة المنافقين لكونه اخرها عن الوقت ونقرها .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : انه ذكر الامراء بعده الذين يفعلون ما ينكر ؛ وقالوا : يا رسول الله ! افلا نقاتلهم ! قال : « لا ما صلوا » و ثبت عنه انه قال : « سيكون امراء يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة » فهي عن قتالهم ، اذا صلوا وكان في ذلك دلالة على انهم اذا لم يصلوا قوتلوا ، وبين انهم يؤخرون الصلاة عن وقتها ، وذلك ترك المحافظة عليها لا تركها .

واذا عرف الفرق بين الامرين ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ، انما ادخل تحت المشيئة من لم يحافظ عليها ، لا من ترك ، ونفس المحافظة يقتضى انهم صلوا ولم يحافظوا عليها ، ولا يتناول من لم يحافظ ، فانه لو تناول ذلك قتلوا كفارا امرتين بلا ريب ، ولا يتصور في العادة ان رجلا يكون مؤمنا بقلبه ، مقرأ بأن الله اوجب عليه الصلاة ، ملتزما لشريعة النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، يأمره ولي الأمر بالصلاة فيمتنع ، حتى يقتل ، ويكون مع ذلك مؤمنا في الباطن قط لا يكون إلا كافرا ، ولو قال أنا مقر بوجوبها غير اني لا أفعلها

كان هذا القول مع هذه الحال كذبا منه كما لو اخذ يلقي المصحف في الحش ويقول : اشهد ان مافيه كلام الله ، او جعل يقتل نبيا من الانبياء ، ويقول اشهد انه رسول الله ونحو ذلك من الافعال التي تنافي ايمان القلب ، فاذا قال انا مؤمن بقلبي مع هذه الحال كان كاذبا فيما اظهره من القول .

فهذا الموضوع ينبغي تدبره فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب ، وعلم ان من قال من الفقهاء انه اذا اقر بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل ، او يقتل مع اسلامه؛ فانه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية ، والتي دخلت على من جعل الارادة الجازمة مع القدرة التامة لا يكون بها شيء من الفعل ، ولهذا كان الممتنعون من قتل هذا من الفقهاء بنوه على قولهم في « مسألة الايمان » ، وان الأعمال ليست من الايمان وقد تقدم ان جنس الاعمال من لوازم ايمان القلب ، وان ايمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع ، سواء جعل الظاهر من لوازم الايمان ، او جزء من الايمان كما تقدم بيانه .

وحينئذ فاذا كان العبد يفعل بعض المأمورات ، ويترك بعضها ، كان معه من الايمان بحسب ما فعله ، والايمان يزيد وينقص ، ويجتمع في العبد ايمان ونفاق . كما ثبت عنه في الصحيح انه قال : « اربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق ، حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وهذا نزول الشبهة في هذا الباب ، فان كثيراً من الناس ؛ بل اكثرهم ، في كثير من الأمصار لا يكونون محافظين على الصلوات الخمس ، ولا هم تاركها بالجملة بل يصلون أحياناً ، ويدعون أحياناً ، فهؤلاء فيهم ايمان ونفاق ، وتجري عليهم احكام الاسلام الظاهرة في الموارث ونحوها من الأحكام ؛ فان هذه الاحكام إذا جرت على المنافق المحض — كابن ابي وامثاله من المنافقين — فلأن تجري على هؤلاء اولى واخرى .

وبيان « هذا الموضوع » مما يزيل الشبهة : فان كثيراً من الفقهاء يظن ان من قيل هو كافر ، فانه يجب ان تجري عليه احكام المرتد ردة ظاهرة ، فلا يرث ولا يورث ، ولا يناكح حتى اجروا هذه الأحكام على من كفروه بالتأويل ، من اهل البدع ، وليس الأمر كذلك ؛ فانه قد ثبت ان الناس كانوا « ثلاثة اصناف » : مؤمن ؛ وكافر مظهر للكفر ، ومنافق مظهر للإسلام مبطن للكفر . وكان في المنافقين من يعلمه الناس بعلامات ودلالات بل من لا يشكون في نفاقه ومن نزل القرآن ببيان نفاقه — كابن ابي وامثاله — ومع هذا فلما مات هؤلاء ورثهم ورثتهم المسلمون ، وكان اذا مات لهم ميت آتوهم ميراثه وكانت تبصم دماؤهم ، حتى تقوم السنة الشرعية على احدهم بما يوجب عقوبته .

ولما خرجت الحرورية على علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، واعتزلوا جماعة المسلمين قال لهم : إن لكم علينا ان لا تمنعكم المساجد ، ولا تمنعكم نصيبكم من النبيء فلما استحلوا قتل المسامين واخذ اموالهم قاتلهم بأمر النبي صلى الله عليه

وسلم حيث قال : « يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقرائه مع قرائتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية اينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فان في قتلهم اجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » .

فكانت الحرورية قد ثبت قتالهم بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ واتفاق اصحابه ولم يكن قتالهم قتال فتنة كالقتال الذي جرى بين فئتين عظيمتين في المسلمين؛ بل قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري انه قال للحسن ابنه: « ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وقال في الحديث الصحيح : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين فتقتلهم ادنى الطائفتين الى الحق » فدل بهذا على ان ما فعله الحسن من ترك القتال اما واجباً او مستحباً لم يمدحه النبي صلى الله عليه وسلم على ترك واجب او مستحب ودل الحديث الآخر على ان الذين قاتلوا الحوارج وهم علي واصحابه كان اقرب الى الحق من معاوية واصحابه ؛ وان قتال الحوارج امر به النبي صلى الله عليه وسلم ليس قتالهم كالقتال في الجمل وصفين الذي ليس فيه امر من النبي .

و (المقصود) ان علي بن ابي طالب وغيره من اصحابه لم يحكموا بكفرهم ولا قتلوهم حتى بدؤوهم بالقتال . والعلماء قد تنازعوا في تكفير اهل البدع والاهواء وتخليدكم في النار ، وما من الأئمة الا من حكى عنه في ذلك « قولان »

كالك والشافعي واحمد وغيرهم وصار بعض اتباعهم يحكي هذا النزاع في جميع اهل البدع ؛ وفي تخليدهم، حتى التزم تخليدهم كل من يعتقد انه مبتدع بعينه، وفي هذا من الخطأ ما لا يحصى ؛ وقابله بعضهم فصار يظن انه لا يطلق كفر احد من اهل الاهواء ؛ وان كانوا قد اتوا من الاتحاد واقوال اهل التعطيل والاتحاد .

والتحقيق في هذا: ان القول قد يكون كفراً كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم ، ولا يرى في الآخرة ؛ ولكن قد يخفى على بعض الناس انه كفر ، فيطلق القول بتكفير القائل ؛ كما قال السلف من قال : القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن قال : ان الله لا يرى في الآخرة فهو كافر ، ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة كما تقدم ، كمن جحد وجوب الصلاة ؛ والزكاة ، واستحل الخمر ؛ والزنا وتأول . فان ظهور تلك الأحكام بين المسلمين اعظم من ظهور هذه ، فاذا كان المتأول المخطيء في تلك لا يحكم بكفره ، إلا بعد البيان له واستتابته — كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلوا الخمر — ففني غير ذلك اولى وأحرى ، وعلى هذا يخرج الحديث الصحيح . « في الذي قال : اذا انامت فأحرقوني ، ثم اسحقوني في اليم ، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه احداً من العالمين » وقد غفر الله لهذا مع ما حصل له من الشك في قدرة الله وإعادته اذا حرقوه ، وهذه المسائل مبسوطه في غير هذا الموضع .

فان قيل : فالله قد امر بجهاد الكفار والمنافقين في آيتين من القرآن فاذا كان المنافق تجري عليه احكام الاسلام في الظاهر ، فكيف يمكن مجاهدته .

قيل ما يستقر في القلب من إيمان ونفاق ، لا بد ان يظهر موجه في القول والعمل ، كما قال بعض السلف : ما أسر احد سريرة الا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفتات لسانه ، وقد قال تعالى في حق المنافقين : (ولو نشاء لأرينا لهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفهم في لحن القول) . فاذا اظهر المنافق من ترك الواجبات ، وفعل المحرمات ما يستحق عليه العقوبة ، عوقب على الظاهر ، ولا يعاقب على ما يعلم من باطنه ، بلا حجة ظاهرة ؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم من المنافقين ، من عرفه الله بهم ، وكانوا يحلفون له وهم كاذبون ؛ وكان يقبل علانيتهم ، ويكل سرأرهم الى الله . واساس النفاق الذي بنى عليه وان المنافق لا بد ان تختلف سريرته وعلانيته وظاهره وباطنه ، ولهذا يصفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق ؛ قال تعالى : (ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) . وقال : (والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) . وامثال هذا كثير . وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، اولئك هم الصادقون) وقال : (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب — إلى قوله — اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) .

و « بالجملة » فاصل هذه المسائل ان تعلم ان الكفر « نوعان » : كفر ظاهر،

وكفر نفاق ، فاذا تكلم في احكام الآخرة ، كان حكم المنافق حكم الكفار ، واما في احكام الدنيا ، فقد تجري على المنافق احكام المسلمين .

وقد تبين ان الدين لا بد فيه من قول وعمل ، وانه يتمتع ان يكون الرجل مؤمناً بالله ورسوله بقلبه او بقلبه ولسانه ولم يؤد واجباً ظاهراً ، ولا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات ، لا لأجل ان الله أوجبها ، مثل ان يؤدي الأمانة او يصدق الحديث ، او يعدل في قسمه وحكمه ، من غير إيمان بالله ورسوله ، لم يخرج بذلك من الكفر ، فان المشركين ، واهل الكتاب يرون وجوب هذه الامور ، فلا يكون الرجل مؤمناً بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد .

ومن قال : بحصول الايمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات ، سواء جعل فعل تلك الواجبات لازماً له ؛ او جزءاً منه ، فهذا نزاع لفظي ، كان مخطئاً خطأً بيناً ، وهذه بدعة الازراء ، التي اعظم السلف والأئمة الكلام في أهلها ، وقالوا فيها من المقالات الغليظة ما هو معروف ، والصلاة هي اعظمها وأعمها وأولها وأجلها .

فصل

واما « الاحسان » فقولہ : « ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » . قد قيل : ان الاحسان هو الاخلاص ، والتحقيق : ان الاحسان يتناول الاخلاص وغيره ، والاحسان يجمع كمال الاخلاص لله ، ويجمع الايمان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى : (بلي من اسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال تعالى : (ومن حسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً .) فذكر احسان الدين اولاً ، ثم ذكر الاحسان ثانياً ، فاحسان الدين هو - والله اعلم - الاحسان المسئول عنه في حديث جبريل فانه سأله عن الاسلام والايمان ؛ ففي (١) .

(١) آخر ما وجد في الاصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

فصل

قد ذكرت فيما تقدم من القواعد : ان « الإسلام » الذي هو دين الله الذي انزل به كتبه ؛ وأرسل به رسوله ؛ وهو ان يسلم العبد لله رب العالمين ؛ فيستسلم لله وحده لا شريك له ويكون سالماً له بحيث يكون متأهلاً له غير متأهله لما سواه كما بينته افضل الكلام ورأس الإسلام: وهو شهادة ان لا إله إلا الله. وله ضدان: الكبر والشرك ولهذا روى ان نوحا عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله ، وسبحان الله ونههم عن الكبر والشرك ، في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع فان المستكبر عن عبادة الله لا يعبده فلا يكون مستسماً له والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركاً به فلا يكون سالماً له ، بل يكون له فيه شرك .

ولفظ « الإسلام » يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الاخلاص ، وقد علم ان الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك كما قال تعالى : (يحكم بها النبيون الذين أسلموا) وقال موسى : (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال تعالى : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند

ربه) وقال الخليل لما قال له ربه : (أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بينه ويعقوب — ايضاً وصى بها بنيه — يا بني ! إن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون) وقال يوسف : (توفني مسلماً) ونظائرُه كثيرة .

وعلم ان ابراهيم الخليل هو امام الخفاء المسلمين ، بعده كما جعله امة وإماماً ، وجاءت الرسل من ذريته بذلك ، فابتدعت اليهود والنصارى ما ابتدعوه مما خرج بهم عن دين الله الذي امروا به وهو الاسلام العام ، ولهذا امرنا ان نقول : (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وكل من هاتين الأمتين خرجت عن الاسلام وغلب عليها احد ضديه ، فاليهود يغلب عليهم الكبر ويقل فيهم الشرك ، والنصارى يغلب عليهم الشرك ويقل فيهم الكبر . وقد بين الله ذلك في كتابه فقال في اليهود : (وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله) . وهذا هو أصل الاسلام . الى قوله : (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) .

وهذا اللفظ الذي هو لفظ الاستفهام ؛ هو انكار لذلك عليهم . وذم لهم عليه ، وإنما يذمون على ما فعلوه ، فعلم انهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى

أنفسهم استكبروا ، فيقتلون فريقاً من الأنبياء ويكذبون فريقاً ؛ وهذا حال المستكبر الذي لا يقبل ما لا يهواه ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر الكبر في الحديث الصحيح بأنه بطر الحق وغمط الناس ، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : يا رسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً أفمن الكبر ذلك؟ فقال : « لا ! إن الله جميل يحب الجمال ، ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس » واطر الحق جرده ودفعه ، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم .

وكذلك ذكر الله « الكبر » في قوله بعد ان قال : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء) الى ان قال : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سيل الغي يتخذوه سبيلاً) . وهذا حال الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وهو الغاوي كما قال : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الأرض واتبع هواه) الآية وهذا مثل علماء السوء ، وقد قال لما رجع موسى اليهم : (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) فالذين يرهبون ربهم ؛ خلاف الذين يتبعون أهواءهم كما قال تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) .

فأولئك المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ، ولا يفهمون ، لما تركوا العمل بما علموه استكباراً واتباعاً لأهوائهم عوقبوا بان منعوا الفهم والعلم ؛ فان العلم حرب للمتعالى ، كما أن السيل حرب للمكان العالي ، والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموه ، فأناهم الله علماء ورحمة ، اذ من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ولهذا لما وصف الله النصارى : (بان منهم قسيسين ورهباناً) . والرهبان : من الرهبة (وأنهم لا يستكبرون) كانوا بذلك أقرب مودة الى الذين آمنوا . كما قال : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) .

فلما كان فيهم رهبة وعدم كبر كانوا أقرب الى الهدى فقال في حق المسلمين منهم : (وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمننا فاكثبنا مع الشاهدين) . قال ابن عباس : مع محمد وأمه ، وهم الأمة الشهداء ، فان النصارى لهم قصد وعبادة ، وليس لهم علم وشهادة ؛ ولهذا فان كان اليهود شراً منهم ؛ بأنهم أكثر كبراً وأقل رهبة ، وأعظم قسوة ، فان النصارى شر منهم فانهم أعظم ضلالاً وأكثر شركاً ، وأبعد عن تحريم ما حرم الله ورسوله .

وقد وصفهم الله بالشرك الذي ابتدعوه ، كما وصف اليهود بالكبر الذي هروه ، فقال تعالى : (اتخذوا ايجابارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح

ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يشركون) وقال تعالى : (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأبي الهين من دون الله قال سبحانه ما يكون لي ان أقول ما ليس لي بحق) الى قوله : (ان اعبدوا الله ربي وربكم) الآية ، وقد ذكر الله قولهم ان الله هو المسيح بن مريم ، وان الله ثالث ثلاثة ، وقولهم : اتخذ الله ولداً ؛ في مواضع من كتابه ، وبين عظيم فريتهم وشتمهم لله ، وقولهم « الاد » الذي : (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدأً) ولهذا يدعوهم في غير موضع الى ان لا يعبدوا الا الهأ واحداً ، كقوله : (يا اهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق) الى قوله : (ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه ان يكون له ولد) الى قوله (لن يستكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرم إليه جميعاً) وهذا لأن المشركين بمخلوق من البشر او غيرهم ، يصيرون هم مشركون . ويصير الذي اشركوا به من الأنس والجن مستكبراً ، كما قال : (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) فأخبر الله ان عباده لا يستكبرون عن عبادته وإن اشرك بهم المشركون . وكذلك قال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا اله واحد) الى قوله : (ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة) الآية ، وقال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبد الله ربي وربكم انه من بشرك بالله فقد حرم الله

عليه الجنة) فاخبر انه احرم بالتوحيد ونهاهم عن ان يشركوا به ، او بغيره كما فعلوه .

ولما كان اصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة : (فضربت عليهم الذلة اينما ثقفوا) . ولما كان اصل دين النصارى الاشراك لتعديد الطرق الى الله اضلهم عنه ؛ فعوقب كل من الأمتين على ما اجترمه بنقيض قصده (وما ربك بظلام للعبيد) . كما جاء في الحديث : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر يطوؤم الناس بأرجلهم » . وكما في الحديث عن عمر بن الخطاب موقوفاً ومرفوعاً : « ما من احد الا في رأسه حكمة فان تواضع قيل له : انتعش نعشك الله ، وإن رفع رأسه قيل له : انتكس نكسك الله » . وقال سبحانه وتعالى : (ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) وقال تعالى : (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين . ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . اليس في جهنم مثوى للمتكبرين وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) .

ولهذا استوجبوا الغضب والمقت . والنصارى لما دخلوا في البدع : اضلهم عن سبيل الله ، فضلوا عن سبيل الله واصلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل وهم إنما ابتدعوها ليتقربوا بها اليه ويعبدوه ، فأبعدتهم عنه واضلتهم عنه وصاروا يعبدون غيره .

فتدبر هذا والله تعالى يهديننا صراطه المستقيم صراط الذين انعم عليهم غير
المغضوب عليهم والضالين .

وقد وصف بعض اليهود بالشرك ، في قوله : (وقالت اليهود عزير بن الله)
وفي قوله : (قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب
عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) ففي اليهود من عبد الأصنام،
وعبد البشر ؛ وذلك ان المستكبر عن الحق يتلى بالانقياد للباطل ، فيكون
المستكبر مشركا ، كما ذكر الله عن فرعون وقومه : انهم كانوا مع استكبارهم
وجحودهم مشركين ، فقال عن مؤمن آل فرعون : (ويا قوم مالي ادعوكم الى
النجاة وتدعوني الى النار . تدعوتني لأكفر بالله واشرك به ما ليس لي به علم
وانا ادعوكم الى العزيز الغفار . لا جرم انما تدعوتني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا
في الآخرة) . وقال : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) الآية . وقال
يوسف الصديق لهم : (يا صاحبي السجن ارباب متفرقون خير ام الله الواحد
القهار . ماتعدون من دونه الا اسماء سيمتموها اتم واناؤكم ما انزل الله بها من
سلطان . إن الحكم الا لله احمر ان لاتعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر
الناس لا يعلمون) وقد قال تعالى : (وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى
وقومه ليفسدوا في الارض ويذكرك وآلهتك . قال سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم
وانا فوقهم قاهرون) .

فان قيل : كيف يكون قوم فرعون مشركين ؟ وقد اخبر الله عن فرعون

انه جحد الخالق فقال : (وما رب العالمين) وقال : (ما علمت لكم من إله غيري) وقال : (انار بكم الأعلى) وقال عن قومه : (فلما جاءتهم آياتنا بينات قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) والاشراك لا يكون الا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشرك به .

قيل : لم يذكر الله جحد الصانع الا عن فرعون موسى ، واما الذين كانوا في زمن يوسف فالقرآن يدل على انهم كانوا مقرين بالله ، وهم مشركون به ، ولهذا كان خطاب يوسف للملك وللغريز ولهم : يتضمن الاقرار بوجود الصانع كقوله : (أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار ؟) (ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة) الى قوله (ان ربي بكيدهن عليم) (والله لا يهدي كيد الخائنين) الى قوله : (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم) وقد قال مؤمن آل — حم — (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولاً) فهذا يقتضي : ان اولئك الذين بعث اليهم يوسف كانوا يقرون بالله .

ولهذا كان اخوة يوسف يخاطبونه قبل ان يعرفوا انه يوسف ويظنونه من آل فرعون بخطاب يقتضي الاقرار بالصانع كقولهم : (تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين) وقال لهم : (انتم شر مكاناً والله اعلم بما تصفون) وقال : (معاذ الله ان نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) وقالوا له :

(يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضروجننا بيضاة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) وذلك ان فرعون الذي كان في زمن يوسف اكرم أبويه وأهل بيته لما قدموا اكراماً عظيماً مع علمه بدينهم ، وإستقراء احوال الناس يدل على ذلك .

فان جحود الصانع لم يكن ديناً غالباً على أمة من الأمم قط ، وإنما كان دين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الاشرار ، وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس وأولئك كان علماءهم ، من الفلاسفة الصابئة المشركين ، الذين يعظمون الهياكل ، والكواكب والاصنام ، والاخبار المروية من نقل اخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك ؛ ولكن فرعون موسى : (استخف قومه فأطاعوه) وهو الذي قال لهم — دون الفراعنة المتقدمين — : (ما علمت لكم من إله غيري) ثم قال لهم بعد ذلك : (انا ربكم الأعلى فأخذ الله نكال الآخرة والاولى) نكال الكلمة الاولى . ونكال الكلمة الآخرة ، وكان فرعون في الباطن عارفاً بوجود الصانع وإنما استكبر كابليس وانكر وجوده ، ولهذا قال له موسى : (لقد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر) فلما انكر الصانع ، وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها ولم يصفه الله تعالى بالشرك ، وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة اخرى ، والمنكر للصانع منهم مستكبر كثيراً ما يعبد آلهة ؛ ولا يعبد الله قط ؛ فانه يقول : هذا العالم واجب الوجود بنفسه . وبعض اجزائه مؤثر في بعض ، ويقول انما انتفع بعبادة الكواكب والاصنام ، ونحو ذلك ، ولهذا كان باطن قول هؤلاء الاتحادية ، المنتسبة الى الاسلام هو قول فرعون .

وكنت ابيّن انه مذهبيهم ، وأبيّن انه حقيقة مذهب فرعون حتى حدثني الثقة:
عن بعض طواغيتهم انه قال : نحن على قول فرعون ؛ ولهذا يعظمون
فرعون في كتبهم تعظيماً كثيراً . فانهم لم يجعلوا ثم صانعاً للعالم خلق العالم، ولا اثبتوا
رباً مديراً للمخلوقات ، وإنما جعلوا نفس الطبيعة هي الصانع ، ولهذا جوزوا عبادة
كل شيء ، وقالوا من عبده فقد عبد الله ، ولا يتصور عندهم ان يعبد غير الله
فما من شيء يعبد إلا وهو الله ، وهذه الكائنات عندهم اجزأؤه، او صفاته ،
كأجزاء الانسان او صفاته ، فهؤلاء اذا عبدوا الكائنات فلم يعبدوها لتقربهم
الى الله زلفى ؛ لكن لأنها عندهم هي الله او مجلى من مجاله ، او بعض من ابعاضه
او صفة من صفاته او تعيين من تعييناته ، وهؤلاء يعبدون ما يعبد فرعون وغيره
من المشركين ، لكن فرعون لا يقول : هي الله ، ولا تقربنا الى الله ، والمشركون
يقولون : هي شفعاؤنا وتقربنا الى الله ، وهؤلاء يقولون هي الله كما تقدم ، وأولئك
أكفر من حيث اعترفوا بأنهم عبدوا غير الله او جحدوه؛ وهؤلاء اوسع ضلالا
من حيث جوزوا عبادة كل شيء ، وزعموا انه هو الله وان العابد هو المعبود ،
وان كانوا انما قصدوا عبادة الله .

وإذا كان أولئك كانوا مشركين كما وصفوا بذلك . وفرعون موسى هو
الذي جحد الصانع وكان يعبد الآلهة ، ولم يصفه الله بالشرك .

فمعلوم ان المشركين قد يحبون آلهتهم كما يحبون الله او تزيد محبتهم لهم على
محبتهم لله ؛ ولهذا : يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم . كما قال تعالى: (ولا تسبوا

الذين يدعون من دين الله فيسبوا الله عدواً بغير علم . فقوم فرعون قد يكونون اعرضوا عن الله بالكلمة بعد ان كانوا مشركين به واستجابوا لفرعون في قوله : (انا ربكم الأعلى) و (ما علمت لكم من إله غيري) . ولهذا لما خاطبهم المؤمن ذكر الأحرين فقال : (تدعوتني لأكفر بالله واشرك به ، ما ليس لي به علم) فذكر الكفر به الذي قد يتناول جحوده ، وذكر الاشرار به ايضاً ؛ فكان كلامه متناولاً للمقاتلين والحالين جميعاً .

فقد تبين : ان المستكبر يصير مشركاً ، اما بعبادة آلهة اخرى مع استكباره عن عبادة الله ، لكن تسمية هذا شركاً نظير من امتنع مع استكباره عن اخلاص الدين لله كما قال تعالى : (انهم كانوا اذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون : أئنا لناركوا آلهتنا لشاعر مجنون) فهؤلاء مستكبرون مشركون ؛ وإنما استكبارهم عن اخلاص الدين لله فالمستكبر الذي لا يقر بالله في الظاهر كفرعون اعظم كفرأ منهم ، وابليس الذي يأمر بهذا كله ويحبه ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته اعظم كفرأ من هؤلاء وان كان عالماً بوجود الله وعظمته كما ان فرعون كان ايضاً عالماً بوجود الله .

و اذا كانت البدع والمعاصي شعبة من الكفر وكانت مشتقة من شعبة . كما ان الطاعات كلها شعبة من شعب الايمان ومشتقة منه ، وقد علم ان الذي يعرف الحق ولا يتبعه غاو يشبه اليهود ؛ وان الذي يعبد الله من غير علم وشرع : هو ضال يشبه النصارى ؛ كما كان يقول من يقول من السلف : من فسد من العلماء

ففيه شبه من اليهود؛ ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى .

فعلى المسلم ان يحذر من هذين الشبهين الفاسدين ؛ من حال قوم فيهم
استكبار وقسوة عن العبادة والتأله ؛ وقد أوتى نصياً من الكتاب وحظاً من
العلم ؛ وقوم فيهم عبادة وتأله باشرارك بالله وضلال عن سبيل الله ووحيه وشرعه
وقد جعل في قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها، وهذا كثير منتشر في
الناس ؛ والشبه تقل تارة وتكثر اخرى ؛ فاما المستكبرون المتألهون
لغير الله الذين لا يعبدون الله . وانما يعبدون غيره للاتفاف به ؛ فهؤلاء
يشبهون فرعون .

وقال رحمه الله تعالى :

فصل

لفظ « الاسلام » يستعمل على وجهين : « متعديا » كقوله : (ومن احسن دنيا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) وقوله : (فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمة : أسلمتم ؟) الآية ، وقوله في دعاء المنام . « أسلمت نفسي إليك » .

ويستعمل « لازما » كقوله : (إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين) وقوله : (وله أسلم من في السموات والأرض) وقوله عن بلقيس : (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وهو يجمع معنيين :

(أحدهما) الانقياد والاستسلام .

و (الثاني) : اخلاص ذلك وافراده . كقوله : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل) . وعنوانه قول لا إله الا الله . وله معنيان .

(احدها) : الدين المشترك، وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الانبياء ؛ كما دل على اتحاد دينهم نصوص الكتاب والسنة .

و (الثاني) ما اختص به محمد من الدين والشرعة والمنهاج — وهو الشرعة والطريقة والحقيقة — وله مرتبتان :

(احدها) الظاهر من القول والعمل ، وهي المباني الخمس .

و (الثاني) : ان يكون ذلك الظاهر مطابقاً للباطن . فبالترسيخ الأول [جاءت] الآيات في كتاب الله ، والحديثان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو اعم من الايمان ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً . وبا (التفسير) الثاني يقال : (ان الدين عند الله الاسلام) وقوله : (وذلك دين القيمة) وقوله : أمركم بالايمان بالله ، وفسره بخصال الاسلام . وعلى هذا التفسير فالايان التام ، والدين والاسلام سواء ، وهو الذي لم يفهم المعتزلة غيره . وقد يراد به معنى ثالث هو كماله وهو قوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » فيكون اسلم غيره ، اي جعله سالماً منه .

ولفظ الايمان : قيل اصله التصديق — وليس مطابقاً له ؛ لا بد بل ان يكون تصديقاً عن غيب ، والا فالخبر عن مشهود ليس تصديقه إيماناً ؛ لأنه من الأمن الذي هو الطمأنينة ، وهذا انما يكون في الخبر الذي قد يقع فيه ريب ، والمشهودات لا ريب فيها . الا على هذا — فاما تصديق القلب فقط كما تقول

الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية ، وإما القلب واللسان كما تقوله المرجئة ، او باللسان كما تقوله الكرامية ، وإما التصديق بالقلب والقول والعمل - فان الجميع يدخل في مسمى التصديق على مذهب اهل الحديث ، كما فسره شيخ الاسلام وغيره - . وقيل : بل هو الاقرار ؛ لان التصديق انما يطابق الخبر فقط ، واما الاقرار فيطابق الخبر والامر كقوله : (اقررتم واخذتم على ذلكم اصري قالوا : اقررنا) ولأن قر ، وآمن : متقاربان . فالإيمان دخول في الامن ، والاقرار دخول في الاقرار ، وعلى هذا فالكلمة اقرار ، والعمل بها اقرار ايضاً .

ثم هو في الكتاب بمعنىين : اصل ، وفرع واجب ، فالاصل الذي في القلب وراء العمل ، فلهذا يفرق بينها بقوله : (آمنوا و عملوا الصالحات) والذي يجمعها كما في قوله : (انما المؤمنون) و (لا يستأذنك الذين لا يؤمنون) . وحديث « الحيا » ، و « وقد عبد القيس » ، وهو مركب من اصل لا يتم بدونه ومن واجب ينقص بفواته نقصا يستحق صاحبه العقوبة ، ومن مستحب يفوت بفواته علو الدرجة فالتاس فيه ظالم لنفسه ومقتصد وسابق ، كاللحج وكالبدن والمسجد وغيرها من الاعيان ، والاعمال والصفات ، فمن سواء اجزائه ما اذا ذهب نقص عن الاكمل ومنه ما نقص عن الكمال ، وهو ترك الواجبات او فعل المحرمات ، ومنه ما نقص ركنه وهو ترك الاعتقاد والقول : الذي يزعم المرجئة والجهمية انه مسمى فقط ، وبهذا نزول شبهات الفرق . واصله القلب وكاله العمل الظاهر ، بخلاف الاسلام فان اصله الظاهر ، وكاله القلب .

وقال رحمه الله

فصل

معلوم ان اصل « الايمان » هو الايمان بالله ورسوله ، وهو اصل العلم الالهي كما بينته في اول الجزء ..

فاما « الايمان بالله » فهو في الجملة قد اقر به جمهور الخلائق ، الا شواذ الفرق من الفلاسفة الدهرية ، والاسماعيلية ونحوهم. او من نافق فيه، من المظهرين للتمسك بالملل ، وانما يقع اختلاف اهل الملل في اسمائه وصفاته وافعاله واحكامه وعباداته ونحو ذلك.

واما « الايمان بالرسول » فهو المهم ، اذ لا يتم الايمان بالله بدون الايمان به ، ولا تحصل النجاة والسعادة بدونه ، اذ هو الطريق الى الله سبحانه ؛ ولهذا كان ركنا الاسلام : « اشهد ان لا اله الا الله ، واشهد ان محمداً عبده ورسوله » . ومعلوم ان الايمان هو الاقرار ؛ لا مجرد التصديق . والاقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق ، وعمل القلب الذي هو الانقياد – تصديق الرسول

فما اخبر ، والانقياد له فيما امر ، كما ان الاقرار بالله هو الاعتراف به والعبادة له فالنفاق يقع كثيراً في حق الرسول ، وهو اكثر ما ذكره الله في القرآن من نفاق المنافقين في حياته ، والكفر هو عدم الايمان سواء كان معه تكذيب او استكبار او اباء او اعراض؛ فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر.

ثم هنا « نفاقان » : نفاق لأهل العلم والكلام ، ونفاق لأهل العمل والعبادة – فأما النفاق المحض الذي لا ريب في كفر صاحبه ، فان لا يرى وجوب تصديق الرسول فيما اخبر به ، ولا وجوب طاعته فيما امر به ، وان اعتقد مع ذلك ان الرسول عظيم القدر – علما وعملا، وانه يجوز تصديقه وطاعته ؛ لكنه يقول : انه لا يضر اختلاف الملل اذا كان المعبود واحدا ، ويرى انه تحصل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعتة ؛ اما بطريق الفلسفة والصبو، او بطريق اليهود والتنصر ، كما هو : قول الصابئة الفلاسفة ، في هذه المسألة وفي غيرها، فانهم وان صدقوه وأطاعوه فانهم لا يعتقدون وجوب ذلك على جميع اهل الارض ؛ بحيث يكون التارك لتصديقه وطاعته معذبا؛ بل يرون ذلك مثل التمسك بمذهب امام او طريقة شيخ او طاعة ملك ؛ وهذا دين التتار ومن دخل معهم .

اما النفاق الذي هو دون هذا ؛ فان يطلب العلم بالله من غير خبره ؛ او العمل لله من غير امره ؛ كما يتلى بالأول كثير من المتكلمة . وبالثاني كثير من المتصوفة فهم يعتقدون انه يجب تصديقه او يجب طاعته لكنهم في سلوكهم العلمي

والعملي غير سا لكين هذا المسلك بل يسلكون مسلكا آخر: اما من جهة القياس
والنظر واما من جهة الذوق والوجد ؛ واما من جهة التقليد ؛ وما جاء عن
الرسول اما ان يعرضوا عنه واما ان يردوه الى ما سلكوه ؛ فانظر نفاق هذين
الصفين ! مع اعترافهم باطناً وظاهراً بأن محمداً اكمل الخلق وافضل الخلق وانه
رسول وانه اعلم الناس، لكن اذا لم يوجبوا متابعتة وسوغوا ترك متابعتة كفروا
وهذا كثير جداً لكن بسط الكلام في حكم هؤلاء : له موضع غير هذا .

سئل رحمه الله :-

عن (الايمان بالله ورسوله) هل فوقه مقام من المقامات، او حال من الاحوال ام لا؟ وهل يدخل فيه جميع المقامات والاحوال المحمودة عند الله ورسوله ام لا؟ وهل تكون صفة الايمان نوراً يوقعه الله في قلب العبد ويعرف العبد عند وقوعه في قلبه الحق من الباطل ام لا؟ وهل يكون لأول حصوله سبب من الاسباب — مثل رؤية اهل الخير او مجالستهم وصحبهم او تعلم عمل من الاعمال او غير ذلك؟ .

فان كان لأول حصوله سبب، فما هو ذلك السبب؟ وما الاسباب ايضاً التي يقوى بها الايمان — الى ان يكمل، على ترتيبها؟ هل يبدأ بالزهد حتى يصححه؟ ام بالعلم حتى يرسخ فيه؟ ام بالعبادة حتى يجهد نفسه؟ ام يجمع بين ذلك على حسب طاقته؟ ام كيف يتوصل الى حقيقة الايمان الذي مدحه الله ورسوله؟ بينوا لنا الاسباب وانواعها وشرحها، التي يتوصل بها الى حقيقة الايمان، وما وصف صاحبه — رضي الله عنكم؟! .

فأجاب الحمد لله رب العالمين

اسم «الايان» يستعمل مطلقاً ، ويستعمل مقيداً ، واذا استعمل مطلقاً ، فجميع ما يحبه الله ورسوله من اقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة يدخل في مسمى الايمان عند عامة السلف والأئمة ، من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين يجعلون الايمان قولاً وعملاً ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها في مسماه ، وهذا مذهب الجماهير من اهل الحديث والتصوف والكلام والفقة ، من اصحاب مالك والشافعي واحمد وغيرهم .

ويدخل في ذلك ما قد يسمى مقاماً وحالاً ، مثل الصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا والحشية والانابة والاخلاص والتوحيد وغير ذلك .

ومن هذا ما خرج في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم — انه قال : « الايمان بضع وستون — او بضع وسبعون — شعبة ، اعلاها قول لا اله الا الله ، وادناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » . فذكر اعلا شعب الايمان ، وهو قول لا اله الا الله ، فانه لاشيء افضل منها كما في الموطأ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الدعاء دعاء يوم

عرفة ، وافضل ما قلت انا والنيون من قبلي : لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » وفي الترمذي وغيره انه قال : « من مات وهو يعلم ان لا اله الا الله دخل الجنة » وفي الصحيح عنه انه قال : لعمري عند الموت « ياعم ! قل : لا اله الا الله ، كلمة احاج لك بها عند الله » .

وقد تظاهرت الدلائل على ان احسن الحسنات هو التوحيد ، كما ان اسوأ السيئات هو الشرك ، وهو الذنب الذي لا يغفره الله ، كما قال تعالى : (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وتلك الحسنة التي لا بد من سعادة صاحبها كما ثبت في الصحيح عنه حديث الموجبتين : موجبة السعادة ، وموجبة الشقاوة ؛ فمن مات يشهد ان لا اله الا الله دخل الجنة ، واما من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار وذكر في الحديث انها أعلام شعب الايمان .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لو فد عبد القيس : « أمركم بالايمان بالله ، اتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، وتقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، وتؤدوا خمس المغنم » فجعل هذه الاعمال من الايمان ، وقد جعلها من الاسلام في حديث جبرائيل الصحيح . لما أتاه في صورة اعرابي - وسأله عن الايمان ؛ فقال : « الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » وسأله عن الاسلام فقال : « ان تشهد ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله

وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت « وفي حديث في المسند قال : « الاسلام علانية ، والايان في القلب ».

فأصل الايمان في القلب وهو قول القلب وعمله، وهو اقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلا بد ان يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح، واذالم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه؛ ولهذا كانت الاعمال الظاهرة من موجب ايمان القلب ومقتضاه، وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له ، وهي شعبة من مجموع الايمان المطلق وبعض له ؛ لكن ما في القلب هو الاصل لما على الجوارح ، كما قال ابو هريرة — رضي الله عنه — : ان القلب ملك ، والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده، واذاخبت الملك خبت جنوده ، وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان في الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ، الا وهي القلب! ».

ولهذا ظن طوائف من الناس ان الايمان انما هو في القلب خاصة ، وما على الجوارح ليس داخلا في مساه ، ولكن هو من ثمراته ونتائجه الدالة عليه ، حتى ال الامر بغلاتهم — كجهم واتباعه — الى ان قالوا : يمكن ان يصدق بقلبه ، ولا يظهر بلسانه الا كلمة الكفر ، مع قدرته على اظهارها ، فيكون الذي في القلب ايمانا نافعا له في الآخرة ، وقالوا : حيث حكم الشارع بكفر احد بعمل او قول : فلكونه دليلا على انتفاء ما في القلب . وقولهم متناقض ؛ فانه اذا كان ذلك دليلا مستلزماً لاتفاء الايمان الذي في القلب امتنع ان يكون الايمان ثابتاً في

القلب ، مع الدليل المستلزم لنتيجه ، وان لم يكن دليلاً لم يجز الاستدلال به على الكفر الباطن .

والله سبحانه في غير موضع يبين ان تحقيق الايمان وتصديقه بما هو من الاعمال الظاهرة والباطنة . كقوله : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً) وقال : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقال تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

فاذا قال القائل : هذا يدل على ان الايمان ينتفي عند انتفاء هذه الامور ، لا يدل على انها من الايمان ، قيل هذا اعتراف بأنه ينتفي الايمان الباطن مع عدم مثل هذه الامور الظاهرة ، فلا يجوز ان يدعي انه يكون في القلب إيمان ينافي الكفر بدون امور ظاهرة: لا قول ولا عمل وهو المطلوب — وذلك تصديق — وذلك لأن القلب اذا تحقق مافيه اثر في الظاهر ضرورة ، لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر ، فالارادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة توجب وقوع المقدور ، فاذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتاً استلزم موالاته اوليائه

ومعاداة اعدائه (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله
ورسوله ، ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم) (ولو كانوا يؤمنون
بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء) فهذا التلازم امر ضروري .

ومن جهة ظن انتفاء التلازم غاط غالطون ؛ كما غلط آخرون في جواز
وجود إرادة جازمة مع القدرة التامة بدون الفعل ، حتى تنازعوا : هل يعاقب
على الإرادة بلا عمل ؟ وقد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع ، وبيننا : ان المهمة
التي لم يقترن بها فعل ما يقدر عليه الهام ليست ارادة جازمة ، وان الإرادة
الجازمة لا بد أن يوجد معها ما يقدر عليه العبد ، والعمو وقع عنهم بسببته ولم
يفعلها ؛ لا عن من أراد وفعل المقذور عليه ، وعجز عن حصول مراده ، كالذي
اراد قتل صاحبه فقاتله حتى قتل احدهما ؛ فان هذا يعاقب ؛ لأنه أراد وفعل
المقذور من المراد ، ومن عرف الملازمات التي بين الأمور الباطنة والظاهرة
زالت عنه شبهات كثيرة في مثل هذه المواضع التي كثر اختلاف الناس فيها .

بقي ان يقال : فهل اسم الايمان للأصل فقط ، اوله ولفروعه؟. والتحقيق :
ان الاسم المطلق يتناولهما ، وقد يخص الاسم وحده بالاسم مع الاقتران ، وقد
لا يتناول الا الأصل ، اذا لم يخص الا هو ؛ كاسم الشجرة ، فانه يتناول الأصل
والفرع اذا وجدت ، ولو قطعت الفروع لكان اسم الشجرة يتناول الأصل
وحده ، وكذلك اسم الحج هو اسم لكل ما يشرع فيه من ركن ، وواجب ،

ومستحب ، وهو حج أيضاً تام بدون المستحبات ، وهو حج ناقص بدون الواجبات التي يجبرها دم .

والشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفي الايمان عن العبد لترك مستحب لكن لترك واجب ، بحيث ترك ما يجب من كماله وتامه ؛ لا بانتفاء ما يستحب في ذلك ، ولفظ الكمال والتمام : قد يراد به الكمال الواجب ، والكمال المستحب ؛ كما يقول بعض الفقهاء : الغسل ينقسم : الى كامل ، وعجزى ، فاذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا إيمان لمن لا أمانه له » و« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . ونحو ذلك ، كان لاتفاء بعض ما يجب فيه ؛ لا لاتفاء الكمال المستحب . والايان يتبعض ويتفاضل الناس فيه : كالحج ، والصلاة ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، ومثقال شعيرة من إيمان » .

وأما اذا استعمل اسم الايمان مقيداً : كما في قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت » ونحو ذلك فهنا قد يقال : إنه متناول لذلك ، وان عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام ، كقوله تعالى : (وملائكته وجبريل وميكال) وقوله : (واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) .

وقد يقال : ان دلالة الاسم تنوعت بالافراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين ، فان أحدهما اذا افرد تناول الآخر ، واذا جمع بينهما كانا صنفين : كما في آية الصدقة ، ولا ريب أن فروع الايمان مع أصوله كالمعطوفين ، وهي مع جميعه كالبعض مع الكل ، ومن هذا الموضع نشأ نزاع واشتباه ، هل الاعمال داخلة في الايمان أم لا ؟ لكونها عطف على .

ومن هذا الباب قد يعطف على الايمان بعض شعبه العالية ، او بعض انواعه الرفيعة : كاليقين ، والعلم ، ونحو ذلك ، فيشعر العطف بالمغايرة ، فيقال هذا : ارفع الايمان — اي اليقين والعلم ارفع من المؤمن الذي ليس معه هذا . اليقين والعلم ، كما قال الله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات). ومعلوم أن الناس يتفاضلون في نفس الايمان والتصديق في قوته وضعفه ، وفي عمومته وخصومه ، وفي بقائه ودوامه ، وفي موجبه ونقيضه ، وغير ذلك من أمورهِ ، فيخص أحد نوعيه باسم يفضل به على النوع الآخر ، ويبقى اسم الايمان ، في مثل ذلك متناولاً للقسم الآخر ، وكذلك يفعل في نظائر ذلك : كما يقال : الانسان خير من الحيوان ، والانسان خير من الدواب ، وان كان الانسان يدخل في الدواب ، في قوله : (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) .

فاذا عرف هذا ؛ فحيث وجد في كلام مقبول تفضيل شيء على الايمان ؛ فانما هو تفضيل نوع خاص على عمومهِ ، أو تفضيل بعض شعبه العالية على غيره ،

واسم الايمان قد يتناول النوعين جميعاً ، وقد يخص أحدهما كما تقدم ، وقد قيل :
أكثر اختلاف العقلاء من جهة اسمائه .

فصل

وأما قول القائل : هل تكون صفة الايمان نوراً يوقعه الله في قلب العبد ،
ويعرف العبد عند وقوعه في قلبه الحق من الباطل ؟ فيقال له : قد قال الله تعالى :
(الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) قال ابي بن كعب
وغيره : مثل نوره في قلب المؤمن ، الى قوله : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له
من نور) وقال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في
الناس ، كمن مثله في الظلمات ؟ !) فالإيمان الذي يهبه الله لعبده سماه نوراً ،
وسمي الوحي النازل من السماء الذي به يحصل الايمان (نوراً) يهدي به من نشاء
من عبادنا) وقال تعالى : (فالذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي
أنزل معه) وأمثال ذلك ، ولا ريب أن المؤمن يفرق بين الحق والباطل ، بل
يفرق بين أعظم الحق ، لكن لا يمكن أن يقال : بأن كل من له ايمان يفرق بمجرد
ما اعطيه من الايمان بين دل حق وكل باطل .

فصل

وأما قوله: هل يكون لأول حصوله سبب؟ فلا ريب أنه يحصل بسبب، مثل استماع القرآن، ومثل رؤية أهل الإيمان، والنظر في أحوالهم، ومثل معرفة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته، والنظر في ذلك، ومثل النظر في آيات الله تعالى، ومثل التفكير في أحوال الإنسان نفسه، ومثل الضروريات التي يحدثها الله للعبد التي تضطره إلى الذل لله، والاستسلام له، واللجأ إليه وقد يكون هذا سبباً لشيء من الإيمان، وهذا سبباً لشيء آخر؛ بل كل ما يكون في العالم من الأمور فلا بد له من سبب، وسبب الإيمان وشعبه يكون تارة من العبد، وتارة من غيره، مثل من يقبض له من يدعو إلى الإيمان، ومن يأمره بالخير، وينهاه عن الشر، ويبين له علامات الدين، وحججه وبراهينه، وما يعتبره وينزل به ويتعظ به، وغير ذلك من الأسباب.

فصل

واما قوله : فالاسباب التي يقوى بها الايمان الى ان يكمل على ترتيبها ؟ هل يبدأ بالزهد ؛ او بالعلم ؛ او بالعبادة ؟ ام يجمع بين ذلك على حسب طاقته ؟ فيقال : له لا بد من الايمان الواجب ، والعبادة الواجبة ، والزهد الواجب ، ثم الناس يتفاضلون في الايمان ؛ كتفاضلهم في شعبه ، وكل انسان يطلب ما يمكنه طلبه ، ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفاضل .

والناس يتفاضلون في هذا الباب : فمنهم من يكون العلم ايسر عليه من الزهد ومنهم من يكون الزهد ايسر عليه ، ومنهم من تكون العبادة ايسر عليه منها ، فالمشروع لكل انسان ان يفعل ما يقدر عليه من الخير ، كما قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) واذا ازدحمت شعب الايمان قدم ما كان ارضى الله وهو عليه اقدر ، فقد يكون على المفضل اقدر منه على الفاضل ، ويحصل له افضل مما يحصل من الفاضل ، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له ، وهو في حقه أفضل ، ولا يطلب ما هو افضل مطلقاً ، اذا كان متعزراً في حقه او متعسراً يفوته ما هو افضل له وأنفع ؛ كمن يقرأ القرآن بالليل فيتدبره وينتفع بتلاوته ، والصلاة تثقل عليه ، ولا ينتفع منها بعمل ، او ينتفع بالذكر اعظم مما ينتفع بالقراءة .

فأي عمل كان له أنفع والله اطوع افضل في حقه من تكلف عمل لا يأتي به على وجهه ، بل على وجه ناقص ، ويفوته به ما هو انفع له ؛ ومعلوم أن الصلاة اكد من قراءة القرآن ، وقراءة القرآن افضل من الذكر والدعاء ، ومعلوم أيضاً ان الذكر في فعله الخاص : كالركوع والسجود ، افضل من قراءة القرآن في ذلك المحل ، وان الذكر والقراءة والدعاء عند طلوع الشمس وغروبها خير من الصلاة .

والزهد هو ضد الرغبة ، وهو كالبنغض المخالف للمحبة ، والكراهة المخالفة للإرادة ، وكل من الإرادة والكراهة له اقسام في نفسه ، وفي متعلقه ، فالزهد (فيه) انقسام : الى المزهود فيه ، والى نفس الزهد .

اما الأول : فان الزهد (١) ، وأما نفس الزهد الذي هو ضد الرغبة ، وهو الكراهة والبنغض فحقيقة المشروع منه ، ان يكون كراهة العبد وبنغضه وجهه تابعاً لحب الله وبنغضه ورضاه وسخطه ، فيحب ما احبه الله ، ويبغض ما ابغضه الله ، ويرضى ما يرضاه ، ويسخط ما يسخطه الله ؛ بحيث لا يكون تابعاً هوام ، بل لأمر مولاه ، فان كثيراً من الزهاد في الحياة الدنيا اعرضوا عن فضولها ، ولم يقبلوا على ما يحبه الله ورسوله ، وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله ، ولهذا كان في المشركين زهاد ، وفي اهل الكتاب زهاد ، وفي اهل البدع زهاد .

(١) يابض في الأصل .

ومن الناس من يزهد لطلب الراحة من تعب الدنيا ، ومنهم من يزهد لمسألة أهلها والسلامة من اذام ، ومنهم من يزهد في المال لطلب الراحة ، الى امثال هذه الانواع التي لا يأمر الله بها ولا رسوله ، وانما يأمر الله ورسوله ان يزهد فيما لا يحبه الله ورسوله ، ويرغب فيما يحبه الله ورسوله ، فيكون زهده هو الاعراض عما لا يأمر الله به ورسوله ، امر ايجاب ولا امر استحباب ، سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً مستوى الطرفين في حق العبد ، ويكون مع ذلك مقبلاً على ما امر الله به ورسوله ، والآفتراك المنكروه بدون فعل المحبوب ليس بمطلوب ، وإنما المطلوب بالمقصود الأول فعل ما يحبه الله ورسوله ، وترك المكروه متعين كذلك به ترك النفس ؛ فان الحسنات اذا اتفت عنها السيئات زكت ، فبالزكاة تطيب النفس من الحباثت ، وتعظم في الطاعات ، كما ان الزرع اذا ازبل عنه الدغل زكا وظهر وعظم .

فصل

وأما طريق الوصول الى ذلك : فبالاجتهاد في فعل الأمور ، وترك المحظور والاستعانة به على ذلك ، ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وان اصابك شيء فلا تقل لو اني فعلت لكان كذا وكذا . ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ؛ فان لو تفتح عمل

الشيطان » وفي السنن « ان النبي صلى الله عليه وسلم قضى على رجل فقال
المقضى عليه : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «ان
الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك امر فقل : حسبي الله
ونعم الوكيل » .

فامر النبي صلى الله عليه وسلم العبد بأن يحرص على ما ينفعه ، ويستعين
بالله على ذلك ، والحرص على ما ينفعه هو الاجتهاد في الخير ، وهو العبادة ؛ فان
كل ما ينفع العبد فهو مأمور بطلبه ، وأما ينهي عن طلب ما يضره — وان اعتقد
انه ينفعه — كما يطلب المحرمات وهي تضره ، ويطلب الفضول الذي لا ينفعه ،
والله تعالى اباح للمؤمنين الطيبات وهي ما ينفعهم ، وحرم عليهم الخبائث وهي ما
يضرهم ، والله سبحانه وتعالى اعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً .

قال شيخ الاسلام

قدس الله روحه

فصل

واما الايمان : هل هو مخلوق او غير مخلوق ؟.

فالجواب ان هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق او غير مخلوق ؟ وهي محنة الامام احمد وغيره من علماء المسلمين وقد جرت فيها امور يطول وصفها هنا ، لكن لما ظهر القول بان القرآن كلام الله غير مخلوق ، واطفاً الله نار الجهمية المعطلة ، صارت طائفة يقولون ان كلام الله الذي انزله مخلوق ، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا يقولون الفاظنا بالقرآن مخلوقة ، او تلاوتنا او قراءتنا مخلوقة ، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يدخلون في كلامهم نفس كلام الله الذي نقرأ بأصواتنا وحركاتنا ، وعارضهم طائفة اخرى فقالوا: الفاظنا بالقرآن غير مخلوقة ، فرد الامام احمد على الطائفتين وقال : من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال : غير مخلوق فهو مبتدع .

وتكلم الناس حينئذ في الايمان فقالت طائفة: الايمان مخلوق وادرجوا في ذلك ماتكلم الله به من الايمان مثل: قول لا إله إلا الله، فصار مقتضى قولهم ان نفس هذه الكلمة مخلوقة، ولم يتكلم الله بها، فبدع الامام احمد هؤلاء، وقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم « الايمان يضع وستون شعبة اعلاها قول لا إله إلا الله » أف يكون قول لا إله إلا الله مخلوقاً .

ومراده ان من قال: هي مخلوقة مطلقاً، كان مقتضى قوله ان الله لم يتكلم بهذه الكلمة كما ان من قال: إن الفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضى كلامه ان الله لم يتكلم بالقرآن الذي انزله، وان القرآن المنزل ليس هو كلام الله، وان يكون جبريل نزل بمخلوق ليس هو كلام الله، والمسلمون يقرءون قرآناً مخلوقاً ليس هو كلام الله، وقد علم بالاضطرار من دين الاسلام ان القرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله تعالى، وان كان مسموعاً من المبلغ عنه، فان الكلام قد سمع من المتكلم به كما سمعه موسى بلا واسطة، وهذا سماع مطلق — كما يرى الشيء رؤية مطلقة وقد يسمعه من المبلغ عنه، فيكون قد سمعه سمعاً مقيداً — كما يرى الشيء في الماء والمرآة رؤية مقيدة لامطلقة او كما قال تعالى: (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) كان معلوماً عند جميع من خوطب بالقرآن انه يسمع سمعاً مقيداً من المبلغ ليس المراد به انه يسمع من الله .

ومن هؤلاء من قال: انه يسمع صوت القاريء من الله ثم من هؤلاء من

يقول : ان صوت الرب حل في العبد ، ومنهم من يقول ظهر فيه — ولم يحل فيه
ومنهم من يقول لا اقوال ظهر ولا حل ، ومنهم من قال الصوت المسموع غير
مخلوق او قديم ، ومنهم من يقول يسمع منه صوتان : مخلوق ، وغير مخلوق .

ومن القائلين بانه مسموع من الله ، من يقول : بانه يسمع المعنى القديم
القائم بذات الرب مع سماع الصوت المحدث : قال هؤلاء يسمع القديم والمحدث
كما قال اولئك يسمع صوتين قديماً ومحدثاً ؛ وطائفة اخرى قالت : لم يسمع
الناس كلام الله ؛ لامن الله ولا من غيره ؛ قالوا : لأن الكلام لا يسمع الا
من المتكلم ؛ ثم من هؤلاء من قال : نسمع حكايته ، ومنهم من قال : نسمع
عبارته لاحكايته ؛ ومن القائلين بأنه مخلوق من قال : يسمع شيئان : الكلام
المخلوق ؛ والذي خلقه ؛ والصوت الذي للعبد .

وهذه الاقوال كلها مبتدعة مخترعة ، لم يقل السلف شيئاً منها ؛ وكلها باطلة
شرعا وعقلا ، ولكن الجأ اصحابها اليها اشتراك في الالفاظ ؛ واشتباها في المعاني ؛ فانه اذا
قيل سمعت كلام زيد ، او قيل هذا كلام زيد ، فان هذا يقال : على كلامه
الذي تكلم به بلفظه ومعناه ، سواء كان مسموعاً منه او من المبلغ عنه ، مع العلم
بالفرق بين الحالين ، وانه اذا سمع منه سمع بصوته ، واذا سمع من غيره سمع
بصوت ذلك المبلغ ، لا بصوت المتكلم ، وان كان اللفظ لفظ المتكلم ، وقد يقال
مع القرينة هذا كلام فلان وإن ترجم عنه بلفظ آخر ، كما يحكي الله كلام من
يحكي قوله من الأمم باللسان العربي ، وان كانوا انما قالوه بلفظ عبري او سرياني

او قبطني او غير ذلك ، وهذه الأمور مبسوسة في مواضع آخر .

: و (المقصود هنا) انه نشأ بين اهل السنة والحديث النزاع في «مسألتى : القرآن ، والايان» بسبب ألفاظ مجملة ، ومعاني متشابهة ، وطائفة من أهل العلم والسنة : كالبخاري صاحب الصحيح ، ومحمد بن نصر المروزي وغيرهما ، قالوا : الايمان مخلوق ؛ وليس مرادهم شيئاً من صفات الله . وإنما مرادهم بذلك افعال العباد ، وقد اتفق أئمة المسلمين على ان افعال العباد مخلوقة ، وقال يحيى بن سعيد القطان : ما زلت اسمع اصحابنا يقولون : افعال العباد مخلوقة .

وصار بعض الناس يظن ان البخاري وهؤلاء خالفوا احمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، وجرت للبخاري محنة بسبب ذلك ، حتى زعم بعض الكذابين ان البخاري لما مات امر احمد بن حنبل ان لا يصلي عليه ، وهذا كذب ظاهر ، فان ابا عبد الله البخاري — رحمه الله ! — مات بعد احمد بن حنبل بنحو خمس عشرة سنة ، فان احمد بن حنبل — رضي الله عنه — توفي سنة احدى واربعين ومائتين ، وتوفي البخاري سنة ست وخمسين ومائتين ، وكان احمد بن حنبل يحب البخاري ويحبه ويعظمه ، وأما تعظيم البخاري وامثاله للإمام احمد فهو امر مشهور ، ولما صنف البخاري كتابه في خلق افعال العباد ، وذكر في آخر الكتاب ابواباً في هذا المعنى ؛ ذكر ان ثلاثين الطائفتين القائمتين : بان لفظنا بالقرآن مخلوق ، والقائلين بانه غير مخلوق ، ينسبون الى الامام احمد بن حنبل ،

ويدعون أنهم على قوله ، وكلا الطائفتين لم تفهم دقة كلام احمد
- رضي الله عنه - .

وطائفة اخرى : كأبي الحسن الأشعري ، والقاضي ابي بكر بن الطيب ،
والقاضي ابي يعلى وغيرهم ، ممن يقولون إنهم على اعتقاد احمد بن حنبل ، وأئمة
اهل السنة والحديث ، قالوا: احمد وغيره كرهوا ان يقال: لفظي بالقرآن ؛ فان
اللفظ هو الطرح والنبد ، وطائفة اخرى كأبي محمد بن حزم وغيره ممن يقول
ايضاً : انه متبع لأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، الى غير هؤلاء ممن
ينتسب الى السنة ومذهب الحديث ، يقولون انهم على اعتقاد احمد بن حنبل ونحوه
من اهل السنة ، وهم لم يعرفوا حقيقة ما كان يقوله أئمة السنة ؛ كأحمد بن
حنبل وأمثاله ، وقد بسطنا اقوال السلف ، والأئمة : احمد بن حنبل
وغيره في غير هذا الموضع .

واما البخاري وامثاله ، فان هؤلاء من اعرف الناس بقول احمد بن حنبل
وغيره من أئمة السنة ؛ وقد رأيت طائفة تنسب الى السنة والحديث : كأبي
نصر السجزي وامثاله ، ممن يردون على ابي عبد الله البخاري ، يقولون : ان احمد
ابن حنبل كان يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؛ وذكروا روايات كاذبة لاريب
فيها ؛ والمتواتر عن احمد بن حنبل من رواية بنيه : صالح وعبد الله وحنبل ،
والروذي ؛ وقوزان ، ومن لا يحصي عددهم الا الله ، تبين ان احمد كان ينكر
على هؤلاء وهؤلاء وقد صنف ابو بكر المروزي في ذلك مصنفاً ذكر فيه قول

احمد بن حنبل وغيره من أئمة العلم ؛ وقد ذكر ذلك الحلال - في كتاب «السنة»،
وذكر بعضه ابو عبد الله بن بطة في كتاب «الابانة» وقد ذكر كثير من ذلك
ابو عبد الله بن منده فيما صنفه في «مسألة اللفظ» .

وقال ابو محمد بن قتيبة الدينوري : لم يختلف اهل الحديث في شيء من
اعتقادهم الا في مسألة اللفظ ؛ ثم ذكر ابن قتيبة : ان اللفظ يراد به مصدر لفظ
يلفظ لفظاً ؛ ويراد به نفس الكلام الذي هو فعل العبد وصوته ، وهو مخلوق
واما نفس كلام الله الذي يتكلم به العباد فليس مخلوقاً ، وكذلك «مسألة الايمان»
لم يقل قط احمد بن حنبل ان الايمان غير مخلوق ؛ ولا قال احمد ولا غيره من
السلف ان القرآن قديم ؛ وانما قالوا : القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ،
ولا قال احمد بن حنبل ولا احد من السلف ان شيئاً من صفات العبد
وأفعاله غير مخلوقة ، ولا صوته بالقرآن ، ولا لفظه بالقرآن ؛ ولا ايمانه
ولا صلاته ولا شيء من ذلك .

لكن المتأخرون انقسموا في هذا الباب انقساماً كثيراً ؛ فالذين كانوا
يقولون لفظنا بالقرآن غير مخلوق ؛ منهم من اطلق القول بان الايمان غير مخلوق ،
ومنهم من يقول قديم في هذا وهذا ؛ ومنهم من يفرق بين الأقوال الايمانية
والأفعال ، فيقولون : الأقوال غير مخلوقة وقديمة ؛ وأفعال الايمان مخلوقة ؛
ومنهم من يقول في أفعال الايمان ان المحرم منها مخلوق ، واما الطاعات كالصلاة
وغيرها ، فمنهم من يقول : هي غير مخلوقة ؛ ومنهم من يمسك فلا يقول : هي

مخلوقة ولا غير مخلوقة ، ومنهم من يمسك عن الأفعال المحرمة ، ومنهم من يقول : بل أفعال العباد كلها غير مخلوقة او قديمة ؛ ويقول ليس مرادي بالأفعال الحركات ؛ بل مرادي الثواب الذي يجي يوم القيامة ويحتج هذا بأن القدر غير مخلوق ، والشرع غير مخلوق . ويجعل أفعال العباد هي : القدر ، والشرع . ولا يفرق بين القدر والمقدور ، والشرع والمشروع ؛ فان الشرع الذي هو امر الله ونهيه غير مخلوق ، واما الأفعال المأمور بها والنهي عنها فلا ريب انها مخلوقة ؛ وكذلك القدر الذي هو علمه ومشيتته وكلامه غير مخلوق ، وأما المقدرات : الآجال ، والأرزاق ، والأعمال فكلها مخلوقة ، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وقائلها في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الامام احمد ومن قبله من أئمة السنة ومن اتبعه كلهم بريئون من الأقوال المبتدعة المخالفة للشرع والعقل ، ولم يقل احد منهم ان القرآن قديم ، لا معنى قائم بالذات ، ولأنه تكلم به في القديم بحرف وصوت ، ولا تكلم به في القديم بحرف قديم ؛ لم يقل أحد منهم لا هذا ولا هذا ، وان الذي انفقوا عليه أن كلام الله منزل غير مخلوق ، والله تعالى لم يزل متكلماً اذا شاء ، وكلامه لا نهاية له . كما قال الله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي) وهو قديم بمعنى : أنه لم يزل الله متكلماً بمشيئته ؛ لا بمعنى أن الصوت المعين قديم ، كما بسطت الكلام في غير هذا الموضع على اختلاف أهل الأرض في كلام الله تعالى : منهم من يجعله فيضاً من العقل الفعال على

النفوس . كقول طائفة من الصابئة والفلاسفة وهو أفسد الأقوال ، ومنهم من يقول هو مخلوق خلقه بائناً عنه : كقول الجهمية والنجارية والمعتزلة ، ومنهم من يقول هو معنى قديم قائم بالذات : كقول ابن كلاب والأشعري ، ومنهم من يقول هو حروف وأصوات : كقول ابن سالم وطائفة ، ومنهم من يقول تكلم بعد أن لم يكن متكلماً : كقول ابن كرام ، وطائفة .

والصواب من هذه الأقوال قول السلف والأئمة : كما قد بسطت ألفاظهم في غير هذا الموضع . ولما ظهرت المحنة كان أهل السنة يقولون : كلام الله غير مخلوق . وكانت « الجهمية » من المعتزلة وغيرهم . يقولون : إنه مخلوق ، وكان أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان له فضيلة ومعرفة رديها على الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات ، وبين أن الله نفسه فوق العرش ؛ وبسط الكلام في ذلك ، ولم يتخلص من شبهة الجهمية كل التخلص ؛ بل ظن أن الرب لا يتصف بالأمور الاختيارية التي تتعلق بقدرته ومشئته ، فلا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يحب العبد ويرضى عنه بعد إيمانه وطاعته ، ولا يغضب عليه ويسخط بعد كفره ومعصيته ؛ بل محباً راضياً أو غضبان ساخطاً على من علم أنه يموت مؤمناً أو كافراً . ولا يتكلم بكلام بعد كلام ، وقد قال تعالى : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال تعالى : (فلما أسفونا اتقمنا منهم) وقال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

وقال تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) وهذا أصل كبير قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

وإنما المقصود هنا التنبيه على ما أخذ اختلاف المسلمين في مثل « هذه المسائل » وإذا عرف ذلك فالواجب أن تثبت ما اثبتته الكتاب والسنة ، وتنفي ما نفي الكتاب والسنة . واللفظ المحمل الذي لم يرد في الكتاب والسنة لا يطلق في النفي والاثبات حتى يتبين المراد به ، كما إذا قال القائل : الرب متحيز او غير متحيز او هو في جهة او ليس في جهة ، قيل هذه الألفاظ مجملة لم يرد بها الكتاب والسنة لا نفياً ولا اثباتاً ، ولم ينطق أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان بآياتها ولا نفيها .

فإن كان مرادك بقولك انه يحيط به شيء من المخلوقات ؛ وليس هو بقدرته يحمل العرش وحملته ، وليس هو العلى الاعلى الكبير العظيم الذي لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو سبحانه اكبر من كل شيء ، فليس هو متحيزاً بهذا الاعتبار ، وان كان مرادك انه بائن عن مخلوقاته عال عليها فوق سمواته على عرشه ؛ فهو سبحانه بائن من خلقه كما ذكر ذلك أئمة السنة مثل : عبد الله بن المبارك واحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وغيرهم من أعلام الاسلام ، وكما دل على ذلك صحيح المنقول ، وصريح المعقول ، كما هو مبسوط في مواضع أخر .

وكذلك لفظ « الجهة » ان اراد بالجهة امراً . وجوداً يحيط بالخالق ، او

يفتقر اليه . فكل موجود سوى الله فهو مخلوق . والله خالق كل شيء وكل ما
سواه فهو فقير اليه ، وهو غني عما سواه ، وإن كان مراده ان الله سبحانه فوق
سمواته على عرشه بائن من خلقه فهذا صحيح . سواء عبر عنه بلفظ الجهة او
بغير لفظ الجهة .

وكذلك لفظ « الجبر » إذا قال : هل العبد مجبور او غير مجبور ؟ قيل :
إن اراد بالجبر انه ليس له مشيئة ؛ او ليس له قدرة ؛ او ليس له فعل ؛ فهذا
باطل ، فان العبد فاعل لأفعاله الاختيارية ، وهو يفعلها بقدرته ومشيئته ،
وإن أراد بالجبر انه خالق مشيئته وقدرته وفعله ، فان الله تعالى
خالق ذلك كله .

وإذا قال : الإيمان مخلوق او غير مخلوق ؟ قيل له : ما تريد « بالإيمان ؟
أريد به شيئاً من صفات الله وكلامه ، كقوله (لا إله الا الله) ، و « إيمانه » الذي
دل عليه اسم المؤمن ، فهو غير مخلوق ، او تريد شيئاً من افعال العباد وصفاتهم
فالعباد لهم مخلوقون ، وجميع افعالهم وصفاتهم مخلوقه ، ولا يكون للعبد المحدث
المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة ، ولا يقول هذا من بتصور ما يقول ، فاذا حصل
الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل ، وقد قيل اكثر اختلاف العقلاء
من جهة اشتراك الاسماء ، وامثالها مما اكثر فيه تنازع الناس بالنفي والاثبات ، اذا
فصل فيها الخطاب ، ظهر الخطأ من الصواب .

والواجب على الخلق ان ما اثبت به الكتاب والسنة أثبتوه ، وما نفاه الكتاب

والسنة نفوه ، وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا بنفي ولا اثبات استفصلوا فيه قول القائل : فمن اثبت ما اثبته الله ورسوله ، فقد اصاب ، ومن نفي ما نفاه الله ورسوله فقد اصاب ، ومن اثبت ما نفاه الله او نفي ما اثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل ، فيجب ان يفصل ما في كلامه من حق وباطل ، فيتبع الحق ويترك الباطل ، وكلما خالف الكتاب والسنة فانه مخالف ايضاً لصريح المعقول ، فان العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ، كما ان المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضاً ، ولكن كثير من الناس يظن تناقض ذلك ، وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب (وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) ونسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى

فصل

« الاستثناء في الايمان سنة » عند اصحابنا ، وأكثر أهل السنة وقالت المرجئة والمعتزلة : لا يجوز الاستثناء فيه بل هو شك ؛ و « الاستثناء ان يقول : انا مؤمن ان شاء الله ، او مؤمن ارجو ، او آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ، او ان كنت تريد الايمان الذي يعصم دمي فنعم ، وان كنت تريد (إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فالله اعلم .

ثم هنا « ثلاثة اقوال » ، اما أن يقال : الاستثناء واجب فلا يجوز القطع ، وهذا قول القاضي في عيون المسائل وغيره ، واما ان يقال : هو مستحب ويجوز القطع باعتبار آخر ، واما ان يقال : كلاهما جائز باعتبار ، واما ذكر ان الاستثناء سنة بمعنى انه جائز رداً على من نهى عنه ،

فاذا قلنا هو واجب فمأخذ القاضي انه لو جاز القطع على أنا مؤمنون لكان ذلك قطعاً على انا في الجنة ، لأن الله وعد المؤمنين الجنة ، ولا يجوز القطع على الوعد بالجنة ، لأن من شرط ذلك الموافاة بالايمان ، ولا يعلم ذلك الا الله ،

وكذلك الايمان انما يحصل بالموافاة ، ولا يعلم ذلك . ولهذا قال ابن مسعود : هلا
 وذل الاولى كما وكل الآخرة . يريد بذلك ما استدل به من ان رجلاً قال عنده :
 إني مؤمن ، فقيل لابن مسعود هذا يزعم انه مؤمن ، قال : فسلوه أفي الجنة
 هو او في النار ؟ فسألوه ، فقال : الله اعلم ، فقال عبد الله : فهذا وكلت الاولى
 كما وكلت الثانية .

« قلت » : ويستدل ايضاً على وجوب الاستثناء بقول عمر : من قال انه
 مؤمن فهو كافر ومن زعم انه في الجنة فهو في النار ، ومن زعم أنه عالم فهو جاهل
 ولما استدل المنازع بأن الاستثناء إنما يحتاج اليه لمستقبل يشك في وقوعه ، قال :
 الجواب ان هنا مستقبل يشك في وقوعه ، وهو الموافاة بالايمان ؛ والايمان مرتبط
 بعضه ببعض فهو كالعبادة الواحدة .

« قلت » : فحقيقة هذا القول ان الايمان اسم للعبادة من اول الدخول فيه
 الى ان يموت عليه فاذا انتقض تبين بطلان أولها كالحدث في آخر الصلاة والوطء
 في آخر الحج ، والأكل في آخر النهار ؛ وقول مؤمن عند الاطلاق يقتضي فعل
 الايمان كله كقول صلى وصائم وحاج ؛ فهذا مأخذ القاضي . وقد ذكر بعدها
 في المعتمد « مسألة الموافاة » وهي متصلة بها وهو ان المؤمن الذي علم الله أنه
 يموت كافراً ؛ وبالعكس ؛ هل يتعلق رضا الله وسخطه ومحبهه وبغضه بما هو عليه
 أو بما يوافق به .

والمسألة متعلقة بالرضا والسخط : هل هو قديم أو محدث ؟

و « المأخذ الثاني » : ان الاسم عند الاطلاق يقتضي الكمال ؛ وهذا غير معلوم للمتكلم كما قال ابو العالية : ادركت ثلاثين من اصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ، لا يقول ان ايماني كايمن جبريل فاخبار الرجل عن نفسه انه كامل الايمان خبر بما لا يعلمه ، وهذا معنى قول بن المنزل : ان المرجئة تقول ان حسناتها مقبولة وانا لا اشهد بذلك ، وهذا مأخذ يصلح لوجوب الاستثناء وهذا المأخذ الثاني للقاضي ، فان المنازع احتج بأنه لما لم يجز الاستثناء في الاسلام فكذلك في الايمان .

قال : والجواب ان الاسلام مجرد الشهادتين ، وقد آتى بهما ، والايمان أقوال وأعمال ، لقوله « الايمان بضع وسبعون بابا » وهو لا يتحقق كل ذلك منه .

« المأخذ الثالث » : أن ذلك تزكية للنفس وقد قال الله : (ولا تزكوا أنفسكم) وهذا يصلح للاستحباب ، والا فاخبار الرجل بصفته التي هو عليها جائز وان كانت مدحا وقد يصلح للإيجاب ، قال الأثرم في « السنة » : حدثنا احمد بن حنبل سمعت يحيى بن سعيد يقول : ما ادركت احداً من أصحابنا ولا بلغني الا على الاستثناء قال الأثرم سمعت أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء في الايمان ما تقول فيه ؟ قال : أما أنا فلا أعيبه ^(١) فاستثنى مخافة واحتياطاً ليس كما يقولون على الشك ، إنما يستثنى للعمل ، قال أبو عبد الله : قال الله : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) أي ان هذا الاستثناء لغير شك ، وقد قال النبي

(١) سقط في الاصل مقدار نصف سطر

صلى الله عليه وسلم « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » اي لم يكن بشك في هذا وقد استثنى ، وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم « نبعث ان شاء الله » من القبر وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « انى والله لأرجو ان اكون اخشاكم لله » قال هذا كله تقوية للاستثناء فى الايمان .

قلت لابي عبد الله : فكأنك لا ترى بأساً ان لا يستثنى ، فقال إذا كان ممن يقول : الايمان قول وعمل يزيد وينقص فهو اسهل عندي ، ثم قال ابو عبد الله ان قوماً تضعف قلوبهم عن الاستثناء ، فتعجب منهم ، وذكر كلاماً طويلاً تركته .

فكلام « احمد » يدل على ان الاستثناء لأجل العمل ، وهذا « المأخذ الثاني » وانه لغير شك فى الاصل ، وهو يشبه « الثالث » ويقتضى ان يجوز ترك الاستثناء واما جواز اطلاق القول بأني مؤمن فيصح اذا غنى اصل الايمان دون كماله ، والدخول فيه دون تمامه ، كما يقول : أنا حاج وصائم لمن شرع فى ذلك ، وكما يطلقه فى قوله آمنت بالله ورسله ، وفى قوله : ان كنت تعني كذا وكذا أن جواز اخباره بالفعل يقتضى جواز اخباره بالاسم مع القرينة وعلى هذا يخرج ما روي عن صاحب معاذ بن جبل ، وما روي فى حديث الحارث الذي قال « أنا مؤمن حقاً » وفى حديث الوفد الذين قالوا : « نحن المؤمنون » وان كان فى الاسنادين نظراً .

سئل

عن معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان فوق رأسه كالظلة ، فاذا خرج من ذلك العمل عاد اليه الايمان» رواه الترمذى وأبو داود . وهل يكون الزانى فى حالة الزنا مؤمناً أو غير مؤمن؟ وهل حمل الحديث على ظاهره أحد من الأئمة أو أجمعوا على تأويله؟ فأجاب :

الحمد لله : الناس فى الفاسق من أهل الملة ، مثل الزانى والسارق والشارب ونحوهم ، « ثلاثة أقسام » : طرفين ، ووسط .

(أحد الطرفين) : انه ليس بمؤمن بوجه من الوجوه ، ولا يدخل فى عموم الأحكام المتعلقة باسم الايمان ، ثم من هؤلاء من يقول : هو كافر : كاليهودي ، والنصراني . وهو قول الخوارج ، ومنهم من يقول : نزله منزلة بين المنزلتين ؛ وهي منزلة الفاسق ، وليس هو بمؤمن ولا كافر ، وهم المعتزلة ، وهؤلاء يقولون : ان أهل الكبرئ يخلدون فى النار ، وان أحداً منهم لا يخرج منها ؛ وهذا من « مقالات أهل البدع » التى دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين لهم باحسان على خلافها ، قال الله تعالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينها — إلى قوله — انما المؤمنون اخوة فاصلحوا

بين أخويكم). فساهم مؤمنين ، وجعلهم اخوة مع الاقتتال ، وبني بعضهم على بعض ، وقال الله تعالى : (فتحرير رقبة مؤمنة) ولو أعتق مذنباً أجزأ عتقه بإجماع العلماء .

ولهذا يقول علماء السلف في المقدمات الاعتقادية : لانكفر احداً من اهل القبلة بذنوب ولا نخرجه من الاسلام بعمل ، وقد ثبت الزنا والسرقه وشرب الخمر على أناس في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحكم فيهم حكم من كفر ولا قطع الموالاة بينهم وبين المسلمين ، بل جلد هذا ، وقطع هذا ، وهو في ذلك يستغفر لهم ، ويقول : لا تكونوا أعوان الشيطان على أخيك ، واحكم الاسلام كلها حربته على هذا الاصل .

(الطرف الثاني) : قول من يقول : إيمانهم باق كما كان لم ينقص « بناء على ان الايمان هو مجرد التصديق والاعتقاد الجازم ، وهو لم يتغير ، وإنما نقصت شرائع اسلام ، وهذا قول الرجئة والجهمية ومن سلك سبيلهم ، وهو ايضاً قول مخالف للكتاب والسنة واجماع السابقين والتابعين لهم باحسان . قال الله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) وقال : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم — إلى قوله — اولئك هم المؤمنون حقاً) . وقال : (فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله) وقال : (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم وقال : (فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا إله إلا الله . وادناها امانة الاذى عن الطريق » وقال لو فد عبد القيس : « أمركم بالايمان بالله اتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا إله إلا الله ، وان تؤدوا خمس ما غنمتم . واجمع السلف ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، ومعنى ذلك انه قول القلب ، وعمل القلب ، ثم قول اللسان وعمل الجوارح .

فاما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويدخل فيه الايمان بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم الناس في هذا على اقسام : منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل ومنهم من صدق جملة وتفصيلاً ، ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصديق ، ومنهم من يغفل عنه ويذهل ، ومنهم من استبصر فيه بما قذف الله في قلبه من النور والايمان ، ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهة او تقليد جازم وهذا التصديق يتبعه عمل القلب ، وهو حب الله ورسوله ، وتعظيم الله ورسوله ، وتعزير الرسول وتوقيره ، وخشية الله والانابة اليه والاخلاص له والتوكل عليه ، الى غير ذلك من الأحوال ، فهذه الأعمال القلبية كلها من الايمان ، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد ايجاب العلة المعلول .

ويتبع الاعتقاد قول اللسان ، ويتبع عمل القلب الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك .

وعند هذا فالقول الوسط الذي هو قول أهل السنة والجماعة أهم لا يستلزم الاسم على الإطلاق، ولا يعطونه على الإطلاق. فنقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ويقال: ليس بمؤمن حقاً، أو ليس بصادق الإيمان.

وكل كلام أطلق في الكتاب والسنة فلا بد أن يقترن به ما يبين المراد منه، والأحكام منها ما يترتب على أصل الإيمان فقط، كجواز العتق في الكفارة، وكالمالاة والموارثة ونحو ذلك، ومنها ما يترتب على أصله وفرعه: كاستحقاق الحمد والثواب وغفران السيئات ونحو ذلك.

إذا عرفت «هذه القاعدة». فالذي في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن» والزيادة التي رواها أبو داود والترمذي صحيحة، وهي مفسرة للرواية المشهورة.

فقول السائل: هل حمل الحديث على ظاهره أحد من الأئمة؟ لفظ مشترك؛ فإن معنى بذلك أن ظاهره أن الزاني يصير كافراً، وإنه يسلب الإيمان بالكلية، فلم يحمل الحديث على هذا أحد من الأئمة؛ ولا هو أيضاً ظاهر الحديث. لأن قوله «منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة» دليل على أن الإيمان...

لا يفارقه بالكلية ، فان الظلة تظلل صاحبها وهي متعلقة ومرتبطة به نوع ارتباط.

واما ان عني بظاهره ما هو المفهوم منه ، كما سنفسره ان شاء الله فنعلم ؛ فان عامة علماء السلف يقرون هذه الأحاديث ويمرونها كما جاءت ، ويكرهون ان تتأول وتأويلات تخرجها عن مقصود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نقل كراهة تأويل أحاديث الوعيد : عن سفيان وأحمد بن حنبل — رضي الله عنهم — وجماعة كثيرة من العلماء ، ونص احمد على ان مثل هذا الحديث لا يتأول وتأويل يخرج عن ظاهره المقصود به ، وقد تأوله الخطابي وغيره تأويلات مستكرهه ، مثل قولهم لفظه لفظ الخبر ، ومعناه النهي : اي ينبغي للمؤمن ان لا يفعل ذلك ، وقولهم : المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفي ، وانما ساغ ذلك لما بين حاله وحال من عدم الايمان من المشابهة والمقاربة ، وقولهم : إنما عدم كمال الايمان وتمامه ، او شرائعه وثمراته ونحو ذلك ، وكل هذه التأويلات لا يخفى حالها على من امعن النظر .

فالحق ان يقال : نفس التصديق المفرق بينه وبين الكافر لم يعدمه ، لكن هذا التصديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصدقا بأن الله حرم هذه الكبيرة وانه توعد عليها بالعقوبة العظيمة ، وانه يرى الفاعل ويشاهده ؛ وهو سبحانه وتعالى مع عظمته وجلاله وعلوه وكبريائه يمقت هذا الفاعل ، فلو تصور هذا حق التصور لامتنع صدور الفعل منه ، ومتى فعل هذه الخطيئة فلا بد من احد « ثلاثة اشياء » .

أما اضطراب العقيدة ؛ بأن يعتقد بأن الوعيد ليس ظاهراً كباطنه ، وإنما مقصوده الزجر كما نقوله : المرجئة . أو ان هذا إنما يحرم على العامة دون الخاصة كما يقوله الاباحية ، أو نحو ذلك من العقائد التي تخرج عن الملة . وأما الغفلة والذهول عن التحريم ، وعظمة الرب وشدة بأسه . وأما فرط الشهوة بحيث يقهر مقتضى الإيمان ، ويمنعه موجه بحيث بصير الاعتقاد مغموراً مقهوراً ، كالعقل في النائم والسكران ، وكالروح في النائم .

ومعلوم ان « الإيمان » الذي هو الإيمان ليس باقياً كما كان ؛ إذ ليس مستقراً ظاهراً في القلب واسم المؤمن عند الاطلاق إنما ينصرف الى من يكون إيمانه باقياً على حاله عاملاً عمله وهو يشبه من بعض الوجوه روح النائم ؛ فإنه سبحانه : يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ؛ فالنائم ميت من وجه حي من وجهه ، وكذلك السكران والمنعمى عليه عاقل من وجهه وليس بعاقل من وجهه .

فاذا قال قائل : السكران ليس بعاقل فاذا صح عاد عقله اليه كان صادقاً مع العلم بأنه ليس بمنزلة البهيمة ، إذ عقله مستور وعقل البهيمة معدوم ؛ بل الغضبان ينتهي به الغضب الى حال يعزب فيها عقله ورأيه وفي الأثر « اذا اراد الله نفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم فاذا أنفذ قضاءه وقدره رد عليهم عقولهم ليعتبروا » فالعقل الذي به يكون التكليف لم يسلب وإنما سلب العقل الذي به يكون صلاح الأمور في الدنيا والآخرة .

كذلك الزاني والسارق والشارب والمنتهب لم يعدم الايمان الذي به يستحق
ان لا يخلد في النار، وبه ترجى له الشفاعة والمغفرة، وبه يستحق المناكحة والموارثة
لكن عدم الايمان الذي به يستحق النجاة من العذاب ويستحق به تكفير
السيئات وقبول الطاعات وكرامة الله ومثوبته ؛ وبه يستحق ان يكون
محموداً مرضياً .

وهذا يبين ان الحديث على ظاهره الذي يليق به . والله اعلم .

سئل رحمه الله :

عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » هل هذا الحديث مخصوص بالمؤمنين ، ام بالكفار ؟ فان قلنا مخصوص بالمؤمنين فقولنا ليس بشيء ؛ لأن المؤمنين يدخلون الجنة بالايان . وإن قلنا مخصوص بالكافرين فما فائدة الحديث ؟

فأجاب : لفظ الحديث في الصحيح : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان » فالكبر المبين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة كما في قوله : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) ومن هذا كبر إبليس ، وكبر فرعون وغيرها ممن كان كبره منافياً للإيمان ، وكذلك كبر اليهود والذين أخبر الله عنهم بقوله : (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون) .

والكبر كله مبين للإيمان الواجب ، فمن في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يفعل ما اوجب الله عليه ويترك ما حرم عليه ، بل كبره يوجب له جحد الحق ، واحتقار الخلق ، وهذا هو « الكبر » الذي فسرہ النبي صلى الله عليه سلم حيث سئل في

تمام الحديث . فقيل : يارسول الله ! الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً . فمن الكبر ذاك ؟ فقال : « لا إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » وطر الحق جحده ودفعه ، وغمط الناس ازدرأؤهم واحتقارهم ، فمن في قلبه مثقال ذرة من هذا يوجب له ان يحدد الحق الذي يجب عليه ان يقربه ، وان يحتقر الناس ، فيكون ظالماً لهم معتدياً عليهم ، فمن كان مضيعاً للحق الواجب ؛ ظالماً للخلق . لم يكن من اهل الجنة ، ولا مستحقاً لها ؛ بل يكون من اهل الوعيد .

فقوله : « لا يدخل الجنة » متضمن لكونه ليس من اهلها ، ولا مستحقاً لها لكن إن تاب ، او كانت له حسنات ماحية لذنبه ، او ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطاياها ، ونحو ذلك ، زال ثمره هذا الكبر المانع له من الجنة ؛ فدخلها ، او غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر من نفسه ؛ فلا يدخلها ومعه شيء من الكبر ، ولهذا قال : من قال في هذا الحديث وغيره : إن المنفي هو الدخول المطلق الذي لا يكون معه عذاب ؛ لا الدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة ؛ فانه إذا اطلق في الحديث فلان في الجنة ، أو فلان من اهل الجنة ، كان المفهوم انه يدخل الجنة ولا يدخل النار .

فاذا تبين هذا كان معناه ان من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة ، ولا يدخلها بلا عذاب ، بل هو مستحق للعذاب لكبره ، كما يستحقها غيره من أهل الكبائر ، ولكن قد يعذب في النار ما شاء الله ، فانه

لا يدخل الجنة قاطع
رحم» وقوله: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا
أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم» وأمثال هذا من
احاديث الوعيد، وعلى هذا فالحديث عام في الكفار وفي المسلمين.

وقول القائل: إن المسلمين يدخلون الجنة بالاسلام، فيقال له: ليس كل
المسلمين يدخلون الجنة بلا عذاب، بل اهل الوعيد يدخلون النار، ويمكنون
فيها ما شاء الله، مع كونهم ليسوا كفاراً، فالرجل الذي معه شيء من الايمان،
وله كبراً قد يدخل النار، ثم يخرج منها: اما بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم
واما بغير ذلك؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «شفاعتي لأهل الكبر من امتي»
وكما في الصحيح انه قال: «اخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان» وهكذا
الوعيد في قاتل النفس والزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور،
 وغير هؤلاء من اهل الكبر؛ فان هؤلاء — وإن لم يكونوا كفاراً — لكنهم
ليسوا من المستحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب.

ومذهب اهل السنة والجماعة: ان فساق اهل الملة ليسوا مخلصين في النار
كما قالت الخوارج والمعتزلة، وليسوا كاملين في الدين والايمان والطاعة؛ بل
لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب؛ وهذا مبسوط في
موضعه والله اعلم.

سئل شيخ الاسلام :

عن « بدعة المرزقة »

فأجاب : ثم ان جماعات ينتسبون الى الشيخ « عثمان بن حرزوق » ويقولون : أشياء مخالفة لما كان عليه ، وهو منتسب الى مذهب أحمد ، وكان من اصحاب الشيخ عبد الوهاب بن ابي الفرج الشيرازي ، وهؤلاء ينتسبون إلى مذهب الشافعي ، ويقولون أقوالاً مخالفة لمذهب الشافعي واحمد ؛ بل ولسائر الأئمة وشيخهم هذا من شيوخ العلم والدين ، له اسوة امثاله ، وإذا قال قولاً قد علم ان قول الشافعي واحمد يخالفه ، وجب تقديم قولها على قوله مع دلالة الكتاب والسنة على قول الأئمة ؛ فكيف اذا كان القول مخالفاً لقوله ولقول الأئمة ، وللكتاب والسنة .

وذلك مثل قولهم : ولا نقول قطعاً ونقول نشهد ان محمداً رسول الله ، ولا نقطع ، ونقول : ان السماء فوقنا ولا نقطع ، ويروون آراءً عن علي وبعضهم يرفعه انه قال : لا نقل قطعاً ، وهذا من الكذب المفتري باتفاق اهل العلم ، ولم يكن شيخهم يقول هذا ، بل هذه بدعة احدها بعض اصحابه بعد موته ، واذا قيل لواحد منهم : لا نقطع ! قال : ان الله قادر على ان يغير هذه

الفرس ، فيظن انه إذا قال قطعاً انه نبي لقدرة الله على تغيير ذلك ، وهذا جهل
فان هذه الفرس فرس قطعاً في هذه الحال والله قادر على ان يغيرها .

واصل « شبهة هؤلاء » ان السلف كانوا يستنون في الايمان فيقول احدهم:
انا مؤمن — ان شاء الله — وكانت تغور الشام : مثل عسقلان ، قد سكنها
محمد بن يوسف الفريابي — شيخ البخاري — وهو صاحب الثوري ، وكان شديداً
على المرجئة ، وكان يرى « الاستثناء في الايمان » كشيخه الثوري وغيره
من السلف .

والناس لهم في الاستثناء « ثلاثة اقوال » :

منهم من يجرمه كطائفة من الحنفية ، ويقولون من يستثنى فهو شكاك .

ومنهم من يوجهه : كطائفة من اهل الحديث .

ومنهم من يجوزه — او يستحبه — وهذا اعدل الاقوال ، فان الاستثناء
له وجه صحيح فمن قال : انا مؤمن ان شاء الله ، وهو يعتقد ان الايمان فعل
جميع الواجبات ، ويخاف ان لا يكون قائماً بها ، فقد احسن ولهذا كان الصحابة
يخافون النفاق على انفسهم ، قال ابن ابي مليكة : ادركت ثلاثين من اصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ومن اعتقد
ان المؤمن المطلق هو الذي يستحق الجنة ؛ فاستثنى خوفاً من سوء الخاتمة فقد
اصاب ، وهذا معنى ما يروى عن ابن مسعود انه قيل له : عن رجل انت مؤمن؟

فقال : نعم ، فقليل له انت من اهل الجنة ، فقال ارجو ، فقال : هلا وكل الأولى كما وكل الثانية ، ومن استثنى خوفاً من تزكية نفسه او مدحها ، او تعليق الامور بمشيئة الله فقد احسن ، ومن جزم بما يعلمه ايضاً في نفسه من التصديق فهو مصيب .

والمقصود ان اصل شبهة هؤلاء «الاستثناء في الايمان» كما عليه اهل ثغر عسقلان ، وما يقرب منها ، وعامة هؤلاء جيران عسقلان ، ثم صار كثير منهم يستثنى في الاعمال الصالحة فيقول : صليت ان شاء الله ، وهو يخاف ان لا يكون اتى بالصلاة كما امر ، وصنف اهل الثغر في ذلك مصنفاً - وشيخهم ابن مرزوق - غاية ان يتبع هؤلاء ولم يكن هو ولا احد قبله من اهل العلم يمتنعون ان يقولوا : لما يعلم انه موجود هذا موجود قطعاً ، وقد نقل بعض الشيوخ انه كان يستثنى في كل شيء وكأنه يستثنى - والله اعلم - في الخبر عن الأمور المستقبلية [لقوله] (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) وقوله « وانا ان شاء الله بكم لاحقون ؟ » .

والواجب موافقة جماعة المسلمين ، فان قول القائل : قطعاً بذلك ، مثل قوله اشهد بذلك ، واجزم بذلك ، واعلم ذلك ؛ فاذا قال : اشهد ولا اقطع ؛ كان جاهلاً ؛ والجاهل عليه ان يرجع ؛ ولا يصر على جهله ؛ ولا يخالف ما عليه علماء المسلمين ؛ فانه يكون بذلك مبتدعاً جاهلاً ضالاً .

وكذلك من جهلهم قولهم ان الرافيضي لا يقبل الله توبته ؛ ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سب اصحابي ذنب لا يغفر » ويقولون : ان سب الصحابة فيه حق لآدمي فلا يسقط بالتوبة ؛ وهذا باطل لوجهين :

(احدهما) ان الحديث كذب باتفاق اهل العلم بالحديث ، وهو مخالف للقرآن والسنة والاجماع ؛ فان الله يقول في آيتين من كتابه : (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وبهذا احتج اهل السنة على اهل البدع الذين يقولون : لا يغفر لأهل الكبرياء إذا لم يتوبوا ، وذلك ان الله قال : (يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً) وهذا لمن تاب ، فكل من تاب تاب الله عليه ؛ ولو كان ذنبه اعظم الذنوب ، وقال : (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فهذا في حق من لم يتب .

(الثاني) ان الحديث لو كان حقاً فمعناه انه لا يغفر لمن لم يتب منه ، فانه لا ذنب اعظم من الشرك ، والمشرك اذا تاب غفر الله له شره باتفاق المسلمين كما قال تعالى : (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وفي الاخرى (فأخوانكم في الدين) ومعلوم ان الكافر الحربي إذا سب الأنبياء ثم تاب تاب الله عليه بالاجماع ، فانه كان مستحلاً لذلك ، وكذلك الرافيضي هو يستحل سب الصحابة ، فاذا تبين له انه حرام واستغفر لهم ، بدل ما كان منه بدل الله سيئاته بالحسنات ، وكان حق الآدمي في ذلك تبعاً لحق الله ؛ لأنه مستحل

لذلك ، ولو قدر انه حق لآدمي لكان بمنزلة من تاب من القذف والغيبة ، وهذا في اظهر قولي العلماء لا يشترط في توبته تحلله من المظلوم بل يكفي ان يحسن اليه في الغيب : ليهدم هذا بهذا .

ومن البدع المنكرة تكفير الطائفة غيرها من طوائف المسلمين واستحلال دماهم وأموالهم ، كما يقولون : هذا زرع البدعي ونحو ذلك ، فان هذا عظيم لوجهين :

(احدهما) ان تلك الطائفة الاخرى قد لا يكون فيها من البدعة اعظم مما في الطائفة المكفرة لها ؛ بل تكون بدعة المكفرة اغلظ أو نحوها ، أو دونها ، وهذا حال عامة أهل البدع الذين يكفر بعضهم بعضاً ، فانه إن قدر ان المبتدع يكفر ، كفر هؤلاء وهؤلاء ، وان قدر انه لم يكفر لم يكفر هؤلاء ولا هؤلاء ، فكون احدى الطائفتين تكفر الاخرى ولا تكفر طائفتها ، هو من الجهل والظلم ، وهؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) .

(والثاني) : انه لو فرض ان إحدى الطائفتين مختصة بالبدعة لم يكن لأهل السنة ان يكفروا كل من قال قولاً اخطأ فيه ، فان الله سبحانه قال : (ربنا لاتؤخذنا ان نسينا او اخطأنا) وثبت في الصحيح ان الله قال : « قد فعلت » وقال تعالى : (ولا جناح عليكم فيما اخطأتم به) وروى عن النبي صلى الله عليه

وسلم انه قال : « ان الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان » وهو حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره .

واجمع الصحابة وسائر أئمة المسلمين على انه ليس كل من قال قولاً خطأ فيه انه يكفر بذلك ، وان كان قوله مخالفاً للسنة ، فتكفير كل مخطيء خلاف الأجماع ؛ لكن للناس نزاع في مسائل التكفير ، قد بسطت في غير هذا الموضوع .

و (المقصود هنا) انه ليس لكل من الطوائف المنتسبين الى شيخ من الشيوخ ، ولا إمام من الأئمة ان يكفروا من عدايم ؛ بل في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إذا قال الرجل لأخيه يا كافر ! فقد باء بها احدهما » وقال ايضاً : « المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » . وقال : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً » وقال : « مثل المؤمنین في توادم وتراحمهم وتعاطفهم : كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

وليس للمنتسبين إلى ابن حرزوق ان يمنعوا من مناكحة المنتسبين إلى العوفي ؛ لا اعتقادهم انهم ليسوا ا كفاء لهم ، بل اكرم الخلق عند الله انتقام ، من أي طائفة كان من هؤلاء وغيرهم ، كما قال تعالى : (يا ايها الناس انا خلقناكم من

ذكر واتشي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم (وفي الصحيح « ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل : اي الناس اكرم ؟ قال اتقام » . وفي السنن عنه انه قال : « لافضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على اسود ، ولا لأسود على ابيض إلا بالتقوى ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب » .

آخر المجلد السابع

فهرس المجلد السابع

صفحة الموضوع « كتاب الایمان الكبير » ٤ - ٤٦١

- ٥ - ١٢ الفرق بين الاسلام والایمان اذا اجتمعا ومعناهما فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم
- ١٠ ، ١١ الدين ثلاث درجات ، ما بين الاسلام والایمان والاحسان من العموم والخصوص ، وكذلك الرسالة والنبوة
- ١١ ، ١٢ معنى قوله (بنى) اى تركب
- ١٣ ، ١٤ اسم الايمان يذكر تارة غير مقرون بالاسلام ولا بغيره وتارة يذكر مقرونا
- ١٤ اذا ذكر مع «الاسلام فالاسلام هو الاعمال الظاهرة والایمان هو ما فى القلب واذا ذكر مجردا دخل فيه الاسلام والاعمال الصالحة
- ١٤ ، ١٥ ، ٤٠ - ٤٢ اسم الايمان اذا اطلق فى كلام الله ورسوله يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ومن نفى الله ورسوله عنه الايمان فلا بد ان يكون قد ترك واجبا او فعل محرما وكذلك الصلاة والزكاة ونحوهما من العبادات وان ذكر فضل ايمان صاحبها ولم ينفى فهي مستحبة
- ١٥ - ١٩ غلط من قال ان المنفى هو الكمال المستحب واصاب من قال الكمال الواجب ، أمثلة وایضاح
- ١٧ ، ١٨ تفسير لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون الآیة ، ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله
- ١٩ - ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ لان قيل اذا كان المؤمن حقا هو الفاعل للواجبات والتارك للمحرمات فقد قال أولئك هم المؤمنون حقا ولم يذكر الا خمسة أشياء قيل عن هذا جوابان ، تفسير هذه الآیة
- ١٩ - ٢١ تفسير وجلت قلوبهم ، ولمن خاف مقام ربه

الموضوع	صفحة
تفسير انما يخشى الله من عباده العلماء ، الرجاء يستلزم الخوف ، والخشية تتضمن الرجاء	٢٣ - ٢١
العقل ومتى يسمى الشخص عاقلا ومتذكرا ومهتديا وخائفا ، الانذار من فسدت فطرته افسدت قوته العلمية والعملية ، تفسير غلف صم بكم عمى	٢٥ ، ٢٤ ٢٧ - ٢٥
تفسير الذينهم في صلاتهم خاشعون وهمل الخشوع واجب أو مستحب	٢٩ ، ٢٨
تفسير ثم قست قلوبكم ، خير القلوب	٣٠
تفسير ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ومعنى لم يزد من الله الا بعدا وحديث ، ان الرجل لينصرف من صلاته ولم يكتب له الا نصفها الخ	٣١ ، ٣٠
تفسير ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان الآية ومعنى حديث لا يزني الزاني	٣٢ ، ٣١
فصل جاءت احاديث تنازع الناس في صحتها ففيت فيها العبادة لاجل ترك واجب فيها مثل (١) لا صلاة الا بوضوء ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه	٣٤
الخلاف في وجوب التسمية (٢) لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل للعلماء قولان في صحة صلاة من ترك الجماعة وصلى منفردا ، حجة من رأى عدم الصحة وجوابه عن حديث التفضيل ، لا يجوز التطوع مضطجعا	٣٤ ٣٦ ، ٣٥
ليس لاحد أن يحمل كلام الله على كلام أحد من الناس	٣٦
وجوب تحكيم الشرع في كل ما شجر بين الناس	٣٧ ، ٢٨
من ادلة حجية الاجماع آية ومن يشاقق الرسول وتوجيه الدلالة منها ، ما أجمع عليه لا بد أن يكون منصوصا	٣٨ ، ٢٩
الاجماع الذي من خالفه كفر والذي لا يكفر مخالفه	٣٩
اذا وصف الواجب بصفات متلازمة فكل صفة يجب اتباعها ينزل على الرسول وحيان القرآن والسنة	٣٩ ٤٠
كلام أبي نصر المروزي والمؤلف على آية حيب اليكم الايمان معنى حديث اصدق الاسماء حارث وهمام	٤٢ - ٤٤ ٤٣
المباح بالنية الحسنة يكون خيرا وبالسيئة يكون شرا ، الطيبات ليست مباحة للكفار ولا لمن يستعين بها على معصية وانما أبيضت لمن يستعين بها على الطاعة	٤٣ - ٥١
تفسير آيات فيما أحل وما حرم من الاطعمة والصيد	٤٤ - ٤٨

الموضوع	صفحة
حديث ان الله يحب أن تؤتى رخصة الخ وغلط من رواه كما يحب أن تؤتى عزائمه	٤٨ ، ٤٩
هل تكتب جميع أقوال العبد أم لا يكتب الا ما يؤجر عليه أو يؤزر	٤٩ ، ٥٠
المرجئة لا تنازع في أن الايمان المنى في القلب يدعو الى فعل الطاعة وإنها من ثمراته وانما تنازع في أنه هل يستلزم الطاعة	٥٠ ، ٥١
معنى • وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل	٥١ ، ٥٢
فصل ومن هذا الباب لفظ الكفر والنفاق اذا أطلق دخل فيه الآخر	٥٣ ، ٥٤
وقد يقرن الكفر بالنفاق كما يقرن لفظ المشركين بأهل الكتاب وقد يقرن بالملل الخمس	٥٤ ، ٥٥
أهل الكتاب لا يختص بمن كانوا متمسكين به قبل النسخ والتبديل وكذلك أولادهم ، الخلاف في نصارى بنى تغلب	٥٥ ، ٥٦
هل يتناول لفظ المشركين أهل الكتاب اذا أفرد	٥٦
فصل وكذلك لفظ الصالح والشهيد والصديق يذكر مفردا فيتناول النبيين ومن دونهم وقد يذكر مع غيره ، معنى الصالح	٥٧ ، ٥٨
فصل وكذلك لفظ المعصية اذا أطلقت دخل فيها الكفر والفسوق بخلاف ما اذا قيدت ، معنى التولى ، ذم من تولى يدل على وجوب الطاعة وان الامر المطلق يقتضى الوجوب	٥٩ - ٦١
تفسير ولا يعصينك في معروف	٦٠ ، ٦١
٨٢ فصل ومن هذا الباب الظلم والذنب والخطيئة اذا أطلق تناول الكفر وسائر الذنوب كقوله احشروا الذين ظلموا والآيات وقد يقرن ببعض الذنوب الظلم ثلاثة أنواع	٦٠ ، ٦٢
تفسير الأزواج حيث وردت في القرآن	٦٢ - ٦٤
معنى الشفاعة والشفاعة الحسنة والسيئة	٦٤ ، ٦٥
٧٢ تفسير اتخنوا أحبارهم ورهبانهم، متى يجوز التقليد ومتى يمنع هل ورد لفظ التأييد مع غير الكفر ، عقوبة من ظلمه دون الشرك الاكبر ليست كعقوبة من أشرك الشرك الاكبر	٦٧ ، ٧٠ - ٧٢
الكفر المطلق لا شفاعة فيه بخلاف غيره	٧٤ - ٧٨
لم يكن مشركوا العرب ولا غيرهم حتى المجوس يعتقدون أن أربابهم شارك الله في خلق السموات والارض منسوب المجوس	٧٥ - ٧٧
٨٢ تفسير الله مع الله ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم الآية	٧٩ ، ٨٢ - ٨٣
فصل ومن هذا الباب لفظ الصلاح اذا أطلق تناول جميع الخير ، والفساد اذا أطلق تناول جميع الشر	٨٣ - ٨٦

الموضوع	صفحة
تفسير انما نحن مصلحون الا انهم هم وسبب نزول انما جزاء الذين يحاربون الله	٨٣ - ٨٦
فصل انان قيل تنوع دلالة اللفظ بالاطلاق والتقييد لا يمكن دفعه لكن نقول دلالة لفظ الايمان على الاعمال مجاز احيب بجوابين (١) كلام عام في لفظ التحقيقة والمجاز (٢) ما يختص بهذا الموضوع	٨٧
تقسيم الالفاظ الى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث بعد القرون الثلاثة اول من عرف عنه التكلم بلفظ المجاز لم يعن به ما هو قسيم الحقيقة ليس في أهل اللغة من قسم الالفاظ الى حقيقة ومجاز	٨٧ ، ٨٨
اول من جرد الكلام في أصول الفقه من الأئمة لم يذكر هـ	٨٨
التقسيم من منع هنا التقسيم من العلماء الاكابر وأصحاب الأئمة قول أحمد هنا من مجاز اللغة لا يعنى به أنه استعمل في غير ما وضع له	٨٨
أنكر طائفة أن يكون في اللغة مجاز لا في القرآن ولا في غيره منهم	٨٩ ، ٩٠
غلط من قال ان النزاع لفظي بين من أثبت المجاز وبين من نفاه وسلم أن في اللغة لفظا مستعملا في غير ما وضع له بقريته	٩٠
من قال ان اللغات اصطلاحية او توقيفية أو الهامية ، وحجته	٩٠ - ٩٢
هل علم الله آدم ومن حمل في السفينة جميع اللغات التي يتكلم بها الناس الى يوم القيامة ، تفسير وعلم آدم الخ	٩٢ - ٩٥
بطلان تقسيم الكلام الى حقيقة ومجاز والاعتراض على حد كل منهما ومن أمثلة ذلك الرأس وانسان العين وابرة الذراع والكلام والكلمة والحرف والشجاع والاسد والحمار	٩٦ - ١٠٩
ما يسمى كلاما في الكتاب والسنة وكلام العرب	١٠٠ - ١٠٢
هل يجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب الى وقت الحاجة عقلا أو شرعا	١٠٤ ، ١٠٥
هل أمر بنوا اسرائيل بنذبح أى بقرة أم ببقرة معينة	١٠٥
هل للفظ الصلاة والزكاة والحج معاني في اللغة غير معناها في الشرع	١٠٥
بحث في الاطلاق والتقييد والكليات والجزئيات في الامور العقلية والسمعية	١٠٦ - ١٠٩
مما ادعى فيه المجاز في القرآن والسنة لفظ الذوق والجـوع والخوف والمكر والكيد والسخرية	١٠٩ - ١١٢
من الامثلة المشهورة لمن يثبت المجاز واسأل القرية	١١٤ - ١١٦
الطريق الى معرفة مقاصد الرسول بكلامه	١١٦ ، ١١٥
الجار في لغة الرسول ليس هو الشريك ، الخمر في لغته	١١٦

صفحة	الموضوع
١١٦ - ١١٨	أخطأ المرجئة في اسم الإيمان حيث جعلوه حقيقة في مجرد التصديق وتناوله للأعمال مجازاً
١١٧	ليس لفظ الإيمان مرادفاً للفظ التصديق
١١٧	دلالة لفظ الإيمان على الأعمال ليست دون دلالة الصلاة ونحوها عليها
١١٧ ، ١١٨	إن قيل الصلاة ونحوها لو ترك بعضها بطلت بخلاف الإيمان
١١٨ ، ١١٩	عمدة المرجئة في الإيمان ليست على بيان الكتاب والسنة وأقوال السلف وتلك طريقة أهل البدع كالمعتزلة والرافضة والملاحدة
١١٩	عمدة هؤلاء على رأيهم وما تأولوه من اللغة وعلى كتب الأدب وكتب الكلام
١١٩	قول الباقلاني والقلانسي والثقفى وابن مجاهد وابن كلاب وحمام بن أبي سليمان وأبي حنيفة في الإيمان
١٢٠ ، ١٤٣ - ١٥٣	فصل الأشعري وأكثر أصحابه نصرُوا قول جهم في الإيمان مع نصرهم لمذهب أهل السنة في الاستثناء فيه وغير ذلك سبب هذا التناقض
١٢٠ ، ١٢١	كفر أحمد ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم وهو أن الإيمان هو التصديق فقط
١٢٠ ، ١٢١	سبب طعن بعض الزيدية والمعتزلة على بعض من انتسب إلى الشافعي عمدة من نصر قول الجهمية في مسألة الإيمان ما ذكره أبو بكر في التمهيد وأجوبة الجمهور من أهل السنة وغيرهم عنها
١٣٢ - ١٤٠	ليس حديث النفس كلاماً ، معنى الكلام ، ابن كلاب أول من جعل مسمى الكلام هو المعنى فقط ، ما احتج به وما أجيب به
١٤٠ - ١٤٢	قول الكرامية في الإيمان وما احتجوا به والرد عليهم
١٤٢	معنى التولى في القرآن
١٤٣ - ١٤٦	خالف الأشعري بعض أصحابه واتبعوا قول السلف في مسألة الإيمان
١٤٧ ، ١٤٨	احتج الجهمية ومن تبعهم في مسألة الإيمان بقوله لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون الآية ولا حجة فيها
١٤٩ ، ١٥٠	اختلف قول الأشعري وغيره في الجهل بصفات الله هل يكون جهلاً بالموصوف
١٥٤ ، ١٥٥	فصل الذين نصرُوا مذهب جهم جعلوا الإيمان خصلة من خصال الإسلام ، بطلان هذا القول وبيان تناقضه
١٥٦ - ١٥٩	مخالفة هؤلاء لما احتجوا به من قوله قالت الاعراب آمنا الآية
١٦٠ ، ١٦١	فصل ومما يدل من القرآن على أن الإيمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى ٠٠٠

صفحة	الموضوع
١٦٢ - ١٧٢	فصل وأما لو قيد الايمان فقرن بالاسلام أو بالعمل الصالح فقد يراد به ما فى القلب ، وهل يراد به المعطوف عليه ، أو لا يكون داخلا فى مسماه بل لازما له ، أو لا يكون بعضا ولا لازما
١٦٢ - ١٦٤	وكذلك عامة الاسماء يتغير مسماهها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران كلفظ المعروف والمنكر والعبادة والطاعة والتقوى والبر والائتم والذنوب والهدى والضلال والفقر والتلاوة والابرار والاتباع ما يراد بهذه الاسماء اذا أطلقت أو قيدت
١٦٧ ، ١٦٨	هذه الاسماء تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر وتارة يكونان متساويين
١٧٠ ، ١٧١	عبارات السلف فى حد الايمان ومعناها ، وكلها صحيحة
١٧٠ ، ١٧١	أقوال الناس فى مسمى الكلام والقول عند الاطلاق
١٧٢ ، ١٧٩ ، ٢٠٢	فصل وعطف الشيء على الشيء فى القرآن وسائر الكلام يقتضى المغايرة والمغايرة على مراتب (١) أن يكونا متباينين (٢) ان يكون بينهما تلازم (٣) تحفظ بعض الشيء عليه (٤) عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين أمثلة للجميع .
١٧٣ ، ١٧٤	لا يترك أحد سنة الا وقع فى بدعة ، من لم يفعل المأمور فعل بعض المحظور . ومن فعل بعض المحظور لم يفعل جميع المأمور
١٧٤ - ١٧٩	لفظ الامر اذا أطلق تناول النهى
١٧٤ ، ١٧٥	تفسير لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وقصة موسى مع الخضر
١٧٦	ما لحكم اذا قال الرجل لامرأته اذا عصيت أمبرى فانت طالق اذا نهاها فعصته
١٧٩ - ١٨٥	فصل لفظ الايمان اذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى والدين فيتناول أعمال القلب والجوارح ، شواهد ذلك من القرآن .
١٨٠ ، ١٨١	مساواة المرجئة بين المطيع والعاصى فى الايمان ، تفسير البر ، وقولهم بلحوق الذم والعقاب لتارك الاعمال مع قولهم ليست من الايمان
١٨١	غلاة المرجئة يقولون أو يقال عنهم لا يضر مع الايمان ذنب ولا يدخل النار من أهل التوحيد أحد
١٨٥ - ١٨٧	دلالة اسم الايمان على تصديق القلب وأعماله وعلى أعمال الجوارح كدلالة اسماء الله على ذاته وعلى صفاته ودلالة اسماء القرآن واسماء النبى
١٨٦ - ١٨٩	اذا صلح القلب بالايمان انبعثت الجوارح بالاعمال الصالحة خلافا لجهم وأتباعه الذين زعموا أن الشخص قد يكون كامل الايمان بقلبه وهو يسب الله ورسوله . . .

الموضوع	صفحة
تفسير والذين آمنوا أشد حبا لله	١٨٨
الايمان والكفر عند المرجئة وكيف ثبت الكفر لمن سب الله ورسوله أو استكبر عن عبادته عندهم ، تكفير السلف لهؤلاء	١٨٨ - ١٩٠
هؤلاء المرجئة غلطوا في أصلين (١) ظنهم أن الايمان مجرد تصديق وعلم فقط (٢) أن كل من حكم الشارع بأنه كافر فلخلو قلبه من التصديق والعلم لا لاسباب أخرى كالحسد والهوى وحب دين الآباء لم يذكر الكفار حجة صحيحة تقدر في صدق الرسل انما يعتمدون على مخالفة أهوائهم	١٩٠ ، ١٩١
سبب نزول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الخ	١٩٣ - ١٩٤
حد الايمان عند المرجئة تصديق القلب وقول اللسان ولم يسكن قلوبهم مثل قول جهنم لكن ان لم يدخلوا فيه أعمال القلوب لزمهم قوله وان أدخلوها لزمهم دخول أعمال الجوارح ، حجج المرجئة	١٩٤
المرجئة ثلاثة أصناف ، منهب كل فرقة ، غلط هؤلاء من وجوه	١٩٥ - ١٩٧
لما هاجر الرسول صار الناس ثلاثة أصناف اما مؤمن واما مظهر للكفر واما منافق ، لم يكن من المهاجرين منافق واما كان النفاق في قبائل الانصار	٢٠٠ ، ٢٠١
أورد الجهمية سؤالا وهو أن القرآن نفى الايمان عن غير من وجلت قلوبهم الخ ولم يقل ان هذه الاعمال من الايمان فنحن نقول من لم يعمل هذه الاعمال لم يكن مؤمنا لان انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه والجواب عنه من وجوه	٢٠٢
فصل الوجه الثاني ظنهم أنما في القلب من الايمان ليس الا التصديق دون أعمال القلوب	٢٠٤
الثالث ظنهم ان الايمان الذي في القلب يكون تاما كايان جبريل وأبي بكر بدون شيء من الاعمال ، التحقيق أن ايمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر	٢٠٤ - ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
بعض المرجئة يفرق بين اسم الايمان والدين وبعضهم لا يفرق ، مذهب المرجئة أن الدين ثلاثة أجزاء	٢٠٧ ، ٢٠٨
لا حجة للمرجئة على أن الايمان هو التصديق والقول في قوله اعتقها فانها مؤمنة	٢٠٩ ، ٢١٠
تنازع الفقهاء في الزنديق الذي يكتنم زندقته هل يرث ويورث ، أحكام أهل الايمان تجرى في الظاهر على المنافقين حتى في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢١٠ - ٢١٧
غلط على الكرامية من حكى عنهم أنهم يجعلون المنافق من أهل	٢١٦

الموضوع	صفحة
الجنة ، هل يجزىء عتق الصغير	
تجوز الصلاة على كل من لم يعلم أنه كافر فى الباطن ، ترك الامام	٢١٧
الاعظم الصلاة على بعض العصاة والمبتدعة لا يحرم الصلاة عليه	
الصحابة لم يكفروا بالخوارج ، ليس كل واحد من الثنتين والسبعين	٢١٧ ، ٢١٨
فرقة كافرا كفرا ينقل عن الملة ، من كان منهم منافقا فهو كافر فى	
الباطن	
فرض متأخروا الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهى رجل مقر بوجود	٢١٨ ، ٢١٩
الصلاة دعى اليها وامتنع وتهدد بالقتل فلم يصل حتى قتل هل	
يموت كافرا ؟	
قول اللسان من الايمان الذى لا نجاة للعبد الا به ، تفسير آية	٢١٩ ، ٢٢٠
الا من اكره	
فصل فان قيل فاذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما امر الله به	٢٢٢
فمتى ذهب بعض ذلك بطل الايمان فيلزم تكفير أهل الذنوب كما	
تقوله لخوارج او تخليدهم وسلبهم الايمان بالكلية كما تقوله	
المعتزلة وهذا شر من قول المرجئة لا يخلد فى النار أحد من أهل	
المقبلة ولا يحرم الشفاعة	
٢٢٣ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ القول بأن الايمان اذا ذهب بعضه ذهب كله	
ممنوع ، الايمان والاسلام عند خوارج والمعتزلة	
٢٢٣ - ٢٣٢ يتفاضل الايمان عند أهل السنة ، عباراتهم فى ذلك ، لفظ زيادة	
الايمان صريح فى القرآن وليست فى التصديق فقط	
٢٣٠ ، ٢٣١ لفظ الايمان أكثر ما يذكر فى القرآن مقيده ، الحكمة فى الدعوة	
بها أيها الذين آمنوا ، لم يقل الله للكفار يا أيها الذين آمنوا	
٢٣٢ - ٢٣٨ ، ٤٥٠ فصل وزيادة الايمان تعرف من وجوه	
٢٣٨ - ٢٥٢ ، ٢٨٠ - ٢٨٢ ، ٣٠٥ - ٣٠٧ ، ٣٤٤ - ٣٤٩ ، ٣٧٥	
- ٣٧٧ فصل وقد أثبت الله فى الكتاب والسنة اسلاما بلا ايمان كقوله	
قالت الاعراب الآية وقوله أو مسلم فهل هذا الاسلام الذى نفى الله	
عن أهله الايمان يثابون عليه أم هو من جنس اسلام المنافقين ،	
تفسير آيات من هذه السورة	
٢٤٠ ، ٢٥٣ - ٢٦٠ من قال من السلف ان الفساق خرجوا من الايمان الى	
الاسلام لم يرد أنه لم يبق معهم من الايمان شىء ، الفرق بينهما	
عندهم	
٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩	
امتناع السلف من اطلاق الايمان عليهم من أجل أن الايمان المطلق	
هو الذى يستحق صاحبه الجنة والنجاة من النار بخلاف اسم	

الموضوع	صفحة
الاسلام فانه لم يعلق به دخول الجنة لكن فرضه وأخبر أنه لا يقبل ديناً سواه	
مسألة الاستثناء في الايمان والاسلام ، الكفر في قوله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون	٢٥٣ - ٢٥٩
هل يكون مسلماً من ترك الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو الحج	٢٥٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣
علق السعادة في القرآن بالاسلام والاحسان وبالايمان والاسلام كما علقه بالايمان باليوم الآخر والعمل الصالح	٢٦١ - ٢٦٣
تفسير ولا هم يحزنون	٢٦١
الايمان وتفسير النبي لكل منهما وتفاضل الناس فيهما ومعنى الدين وخصال منه ، كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم معه الايمان المجمل	٢٦٣ - ٢٧١ ، ٣٣٦ - ٣٤٣ ، ٣٥٨ - ٣٧٥
حقيقة الفرق بين الاسلام والايمن وتفاضل الناس فيهما ومعنى الدين وخصال منه ، كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم معه الايمان المجمل	
تفسير ادخاوا في السلم كافة	٢٦٦ ، ٢٦٧
غلط من قال في قوله قد كفرتم بعد ايمانكم ونحوها أنهم كفروا بلسانهم مع كفرهم أو لا بقلوبهم	٢٧٢ ، ٢٧٣
الذين كفروا بعد اسلامهم غير الذين كفروا بعد ايمانهم ، تفسير هذه الآيات	٢٧٣ ، ٢٧٤
الاستهزاء بالله ورسوله كفر	٢٧٣ ، ٢٧٤
تفسير مثلهم كمثل الذي استوقد نارا الآيات و (ربنا أتمم لنا نورنا) و (الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الآيات	٢٧٤ - ٢٨٠
أسباب نفاق من نفاق على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم	٢٧٨ - ٢٨٠
كثيراً ما تعرض الوسواس لعامة الخلق ، موقف الناس منها ، وكيف تدفع	٢٨٢ - ٢٨٥
أهل السنة في الاسلام كاهل الاسلام في الملل ، ضرر أهل البدع على الامة	٢٨٤ ، ٢٨٥
فصل الالفاظ الموجودة في القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها من جهة النبي لم يحتج في ذلك الى الاستدلال باقوال أهل اللغة وغيرهم كلفظ الصلاة والزكاة والصوم والحج والخمر واسم الاسلام والايمن والكفر والنفاق	٢٨٦ ، ٢٨٧
الاسماء ثلاثة أنواع لغوية وشرعية وعرفية	٢٨٦
ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الايمان والكفر مخالف لبيان الرسول فلم يكن يجعل المذنب كافراً ولا من يقر بقلبه ولا يطيعه في شيء مسلماً	٢٨٧ ، ٢٨٨

الموضوع	صفحة
أهل البدع أعرضوا عن بيان الرسول وبنوا دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها اما فى دلالة الالفاظ او المعانى العقلية كما صنعت المرجئة فى سمي الايمان والاسلام وغيرهما	٢٨٨ ، ٢٨٩
عمدة المرجئة فى أن الايمان هو التصديق قوله وما أنت بمؤمن لنا والجواب عنه ، ليس لفظ الايمان مرادفا لفظ التصديق وذلك من وجوه	٢٨٩ - ٢٩٣
قولهم لا يكون التصديق الا بالقلب أو اللسان عنه جوابان .	٢٩٣ - ٢٩٧
أكثر التنازع بين أهل السنة فى مسألة الايمان نزاع لفظى لكن صار ذلك ذريعة الى بدع أهل الكلام وإلى ظهور الفسق واللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب ، ايضاح ذلك	٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧
الاقوال المنحرفة فى هذه المسألة ، مما يحتج به على الخوارج	٢٩٨
هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى احكامها لا فى معنى الاسماء كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج والايمان والنفاق والكفر والاسلام والمسكين	٢٩٨ - ٣٠٢
من نفى عنه الرسول اسم الايمان أو الاسلام فلا بد أن يكون ترك بعض الواجبات ، وقد يجتمع فى العبد مع الايمان شعبة من شعب النفاق وقد يعذب بالنار ثم يدخل الجنة حد الايمان عند أهل السنة وعند الجهمية والمرجئة	٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ - ٣٥٥
حكم من ترك الصلاة متعمدا حتى ذهب وقت الظهر الى المغرب والمغرب الى نصف الليل	٣٠٨ ، ٣٠٩
أبو عبيد له مصنف فى الايمان ذكر فيه من قال ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص	٣٠٩ - ٣١١
قد يجتمع فى الانسان ايمان ونفاق وايمان وكفر لا ينقل عن الملة	٣١٢
شرح حديث جبريل الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر	٣١٣
فصل ومما يسأل عنه انه اذا كان ما اوجبه الله من الاعمال الظاهرة أكثر من هذه الخمس فلماذا قال الاسلام هو الخمس الظاهرة	٣١٤ - ٣١٦
فصل قال محمد بن نصر واستدلوا على أن الايمان هو ما ذكر بأن الله سمي الصلاة وسائر الطاعات ايمانا الخ	٣١٧ - ٣٣٦
اسم المسلمين فى الظاهر يجرى على المنافقين ظاهرا	٣٥١ ، ٣٥٢
أصل جامع تنبئ عليه معرفة النصوص ومرد ما تنازع فيه الناس الى الكتاب والسنة	٣٥٦ - ٣٥٨

- ٣٦٤ ، ٣٦٣ قول الثقات الطاعات نمرات التصديق الباطن يراد به شيان
 ٣٧٥ ، ٣٧٦ والمتصود أن هنا قولين متطرفين قول من يقول الاسلام مجرد الكلمة
 والاعمال ليست داخله في مسمى الاسلام وقول من يقول مسمى
 الاسلام والايمان واحد
- ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٨ الرد على قول محمد بن نصر أن الله سمي الايمان بما
 سمي به الاسلام وسمى الاسلام بما سمي به الايمان
- ٣٧٩ ، ٣٨٠ قول المروزي لا فرق بين من زعم أن الاسلام هو الاقرار وأن العمل
 ليس منه وبين المرجئة اذ زعمت أن الايمان لاقرار بلا عمل ، ورده
- ٣٨٠ ، ٣٨١ مذهب المرجئة التفریق بين اللفظ الدين والايمان والفرق بين الاسلام
 والايمان وقد حكى عنهم بعض السلف عدم التفریق
- ٣٨١ ، ٣٨٦ كلام السلف كان فيما يظهر لهم ويصل اليهم من كلام أهل البدع
 كحكايتهم مذهب المرجئة والجهمية والتفريعية وغيرهم
- ٣٨١ - ٣٨٥ حقيقة مذهب قسعاء القدرية انكار العلم السابق والكتابة السابقة
 أول من ابتدعه والرد عليهم
- ٣٨٥ ، ٣٨٦ مذهب متأخريهم انكار عموم مشيئة الله وخلقه حنك القدرية
 والرواية عنهم مذهب الجبرية أيضا
- ٣٨٦ - ٣٩٠ أقوال المرجئة ثلاثة ، كان أحمد أعلم بمقالات الناس من أبي ثور
 وغيره ، معنى ما نقل عن أبي ثور
- ٣٩٠ - ٤٠٣ أجمع كتاب يذكر أقوال أحمد في مسائل أصول الدين وفروعه
 مما نقل عنه في الرد على طوائف المرجئة واحتجاجه عليهم ، ايضاح
 المؤلف لمقاصد أحمد
- ٣٩١ - ٣٩٣ ما يريد الأئمة بلفظ المجمل والمطلق والعام ، تحذير أحمد من
 المجمل والقياس ومعنى ذلك
- ٤٠٢ قول الجهمية في صفات الله وكلامه يرجع الى تعطيل محض ،
 انكار علماء الاسلام عليهم
- ٣٩٤ ، ٣٩٥ ذم الأئمة للارجاء
- ٤٠٣ - ٤٠٧ تناقض من نصر قول جهم في مسائل الايمان وسببه
- ٤٠٧ - ٤٠٩ يرى المرجئة أن التفاضل انما هو في الاعمال دون الايمان السني
 في القلوب
- ٤٠٨ ، ٤٠٩ لا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر فسي الكتاب
 والسنة ومعناه والعمل به
- ٤٠٩ - ٤١٦ بيان غلط من سوى بين الاسلام والايمان وقال ان الله سمي هذا
 بما سمي به هذا ، الناس في الايمان والاسلام على أربعة أقوال
- ٤١٥ - ٤١٩ مسألة الاستثناء في الايمان والصواب فيها مع ذكر الحجج

الموضوع	صفحة
بعض الاسماء ينفى فى حكم ويثبت فى حكم كاسم الايمان والنفاق والنكاح والرجال	٤٢١ - ٤٢١
قصة اختصام سعد وعبد بن زمعة	٤٢٣ ، ٤٢٤
سبب امتناع الرسول من عقوبة المنافقين ، ما فى الكتاب والسنة من نفي الايمان عن أصحاب الذنوب انما هو فى خطاب الوعيد والذم لا فى خطاب الامر والنهي ولا فى أحكام الدنيا	٤٢٢ - ٤٢٤
ان قيل فاذا كان كل مؤمن مسلما وليس كل مسلم مؤمنا الايمان الكامل فما تقولون فيمن فعل ما أمره الله وترك ما نهى الله عنه أليس مسلما باطنا وظاهرا من أهل الجنة يجب أن يكون مؤمنا ؟؟	٤٢٤ - ٤٢٨
هل ترك كل خصلة من خصال الايمان من الذنوب ، النفاق الذى كان يخافه السلف على نفوسهم	٤٢٧ ، ٤٢٨
فصل وأما الاستثناء فى الايمان بقول الرجل أنا مؤمن انشاء الله فالتاس فيه على ثلاثة أقوال ، الذين اوجبوا الاستثناء لهم مأخذان	٤٢٩ - ٤٣٥
قول ابن كلاب ومن اتبعه فى الرضى والغضب ونحوهما من الصفات	٤٣٠ ، ٤٣١
الاستثناء فى الصلاة ، الاستثناء فى كل شىء مذهب المرازقة ، وشبهتهم ، من وافق ابن كلاب على أصله	٤٣٢ - ٤٣٤
الاشاعرة والكلابية والمرازقة ونحوهم ينصرون ما ظهر من دين الاسلام والسنة وما كان عليه السلف كما ينصر ذلك المعتزلة والجهمية ونحوهم وكثير منهم لا يكون عارفا بذلك مسمى الايمان والاستثناء فيه ، وظنهم أن الايمان والكفر عند السلف هو ما يموت عليه الشخص	٤٣٥ - ٤٤٧
ولاية الله وعداوته عند ابن كلاب وأتباعه وغضبه ووجه ورضاه ونحو ذلك من صفاته	٤٤٢ - ٤٤٦
المأخذ الثانى فى الاستثناء فى الايمان أن الايمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به فاذا قال أنا مؤمن فقد زكى نفسه	٤٤٦ - ٤٦١
مأخذ آخر لمن جوز الاستثناء وهو عدم الشك فيما يعلم وجوده فى نفسه من الايمان	٤٥٠ - ٤٥٤
تفسير والذين يؤتون ما آتوا ولتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله	٤٥٤ ، ٤٦٠
اذا لم يوجد المحلوف عليه أو متى وجد المحلوف عليه أنه لا يفعله حث ناسيا أو مخطئا أو جاهلا	٤٥٩ - ٤٦١

« كتاب الإيمان الاوسط » ٤٦١ - ٦٤١

- ٤٦١ فصل في حديث سؤال النبي عن الاسلام والايمان والاحسان
- ٤٦٢ ، ٤٦٣ الناس على عهد الرسول بالمدينة ثلاثة أصناف مؤمن وكافر مظهر للكفر ومناق كما ذكره الله في أول البقرة وبمكة قبل الهجرة صنفان
- ٤٦٣ - ٤٧٠ السور والآيات التي ذكر فيها المنافقون وأوصافهم ، المنافقون في عهد الرسول يلتزمون من أحكام الاسلام الظاهرة ما لم يلتزمه كثير من المنافقين بعدهم
- ٤٧١ ، ٤٧٢ متى تكلم الناس بلفظ الزنديق وقبول توبته ، من هو الزنديق
- ٤٧٢ - ٤٧٩ جاء وصف أقوام بالاسلام دون الايمان كقوله قالت الاعراب الخ وأخرجنا من كان فيها الخ وقوله « أو مسلم » فظن طائفة أن ذلك يقتضى أن مسماهما واحد وليس كذلك ، الصواب في مثل هؤلاء
- ٤٧٤ - ٤٧٦ معنى الآيات وحديث سعد أعطيت فلانا وفلانا وهو مؤمن فقال أو مسلم وقوله لا يزنى الزانى الخ
- ٤٧٥ ، ٤٧٦ الكرامية يرون أن المنافق مؤمن لكنه مخلد في النار ، من حكى عنهم أنهم جعلوه في الجنة فقد اخطأ
- ٤٧٩ - ٤٨١ الخلاف في الفاسق الملى أول خلاف ظهر في الاسلام في مسائل أصول الدين ، قصة نشوئه والاحاديث في الخوارج
- ٤٨١ - ٥٠١ اسماء الخوارج ومذهبهم ، ومذهب المعتزلة وما احتجوا به وما يرد به عليهم
- ٤٨٢ ، ٤٨٣ قتل الشارب في الثلاثة أو الرابعة والزيادة على الاربعين والتعزير وصفة الضرب يرجع الى اجتهاد الامام
- ٤٨٥ ، ٤٨٦ الظالم والمقتصد والسابق في الآية كالاسلام والايمان والاحسان في حديث جبريل
- ٤٨٧ - ٥٠١ عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب وهي ...
- ٤٨٨ ، ٤٨٩ هل الاستغفار وحده سبب لغفرة الذنوب أم لا بد معه من التوبة
- ٤٨٩ - ٤٩٨ هل تكفر الحسنات الكبائر أم هي مختصة بالصغائر
- ٤٩٣ التوحيد والعدل الذي يفتخر به المعتزلة
- ٤٩٤ - ٤٩٧ تفسير انما يتقبل الله من المتقين والذين يؤتون ما آتوا الآية سبب خوف من خاف من السلف ان لا يقبل منه
- ٤٩٨ - ٥٠٠ لا معارضة بين النصوص الدالة على الانتفاع الميت بما يعمل له وبين وأن ليس للانسان الا ما سعى

- ٥٠١ فصل التكفير بمطلق الذنوب والتخليد في النار لم يذهب اليهما أحد من أئمة الدين وكذلك الوقف في أهل الكبائر
- ٥٠٢ - ٥٠٤ لا يعرف من جزم بأنه لا يدجل النار أحد من أهل القبلة ، القول بأنه مائم عندنا أصلا من أقوال الملاحدة والكفار كقول المتفلسفة ان الرسل خاطبوا الناس بالتخييل وقول الباطنية وملاحدة المتصوفة ، حججهم والرد عليهم
- ٥٠٤ - ٥٠٧ فصل ثم بعد ذلك تنازع الناس في اسم المؤمن والايان نزاعا كثيرا منه لفظي وكثير منه معنوي ، الماثور عن السلف في تعريف الايمان وزيادته وتقصانه
- ٥٠٧ ، ٥٠٨ أول من أنكر تفاضل الايمان ودخول الاعمال فيه والاستثناء فيه حماد بن أبي سليمان واتبعه ٠٠٠ تبديع السلف لهؤلاء ، وعدم تكفيرهم
- ٥٠٧ ، ٥٠٨ المحفوظ عن أحمد تكفير الجهمية والمشبهة ولم يكفر أعيانهم بل صلى خلفهم ودعا لهم وأنكر باطلهم ولم يكفر الخوارج ولا القدرية اذا أقروا بالعلم
- ٥٠٨ - ٥١٠ قول جهم في الايمان ولو ازمه ، الانكار عليه وتكفير من قال به ، قولي الكرامية والصالحى والاشعري وأصحابه وأصحاب أبي حنيفة
- ٥١٠ أصل نزاع الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوه شيئا واحدا اذا زال أو ثبت زال جميعه أو ثبت
- ٥١٠ ، ٥١١ ثم قالت الخوارج والمعتزلة الطاعات كلها من الايمان فاذا ذهب بعضها ذهب بعض الايمان فذهب سائرهم ، وقالت المرجئة والجهمية ليس الايمان الا شيئا واحدا لا يتبعض
- ٥١١ - ٥١٣ زعم ابن الخطيب وأمثاله ممن يقول بقول جهم في الايمان أن الشافعي متناقض شبهتهم ومنتهى نظر من منع أن يكون في الرجل طاعة ومعصية
- ٥١٣ غلط من الاصوليين من أنكر تفاضل العقل والايجاب والتحريم
- ٥١٣ - ٥٢٢ مما يتعلق بهذا الموضوع الكلام في شعب الايمان هل هي متلازمة في الانتفاء وهل هي متلازمة في الثبوت
- ٥١٤ - ٥٢٢ أما الاول فان الحقيقة الجامعة لامور اذا ازال بعض تلك الامور فقد يزول سائرهما وقد لا يزول ولا يلزم من زوال بعض الامور المجتمعة زوال سائرهما
- ٥١٥ - ٥١٨ هل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الاجزاء كاسم الايمان والصلاة والقرآن والحج
- ٥١٨ - ٥٢٠ اذا قال المعترض هذا الجزء داخل في الحقيقة وهذا خارج منها ؟

الموضوع	صفحة
وحيثئذ فقد يجتمع في الشخص الواحد ايمان ونفاق وبعض شعب الايان وشعبة من الكفر	٥٢٠ - ٥٢٢
الثاني أن شعب الايمان قد تتلازم في الثبوت عند القوة ولا تتلازم عند الضعف	٥٢٢ - ٥٥١
النفاق نفاقان أصغر وأكبر كالكفر والشرك	٥٢٤
النفاق ينفي اسم الايمان عن الشخص لانتهاء كماله الواجب وان كان معه بعض أجزائه فيجوز أن يقال للفاسق مؤمن باعتبار وليس مؤمناً باعتبار وأن الرجل قد يكون مسلماً لا مؤمناً ولا منافقاً مطلقاً أنكر أحمد على من فسر قوله « ليس منا » ليس مثلنا أو قال ليس من خيارنا وقال هذا تفسير المرجئة ، وأخطأ من قال يخرج من الايان بالكلية	٥٢٤ ، ٥٢٥
هل الإرادة بلا عمل يحصل بها عقاب ، حجاج ذلك تصديق القلب وعلمه يقتضى عمل القلب	٥٢٦ - ٥٢٨
القلوب مفطورة على الاقرار بالله ومعرفة الحق لكن قد يعرض لها ما يفسدها	٥٢٨ ، ٥٢٩
ليس نطق الايمان مرادفاً للفظ التصديق ، ما بينهما من الفروق كفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله عدم التصديق والعلم بل . . .	٥٢٩ - ٥٣٣
غلط من قال أن مجرد علم الله بالمخلوقات وأن مجرد إرادة الممكنات بدون القدرة موجب لوجودها ومن قال مجرد القدرة كافية ما تستلزم الإرادة والحياة من الصفات	٥٣٤ ، ٥٣٥
يذهب الفلاسفة إلى أن سعادة النفس في مجرد أن تعلم الحقائق بدون حب الله وعبادته ، من غلط في معنى اللذة	٥٣٥ ، ٥٣٦
لا بد في الايمان من تصديق الله ورسوله وحب الله ورسوله ، ليس الجهل ببعض أسماء الله وصفاته كفرا أقسام العلماء ومعنى قوله إنما يخشى الله من عباده العلماء	٥٣٧ - ٥٣٩
ما يراد بلفظ العقل والجهل والجاهلية جماهير المرجئة على أن عمل القلب داخل في الايمان يشهد لذلك نقل الأشعري ذلك عنهم في كتب المقالات	٥٣٩ ، ٥٤٠
المرجئة اثنا عشر فرقة فيما ذكر الأشعري وغيره وهي . . .	٥٤٣ - ٥٥١
فصل إذا عرف أن أصل الايمان في القلب فاسم الايمان تارة يطلق على ما في القلب من الأقوال والأعمال القلبية وتكون الأقوال والأعمال الظاهرة لوائمه وموجباته ، وتارة على ما في القلب والبنين فالاعمال الظاهرة تسمى اسماً ،	٥٥١ - ٥٦٢

- وتدخل في معنى الايمان تارة ولا تدخل فيه تارة لاختلاف دلالة الاسم بالافراد والاقتران
- ٥٥٣ ، ٥٥٣ نصر أبي طالب للنبي كان حمية جاهلية فلم يتقبل
- ٥٥٤ منشأ الغلط في هذه الموضع من وجوه وهي
- ٥٥٥ ، ٥٥٦ اشتد تكبر السلف على المرجئة لما أخرجوا العمل من الايمان وقالوا ان الايمان يتمثل للناس فيه واخرجهم العمل مشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا
- ٥٥٧ - ٥٦٢ القائلون بمذهب جهم صرحوا بأن سب الله ورسوله وكل كلمة من كلام الكفر ليس كفرا في الباطن ولكنه دليل في الظاهر على الكفر ٠٠٠ ، الرد على هؤلاء
- ٥٦٢ - ٥٧٥ فصل والتفاضل في الايمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه
- ٥٦٢ - ٥٦٤ (١) الاعمال الظاهرة (٢) زيادة الاعمال الباطنة
- ٥٦٤ ، ٥٦٥ (٣) أن نفس التصديق والعلم في القلب يتفاضل باعتبار الاجمال والتفضيل (٤) أن نفس العلم والتصديق يتفاضل
- ٥٦٥ (٥) أن التفاضل في هذه الامور من جهة الاسباب المقتضية لها
- ٥٦٦ (٦) أن التفاضل يحصل من جهة دوام ذلك وثباته وذكره واستحضاره
- ٥٦٦ - ٥٦٨ (٧) ليس فيما يقوم بالانسان من جميع الامور أعظم تفضلا من الايمان
- ٥٧٠ - ٥٧٤ غلط وضلال من زعم أنه عرف الله حق معرفته بحيث أنه لم يبق له صفة الا عرفها وأن ما لم يعرفه ولم يقدّم لهم دليل على ثبوته كان معلوما في نفس الامر وأن من جهل بعض أسمائه وصفاته يكون كافرا
- ٥٧٥ - ٥٩٧ فصل اذا علم أن الايمان الذي في القلب يستلزم الامور الظاهرة لم يبق الا نزاع لفظي في أن موجب الايمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مسماه أو لازم للايمان
- ٥٧٥ ، ٥٧٦ اذا قرن اسم الايمان بالاسلام أو العمل كان دالا على الباطن فقط واذا أفرّد اسم الايمان فقد يتناول الباطن والظاهر
- ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ فان قيل اسم الايمان انما يتناول الاعمال مجازا
- ٥٧٧ - ٥٨٠ فان قال قائل ان اسم الايمان انما يتناول مجرد ما هو تصديق الخ
- ٥٨١ فان قيل الاعمال الظاهرة تكون من موجب الايمان تسارة وموجب غيره أخرى الخ

الموضوع	صفحة
مما يبين فساد قول جهم وأتباعه الخ	٥٨٢ - ٥٨٥
يشبه قول جهم قول الفلاسفة ان سعادة الانسان في مجرد ان يعلم الوجود على ما هو عليه ، صلاح الانسان	٥٨٥ - ٥٨٧
حاصل ما عند المتفلسفة والدهرية ومن اتبعهم واهل وحدة الوجود في العلوم الالهية ، هم أسوأ حالا من اليهود والنصارى ايضاح ذلك مع الرد عليهم	٥٨٦ - ٥٩٧
٥٩٣ الاصل الذي بنا عليه ابن عربي منهجه هو غلط أسلافه المنطقيين اليونانيين ، غلطهم وضلالهم في الكليات وتعطيلهم وتشبههم لله بالمخلوقات	٥٩٠ - ٥٩٣
فصل في الجمع بين الاحاديث التي ذكرت فيها أركان الاسلام الخمسة وبين الاحاديث التي لم يذكر فيها بعضها	٥٩٧ - ٦٢٢
متى فرضت الصلاة والزكاة والصوم والحج	٦٠٥ - ٦٠٧
مسألة تكفير من ترك شيئا من أركان الاسلام الخمسة جهدا أو تكاسلا وبخلا	٦٠٩ - ٦١٧
حكم ميراث من لا يحافظ على الصلوات الخمس ولا يتركها بالجمل بل يصلي أحيانا وكذلك من قيل عنه هو كافر بتأويل أو بلا تأويل من أهل البدع	٦١٧ ، ٦١٨
الفرق بين قتال الخوارج وقتال الجمل وصفين	٦١٨ ، ٦١٩
التحقيق أن انقول قد يكون كفرا كمقالات الجهمية ولكن يخفى على بعض الناس انه كفر	٦١٩
فان قيل فالله قد أمر بجهاد الكفار والمنافقين فاذا كان المنافق تجرى عليه أحكام الاسلام في الظاهر فكيف تمكن مجاهدته	٦٢٠ - ٦٢٠
الكفر نوعان كفر ظاهر وكفر نفاق	٦٢٠ ، ٦٢١
لا بد في الدين من قول وعمل	٦٢١
فصل وأما الاحسان فقوله ان تعبد الله كأنك تراه ، معنى الاحسان	٦٢٢
« وقال فصل قد ذكرت فيما تقدم من القواعد »	٦٢٣ - ٦٣٥
معنى الاسلام ، الرسل جميعهم بعثوا بالاسلام العام	٦٢٣ ، ٦٢٤
كل من اليهود والنصارى خرج عن الاسلام ، يغلب على اليهود الكبر ويقل فيهم انشرك والنصارى بالعكس	٦٢٤ - ٦٢٩
تفسير واذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل الى وفريقا تقتلون	٦٢٤
لما كان أصل دين اليهود الكبر عوقبوا بالذلة ولما كان أصل دين النصارى الاشرار أضلهم الله	٦٢٨
المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل فيكون مشركا كفرعون وقومه	٦٢٩
فان قيل كيف يكون قوم فرعون مشركين وقد أخبر الله عن فرعون	٦٢٩ - ٦٣٣

الموضوع	صفحة
أنه يجحد الخالق؟	
الذين كانوا في زمن يوسف مقرون بالله وانما شركهم في العبادة	٦٣٠ ، ٦٣١
جحد الصانع لم يكن ديناً غالباً على أمة من الأمم وانما دينهم	٦٣١ ، ٦٣٢
الإشراك ، مناهج الاتحادية	
المستكبر عن عبادة الله يكون مشركاً ، والمستكبر الذي لا يقر بالله	٦٣٣
في الظاهر أعظم كفراً وان كان عالماً بوجود الله وعظمته	
يجب على الإنسان ان يحذر من حلال من فيهم استكبار وقسوة	٦٣٣ ، ٦٣٤
عن العبادة ومن قوم فيهم عبادة بإشراك	
٦٣٥ - ٦٣٨ . « وقال لفظ الاسلام يستعمل على وجهين متعدداً	
ولازماً وهو يجمع معنيين وله معنيان وله مرتبتان » .	
ليس لفظ الإيمان مطابقاً للفظ التصديق ، الأقوال في حد الإيمان	٦٣٦ ، ٦٣٧
الإيمان في الكتاب بمعنيين أصل وفرع واجب	٦٣٧
٦٣٨ - ٦٤١ « وقال فصل أصل الإيمان هو الإيمان بالله ورسوله » .	
جمهور الخلائق يقرون بالله الا ٠٠٠ الإيمان بالرسول هو المهم	٦٣٨
٦٣٨ ، ٦٣٩ الإيمان هو الاقرار ، قول القلب ، عمله ، معنى الإيمان بالله ، الكفر	٦٣٨ ، ٦٣٩
٦٤ ، ٦٣٩ نفاق أهل العلم والكلام ، ونفاق أهل العمل والعبادة ، النفاق	٦٤ ، ٦٣٩
المحض وحكم صاحبه ، النفاق الأصغر	
٦٤١ - ٦٥٥ « سئل عن الإيمان بالله ورسوله هل فوقه مقام او حال	
وهل تدخل فيه جميع المقامات وهل تكون صفة الإيمان	
نورا يوقعه الله في القلب وهل يكون لأول حصوله سبب	
وما الأسباب التي يقوى بها الإيمان » الخ :	
٦٤٢ ، ٦٤٣ اسم الإيمان يستعمل مطلقاً ومقيداً اذا استعمل مطلقاً دخل فيه	٦٤٢ ، ٦٤٣
جميع ما يحبه الله ٠٠٠ دليل ذلك ، أفضل الإيمان	
٦٤٤ ، ٦٤٥ أصل الإيمان في القلب وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه	٦٤٤ ، ٦٤٥
على الجوارح غلط من ظن ان ما على الجوارح ليس داخل في مسماه	
ولكنه من نتائجه الدالة عليه	
٦٤٥ ، ٦٤٦ ان قال القائل هذا يدل على أن الإيمان ينتفى عند انتفاء هذه	٦٤٥ ، ٦٤٦
الامور لا يدل على انها من الإيمان	

الموضوع	صفحة
هل اسم الايمان للاصل فقط اوله ولغروعه وكذلك الحج	٦٤٦
لا ينفي الايمان الا لترك واجب لا لترك مستحب ، لفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب والكمال المستحب	٦٤٧
اذا استعمل لفظ الايمان مقيداً فقد يقال انه متناول لذلك وقد يقال ان دلالة الاسم تنوعت بالافراد والاقتران	٦٤٧
قد يعطف على الايمان بعض شعبه أو أنواعه الرفيعة فيشعر العطف بالمغايرة	٦٤٨
فصل وأما قول القائل هل تكون صفة الايمان نورا يوقعه الله في القلب	٦٤٩
فصل وأما قوله هل يكون لاول حصوله سبب ، الاسباب التي يحصل بها الايمان	٦٥٠
فصل وأما قوله فالاسباب التي يقوى بها الايمان الى أن يكمل هل يبديء بالزهد أو بالعلم أو بالعبادة أو يجمع بين ذلك	٦٥١
المشروع لكل انسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير ، اذا ازدحمت شعب الايمان قدم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر	٦٥٢ ، ٦٥٢
الزهد ، الزهد فيه انقسام الى المزهد فيه والى نفس الزهد من ينم من الزهاد	٦٥٣ ، ٦٥٣
فصل وأما طريق الوصول الى ذلك فبالاجتهاد في فعل المأمور وترك المحظور والاستعانة بالله على ذلك ، معنى احرص على ما ينفعك	٦٥٤ ، ٦٥٣
« وقال فصل واما الايمان هل هو مخلوق او غير مخلوق » .	٦٥٥ - ٦٦٦
متى بدأ النزاع في هذه المسألة وسببه ، وحكمها	٦٥٥ - ٦٥٨
مسألة اللفظ بالقرآن وسماع الصوت به وسبب النزاع في ذلك	٦٥٥ - ٦٦٢
سماع الشيء ورؤيته يختلف بالاطلاق والتقييد	٦٥٦ - ٦٥٨
النزاع بين أهل السنة والحديث في مسألتى القرآن والايمان وسببه ، مراد البخارى ومحمد بن نصر بقولهما الايمان مخلوق ، امتحن البخارى مع أنه لم يخالف أحمد في ذلك	٦٥٨ - ٦٦٢
من الروايات المكنوبة عن أحمد أنه قال لفظى بالقرآن غير مخلوق	٦٥٩
لا يقال القرآن قديم ، قول السلف لم يزل الله متكلماً اذا شاء ، معنى ذلك ، أقوال أهل البدع	٦٦١
مسألة الجهة والتحيز والجبر والايمان والاستفصال فيها	٦٦٣ ، ٦٦٤
الواجب على الخلق اثبات ما أثبتته الله ونفى ما نفاه والاستفصال في غير ذلك	٦٦٥ ، ٦٦٤

٦٦٦ - ٦٧٠ « وقال فصل في الاستثناء في الايمان وماخذ من اوجه

او منعه او استجبه » .

٦٧٠ - ٦٧٧ « سئل عن معنى حديث إذا زنى العبد خرج منه الايمان

فكان فوق رأسه كالظلة فاذا خرج من ذلك العمل

عاد اليه الايمان » .

٦٧٠ - ٦٧٦ الناس في الفاسق طر فان ووسط ، معنى هذا الحديث وهل
يحمل على ظاهره

٦٧٧ - ٦٨٠ « سئل عن معنى حديث لا يدخل الجنة من كان في قلبه

مثقال ذرة من كبر هل هو مختص بالمؤمنين او بالكفار »

٦٧٧ ، ٦٧٨ الكبير المبائن للايمان لا يدخل صاحبه الجنة وما دونه كسائر الكبائر
٦٧٩ قول القائل ان المسلمين يدخلون الجنة بالاسلام ، منهب أهل
السنة في فساق أهل الملة

٦٨٠ - ٦٨٧ « سئل عن بدعة المرازقة » .

٦٨٠ - ٦٨٢ عثمان بن مرزوق منتسب الى أحمد ، وأصحابه ينتسبون الى
الشافعي ، من قولهم عدم القطع ، شبهتهم

٦٨١ ، ٦٨٢ للناس في الاستثناء ثلاثة أقوال ، أعدلها

٦٨٣ ، ٦٨٤ المرازقة لا يرون قبول توبة الرافضي ويروون عن النبي سب
أصحابي ذنب لا يغفر ويقولون هو حق لأدعي

٦٨٤ ، ٦٨٥ من البدع المنكرة تكفير طائفة من المسلمين وعدم اعتقاد
كفائتهم

